

رسالة مقالة

تبحث في
مواضيع فلسفية وكلامية وفقهية
وفي الدعوة إلى التقرب بين المذاهب

تأليف
الفقيه المحقق آية الله
الشيخ جعفر الشبرجاني

الجزء الأول

مؤسسة الأمل للدراسات والبحوث



رسائل و مقالات

تبحث في

مواضيع فلسفية وكلامية وفقهية

وفيهما الدعوة الى التقريب بين المذاهب

تأليف

العلامة المحقق

جعفر السبحاني

فهرست نویسی قبل از انتشار توسط: مؤسسه تعلیماتی و تحقیقاتی امام صادق علیه السلام

السبحاني التبريزي، جعفر، ١٣٤٧ هـ.ق -

رسائل و مقالات ج ١ / تأليف جعفر السبحاني . - قم : مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ، ١٤٢٥ ق . = ١٣٨٣ .

ISBN:964-357-175-0 (ج. ١)

١. شيعه. عقايد -- مقاله ها و خطابه ها. ٢. اسلام -- مسائل متفرقه. الف. مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام. ب. عنوان.

٢٩٧/٤١٧٢

BP ٢١١/٥ / س ٢/٥

اسم الكتاب: رسائل و مقالات/ ج ١

الموضوع: مواضيع فلسفية وكلامية وفقهية وتاريخية

تأليف: آية الله جعفر السبحاني

الطبعة: الثانية

المطبعة: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

التاريخ: ١٤٢٥ هـ.ق / ١٣٨٣ هـ.ش

الكمية: ٢٠٠٠ نسخة

الناشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

الصف والإخراج بالالينوترون: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

E-mail:pub@imamsadeq.org

www.imamsadeq.org

توزيع

مكتبة التوحيد

قم - ساحة الشهداء - ☎ ٥٧٤٥٤٥٧ و ١٥٢٠٢٩٢٥ ، فاكس ٢٩٢٢٣٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه وآله الطاهرين.

أما بعد:

هذه رسائل ومقالات كتبت في ظروف مختلفة لدواعي شتى، يجمعها هدف واحد، وهو الذب عن الإسلام والتعريف بالتشيع، وفيها بحوث فلسفية وكلامية وتاريخية، صرفتُ في كتابتها وقتاً كثيراً، على أمل أن تكون مشعلاً منيراً في سبيل الوحدة الإسلامية التي هي أمنية كل مسلم واعٍ، وكل مؤمن ملم بالأخطار المحيطة بالإسلام والمسلمين.

والله من وراء القصد

قم المشرفة - مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

جعفر السبحاني

قد طلب الأستاذ رئيس تحرير مجلة «آفاق الإسلام» التي تصدر في المملكة الأردنية الهاشمية، منّي كتابة مقال مسهب أُبين فيه أصول المذهب الجعفري وفروعه، فنزلت عند رغبته وبعثت بهذا المقال إليه، فنشره على صفحات مجلته، السنة الخامسة، العدد الأول، آذار ١٩٩٧، وقد نشر قبل هذا العدد ترجمة الأئمة الأربعة للمذاهب الفقهية، وبهذا المقال اكتملت الحلقات حول المذاهب الفقهية الإسلامية.

نعم يمتاز هذا المقال أنّه صب اهتمامه على أصول الشيعة وفروعها مكان ترجمة الإمام الصادق عليه السلام.

فأتقدّم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ رئيس التحرير على مساهمته في إنجاز هذا العمل ونفض غبار التعصب من خلال نشر هذا المقال في الأوساط السنية.

شكر الله مساعي الجميع

المؤلف

الرسالة الأولى

الشيعة الإمامية الإثنا عشرية

رسالة موجزة تتناول تاريخ الشيعة الإمامية الإثني عشرية،
نشأتهم، عقائدهم، ومنهجهم الفقهي

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على نبيّه وآله
وعلى رواة سُننِهِ وحمله أحاديثه، وحفظة كلمه
صلاة دائمة ما دام الفرقدان وكرّ الجديدان.

أما بعد :

فهذا مقال موجز عن الشيعة الإمامية يبيّن نشأتهم وعقائدهم ومنهجهم
الفقهي والتراث العلمي الذي تركوه، إلى غير ذلك ممّا يمتّ لهم بصلة.
إنّ المذهب الشيعي الإمامي يقوم على دعامين:

١- الأصول التي يتبنّاها في مجال العقيدة.

٢- الشريعة التي يقرّرها دستوراً لجوانب الحياة كافة.

وليس المذهب الشيعي مذهباً فقهياً بحتاً كما المذاهب الأربعة، وإنّما هو منهج متكامل يغذّي الإنسان فكراً وعملاً، وعلى ضوء ذلك فلا محيص عن دراسة المذهب من جانبين: أحدهما يتعلّق بالأصول، والآخر بالفروع. وإليك الكلام في الجانب الأول.

تمهيد:

الشيعية لغةً واصطلاحاً وتاريخاً

الشيعية لغة هم الجماعة المتعاونون على أمر واحد في قضاياهم، يقال تشايَع القوم: إذا تعاونوا، وربّما يُطلق على مطلق التابع، قال تعالى: ﴿وإنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ * إذ جاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ^(١).

وأما اصطلاحاً فتطلق على من يشايع علياً والأئمة من بعده باعتبار أنهم خلفاء الرسول ﷺ، نصبهم لهذا المقام بأمر من الله سبحانه.

فالتشيّع عبارة عن استمرار قيادة النبي ﷺ بعد وفاته، بمن نصبه للناس إماماً وقائداً للأئمة.

وأما تاريخاً فالشيعية هم ثلّة من المسلمين الأوائل الذين عاصروا الرسول ﷺ وآزروه وعاضدوه في مواقف عصيبة، فلمّا مضى الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى أنطوا تحت قيادة عليّ عليه السلام وأولاده باعتباره الممثل الشرعي للخلافة والمنصوص عليه من قبل النبي ﷺ.

فليس التشيع ظاهرة طارئة على الإسلام، ولا أنَّ الشيعة وليدة الأحداث التي رافقت وفاة النبي ﷺ.

وليس للتشيع تاريخ وراء تاريخ الإسلام، ولا للشيعة أصول سوى أنهم رهط من المسلمين الأوائل في عصر الرسول ﷺ ومن جاء بعدهم عبر القرون، كل ذلك يعلم من خلال التحليلات التي سنتمرّ عليك.

تسمية التشيع:

إنّ الآثار المروية على لسان النبي ﷺ تكشف اللثام عن وجه الحقيقة وتعرب عن التفاف ثلة من المهاجرين والأنصار حول الإمام عليّ في حياة الرسول وكانوا معروفين بشيعة علي، وإنّ النبي ﷺ سمّاهم الشيعة ووصفهم بأنهم الفائزون، وإليك بعض ما روي مقتصراً بالقليل من الكثير:

١- أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله، قال: كنّا عند النبي ﷺ فأقبل عليّ، فقال ﷺ: والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة، ونزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (١) فكان أصحاب النبي ﷺ إذا أقبل عليّ قالوا: جاء خير البرية (٢).

٢- أخرج ابن عدي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ قال رسول الله ﷺ لعليّ عليه السلام: هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين (٣).

١. البيّنة: ٧.

٢ و ٣. السيوطي: الدر المنثور: ٢ / ٥٨٩. ولاحظ الصواعق: ١٦١؛ والنهاية لابن الأثير مادة «قمح»: ٤ / ١٠٦؛ ربيع الأبرار للزخشري، فالروايات الواردة في تسمية النبي من يتابع علياً شيعياً، تقارب عشرين رواية.

وعلى ضوء هذه التسمية غلب لفظ الشيعة على من يشايح علياً في كلمات غير واحد من المؤرخين.

٣- قال المسعودي في حوادث وفاة النبي ﷺ: إنّ الإمام علياً أقام و من معه من شيعته في منزله بعد أن تمت البيعة لأبي بكر^(١).

٤- وقال النوبختي: إنّ أول فرق الشيعة هم فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة عليّ في زمان النبي وبعده معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته^(٢).

٥- وقال الإمام أبو الحسن الأشعري: إنّما قيل لهم الشيعة لأنهم شايعوا علياً وقدّموه على سائر أصحاب رسول الله^(٣).

٦- يقول الشهرستاني: الشيعة هم الذين شايعوا علياً على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصّاً ووصية^(٤).

٧- وقال ابن حزم: ومن وافق الشيعة في أنّ علياً أفضل الناس بعد رسول الله وأحقّهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعي وإن خالفهم فيما عدا ذلك ممّا اختلف فيه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعياً^(٥).

جاءت دعوته ﷺ إلى التشيع متزامنة مع دعوته للرسالة، فقد بذر التشيع حال حياته في غير موقف من مواقفه الحاسمة، وإليك نماذج منها:

١- حديث يوم الدار الذي جمع فيه أكابر بني هاشم وعشيرته وعرض

١. المسعودي: الوصية: ١٢١.

٢. النوبختي: فرق الشيعة: ١٥.

٣. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١/ ٦٥.

٤. الشهرستاني: الملل والنحل: ١/ ١٣١.

٥. ابن حزم: الملل والنحل: ٢/ ١١٣، طبعة بغداد.

عليهم رسالته، وقال: إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤمن بي ويؤازرنني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ فلم يقر أحد إلا علي، فقال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا^(١).

٢- حديث المنزلة أعني قوله: «أما ترضى (مخاطباً علياً) أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^(٢).

٣- حديث الغدير الذي سيوافيك تفصيله.

إن هذه الأحاديث وغيرها الناصّة على إمامة علي عليه السلام وخلافته بعد النبي صلى الله عليه وآله توقفتنا على أنه عليه السلام هو الذي بذر بذرة التشيع حال حياته وألفت أنظار المهاجرين والأنصار إلى قيادة علي عليه السلام للأمة بعد رحيله عليه السلام، مضافاً إلى ما صدر على لسانه عليه السلام من الفضائل والمناقب لعلي وعترته حيث صار سبباً لاستقطاب الناس حوله في حال حياته عليه السلام وبعد رحيله.

هذا، وقد تزامنت دعوته عليه السلام للرسالة، دعوته للإمامة دون أن يكون بينهما سبق ولحق.

وهو ما عبّرنا عنه أنّ التشيع ليس ظاهرة طارئة، ولا الشيعة وليدة الأحداث التي رافقت وفاته عليه السلام، بل إنّ الإسلام والتشيع وجهان لعملة واحدة. وإليك أسماء مجموعة من رواد الشيعة في عصر النبي صلى الله عليه وآله.

١. الطبري: التاريخ: ٦٢/٢، الجزري: الكامل: ٤٠/٢، ولاحظ التفسير بشأن قوله سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء / ٢١٤).

٢. مسلم: الصحيح: ج ٦، باب فضائل علي ص ١٢٠ طبع محمد علي صبيح.

رَوَادُ التَّشْيِيعِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ :

لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْبَاذِرُ الْأَوَّلُ لِلتَّشْيِيعِ فِي عَصْرِهِ، فَقَدْ التَفَّ حَوْلَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي عَصْرِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَبَعْدَ رَحِيلِهِ، وَنَاصَرُوهُ فِي مَوَاقِفَ عَدِيدَةٍ وَعُرفُوا بِشِيعَةِ عَلِيٍّ، وَلِأَجْلِ مِرَافَقَةِ الْمَدْعَى بِالِدَلِيلِ نَذَكِرُ هُنَا أَسْمَاءَ رَوَادِ التَّشْيِيعِ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ:

- ١- عبد الله بن عباس.
- ٢- الفضل بن العباس.
- ٣- قثم بن العباس.
- ٤- عبد الرحمان بن العباس.
- ٥- تمام بن العباس.
- ٦- عقیل بن أبي طالب.
- ٧- أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب.
- ٨- نوفل بن الحرث.
- ٩- عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.
- ١٠- عون بن جعفر.
- ١١- محمد بن جعفر.
- ١٢- ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب.
- ١٣- الطفيل بن الحرث.
- ١٤- المغيرة بن نوفل بن الحارث.
- ١٥- عبد الله بن الحرث بن نوفل.
- ١٦- عبد الله بن أبي سفيان بن الحرث.
- ١٧- العباس بن ربيعة بن الحرث.
- ١٨- العباس بن عتبة بن أبي لهب.
- ١٩- عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث.
- ٢٠- جعفر بن أبي سفيان بن الحرث.

هؤلاء من مشاهير بني هاشم، وأما غيرهم فإليك أسماء لفيف منهم:

- ٢١- سلمان المحمدي.
- ٢٢- المقداد بن الأسود الكندي.
- ٢٣- أبو ذر الغفاري.
- ٢٤- عمار بن ياسر.
- ٢٥- حذيفة بن اليمان.
- ٢٦- خزيمة بن ثابت.
- ٢٧- أبو أيوب الأنصاري (مضيف النبي ﷺ).
- ٢٨- أبو الهيثم مالك بن التيهان.

- ٢٩- أبي بن كعب.
٣٠- قيس بن سعد بن عبادة.
٣١- عدي بن حاتم.
٣٢- عبادة بن الصامت.
٣٣- بلال بن رباح الحبشي.
٣٤- أبو رافع مولى رسول الله ﷺ.
٣٥- هاشم بن عتبة.
٣٦- عثمان بن حنيف.
٣٧- سهل بن حنيف.
٣٨- حكيم بن جبلة العبدي.
٣٩- خالد بن سعيد بن العاص.
٤٠- بريدة بن الحصيب الأسلمي.
٤١- هند بن أبي هالة التميمي.
٤٢- جعدة بن هبيرة.
٤٣- حجر بن عدي الكندي.
٤٤- عمرو بن الحمق الخزاعي.
٤٥- جابر بن عبد الله الأنصاري.
٤٦- محمد بن الخليفة أبي بكر.
٤٧- أبان بن سعيد بن العاص.
٤٨- أم سلمة زوج النبي ﷺ.
٤٩- أم هاني بنت أبي طالب.
٥٠- أسماء بنت عميس.

هؤلاء خمسون صحابياً من رواد الشيعة، فمن أراد التفصيل والوقوف على حياتهم وتشيعهم فليرجع إلى الكتب المؤلفة في الرجال .

قال محمد كرد علي في كتابه «خطط الشام»: عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله ﷺ مثل: سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام بعلي بن أبي طالب والموالاة له، ومثل: أبي سعيد الخدري الذي يقول: أمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة، ولما سئل عن الأربع، قال: الصلاة، والزكاة، وصوم شهر رمضان، والحج، فقيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب، قيل له: وإنها مفروضة معهن؟ قال: نعم هي مفروضة معهن، ومثل: أبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وذو الشهادتين خزيمة بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، وخالد بن سعيد،

وقيس بن سعد بن عباد^(١).

وبذلك يستغني القارئ عن الافتراضات الوهمية التي أبداهها ليف من المستشرقين تبعاً لما ورد على لسان بعض الباحثين من أسطورة عبد الله بن سبأ التي حاكها سيف بن عمر الكذاب الوضع^(٢).



هذا هو معنى الشيعة لغة واصطلاحاً وتاريخاً ذكرناه بصورة موجزة والتفصيل يطلب من الكتب المعدة لهذا الغرض.

وأما دراسة عقائد الشيعة ومنهجهم الفقهي فتتم ضمن فصول سبعة:

الأول: الشيعة والتوحيد.

الثاني: الشيعة والعدل.

الثالث: الشيعة والنبوة.

الرابع: الشيعة والمعاد.

الخامس: الشيعة والإمامة والخلافة.

السادس: الشيعة والمنهج الفقهي.

السابع: الشيعة والتراث الفكري.

١. خطط الشام: ٢٥١/٥.

٢. لاحظ ميزان الاعتدال: للذهبي: ١/٤٣٨، تهذيب التهذيب: لابن حجر: ٤/٢٨٥، اللثالي

المصنوعة: ١/١٥٧ و ١٩٩.

الفصل الأول:

الشيعة والتوحيد

الشيعة تصف الله سبحانه كما وصف به نفسه ويقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *
اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وتصفه بأنه سبحانه قديم لم يزل ولا يزال، عالم قادر، حيّ قيوم، سميع بصير، متعال عن جميع صفات خلقه، خارج عن الحدين: حدّ التعطيل، وحدّ التشبيه، لا يجوز تعطيل ذاته عن صفاته كما لا يجوز تشبيه ذاته بمخلوقاته.

تعتقد الشيعة في توحيده ما كتبه الإمام الرضا عليه السلام للمأمون العباسي، حيث سأله المأمون أن يكتب له محض الإسلام على سبيل الإيجاز والاختصار.

فكتب عليه السلام له: «إن محض الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهاً واحداً أحداً فرداً، صمداً، قيوماً، سميعاً بصيراً، قديراً قديماً قائماً، باقياً، عالماً لا يجهل، قادراً لا يعجز، غنياً لا يحتاج، عدلاً لا يجور وأنه خالق كل شيء، وليس كمثله شيء، لا شبه له، ولا ضدّ له، ولا ندّ له، ولا كفو له، وأنه المقصود بالعبادة والدعاء، والرغبة والرهبة»^(١).

وقد عرض عبد العظيم الحسني عقيدته على الإمام الهادي علي بن محمد النقي عليه السلام فقال له: يا بن رسول الله، إني أريد أن أعرض عليك ديني، فإن كان مرضياً ثبتت عليه حتى ألقى الله عزّ وجلّ.

فقال ﷺ: هاتها.

فقلت: إني أقول إن الله تبارك وتعالى واحد ليس كمثله شيء، خارج عن الحدين: حد الإبطال، وحد التشبيه، وأنه ليس بجسم ولا صورة ولا عرض ولا جوهر، بل هو مجسم الأجسام ومصور الصور، وخالق الأعراض والجواهر، ورب كل شيء ومالكة وجاعله ومحدثه^(١).

هذه عقيدة الشيعة في توحيده وتنزيهه، والقارئ إذا رجع إلى الكتب الكلامية والعقائدية التي ألّفت بيد علماء الشيعة منذ أوائل القرن الثالث إلى العصر الحاضر يرى اتفاقهم على ما ذكرنا، وقد اخترنا لك نصين:

أحدهما: للرضا ﷺ الإمام الثامن للشيعة الإمامية (١٤٨ - ٢٠٣ هـ).

وثانيهما: للإمام الهادي الإمام العاشر (٢٣٢ - ٢٥٤ هـ) فقد أمضى ما ذكره عبد العظيم الحسيني عليه.

إخترنا هذين النصين ليُعلم أنّ الشيعة أهل التنزيه منذ عهد مبكر، ومع ذلك كلّهم قد قسم علماء الشيعة التوحيد إلى مراتب ودرجات نذكرها على وجه الإيجاز.

١- التوحيد الذاتي: واحد لا نظير له.

٢- التوحيد الذاتي أيضاً: بسيط ليس بمركب.

٣- التوحيد الأفعالي: إنه لا خالق في الكون إلّا هو.

٤- التوحيد التدبيري: إنه لا مدبر للكون إلّا هو.

٥- التوحيد العبادي: لا معبود سواه.

١. الصدوق: التوحيد، باب التوحيد والتشبيه: ٨١ برقم ٣٧.

ثم إنّ هناك مراتب للتوحيد ذكرها علماء الشيعة في كتبهم الكلامية واستنبطوها من القرآن الكريم وأحاديث العترة الطاهرة، وهي:

٦- التوحيد في التقنين والتشريع: إنّهُ لا مقنّن ولا مشرّع إلّا هو، وليس لأحد حقّ التشريع.

٧- التوحيد في الطاعة: إنّهُ لا مطاع بالذات إلّا هو، ولو وجبت إطاعة النبي والإمام فإنّما هي بأمره سبحانه.

٨- التوحيد في الحاكمية: لا حاكم إلّا هو، وإنّهُ ليس لأحد أن يحكم إلّا بإذنه سبحانه.

٩- التوحيد في الشفاعة: والمراد أنّ الشفاعة حقّ لله سبحانه، ولا يشفع لأحد إلّا بإذنه ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(١).

١٠- التوحيد في الاستعانة: وإنّهُ لا يستعان إلّا به، ولو استعان بغيره بزعم أنّه يقوم بالإعانة مستقلاً فهو مشرك، ولو استعان بغيره معتقداً بأنّه معين بحول وقوّة منه سبحانه فهو عين التوحيد.

١١- التوحيد في المغفرة: وإنّهُ لا يغفر الذنوب إلّا هو.

١٢- التوحيد في الرازية: وإنّهُ لا رازق إلّا هو.

هذه مراتب التوحيد الاثنا عشر التي يتفوقون فيها مع إخوانهم أهل السنّة لا سيما الأشاعرة.

نعم هناك مرتبة من التوحيد تختص بالشيعة الإمامية يختلفون فيها عن سائر الفرق والطوائف الإسلامية وهي:

التوحيد في الصفات: والمراد به أنّ صفاته الثبوتية كالعلم والقدرة والحياة عين ذاته لا زائدة على الذات وإلاّ يلزم تعدد القدماء الثمانية - وهي مسألة كلامية خاض فيها عباقرة علم الكلام - خلافاً للأشاعرة القائلين بزيادة الصفات على الذات.

وهناك مصطلح كلامي وهو الصفات الخبرية والمقصود منها هي الصفات التي أخبر بها القرآن الكريم وأثبتها الوحي لله سبحانه كعين الله، ويد الله، واستوائه على العرش، وما ماثلها، والمسلمون فيها على أقوال: فمن معطل يفوّض تفسير هذه الآيات والصفات إلى الله تبارك وتعالى، إلى مجسّم يفسرها بالمعاني اللغوية من دون أن يجعلها ذريعة إلى المعاني المجازية، إلى مؤول يؤولها إلى معاني تجتمع مع تنزيهه.

والشيعة الإمامية تحملها على المعاني اللغوية ولكن تجعلها كناية عن المفاهيم العالية، ولا ترى ذلك تأويلاً، فإنّ كلام العرب مشحون بالمجاز فاليد في قوله سبحانه: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(١) مستعملة في نفس المعنى اللغوي لكن كناية عن سعة قدرته، وهو أمر رائع بين البلغاء ولا يعدّ تأويلاً.

ثم إنّ توحيده سبحانه بكونه الخالق والمبدّر لا يعني سلب التأثير عن العوامل الطبيعية والجنود الغيبية للربّ، فإنّ سلب التأثير الظلي والتبعي عن كل موجود سوى الله، يرده الذكر الحكيم بقوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾^(٢).

وعلى ضوء ذلك فالماء يروي العطشان، كما أنّ الخبز يشبع الجائع، والماء ينبت النبت والزرع، لكن بأثر مودع فيه من جانب خالقه، فالقول بتأثيره في ظل

١. الفتح: ١٠.

٢. البقرة: ٢٢.

إرادته سبحانه وأمره عَيْن التوحيد الذي دعا إليه الذكر الحكيم.

ومن أراد أن يفسّر التوحيد في الخالقية والتدبير، بسلب الأثر عن كل موجود سواه، فقد خالف القرآن والوجدان الصريح ووقع في متهاتات الجبر الذي سيوافيك بطلانه في الفصل الثاني.

تقسيم صفاته إلى ذاتي وفعلي:

إن صفاته سبحانه تنقسم إلى ذاتي قائم بذاته، وفعلي يعدّ وصفاً لفعله، والميزان في تمييز الصفات الذاتية عن الفعلية هو أنّ القسم الأول لا يقبل السلب والإيجاب، بخلاف الثاني ولذلك لا يصحّ أن يقال الله يعلم ولا يعلم، أو يقدر ولا يقدر، بخلاف الرزق فيصدق إنّه يرزق ولا يرزق ولذلك تعتقد الشيعة بأنّ من صفاته الفعلية كونه متكلماً فالتكلّم صفة من صفاته الفعلية بالشرح التالي:

في تكلّمه سبحانه:

اتفقت الشيعة على أنّه سبحانه متكلم، ولكن التكلّم عندهم من صفات الأفعال ويفسّر كونه متكلماً بأمرين.

الأول: إنّ كل ما في الكون كلام الله سبحانه، فكما أنّ الكلمة تعرب عمّا يقوم في نفس المتكلم من المعاني فكذلك كل ما في الكون يُعرب عن حكمته وعلمه وقدرته الواسعة قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(١).

قال عليّ عليه السلام: يقول لمن أراد كونه: «كُن فيكون»، لا بصوت يقرع، ولا ينداء

يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فَعَلَّ مِنْهُ أَنْشَأُهُ وَمِثْلُهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيًا^(١).

فكل ما في صحيفة الوجود من الموجودات الإمكانية، كلماته وتخبر عما في خالقها من كمال وجمال، و علم وقدرة.

الثاني: إِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْلُقُ الْحُرُوفَ الْمَنْظُومَةَ وَالْأَصْوَاتَ الْمَقْطَعَةَ، يَسْمَعُهَا نَبِيِّهِ وَرَسُولُهُ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيَبْلُغُهُ آيَاتِهِ، أَوْ يُلْقِي فِي رُوحِ النَّبِيِّ، وَإِلَى هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ يَشِيرُ سُبْحَانَهُ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾^(٢).

وقد بيّن تعالى أن تكلمه مع الأنبياء لا يعدو عن الأقسام التالية:

١- ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾.

٢- ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.

٣- ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾.

فقد أشار بقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ إلى الكلام الملقى في روع الأنبياء بسرعة وخفاء.

كما أشار بقوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ إلى الكلام المسموع لموسى ﷺ في البقعة المباركة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

١. نهج البلاغة، الخطبة: ١٨٦.

٢. الشورى: ٥١.

٣. القصص: ٣٠.

وأشار بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلْ رَسُولًا﴾ إلى الإلقاء الذي يتوسط فيه ملك الوحي، قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾^(١) ففي الحقيقة الموحى في الأقسام الثلاثة هو الله سبحانه، تارة بلا واسطة، بالإلقاء في الروح، وأخرى بالتكلم من وراء حجاب بحيث يُسمع الصوت ولا يُرى المتكلم وذلك بخلق الأصوات والحروف، وثالثة بواسطة الرسول (أمين الوحي جبرائيل)، فهذه الأقسام الثلاثة الواردة في الآية المباركة.

إن موقف أئمة أهل البيت في مسألة خلق القرآن وقدمه هو الموقف الإيجابي وإنهم كانوا يرون القرآن حادثاً لا قديماً وإلا يلزم أن يكون القرآن إلهاً ثانياً. وأما أنه مخلوق فلو أُريد أنه مختلق فهو أمر باطل شبيه قول الوليد بن المغيرة الذي حكاه القرآن عنه: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾^(٢).

وإن أُريد أنه مخلوق لله، وهو منزله وهو نفس المطلوب، وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن واقع القرآن فقال: هو كلام الله، وقول الله، وكتاب الله، ووحى الله وتنزيله، وهذا الكتاب العزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد^(٣).

ومن هنا يعلم أن مسألة خلق القرآن كانت فتنة ابتلي بها المسلمون في عصر المأمون واستغلتها النصارى لصالحهم، وأوجدت فجوة عميقة بين المسلمين وكان النزاع نزاعاً بلا ثمر.

١. الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤.

٢. المذثر: ٢٥.

٣. الصدوق: التوحيد: ٢٢٤، الحديث ٢.

تقسيم صفاته إلى ثبوتية وسلبية:

إنّ المتكلمين قَسَمُوا صفاته سبحانه إلى ثبوتية وسلبية وقد بسطوا القول فيها ومن جملتها أنّه سبحانه:

١- ليس بجسم.

٢- ليس في جهة.

٣- ليس في محل.

٤- ليس حالاً في شيء ولا متحدّاً مع غيره.

إلى غير ذلك من الصفات السلبية التي مرجعها إلى سلب النقائص عن ذاته سبحانه لأنّه الكمال المطلق.

وأما رؤيته سبحانه فقد اتفق المسلمون على أنّه سبحانه لا يُرى في الدنيا وإنّما اختلفوا في رؤيته في الآخرة.

رؤيته تعالى في الآخرة:

ذهبت الشيعة الإمامية تبعاً للذكر الحكيم وما جاء في خطب الإمام أمير المؤمنين إلى امتناع رؤيته، قال سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١).

وقال الإمام عليّ عليه السلام في وصفه سبحانه: الأوّل الذي لم يكن له قبل، فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، والراصد أناسي الأبصار عن أن تناله أو تُدرّكه^(٢).

١. الأنعام: ١٠٣.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٨٧. والأناسي: جمع إنسان، وإنسان البصر هو ما يرى وسط الحدقة ممتازاً عنها في لونها.

وفي خطبة أخرى: الحمد لله الذي لا تُدرّكه الشواهدُ، ولا تحويه المشاهدُ، ولا تراه النواظرُ، ولا تحجّبه السواترُ^(١).

وفي كلامه لدعبل اليماني عندما قال له: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى؟» فقال: وكيف تراه؟ فقال: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، لكن تدركه القلوبُ بحقائق الإيمان، قريبٌ من الأشياء، غير ملاس، بعيدٌ منها غير مُباين»^(٢).

وأما ما يستدل به على جواز الرؤية في الآخرة فليس بتام، وقد استدلّ القائلون بجوازها قديماً وحديثاً بقوله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾^(٣).

والدقة في الآيات الأربع توقفنا على أنّ المراد بالنظر هو انتظار الرحمة وذلك لوجهين:

١- إنّه سبحانه: يسند النظر إلى الوجوه لا العيون، فلو كان المراد من النظر هو الرؤية كان اللازم أن يقول مكان «الوجوه»: العيون.

٢- إنّ مقابلة بعض الآيات ببعض يرفع الإبهام عن قوله: ﴿إلى ربّها ناظرة﴾ ويتعيّن كونه بمعنى انتظار الرحمة وذلك بالشكل التالي:

أ- ﴿وجوه يومئذ ناظرة﴾ يقابلها قوله: ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾.

ب- ﴿إلى ربّها ناظرة﴾ يقابلها قوله: ﴿تظنّ أن يُفعل بها فاقرة﴾.

لا شك أنّ الفقرتين الأولى واضحتان جداً، وإنّما الكلام في الفقرة الثالثة

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٨٠.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٤.

٣. القيامة: ٢٢-٢٥.

فيجب رفع إبهامها عن طريق الفقرة الرابعة التي تقابل الثالثة، بحكم أنّ الأشياء تعرف بأضدادها.

وبما أنّ المراد من الفقرة الرابعة هو توقّع العذاب الكاسر للفقار، والقاصم للظهر يكون ذلك قرينة على أنّ المراد من الفقرة الثالثة ضدّ ذلك وليس هو إلّا انتظار فضله سبحانه وكرمه.

على أنّه نسأل من يدّعي إمكان الرؤية لله سبحانه في الآخرة، هل الرؤية تتعلّق بكل ذاته أو ببعضه؟ فإن تعلّقت بالجميع يكون سبحانه محاطاً مع أنّه جلّ جلاله محيط.

وإن تعلّقت ببعض فصار ذات أجزاء وأبعاض تعالى عن التركيب.

وأما ما ورد في الروايات حول الرؤية فكّلها أخبار آحاد لا تثبت بها العقيدة خصوصاً إذا كانت مضادة للذكر الحكيم والعقل السليم، على أنّ في سند البعض ضعفاً.

هذا إجمال القول في توحيده وصفاته الذاتية والفعلية، والإيجابية والسلبية.

نتيجة البحث:

وقد خرجنا من هذا البحث الضافي بالنتيجة التالية:

إنّ المسلمين متفقون جميعاً على توحيده وتنزيهه ووصفه بالكمال، وإنّما تختلف الشيعة عن أهل السنّة في المسائل الكلامية التالية:

أ- إنّ صفاته الثبوتية كالعلم والقدرة عين ذاته وجوداً وتحققاً وإن كانت

غيره مفهوماً، وذلك لئلا يلزم تعدّد القدماء خلافاً للأشاعرة حيث قالوا بزيادة الأوصاف على الذات، ولو أرادت الأشاعرة المغايرة والزيادة مفهوماً، لا تحقّقاً وخارجاً يصبح النزاع لفظياً، ولو أرادت المغايرة خارجاً وعيناً يلزم تعدد القدماء، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ب - إنّ التكلم من صفاته الفعلية كالرزق والمغفرة والرحمة خلافاً للأشاعرة حيث فسّروه بالكلام النفسي القائم بذاته.

ج - إنّ سبحانه منزّه عن الرؤية في الدنيا والآخرة خلافاً لأهل السنة حيث قالوا بجوازها في الآخرة.

الفصل الثاني:

الشيعة و العدل

اتفق المسلمون على أنه سبحانه عادل لا يجوز، غير أن الشيعة اعتمدت في حكمها هذا على البرهان العقلي كما سيوافيك بيانه، واعتمدت السنة في وصفه بالعدل على السمع، حيث يصفه القرآن الكريم بكونه قائماً بالقسط، قال سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾^(١).

والاختلاف في مصدر عدله نابع عن الاختلاف في مسألة أخرى وهي مسألة التحسين والتقييح العقليين أو الشرعيين، فذهبت الشيعة الإمامية إلى أن العقل قادر على أن يدرك حسنَ الأفعال وقبحها، ويستقلّ بالبعث إلى الفعل الحسن، والزجر عن الفعل القبيح، كالعدل والظلم فكل إنسان إذا جرد نفسه عن كل شيء يرى في صميم ذاته حسنَ الأول وقبحَ الثاني، ومثله مجازاة الإحسان بالإحسان أو بالسوء، والعمل بالميثاق ونقضه فيستقلّ بحسن الأولين وقبح الآخرين ولأجله قالوا بأن التحسين والتقيح عقليان لا شرعيان.

ولو حكم الشارع بحسن شيء أو قبحه فقد حكم العقل به قبله، لأنه رسول باطني، وحكم الشرع مؤكداً لحكم العقل وليس حكماً تأسيسياً.

هذا هو موقف الشيعة في مسألة التحسين والتقيح العقليين وعلى ذلك بنت أصولاً كلامية لا تقبل النقاش، وإليك تلك الأصول:

١- لا جبر ولا تفويض:

طرحت مسألة الجبر والتفويض في أواسط القرن الأول بين المسلمين فصاروا إلى أقوال وأوجدت فجوة سحيقة بين المسلمين ولم تنزل آثارها إلى يومنا هذا.

فمن قائل بالجبر وأنه سبحانه هو الخالق لفعل الإنسان والموجد له وليس للإنسان أي دور في أفعاله وأعماله، وإنما هو ظرف لظهور إرادته سبحانه في أعماله وأفعاله.

وإنما ذهب القائل إلى هذا القول لأجل أنه فسّر التوحيد بالخالقية بالمعنى الباطل وزعم أنّ معناه سلب الأثر عن العلل والعوامل الطبيعية، وعند ذاك يتجلى الإنسان في مجال الأفعال كالظرف ليس له دور ولا تأثير في أفعاله وأعماله.

ولا شك أنّ تفسير التوحيد بالخالقية بهذا المعنى باطل، لما عرفت من تصريح الذكر الحكيم بدور العلل الطبيعية في نمو الأزهار والأشجار - مضافاً إلى أنّ القول بالجبر ينافي عدله سبحانه - فكيف يكون هو الخالق لعمل الإنسان ولا يكون له دور فيه، لكن هو المسؤول عن العمل؟!!

إنّ للقول بالجبر سبباً آخر وهو تفسير القضاء والقدر - الذي لا غبار في صحتها - بالمعنى السالب للاختيار عن الإنسان، وسيوافيك أنّ القضاء والقدر حقّ ولكنهما لا يسلبان الاختيار عن الإنسان.

فهذا وذاك صارا سببين لنشوء القول بالجبر بين كثير من المسلمين حيث صيّرهم مكتوفي الأيدي أمام الحوادث والطوارئ.

فكما أنّ الجبر يخالف عدله سبحانه فكذلك التفويض ينافي توحيده، لأنّ

معنى القول بالتفويض كون الإنسان مستقلاً في فعله وعمله عن الله سبحانه، وبذلك يصبح العمل إلهاً ثانياً لاستغناؤه عن الله، مضافاً إلى أنه كيف يمكن الجمع بين فقر الإنسان في ذاته، وغناه في فعله عنه مع أن الفعل أثر الذات، والفعل متوقف على ذات الفاعل وهو الواجب مفيض الوجود، فيكون الفعل - بالتالي - متوقفاً على الواجب؟

والصحيح أنه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، ومعناه أن الإنسان في فعله يعتمد على قدرته سبحانه ومواهبه فبذلك يكون للواجب دور في عمله، وبما أنه إنسان موجود مختار في أعمال القدرة والسلطنة في أي جانب من جوانب حياته، يكون هو المسؤول عن عمله لا غيره فالعمل نتاج المواهب الإلهية وإعمال السلطنة من ناحية العبد. ولتقريب ذلك المعنى أمثلة كثيرة مسطورة في الكتب الكلامية.

٢- التكليف بما لا يُطاق أمر غير جائز:

إذا قلنا بأنه سبحانه عادل لا يجور فلا يصحّ على الحكيم تكليف العبد فوق قدرته، و قولنا إنه لا يصحّ لله سبحانه ذلك النوع من التكليف لا يعني تحكيم فكرتنا وإرادتنا على الله سبحانه بل معناه إننا نستكشف من التدبر في صفاته سبحانه وهو كونه حكيماً لا يعبث، وعادلاً لا يجور، إنه لا يكلف إنساناً إلا بما في وسعه وقدرته، قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١).

٣- أفعاله سبحانه معللة بالأغراض:

اتفقت الشيعة - بما أنه سبحانه حكيم لا يعبث - على أن أفعاله معللة بالأغراض، ومعنى ذلك أن فعله لا ينفك عن الغرض، وليس الغرض غرضاً

للفاعل وإنما هو غرض لنفس الفعل، وكم فرق بين كون الغرض عائداً إلى الفاعل، وبين كون الفعل غير خال عن الغرض، ومقتضى الحكمة هو الثاني، أي عدم خلو فعله عن الغرض، ومقتضى غناه وكماله المطلق عدم عود الغرض إلى الفاعل.

وأظنّ أنّ النزاع بين الشيعة وأهل السنة لفظي، فإنّ أهل السنة ينفون أن يكون له سبحانه غرض في فعله يستكمل به ذاته والشيعة أيضاً يوافقونهم على ذلك ويقولون بأنّه سبحانه هو فوق الكمال ومن هو بهذه المكانة أسمى من أن يطلب غرضاً يستكمل به.

ولكنّ الشيعة تعتقد أنّ الغرض لا ينحصر بالغرض العائد إلى الفاعل بل هناك قسم آخر يخرج به الفعل عن العبيّة ويضفي عليه وصف الحكمة ويكون غرضه سبحانه عائداً إلى المكلفين، وهذا ما يترأى من الذكر الحكيم في موارد مختلفة ويقول: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١).

فإنّ خلق السماوات والأرض لم يكن عبثاً، قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾^(٣).

٤- القضاء والقدر لا يسلبان الاختيار :

إنّ القضاء والقدر من المفاهيم الإسلامية الواردة في الكتاب والسنة، قال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ

١. لقمان: ٢٠.

٢. المؤمنون: ١١٥.

٣. الدخان: ٣٨.

أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١﴾.

وفي السنّة النبوية وأحاديث العترة الطاهرة تصريحات بالقضاء والقدر، وهذا ممّا اتفق عليه المسلمون وإنّما الكلام في تفسيرهما.

إنّ اليهود ممّن غالت في التقدير حتى جعلته إلهاً ثانياً إلى حدّ ليس لله سبحانه تغيير قضائه وقدره، يقول سبحانه حاكياً عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ...﴾ (٢).

فمّن أراد تفسير القضاء والقدر على نحو يسلبان الاختيار عن الإنسان فقد وقع في متاهات الجبر فالإيمان بالقضاء والقدر يجب أن يكون بنحو لا يسلب عن الإنسان اختياره قال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (٣) وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (٤).

إنّ تقديره وقضائه سبحانه يختلف حسب اختلاف الفاعل، فلو كان الفاعل فاعلاً موجّباً كالنار بالنسبة إلى الحرارة، وسقوط الحجر على الأرض فقد قدّر وقضى بصدور الفعل عن الفاعل عن جبر واضطرار، وأمّا إذا كان الفاعل فاعلاً مختاراً ومسؤولاً أمام الله فقد قدّر وقضى على صدور فعله منه عن إرادة واختيار.

فالتقدير والقضاء عند الشيعة يخالفان الجبر ويؤيدان الاختيار قال سبحانه: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥).

١. الحديد: ٢٢.

٢. المائدة: ٦٤.

٣. الكهف: ٢٩.

٤. الإنسان: ٣.

٥. الحشر: ٥.

٥- تعذيب البريء مخالف لعدله:

اتفقت الشيعة على أنه لا يجوز سبحانه أن يعذب أطفال الكفار يوم القيامة، وذلك أنّ تعذيبهم بغير جرم اقترفوه مخالف لعدله وحكمته.

وقد أشرنا أنّ قولنا «لا يجوز» أو «يجوز» لا يعني تحكيم إرادتنا وفكرتنا على الله سبحانه حتى يكون الواجب محكوماً بحكم البشر فإنّ ذلك باطل لا مزية فيه، ولكن المراد هو استكشاف حال الواجب من خلال أوصافه من كونه حكيماً عادلاً فنستكشف من هذين الوصفين أنه لا يعذب طفلاً بريئاً سواء أكان طفلاً لمسلم أم لكافر.

٦- وجوب المعرفة:

اتفقت الشيعة على لزوم معرفة الله سبحانه لزوماً عقلياً بمعنى أنّ العقل يحكم بحسن المعرفة وقبح تركها، لما في المعرفة من أداء شكر المنعم وهو حسن، وفي تركها احتمال الوقوع في الضرر وهو قبيح.

نعم غير الشيعة لم تلتزم بلزوم معرفة الله إلّا سمعاً ونقلًا، ولكن لم يتبين لنا كنه مرادهم فإنّ المفروض أنّ الشريعة بعد لم تثبت فكيف يثبت وجوب المعرفة بحكم الشريعة؟

٧- لزوم تكليف العباد:

إذا كان فعله سبحانه منزهاً عن العبث يستقل العقل بالحكم بلزوم إيصال كلّ مكلف إلى الغاية التي خلق لها، وذلك يتحقق في مورد الانسان بالتكليف.

٨- لزوم بعث الأنبياء:

إذا كان الإنسان لم يُخلق سدى بل خلق لغاية، والغاية ممّا لا يدركها البشر بعقله العادي، ففي ذمّته سبحانه إرسال الرسل لهداية الناس إلى الغايات المنشودة وإلا يلزم أن يكون خلق الإنسان سُدى وعبث.

٩- قاعدة اللطف:

إنّ قاعدة اللطف لها دور في الكلام الشيعي وتترتب عليها قواعد وأحكام، وحاصلها أنّه إذا كان الغرض المترتب على التكليف لا يحصل إلا بفعل يقرب العبد من الطاعة ويبعده عن المعصية، كان على الله سبحانه القيام بذلك.

وبعبارة أخرى كل ما هو دخیل في تحقق الرغبة إلى الطاعة والابتعاد عن التمرد والمعصية في نفوس الأكثرية الساحقة من البشر يجب على الله سبحانه القيام به صوناً للتكليف عن اللغو يقول سبحانه: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾^(٢).

فإنّ تعليل ابتلاء الناس بالسراء والضراء لرجاء رجوعهم للطاعة دليل على أنّ كل ما يكون سبباً للجوء الناس للطاعة كان عليه سبحانه أن يقوم به لأنّه مقتضى حكمته. والعقل يستقلّ بحسن ذلك.

١٠- لزوم النظر في برهان مدّعي النبوة:

يجب النظر في برهان المدّعي إذا ادّعى مسألة تمتّ إلى الدين بصلة على وجه يعاقب الإنسان لو لم يعتقد بها أو اعتقد بالخلاف.

١. الأعراف: ١٦٨.

٢. الأعراف: ٩٤.

إنّ للتحسين والتقيح العقليين دوراً عظيماً في المسائل الكلامية اقتصرنا على هذه النتائج القليلة ومن أراد التفصيل فعليه مراجعة الكتب الكلامية المطوّلة^(١).

خاتمة المطاف:

وفي خاتمة هذا الفصل أود أن أطرح مسألتين لهما دويّ في الأوساط العلمية، والمسألتان هما عبارة عن القول بالبداء والتقية، فقد وقعا غرضاً للنبال وأخذ المخالف يعترض على الشيعة بالقول بهما غافلاً عن أنّ النزاع بين الطائفتين نزاع لفظي ولو وقف المخالف على الحقيقة، لتجاوب معها وإليك البيان:

البداء عند الشيعة:

البداء في اللغة هو الظهور بعد الخفاء، قال سبحانه: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ * وبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢﴾.

والبداء بهذا المعنى، لا يطلق على الله تعالى بتاتاً، لاستلزامه حدوث علمه بعد جهله بالشيء، تعالى عما يقول الظالمون.

وهذا هو الذي ينسبه متكلمو السنّة إلى الشيعة، وهم براء من تلك النسبة وإنّما أرادوا منه المعنى الثاني الآتي.

و هو أنّ تقديره سبحانه للحوادث على قسمين:

أ - تقدير قطعي وقضاء مبرم.

ب - تقدير معلق وقضاء غير منجز.

١. راجع الإلهيات: ٢٥٧/١ - ٢٦٢ بقلم المؤلف.

٢. الزمر: ٤٧ - ٤٨.

فَأَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: فلا يتسرّب إليه البداء لافتراض كونه تقديرًا حتميًا وقضاءً مبرمًا، وإنّما يتسرّب البداء إلى القسم الثاني وهو القضاء المعلق فهو يتغيّر إمّا بالأعمال الصالحة أو الطالحة قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

وقال تعالى: حاكياً عن شيخ الأنبياء نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾^(٣).

فالبداء بهذا المعنى ممّا اتفق عليه المسلمون قاطبة كما اتفقوا على عدم صحة البداء بالمعنى الأول، وأمّا استعمال البداء «بدا لله» في هذا المقام مع أنّه بداء لنا من الله فهو أشبه بالمجاز وقد استعمل النبي ﷺ في حديث الأقرع والأبرص والأعمى تلك اللفظة، وقال: وبدا لله عزّ وجلّ أن يبتليهم^(٤). وعلى كلّ تقدير فليس النزاع في اللفظ والتسمية بل مورده هو المسمى والمقصود.

ولو أنّ علماء السنة وقفوا على ما هو المقصود من القول بالبداء لله لما اعترضوا على الشيعة الإمامية. وكم من مسائل خلافية لو طرحت في جوّ هادئ يسوده روح البحث العلمي بعيدٍ عن التعصب لزال حواجز الاختلاف ولتقاربت وجهات نظر الطائفتين.

١. الرعد: ١١.

٢. الأعراف: ٩٦.

٣. نوح: ١٠-١٢.

٤. البخاري: الصحيح: ٤/ ١٧١.

التقية عند الشيعة:

التقية من المفاهيم القرآنية التي وردت في أكثر من موضع في القرآن الكريم، والغاية منها هي صيانة النفس والعرض والمال، وذلك في البيئات التي صودرت فيها الحريات في القول والعمل، والرأي والعقيدة، فلا ينجو المخالف إلا بالصمت والسكوت، مرغماً أو بالتظاهر بما يوافق هوى السلطة وأفكارها.

إنّ التقية سلاح الضعيف وكهف الخائف أمام القوي الغاشم، سلاح من يبتلى بمن لا يحترم دمه وعرضه وماله، لا شيء إلا لأنه لا يتفق معه في بعض الأفكار والمبادئ.

وهذا شيء يستسيغه العقل كما ورد في الشرع، قال سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مِنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾^(١).

وقال سبحانه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾^(٢).

ولا تختص بتقية المسلم من المشرك والكافر بل تعم تقية المسلم من المسلم الجائر أيضاً.

قال الرازي: إنّ مذهب الشافعي (رض): إنّ الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والكافرين حلّت التقية محاماة عن النفس، وقال: التقية جائزة لصون النفس، وهل هي جائزة لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله ﷺ: حرمة مال المسلم كحرمة دمه، وقوله ﷺ: من قتل دون ماله فهو شهيد^(٣).

٢. آل عمران: ٢٨.

١. النحل: ١٠٦.

٣. الرازي: مفاتيح الغيب: ٨/ ١٣.

وقال جمال الدين القاسمي: وزاد الحق غموضاً وخفاءً، أمران: خوف العارفين - مع قلتهم - من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن، وإجماع أهل الإسلام، وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق، وما برح المحق عدواً لأكثر الخلق، وقد صحّ عن أبي هريرة (رض) أنّه قال في ذلك العصر الأول: حفظت من رسول الله ﷺ وعائين، أمّا أحدهما فبثته في الناس وأمّا الآخر فلو بثته لقطع هذا البلعوم^(١).

وليعلم أنّ التقية إنّما تتصور في القضايا الشخصية أي تقية شخص من شخص آخر في بيئته. وأمّا التقية العامة بأن تصور العقائد أو الأحكام في الكتب الفقهية بشكل يوافق عقائد الموافق وفقهه فهذا ليس بصحيح.

فالشيعة لم تتق ولن تتق في محاضراتها وكتبها ومنشوراتها قدر شعرة، فمن يتهم الشيعة بالتقية في كتمان عقائدها وتحرير فقهاها، فقد خبط خبطة عشواء لما عرفت من أنّ التقية ترجع إلى القضايا الشخصية. وأين هم من الباطنية الذين يخفون كتبهم حتّى عن معتنقيهم، والشيعة الإمامية لم تزل مجهرة بعقائدها بشتى الطرق وأساليبها.

أضف إلى ذلك أنّ الشيعة قامت لهم دول مختلفة في فترات كثيرة من التاريخ منذ ألف سنة فلماذا تتقي في تحرير عقائدها ونشر أفكارها وبثّ فقهاها؟!

الفصل الثالث:

الشيعية والنبوة العامة والخاصة

النبوة عند الشيعة كسائر المسلمين: سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده لهدايتهم إلى ما فيه السعادة في معاشهم ومعادهم. والنبّي هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بإحدى الطرق المعروفة الواردة في الذكر الحكيم.

أعني قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾^(١).

وبما أنّ صفحات التاريخ تشهد على وجود أناس ادّعوا السفارة من الله والإنباء عنه عن كذب وافتراء ولم يكن لهم متاعٌ غير التزوير، ولا سلعة سوى السلطة فلا بد في تمييز النبي عن المتنبّي من معايير وضوابط تكون هي الفصل في القضاء بالحق، وهي إحدى الأمور الثلاثة التالية:

١- التحدي بالإعجاز:

تجهيز الأنبياء بالمعاجز عند طرحهم دعوى النبوة. والإعجاز يدل بالدلالة المنطقية على صدق دعواه، وذلك لأنّ المعجزة فيها خرق للنواميس الطبيعية فلا

يمكن أن تقع من أحد إلا بعناية من الله تعالى، واقتدار منه، فلو كان مدّع النبوة كاذباً في دعواه كان إقذاره على المعجزة من قبله سبحانه إغراماً بالجهل، وإشادة بالباطل، وذلك محال على الحكيم تعالى، فإذا ظهرت المعجزة على يده كانت دالة على صدقه وكاشفة عن نبوته.

يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾^(١).

يريد سبحانه أن محمداً الذي أثبتنا نبوته وأظهرنا المعجزة بتصديقه لا يمكن أن يتقوّل علينا بعض الأقاويل ولو صنع ذلك لأخذنا منه باليمين ولقطعنا منه الوتين، فإنّ في سكوتنا عن هذه الأقاويل إمضاءً منّا لها وإدخالاً للباطل في شريعة الحق فيجب علينا حفظ الشريعة في مرحلة البقاء كما يجب علينا حفظها في مرحلة الحدوث.

٢- تنصيب النبي السابق على نبوة النبي اللاحق:

إذا ثبتت نبوة نبيّ بدلائل مفيدة للعلم ثم نصّ هذا النبيّ على نبوة نبيّ لاحق يأتي من بعده، كان ذلك حجة قطعية على نبوة النبيّ اللاحق لا تقل في دالاتها عن المعجزة.

ولأجل ذلك يستدل المسلمون بالبشارات الواردة في العهدين على نبوة نبيّ الإسلام، ويرشدنا إليه قوله سبحانه حاكياً عن المسيح: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٢).

١. الحاقة: ٤٤ - ٤٧.

٢. الصف: ٦.

٣- جمع القرائن والشواهد:

إنّ جمع القرائن والشواهد ضابطة مطردة في المحاكم الوضعية تتخذها القضاة في إصدار أحكامهم، ويستند إليها المحامون في إبراء موكلهم، فجمع تلك القرائن والشواهد يمكن أن نستعلم صحة دعوى المدّعي أو إنكار المنكر.

فعلى ضوء ذلك، فللباحث أن يتحرّى القرائن المكتتفة بدعوى النبوة حتى يقطع معها بصدق الدعوى أو كذبها وهذه القرائن تتلخّص في الأمور التالية:

أ- سيرة المدّعي قبل الدعوة.

ب- سمات بيئته.

ج- مضمون الدعوة.

د- ثباته في طريق الدعوة.

هـ- الأدوات التي يستخدمها في نشر دعوته.

و- المؤمنون الملتقون حوله.

ز- مكانة أتباعه في الورع والتقوى والعلم والوعي.

هذه القرائن وأشباهها ترشدنا إلى أحد الأمرين:

إمّا أنّه نبيّ صادق أو متنبّي كاذب.

الوحي:

إنّ تحديد حقيقة الوحي وتبيين ماهيته من المواضيع الحساسة في أبحاث النبوة العامة، والأنبياء يتلقّون تعاليمهم عن هذا الطريق ولولاها لانقطعت أخبار السماء عن الأرض وصلة الأنبياء بالله.

والشيعية الإمامية تعتقد بأن الوحي يختص بالأنبياء وليس هو نتاج الحس ولا العقل ولا الغريزة وإنما هو شعور خاص لا نعلم حقيقته، وهو يغير الشعور الفكري المشترك بين أفراد الإنسان قاطبة .

والوحي لا يغلط معه النبي في إدراكه، ولا يشبهه، ولا يختلجه شك ولا يعترضه ريب فهو يدركه من غير أن يحتاج إلى إعمال نظر أو التماس دليل، أو إقامة حجة، إذ لو افتقر إلى شيء من ذلك لكان اكتساباً عن طريق القوة النظرية لا تلقياً من الغيب من غير توسط القوة الفكرية.

قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^(١).

سمات الأنبياء:

إن أخطر المناصب وأكبرها مسؤولية قيادة المجتمع البشري وهدايته إلى السعادة فإنها تتطلب في المتصدي لها، مؤهلات وامتيازات خاصة ينفرد بها عن سائر الناس، وهذه في الأنبياء تتلخص في الأمور التالية:

١- العصمة ولها مراتب ثلاث:

المرتبة الأولى: المصونية عن الذنب ومخالفة الأوامر المولوية قبل البعثة وبعدها، وخالف بعض أهل السنة في عصمة النبي قبلها خصوصاً في صفات الذنوب فجوزها له.

المرتبة الثانية: المصونية في تلقي الوحي ووعيه وإبلاغه إلى الناس.

المرتبة الثالثة: المصونية من الخطأ والاشتباه في تطبيق الشريعة والأمر

الفردية والاجتماعية.

٢- التنزّه عن كل ما يوجب نفرة الناس عنه وعقم التبليغ.

٣- الاطلاع على أصول الدين وفروعه وكلّ ما أُلقي إبلاغه على عاتقه.

٤- التحلّي بكفاءة خاصة في القيادة والإدارة مقترنة بحسن التدبير، وقد برهن الكلام الشيعي على لزوم هذه السمات في الأنبياء عامّة والنبي ﷺ خاصة. ومن أراد الوقوف فعليه الرجوع إلى الكتب الكلامية.

النبوة الخاصة:

كان الكلام السابق في النبوة العامة من دون تخصيص بنبيّ، وأمّا النبوة الخاصة أي نبوة نبيّ الإسلام، فالشيعة الإمامية تعتقد بأنّ محمد بن عبد الله ﷺ نبيّ الله الخاتم جاء لهداية الناس في الوقت الذي عمّت سيادة الشرك وعبادة الأصنام أكثر ربوع المعمورة، وفي هذا الظرف قام رجل بين أمة متقهقرة تقطن أراض جدباء، ومعشر ليس لهم من الحضارة أيّ سهم يذكر، يسفكون دماءهم ويقطعون أرحامهم، فادّعى النبوة والسفارة من الله تعالى على أساس نشر التوحيد، ورفض الوثنية وعبادة الأصنام، وإقامة العدل، وبسط القسط، ورفض التمييز، وحماية المضطهدين والمظلومين، وقد كان تاريخ دعوته في أوائل القرن السابع الميلادي ٦١٠ وأوّل ما بدأ به، بدأ بدعوة أقربائه وعشيرته.

واستطاع هداية جمع من عشيرته ثم وجه دعوته إلى عموم الناس من غير خصوصية بين قبيلة وغيرها. ويُستدل على صحّة دعوته بالطرق الثلاثة:

١- معجزته الخالدة القرآن الكريم الذي تحدّى به الأمم ولم يزل متحدّياً إلى يومنا هذا، قال سبحانه: ﴿قُلْ لِّإِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً^(١).

مضافاً إلى سائر معجزاته التي كانت تظهر منه بين آونة وأخرى.

٢- بشائره في العهدين وقد بقيت - بحمد الله - إلى يومنا هذا.

٣- دلالة القرائن الداخلية والخارجية على صحة دعوته.

سمات دعوته:

أولاً: عالمية رسالته:

اتفقت الشيعة على أن الإسلام عقيدة وعمل لا ينفرد بها شعب أو مجتمع خاص ولا يختص ببلد دون بلد، بل هو دين يعمّ المجتمع الإنساني ككل، على اختلافه في العنصر والوطن واللسان، ولا يفترض لنفوذ حازماً بين أبناء الإنسان، ولا يعترف بأية فواصل قومية أو إقليمية.

قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾^(٣).

ثانياً: خاتمية رسالته:

اتفقت الشيعة عن بكرة أبيها على أن نبيها محمداً خاتم النبيين، وأن شريعته خاتمة الشرائع، وكتابه خاتم الكتب والصحف، فهو آخر السفراء الإلهيين أوصد به باب الرسالة والنبوة وختمت به رسالة السماء إلى الأرض، وأن دينه دين

١. الإسراء: ٨٨.

٢. الأعراف: ١٥٨.

٣. سبأ: ٢٨.

الله الأبدى، وأن كتابه كتاب الله الخالد، وقد أنهى الله إليه كل تشريع فاكتملت بدينه وكتابه الشرائع السماوية التي هي رسالة السماء إلى الأرض قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(١).

صيانة القرآن من التحريف:

القرآن الكريم هو المصدر الأول لدى المسلمين من غير فرق بين الشيعة وأهل السنة، وهو كلام الله ووحيه وقوله وكتابه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم علیم، وأنه الحق الفصل وما هو بالهزل، وإن الله تبارك وتعالى منزله وحافظه صانه من الزيادة والنقص.

وهذه عقيدة كبار المحققين من الشيعة.

قال السيد المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ): إن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب وغيرهما ختم القرآن على النبي عدة ختمات وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه مجموع مرتب غير مبتور ولا مبثوث^(٢).

وقد تقدمه في هذا القول (صيانة القرآن من التحريف) مشايخ الشيعة كالفضل بن شاذان (المتوفى ٢٦٠ هـ) والشيخ الصدوق (٣٠٦ - ٣٨١ هـ) والشيخ المفيد (٣٣٦ - ٤١٣ هـ) وتبعه أيضاً الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) والطبرسي (٤٧١ - ٥٤٨ هـ) والسيد ابن طاووس (المتوفى ٦٦٤ هـ) إلى غير ذلك من أعلام الأمة إلى يومنا هذا.

وإليك كلمة قيمة للأستاذ الأكبر الإمام الخميني رحمته الله في محاضراته حيث

١. الأحزاب: ٤٠.

٢. الطبرسي: مجمع البيان: ١/ ١٠، نقلاً عن رسالة جواب المسائل الطرابلسية للسيد المرتضى.

قال:

إنّ الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءة وكتابة يقف على بطلان دعوى التحريف وإنّه لا ينبغي أن يركن إليها، وما وردت من الأخبار في التحريف فهي: بين ضعيف لا يستدل به، إلى مجهول تدل أمارات الجعل على وضعه، إلى غريب يقضي بالعجب، إلى صحيح يدل على أنّ الساقط هو تأويل الكتاب وتفسيره لا نفس الكتاب ...^(١).

نعم ذهب شذاذ من الاخبارية والحشوية من الشيعة والسنة إلى القول بالتحريف فلا يقام لأقوالهم وزن بعد كونها مخالفة للقرآن الكريم بإجماع الأمة.



خرجنا بالنتيجة التالية:

لا خلاف بين الشيعة والسنة في حقل النبوة العامة والخاصة إلّا شيئاً لا يذكر وهو تجويز العصيان للأنبياء قبل دعوى النبوة فتنفيه الشيعة، ومجموعة من السنة ويجوزه لفيهم منهم.

١. تهذيب الأصول، محاضرات الإمام الخميني: ٥٦/٢ بقلم المؤلف.

الفصل الرابع:

الشريعة و المعاد

المعاد وحشر الإنسان بعد الدنيا إجابة عن أحد الأسئلة التي طالما أخذت
جلّ تفكيره فمذ فتح عينيه على الحياة يسأل نفسه عن الأمور التالية:

١- ما هو مبدأ العالم والإنسان؟

٢- ما هو الهدف من وجود الإنسان؟

٣- إلى أين المصير بعد الموت؟

فالبحث عن الصانع إجابة عن السؤال الأول.

كما أنّ البحث عن كونه حكيماً وأنّ فعله منزه عن العيب إجابة عن الثاني.

والقول بأنّ الموت ليس نهاية الحياة وإنّ الإنسان لا يفنى بموته، وإنّما هو
جسر ينتقل عبره من نشأة إلى نشأة أخرى أكمل من الأولى، هو جواب عن
السؤال الثالث.

إنّ الاعتقاد بالمعاد عنصر أساسي في كل شريعة لها صلة بالسماء، ولأجل
ذلك أصبح المعاد في الشرائع السابقة أصلاً مسلماً حتى عند اليهود في العهد
القديم^(١).

١. صموئيل الأول: الإصحاح الثاني: الجملة ٦ ، طبع دار الكتاب المقدس.

وإذا كان المعاد يحتل المكانة العليا في الشرائع السماوية وكان القرآن خاتم الكتب، والمبعوث به خاتم الأنبياء فيناسب أن يكون المعاد مطروحاً فيه بشكل واسع مقترناً بالدلائل العقلية المقنعة.

وقد صدق الخبرُ الخبر، فالذكر الحكيم يعتني بالمعاد، ويهتم به اهتماماً بالغاً تكشف عنه كثرة الآيات الواردة في مجال المعاد وربّما تبلغ زهاء ألف وأربعمائة آية، وكان أستاذنا العلامة الطباطبائي يقول: تربُّو على الألفين ولعلَّه ﷺ ضم الإشارة إلى التصريح به فبلغت ما تربو على ألفي آية.

وعلى أية حال فالشيعة لا تختلف عن سائر الفرق الإسلامية في هذا الأصل الخطير وتقول: إنّ الله سبحانه سيجمع الناس يوم القيامة ويضع الموازين القسط فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، وتوفّي كل نفس ما عملت فإمّا إلى النعيم الدائم أو إلى العذاب المقيم.

وهناك أصول اتفقت الشيعة عليها نذكرها لشدة مناسبتها بالمقام:

١- اتفقت الشيعة على أنّ المسلم المؤمن العاصي غير مخلّد في النار وهو مؤمن فاسق فليس بكافر ولا بالمنزلة بين المنزلتين.

٢- اتفقت على أنّ الشفاعة حقّ، وإنّ لخاتم الأنبياء مقام الشفاعة الكبرى كما تعتقد بجواز طلبها من النبي ﷺ في حياته ومماته.

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾^(١).

وليس طلب الشفاعة إلّا طلب الدعاء فإذا جاز في حال الحياة يجوز بعد الرحيل أيضاً لافتراض أنّه ﷺ حيّ يُرزق وأنّه بإذنه سبحانه يسمع كلامنا ويحيب سلامنا.

٣- اتفقت الشيعة على أنّ التناسخ باطل والقائل به كافر، والمراد منه انتقال النفس من بدن إلى بدن آخر في هذه النشأة فإذا مات البدن الثاني انتقلت إلى ثالث وهكذا.

والداعي للقول بالتناسخ هو إنكار المعاد كما حقق في محله.

٤- اتفقت الشيعة على أنّ حقيقة التوبة عبارة عن الندم عمّا مضى والعزم على عدم العودة عليه وإذا قدر الإنسان عليها وجبت ولا تقبل حين الموت.

٥- اتفقت الشيعة على أنّ حبّ النبي والأئمة المعصومين يقرب الإنسان من الله تبارك وتعالى ويبعث في روعه روح الطاعة والمشاركة معهم في الإتيان بالواجبات والتحرّز عن المحرمات، وأمّا الحب المجرد عن العمل فليس سبباً للنجاة وإنّما النجاة هو العمل بعد الحب.

٦- إنّ الشيعة تبعاً واقتداءً بأئمتهم يقدّسون الصحابة الذين عملوا بكتاب الله سبحانه وسنة نبيّه، ولم يتجاوزوهما، كما أنّهم يتبرّأون ممن خالف كتاب الله وسنة رسوله وفي هذا المقام كلمة مباركة للإمام زين العابدين قال في دعاء له:

«اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به ومن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته وانتفت منهم القربات إذ سكنوا في ظلّ قرابته، فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك وأرضهم من رضوانك وبها حاشوا الخلق عليك وكانوا مع رسولك دعاة لك إليك، واشكروهم على هجرهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه، ومن كثرت في إعزاز دينك من مظلومهم. اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان

الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا^(١).

نعم لا يقولون بعدالة كلّ صحابي وكل من رأى النبي ﷺ ولو يوماً أو أياماً بل يقسمون الصحابة كالتابعين إلى قسمين تبعاً للذكر الحكيم والسنة النبوية، وهذا هو الذكر الحكيم يصف بعض الصحابة بالفسق يقول: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾^(٢).

كما أنّ الرسول الأعظم ﷺ يصفهم في حديث الحوض بما لا يتلاءم مع عدالة الجميع.

روى البخاري ومسلم أنّ رسول الله ﷺ قال: يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي ويحلّون عن الحوض فأقول: يا ربّ أصحابي فيقول: إنّك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنّهم ارتدّوا على أديبارهم الفهقري^(٣).

هذا هو قدامة بن مظعون صحابي بدري شرب الخمر وأقام عليه عمر الحد^(٤).

ومن الصحابة من خضبوا وجه الأرض بالدماء، فهذا بسر بن أرطاة قد قتل مئآت المسلمين وما نقم منهم إلّا أنّهم كانوا يحبّون علي بن أبي طالب، ولم يكتف بذلك فحسب، بل قتل طفلين لعبيد الله بن عباس^(٥).



١. الصحيفة السجادية، الدعاء الرابع مع شرح «في ظلال الصحيفة السجادية»: ٥٥ - ٥٦.

٢. الحجرات: ٦.

٣. لاحظ في الوقوف على هذا النوع من الأحاديث جامع الأصول لابن الأثير: ج ١١ كتاب الحوض: ١٢٠ - ١٢١.

٤. الجزري: أسد الغابة: ٤ / ١٩٩.

٥. الثقفي: الغارات: ٢ / ٥٩١؛ اليعقوبي: التاريخ: ١ / ١٨٦؛ الجزري: الكامل: ٣ / ١٩٢.

إلى هنا خرجنا بالنتيجة التالية:

لا اختلاف بين المذهبين: فيما يرجع إلى المعاد والأصول الستة التي تتبناها الشيعة إلا في الأصل السادس فالسنة تعتقد بعدالة كل صحابي خلافاً للشيعة حيث تقسمهم إلى مثالي يُستدر به الغمام، ومؤمن يضحّي بنفسه ونفيسه في طريق الدين وإعلاء كلمة الله، إلى من يصفه سبحانه في محكم كتابه^(١) على خلاف هذين الصنفين.

الفصل الخامس:

الشيعية و الإمامة و الخلافة

الخلافة عند الشيعة إمرة إلهية واستمرار لتحقيق أهداف النبي ﷺ ووظائفه، والإمام له نفس الصلاحيات والوظائف المخولة إلى النبي ﷺ غير أنه ليس بنبي ولا يوحى إليه والنبوة أوصدت وختمت بالرسول فلا نبي ولا رسول بعده، ولكن الوظائف كلّها مستمرة، ولأجل ذلك يجب أن يكون الإمام قائماً بوظائفه الروحية والمادية والعلمية والاجتماعية كي يسدّ الفراغ الحاصل بوفاة النبي ﷺ ومن جملة وظائفه ﷺ:

- ١- تبين الأحكام الشرعية والوظائف الاجتماعية.
 - ٢- تفسير القرآن الكريم وتوضيح إجماله وتبيين متشابهه.
 - ٣- تبين الأحكام الشرعية للحوادث المستجدة.
 - ٤- إزالة الشبهات الطارئة من قبل الفرق المختلفة.
 - ٥- إزالة الخلاف الناجم بين أصحابه باعتباره محوراً للحق والباطل.
- هذا ما يرجع إلى الوظائف الروحية وأما ما يرجع إلى الوظائف المادية فحدّث عنها ولا حرج فقد كان رئيساً للدولة، مرسلأً للجيوش لنشر الدعوة الإسلامية، مؤمناً لميزانية الدولة عن طريق جلب الضرائب والزكوات، باعثاً السرايا لإخماد الفتن إلى غير ذلك.
- فالإمام عند الشيعة الإمامية هو الذي يقوم بهذه الوظائف كافة بلا استثناء

ولا يقوم بها إلا الأمثل فالأمثل من الأمة، و من تمتّع بتربية إلهية وكان ذا كفاءة وجدارة على إدارة الدولة بمختلف شؤونها، وليس التعرّف على مثل ذلك الإنسان أمراً يسيراً بل لا يعلمه إلا الله سبحانه والنبى ﷺ عن طريق إبلاغه.

وهذه هي نظرية التنصيب عند الإمامية فهم لا يرضون إلا بتنصيب النبى ﷺ على من يخلفه لملء الفراغ الحاصل بعد غيابه ﷺ عن المسرح السياسي والاجتماعي وليس في مقدرة الشورى ولا وسع البيعة العامة التعرّف على ذلك الرجل المثالي والكفوء الذي يلي النبى ﷺ في الفضائل والمناقب.

إنّ انتخاب الخليفة عن طريق شورى المهاجرين والأنصار أو البيعة العامة قد تعرّض إليه علماء الكلام نظرياً، دون أن يدخل حيز التطبيق العملي بل واقع الخلافة في صدر الإسلام أثبت خلاف ذلك، ويعرب هذا عن أنّ المعهود في ذلك العصر هو التنصيب لا المشاورة ولا الاستفتاء ولا بيعة عامة.

فهذا عمر بن الخطاب قد أخذ بزمام الأمور من قبل الخليفة الأول حيث قال: إني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب^(١).

كما أنّ الخليفة الثالث تسلّم مقاليد الأمور عن طريق شورى سداسية عيّن أعضاها عمر بن الخطاب^(٢).

روى المؤرخون أنّ عمر بن الخطاب لما أحسّ بالموت قال لابنه عبد الله: إذهب إلى عائشة وقرأها مني السلام واستأذن منها أن أقبر في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر.

فأتاها عبد الله بن عمر فأعلمها فقالت: نعم وكرامة، ثم قالت: يا بُنيّ أبلغ عمر سلامي وقل له: لا تدع أمة محمّد بلا راع واستخلف عليهم ولا تدعهم

١. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ١٨؛ الجزري: الكامل: ٢ / ٤٢٥.

٢. الطبري: التاريخ: ٣ / ٢٩٤.

بعدك هملاً فإنّي أخشى عليهم الفتنة^(١).

إنّ عبد الله بن عمر دخل على أبيه قبيل وفاته، فقال: إنّ سمعت الناس يقولون مقالة فاليت أن أقولها لك، وزعموا أنّك غير مستخلف وإنّه لو كان لك راع إبل، أو راع غنم ثم جاءك وتركها لرأيت أن قد ضيع فرعاية الناس أشد^(٢). إلى غير ذلك من النصوص الحاكية على أنّ النظرية التي تبناها المسلمون الأوائل هي نظرية التنصيب، ولكنهم عدلوا عن تنصيبه سبحانه إلى تنصيب نفس الخليفة.

هل المصلحة كانت تكمن في تعيين الوصي أو تركه إلى انتخاب الأمة ؟

هل المصلحة العامّة عند الرسول تكمن في تعيين الوصي والقائم بشؤون الخلافة، أو تكمن في تركه إلى الأمة ؟

إنّ دراسة أحوال المسلمين يوم ذاك، تحتم علينا، أن نقول بأنّ المصلحة العامة كانت رهن تعيين الوصي.

وقد فرضت الأخطار الداخلية والخارجية المحدقة بالإسلام على النبي ﷺ تعيين وصي يسدّ ذلك الفراغ الحاصل بغيابه عن المسرح السياسي ويسدّ باب الجدل والنقاش في وجه الأمة.

إنّ الخطر الثلاثي لم يكن أمراً خفياً على الرسول ﷺ خاصّة إنّ امبراطورية إيران ذات الحضارة الزاهرة تهدّد كيان الحكومة الفتية، كما أنّ الامبراطورية البيزنطية في شمال الجزيرة العربية لم تكن بأقل من امبراطورية إيران خطراً في إيجاد

١. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ٣٢.

٢. أبو نعيم الاصفهاني: حلية الأولياء: ١/ ٤٤٤.

الفتن والفوضى فأخذت تشغل بال النبي ﷺ ولم يبارحه التفكير في خطرهما حتى لحق بالرفيق الأعلى، وأضف إلى ذلك خطر المنافقين من الداخل الذين كانوا يتحينون الفرص ويتربصون الدوائر لتسديد ضربة قاصمة إلى الإسلام.

وأتحد هذا المثلث الخطر: الفرس والروم والمنافقون، لاكتساح الإسلام واجتثاث جذوره، بات أمراً محتملاً، خاصة بعد رحيل النبي ﷺ وغيباه عن الساحة السياسية.

أفهل يمكن أن يغيب عن قلب النبي ﷺ هذا الخطر ليحول دون وقوعه بتعيين الوصي فيلتف المسلمون حوله ويفض النقاش والجدال بينهم؟!!

هذا التهديد التاريخي يجزنا إلى القول بأن المصلحة اقتضت التنصيب على الوصي لا أن يترك الأمر سُدى يتلفه الصحابة بالجدال والنقاش الحاد دون أن ينتهي عند حد .

فترى أنّ الشيخ الرئيس - ذلك العقل الكبير - يقول:

والاستخلاف بالنص أصوب، فإنّ ذلك لا يؤدي إلى التشعب والتشاغب والاختلاف^(١).

السنة النبوية و التنصيب على إمامة علي :

إنّ من أحاط علماً بسيرة النبي ﷺ في تأسيس دولة الإسلام، وتشريع أحكامها وتمهيد قواعدها، وبمواقف عليّ بن أبي طالب وزير رسول الله ﷺ في أمره وظهيره على عدوّه، وعيبة علمه، ووارث حكمه، وولي عهده، وصاحب الأمر بعده

١. ابن سينا: الشفاء، الإلهيات، المقالة العاشرة، الفصل الثالث والخمسون؛ ولاحظ المبدأ والمعاد:

ومن وقف على أقوال النبي وأفعاله في حلّه وترحاله، يجد أنّ نصوص النبي ﷺ في خلافة علي عليه السلام وإمامته متواترة، وإليك البيان:

أ- حديث بدء الدعوة:

أخرج الطبري وغيره أنّه لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) دعا رسول الله علياً، فقال له: يا علي إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أنّي حتى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فاصنع لنا يا علي صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ عساً من اللبن.

فلما جاء القوم وأكلوا وشربوا قام النبي ﷺ وقال: يا بني عبد المطلب إنّني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنني على هذا الأمر، على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟

قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثم قال: إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا^(٢).

ودلالة الحديث على الخلافة لعلي والوصاية له لا تحتاج إلى بيان، وهذا إن دلّ على شيء فإنّها يدلّ على أنّ النبوة والإمامة كانتا متعاقدتين بعقد واحد تتجليان معاً ولا تتخلفان.

١. الشعراء: ٢١٤.

٢. الطبري: التاريخ: ٢/ ٦٣ - ٦٤ وابن الأثير: الكامل: ٢/ ٤٠، أبو الفداء عماد الدين الدمشقي في تاريخه: ٣/ ٩٠ والإمام أحمد: المسند: ١/ ١٥٩ إلى غير ذلك من المصادر.

ب - حديث المنزلة:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وكثير من أهل السير والتاريخ أنّ رسول الله ﷺ خلف عليّ بن أبي طالب عليه السلام على أهله في المدينة عند توجهه إلى تبوك فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استثقلاً له، وتحققاً به، فلمّا قال ذلك المنافقون أخذ عليّ بن أبي طالب عليه السلام سلاحه وخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبيّ الله، زعم المنافقون أنّك إنّما خلفتني أنّك استثقلتني، وتحففت بي، فقال: كذبوا، ولكنّي خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا عليّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبيّ بعدي؟

فرجع علي إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ في سفره^(١).

الحديث يدلّ بوضوح على أنّ النبيّ ﷺ أفاض على علي عليه السلام بإذن من الله سبحانه الخلافة والوصاية، فكل مقام كان ثابتاً لهارون فهو أيضاً ثابت لعلي عليه السلام إلا ما استثناء وهي النبوة، على أنّ الاستثناء دليل العموم.

وما جاء في صدر الحديث من أنّه خلفه على أهله لا يكون دليلاً على التخصيص لبداهة أنّ المورد لا يكون مخصّصاً.

ج - حديث الغدير :

حديث الغدير حديث الولاية الكبرى، حديث كمال الدين وإتمام النعمة

١. البخاري: الصحيح، غزوة تبوك: ٣/٦، طبع عام ١٣١٤ هـ، ومسلم: الصحيح: فضائل علي: ١٢٠/٧، وابن ماجه: السنن في فضائل أصحاب النبي: ٥٥/١، وأحمد: المسند: ١٧٣/١، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٥، ٣٣٠.

ورضى الرب تعالى وهو حديث نزل به كتاب الله المبين وتواترت به السنة النبوية، وتواصلت حلقات أسانيده منذ عهد الصحابة والتابعين إلى يومنا هذا.

وقد صبّ شعراء الإسلام واقعة الغدير في قوالب شعرية وإليك خلاصة تلك الواقعة:

أجمع الرسول ﷺ الخروج إلى الحجّ في السنة العاشرة من الهجرة تلك الحجة التي سميت بحجّة الوداع وحجّة الإسلام وحجّة البلاغ، فلما قضى مناسكه انصرف راجعاً إلى المدينة ومن معه من الجموع المذكورة وصل إلى غدير خمّ من الجحفة التي تشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، وذلك يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة فعند ذاك نزل جبرئيل الأمين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(١).

وكان أوائل القوم قريبين من الجحفة فأمر رسول الله ﷺ أن يرد من تقدّمهم ويحبس من تأخر عنهم حتى إذا أخذ القوم منازلهم نودي بالصلاة، صلاة الظهر، فصلّى الناس، وكان يوماً حاراً يضع الرجل بعض رداءه على رأسه وبعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء، فلما انصرف من صلاته قام خطيباً وسط القوم على اقتاب الإبل، وأسمع الجميع رافعاً عقيرته، فقال:

الحمد لله، ونستعينه، ونؤمن به، ونتوكّل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضلّ ولا مضلّ لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، أمّا بعد: أيّها الناس، إني أوّشك أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: «نشهد أنّك قد بلّغت ونصحت، وجاهدت، فجزاك الله خيراً».

قال: «ألستم تشهدون أنّ لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنته حق، وناره حق، وأنّ الموت حق، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟» .

قالوا: «بلى نشهد بذلك» .

قال: «اللهم اشهد» . ثم قال: «أيّها الناس، ألا تسمعون؟»

قالوا: «نعم» .

قال: «فإنّي فرط على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين» .

فنادى مناد: «وما الثقلان يا رسول الله؟»

قال: الثقل الأكبر، كتاب الله، والآخر الأصغر، عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبأني أنّهما لن يفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا» .

ثم أخذ بيد عليّ فرفعها، حتى رأى بياض آباطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال: «أيّها الناس، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟» .

قالوا: «الله ورسوله أعلم» .

قال: «إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه، فعليّ مولاه - يقولها ثلاث مرات - ثم قال: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وابغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب» .

ثم لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الآية ^(١)، فقال

رسول الله: «الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتى، والولاية لعليّ من بعدى».

ثم أخذ الناس يهتّون عليّاً، ومَن هنّا في مقدّم الصحابة: الشيخان أبو بكر وعمر، كلّ يقول: بخ بخ، لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي، ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

وقال حسان: أتأذن لي يا رسول الله أن أقول في عليّ أبياتاً، فقال: قل على بركة الله، فقام حسان، فقال:

يناديهـم يوم الغدير نبيّهم
بخمّ وأسمِع بالرسول مناديا

فقال فمن مولاكم ونبيّكم
فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت نبيّنا
ولم تلق منّا في الولاية عاصيا

فقال له قم يا عليّ فإنّي
رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

فمن كنت مولاه فهذا وليّـه
فكونوا له أتباع صدق مواليا

هناك دعا اللهـم وال وليّـه
وكن للذي عادى عليّاً معاديا

فلما سمع النبي أبياته قال: «لا تزال يا حسن مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك».

هذا مجمل الحديث في واقعة الغدير، وقد أصفقت الأمة على نقله، فلا نجد حديثاً يبلغ درجته في التواتر والتضافر ولا في الاهتمام به نظماً ونثراً.

لا أظن أن أحداً ينكر سند الحديث وتواتره، فقد رواه:

١- من الصحابة ١١٠ صحابياً.

٢- ومن التابعين ٨٤.

وأما عدد الرواة من العلماء والمحدثين فنذكرهم على ترتيب القرون.

٣- في القرن الثاني: ٥٦ عالماً ومحدثاً.

٤- في القرن الثالث: ٩٢ عالماً ومحدثاً.

٥- في القرن الرابع: ٤٣ عالماً ومحدثاً.

٦- في القرن الخامس: ٢٤ عالماً ومحدثاً.

٧- في القرن السادس: ٢٠ عالماً ومحدثاً.

٨- في القرن السابع: ٢٠ عالماً ومحدثاً.

٩- في القرن الثامن: ١٩ عالماً ومحدثاً.

١٠- في القرن التاسع: ١٦ عالماً ومحدثاً.

١١- في القرن العاشر: ١٤ عالماً ومحدثاً.

١٢- في القرن الحادي عشر: ١٢ عالماً ومحدثاً.

١٣- في القرن الثاني عشر: ١٣ عالماً ومحدثاً.

١٤- في القرن الثالث عشر: ١٢ عالماً ومحدثاً.

١٥- في القرن الرابع عشر: ١٩ عالماً ومحدثاً^(١).

وقد أُلّف غير واحد من أعلام الفريقين كتباً في اسناد الحديث وتواتره وإنّما المهم هو تبين دلالة الحديث على الإمامة الكبرى.

دلالة الحديث على الولاية الكبرى:

إنّ لفظة «مولى» في كلام النبي ﷺ «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه» بمعنى «أولى» كما في قوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

وقد فسّر المفسّرون قوله: ﴿هي مولاكم﴾ بقولهم هي أولى لكم، وهناك قرائن حالية ومقالية على أنّ المراد من ذلك اللفظ هي الولاية.

أمّا القرائن الحالية فهي أنّ النبي أمر بحبس المتقدم في السير ومنع التالي في محل ليس صالحاً للنزول، غير أنّ الوحي حبسه هناك والناس قد أنهكتهم وعناء السفر وحرّ الهجير وحراجة الموقف حتى أنّ أحدهم ليضع طرفاً من رداءه تحت قدميه فعند ذاك رقى رسول الله منبر الأهداج.

فهل يصحّ أن يراد من المولى في هذا الموقف الحرج غير إبلاغ الولاية لعليّ وإنّما هو المتصرّف والّاخذ بالزمام بعده، وإلّا فلو أغمض على هذا المعنى وقيل بأنّ

١. راجع في الوقوف على مصادر هذا البحث الكتاب القيم «الغدير» الجزء الأوّل.

٢. الحديد: ١٥.

المراد من المولى الناصر والمحِب لسقوط الكلام عن البلاغة واحتفظ عامة الناس بحق النقد والرد على النبي بعدم ضرورة حبس هذه الحشود في ذلك الموقف غير الصالح للنزول، وإلقاء الخطبة لأجل تفهيم الجميع أمراً واضحاً وهو الدعوة إلى نصرة عليّ وحبه.

فلا يسوغ للنبي ﷺ حشر الجماهير في حرّ الرمضاء إلا أن تكون الخطبة حول أمر خطير تناط به حياة الإسلام وكيان المسلمين وهي تعيين الوصي بعده وإضفاء الولاية العامة على من بعده.

وأما القرائن المقالة فكثيرة ونشير إلى بعضها:

الأولى: صدر الحديث وهو قوله ﷺ: «ألست أولى بكم من أنفسكم»، فهذه قرينة على أن المراد من المولى ما ورد في الصدر وهي الأولوية في النفوس والأموال قال سبحانه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(١).

الثانية: قوله في ذيل الحديث: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وفي جملة من الحديث قوله «وانصر من نصره واخذل من خذله» أو ما يؤدي مؤداه فلو أريد منه غير الولاية العامة والأولوية بالتصرف فما معنى هذه الإطالة.

الثالثة: أخذ الشهادة من الناس حيث قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ الجنة حقّ والنار حقّ» فإنّ وقوع قوله «من كنت مولاه» في سياق الشهادة بالتوحيد والرسالة يحقق أنّ المراد هو الخلافة بعد الرسالة للأولوية على الناس.

ولعلّ يكفيك ما ذكرنا من الفرق ولم يفهم الشعراء والأدباء منذ صدور الحديث من صاحب الرسالة إلاّ الولاية العامة لعليّ عليه السلام، وقد أنشأ حسان شعراً في هذا المقام حيث قال:

فقال له قم يا عليّ فإنني رضىتكَ من بعدي إماماً وهادياً
وهذا هو علي صاحب الولاية يقول في شعره:

وأوجب لي ولايته عليكم رسول الله يوم غدير خم
وهذا هو قيس بن سعد بن عبادة ذلك الصحابي العظيم يقول:

وعليّ إمامنا وإمام لسوانا أتى به التنزيل
يوم قال النبيّ من كنت مولا ه فهذا مولا خطب جليل

هذا هو داهية العرب عمرو بن العاص يكتب إلى معاوية رسالة وفيها
قصيدته المعروفة بالجلجلية يقول فيها معترضاً على معاوية:

وكم قد سمعنا من المصطفى وصايا مخصصة في علي
وفي يوم خم رقى منبراً وبلغ والصحب لم ترحل
فأمنحه امرة المؤمنين من آل مستخلف المنحل^(١)

هذا هو خلاصة القول في إمامة علي بعد رحيل الرسول ﷺ من الله.

ومن عجائب الأمور أنّ الشيعة قد ذهبت إلى أنّ عدد الخلفاء بعد النبي ﷺ هو اثنا عشر خليفة، ونرى ذلك أيضاً في الصحاح والمسانيد، وقد تضافرت الروايات الناهضة على سبع عشرة رواية، أنّ عدد خلفاء الرسول هو اثنا عشر خليفة والمواصفات المحددة لهم تنطبق بالتام على أئمة الشيعة، وإليك بيانه.

روى البخاري عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: يكون اثنا

١. من أراد أن يقف على مصادر هذه الأشعار وما حول هذا الحديث من كلمات درية لأساطين الحديث، فعليه الرجوع إلى كتاب الغدير للعلامة الأميني بكافة أجزائه.

عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال: كلهم من قریش^(١).

وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة» ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قریش»^(٢).

وروى أيضاً: لا يزال هذا الدين منيعاً إلى اثني عشر خليفة، فقال كلمة صميتها الناس، فقلت لأبي ما قال؟ قال: «كلهم من قریش»^(٣).

هذه النصوص تثبت أن صيغة الحكومة والإمامة عند النبي ﷺ كانت هي التنصيب وقد نصّ على عليّ عليه السلام وهو نصّ على ولده الحسن عليه السلام وهو على أخيه الحسين عليه السلام وتوالت الأوصياء حسب التنصيب إلى اثني عشر إماماً، وعلى ضوء ذلك اتفقت الشيعة على أن الأئمة الاثني عشر خلفاء الرسول وأتباعهم منصوبون من الله لزعامة الأمة وقد نصّ الرسول على عددهم بل وعلى أسمائهم كما ونصّ كل خليفة سابق منهم على الخليفة من بعده ودونك أسماؤهم:

أولهم الإمام عليّ بن أبي طالب، ابن عمّ الرسول وصهره تربى في حجره، ولم يزل يقفو أثره طول حياته وهو أول الناس إسلاماً وأشدّهم استقامة في طاعة الله وتفتاناً في الدين، بلغ في علمه وتقاه درجة تقاصر عنها شأواً أقرانه.

كان الإمام أفضل الناس وأمثلهم بعد رسول الله ولم يكن يومذاك رجل أليق بزعامة الأمة وقيادتها منه.

نعم قدمت مجموعة من المهاجرين غيره عليه عليه السلام وتناشوا النصّ وأجمعوا

١. البخاري: الصحيح: ٩، باب الاستخلاف، ص ٨١، وما رواه متن ناقص كما سيظهر ممّا نقله مسلم.

٢. مسلم: الصحيح: ٦/٣، باب الناس تبع لقریش، من كتاب الامارة.

٣. المصدر السابق، ولا حظ مسند أحمد: ٩٨/٥.

على صرف الخلافة من أول يومها عن وليّه المنصوص عليه.

ولم ير الإمام بدأ - لحفظ مصالح الدين والمسلمين - من تسليم الأمر إليهم فلزم عقر داره مدة خمسة وعشرين عاماً إلى أن رجعت إليه الخلافة واتفقت على قيادته وزعامته كلمتهم لا سيما جبهة الأنصار وسنام العرب. فتولى الإمام مقاليد الخلافة وأحيا سنة النبي الأعظم في عدله وإنصافه ومساواته بين الناس ولم يكن لأحد فيه مطمع، ولا عنده هواده ولم يكن يقيم وزناً لغير الحق ولم يحكم بين الأئمة إلا بالحق والعدالة حتى قتل في محراب عبادته لشدة عدله.

فالحق أنّ الإمام مفخرة من مفاخر المسلمين على الإطلاق بل الإنسانية جمعاء.

فالإمام علي عليه السلام أول الأئمة الاثني عشر، ويليّه:

الحسن بن علي، الحسين بن علي، فعلي بن الحسين زين العابدين، فمحمد ابن علي الباقر، فجعفر بن محمد الصادق، فموسى بن جعفر الكاظم، فعلي بن موسى الرضا، فمحمد بن علي الجواد، فعلي بن محمد الهادي، فالحسن بن علي العسكري، فمحمد بن علي بن الحسن الحجة المهدي المنتظر.

هؤلاء أئمة الشيعة الاثني عشر وقادتهم يقتبس من أنوارهم ويهتدي بهداهم وقد حُفظت تواريجهم وآثارهم ودُوّنت أحاديثهم وما رويت عنهم.

والإمام الثاني عشر هو الإمام المهدي المنتظر الذي تواترت الروايات على ظهوره في آخر الزمان.

إنّ الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر عقيدة مشتركة بين جميع المسلمين، إلاّ من أصمّه الله، فكلّ من كان له أدنى إلمام بالحديث يقف على تواتر البشارة عن النبي وآله وأصحابه، بظهور المهدي في آخر الزمان لإزالة الجهل والظلم، ونشر

أعلام العلم والعدل، وإعلاء كلمة الحق وإظهار الدين كله ولو كره المشركون، وهو بإذن الله ينجي العالم من ذل العبودية لغير الله ويبطل القوانين الكافرة التي سفتها الأهواء. ويقطع دابر التعصبات القومية والعنصرية، ويزيل العداء والبغضاء التي صارت سبباً لاختلاف الأمة واضطراب الكلمة، وتأجيج نار الفتن والمنازعات، ويحقق الله بظهوره وعده الذي وعد به المؤمنين بقوله:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٢).

هذا ما اتفق عليه المسلمون في الصدر الأول والأزمة اللاحقة وقد تضافر مضمون قول الرسول ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج رجلٌ من ولدي، فيملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت ظُلماً وجوراً».

ولو وُجد هناك خلاف بين أكثر السنة والشيعة فالاختلاف في ولادته، فإن الأكثرية من أهل السنة يقولون بأنه سيولد في آخر الزمان، والشيعة بفضل الروايات المتواترة تذهب إلى أنه ولد في «سرّ من رأى» عام ٢٥٥ هـ، وغاب بأمر الله سبحانه سنة وفاة والده، عام ٢٦٠ هـ وهو يحيا حياة طبيعية كسائر الناس غير أنّ الناس يرونه ولا يعرفونه، وسوف يظهره الله سبحانه ليحقق عدله.

وهذا المقدار من الاختلاف لا يجعل العقيدة بالمهدي من المسائل الخلافية،

١. النور: ٥٥.

٢. الأنبياء: ١٠٥.

ومن أراد أن يقف على عقيدة السّنة والشّيعَة في مسألة المهدي، فعليه أن يرجع إلى الكتب التالية لمُحقّقي السّنة ومُحدّثيهم:

١- «صفة المهدي» للحافظ أبي نعيم الاصفهاني.

٢- «البيان في أخبار صاحب الزمان» للكنجي الشافعي.

٣- «البرهان في علامات مهدي آخر الزمان» لملاّ علي المتقي.

٤- «العرف الوردي في أخبار المهدي» للحافظ السيوطي.

٥- «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر» لابن حجر.

٦- «عقد الدرر في أخبار الإمام المنتظر» للشيخ جمال الدين الدمشقي.

وعلى ضوء ذلك اتّفقت الشيعة على أنّ الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة إمّا ظاهراً مشهوراً أو غائباً مستوراً، وتلك الحجج في عامة الأدوار تتمثّل إمّا في نبيّ أو في وصيّ نبيّ، والحجة المهدي (عجل الله تعالى فرجه) هو خاتم الأوصياء حيّ يرزق منحه الله من العمر أطوله كما منح للمسيح ذلك، وليس على الله بعسير فهو القادر على كل شيء فله أن يمنح عبداً من عباده أيّ قدر شاء من العمر، فلا قدرة الله متناهية ولا الموضوع في نفسه محال ولا أُسس علم الحياة تعانده، وما جاء العلم بحدّ حياة البشر لا يتجاوزه.

وقد ادّخره الله ليوم يتظاهر فيه الزمان بالجور والعدوان والقتل وسفك الدماء والفساد وإحاطة المجتمع بأنواع العذاب والبلاء.

فهذه الكوارث والمكاره تهيئ المجتمع وتدفعه إلى ثورة عارمة على الظلم والعدوان، تقتلع بها جذور الفساد وتقطع دابر الجبابة عن أديم الأرض، حتى تترفرف رايات العدل والإسلام في شرق الأرض وغربها بقيادة آخر الخلفاء وخاتم الأوصياء فيملاً الله به الأرض عدلاً وأمناً كما مُلئت ظلماً وجوراً.

هذه خلاصة القول في الإمام المهدي.

وفي خاتمة المطاف نأتي بما كتبه الدكتور عبد الباقي في كتابه الذي أسماه «بين يدي الساعة» وقد طبع في السعودية، فقال في تضافر الأخبار الواردة في حق المهدي:

إنّ المشكلة ليست في حديث أو حديثين أو راوٍ أو راويين إنّها مجموعة من الأحاديث والأخبار تبلغ الثمانين تقريباً اجتمع على تناقلها مئات الرواة وأكثر من صاحب كتاب صحيح.

فلماذا تردّ كل هذه الكمية، أكلّها فاسدة؟ لو صح هذا الحكم لانهار الدين - والعباذ بالله - نتيجة تطرّق الشك والظن الفاسد إلى ما عداهما من سنّة رسول الله .

وإذا نظرنا إلى المهدي نظرة مجردة فإنّا لا نجد حرجاً من قبولها وتصديقها أو على الأقل عدم رفضها^(١).

الفصل السادس :

الشيعة و المنهج الفقهي

لقد سبق قولنا أنّ مذهب الشيعة مزيج من العقيدة والشريعة وليس مذهباً كلامياً بحثاً حتى نقتصر في دراسته على بيان الأصول الكلامية، ولا مذهباً فقهيّاً كالمذاهب الفقهية الأربعة حتى يُكتفى في تعريفه بما يتبنّى من فروع في باب العبادات والمعاملات والإيقاعات والسياسات، وقد وقفت على موجز عقائدهم في المسائل الكلامية في الفصول الخمسة السالفة الذكر، وإليك الإشارة إلى ما يدينون به في باب الأحكام.

ينقسم فقه الشيعة إلى:

١- عبادات ٢- عقود ٣- إيقاعات ^(١) ٤- سياسات.

وهناك تقسيم آخر وهو تقسيمه إلى العبادات، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والسياسات.

مصادر الفقه الشيعي:

تعتمد الشيعة في استنباط الأحكام الشرعية على الأدلة الأربعة لا غير:

الأول : كتاب الله العزيز ولا يعدل عنه إلى غيره مطلقاً.

الثاني : السنّة المأثورة عن النبي ﷺ عن طريق أئمة أهل البيت وسائر الثقات،

١. العقد: اتفاقية قائمة بالطرفين كالبيع والنكاح، بخلاف الإيقاع فإنّه إنشاء أمر قائم بطرف واحد، كالطلاق والعنق. وربّما يعبر عن الرابع بـ «أحكام» وهو أمتن وأشمل.

فإنَّ المأثور عن أئمة أهل البيت يصل إلى النبي ﷺ بسند عالٍ غير خاضع للنقاش.

الثالث: الإجماع: إجماع المسلمين على حكم شرعي، أو إجماع الطائفة الشيعية الكاشف عن وجود النص الواصل إلى يد المجمعين وغير الواصل إلينا. وليس الإجماع عندهم بنفسه حجة، بل لأجل كشفه عن دليل شرعي موجود لدى المجمعين.

الرابع: العقل: أعني الإدراكات القطعية العقلية التي لا يتردد فيها ولا يشك في صحتها، كيف والعقل هو الحجة الباطنية التي يحتج بها المولى سبحانه على العباد، ثم بحكم العقل الذي له صلاحية الحكم والقضاء يُستكشف حكم الشرع، للملازمة بين حكم العقل والشرع واستحالة التفكيك بينهما، فمثلاً إذا استقلَّ العقل بقبح العقاب بلا بيان فيفتي المجتهد في الموارد التي لم يرد فيها دليل شرعي على الحكم الشرعي، بالبراءة أو الحلّة.

هذه هي مصادر التشريع عند الشيعة وليس هناك مصدر آخر تعتمد عليه.

وأما الرجوع إلى العرف، فإنّما هو لتحديد المفاهيم وتبيين الأوضاع كالرجوع إلى قول اللغوي.

نعم، رفضت الشيعة منذ زمن مبكر القياس والاستحسان وسدّ الذرائع وما يماثلها من الأدلة الظنية التي لم يقدّم دليل عندهم على حجيتها.

اتفقت الشيعة على أنّ السنّة المطهرة كما تثبت بالخبر المتواتر، والخبر المحفوف بالقرائن، تثبت أيضاً بالخبر الواحد إذا كان رواه ثقات في جميع السلسلة.

فتح باب الاجتهاد:

الاجتهاد هو بذل الوسع في استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها المعينة وهو رمز خلود الدين وبقاء قوانينه، لأنّه يحفظ غضارته وطرأوته ويصونه عن الاندراس ويغني المسلمين عن التطفل على موائد الأجانب بإعطاء كل موضوع ما يقتضيه من الحكم.

وقد حثّ أئمة أهل البيت شيعتهم على التفقه في الدين والاجتهاد فيه وأنّه من لم يتفقه في الدين فهو أعرابي، وأرشدوهم إلى كيفية استخراج الفروع المتشابهة، من الآيات والأصول المتلقاة عنهم، كل ذلك صار سبباً لاندفاع الشيعة نحو دراسة كتاب الله والأحاديث المروية وبذل الجهد في استنباط الأحكام من أدلتها الشرعية ورأوا أنّ الاجتهاد أمرٌ لازمٌ لأنّ بين الأخبار ما هو عام وخاص ومطلق ومقيد، وبين الآيات ناسخ ومنسوخ، وبين الأحكام ما هو مجمع عليه ومختلف فيه. كل ذلك جرهم إلى فتح باب الاجتهاد أي بذل الوسع في فهم الحكم الشرعي من أدلته.

وأما لزوم فتح هذا الباب في عصرنا فلا يحتاج إلى البرهنة والدليل، لأننا أمام موضوعات مستجدة تتطلب لنفسها الجواب، والجواب إمّا يطلب من بذل الوسع في استنباط أحكام الموضوعات المستجدة من الأصول والقواعد الإسلامية، أو اتباع المبادئ الغربية من غير نظر إلى مقاصد الشريعة. ومن المعلوم تعيين الأول وبطلان الثاني.

فقهاء الشيعة:

لقد أنجبت مدرسة أهل البيت فقهاء في عصر الأئمة كـ «زرارة بن أعين» (٨٠ - ١٥٠ هـ) و «محمد بن مسلم الطائفي» (٨٠ - ١٥٠ هـ) و «محمد بن

أبي عمير» (المتوفى ٢١٧ هـ) و«الحسن بن محبوب» (١٥٠ - ٢٢٤ هـ) إلى غير ذلك من فقهاء الشيعة في القرن الثاني والثالث.

احتفل القرن الرابع والخامس بفقهاء كبار لهم مكانتهم في الفقه الشيعي كـ«علي بن بابويه» (المتوفى ٣٢٩ هـ)، و«محمد بن جعفر بن قولويه» (المتوفى ٣٦٩ هـ)، و«الشيخ الصدوق» (٣٠٦ - ٣٨١ هـ) و«الشيخ المفيد» (٣٣٦ - ٤١٣ هـ)، و«السيد المرتضى» (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ)، و«الشيخ الكراجكي» (المتوفى ٤٤٩ هـ)، و«الشيخ الطوسي» (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ)، و«سلار الديلمي» مؤلف المراسم، و«ابن البراج» (٤٠١ - ٤٨٩ هـ) مؤلف المهذب، وغيرهم من الذين ملأت أسماؤهم كتب التراجم والرجال، ومن أراد الوقوف على حياتهم وكتبهم فعليه الرجوع إلى الموسوعات الرجالية و فهارس المؤلفات، وأخص بالذكر كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة، و توالى التأليف في الفقه بأشكال وصور مختلفة إلى العصر الحاضر وترى فيه موسوعات كبيرة كجواهر الكلام في ٤٢ جزءاً، والحدائق الناضرة في ٢٦ جزءاً.

إن لكل كتاب أو باب فقهي شأناً ومكانة خاصة تدور عليها رحى الحياة المادية والروحية للمسلم ولا يستغني المجتمع الإسلامي عن واحد منها، غير أن هناك موضوعات تعدّ بمثابة أصول لها منزلة متميزة وهي ما نسميه أركان الفقه.

أركان الفقه وأسسها:

١- الصلاة : وهو ركن عظيم إسلامي، فيجب على كل مسلم أن يقيم الصلوات اليومية في أوقاتها الخاصة إلى الجهة (القبلة) التي نصّ عليها القرآن وأطبق المسلمون عليها، وهي الكعبة.

٢- الصوم: يجب على كل مسلم أن يصوم شهر رمضان كله بادئاً برؤية

هلاله وخاتماً بهلال شوال.

٣- الحج: يجب على كل مسلم مستطيع أن يحج بيت الله الحرام ولو مرة واحدة، ويجتمع مع سائر إخوانه في ذلك المشهد العظيم الذي ينعقد مرة واحدة كل سنة.

٤- الزكاة: وهي عند الشيعة ركن اجتماعي بارز وضريبة إسلامية، وهي حق الجماعة في عنق الفرد وعلى عاتق المكلفين، حدّد لها الإسلام نصاباً، وجعل لها شرائط، وأوضح جهة مصارفها كمساعدة الفقراء والمساكين وتجهيز المجاهدين ودعم المراقبة وعلاج المرضى وكل ما يمت إلى مصالح الإسلام والمسلمين بصلة.

٥- الخمس: وهي ضريبة إسلامية أخرى تتعلق بأموال المتمكنين من المسلمين ولها شرائط وضوابط محرّرة في مواضعها.

٦- الجهاد: وهو ركن من أركان الإسلام فيجب على كل مسلم الوقوف أمام أعداء الإسلام بكل حول وقوة بتضحية النفوس والأموال.

٧ و ٨- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هما من أفضل القربات لدى الشيعة أساسهما الدعوة إلى الحق، والهدى، ومكافحة الفساد، بألوانه المختلفة الفردية والاجتماعية على ضوء العلم والمنطق الصحيح، وهما وظيفة الشعب المسلم ولا يختص بطائفة دون أخرى ليقف على الأحداث المهددة لمجتمعه ويعالجها بالحكمة والموعظة الحسنة. وأمّا تنفيذهما فيقع على عاتق الدولة الإسلامية وليس له شكل خاص وإنّما يتبع المصالح العامة حسب اختلاف الظروف.

ما ذكرنا من العناوين الفقهية تعدّ من أركان الفقه وأُسسها، وأمّا الكتب الفقهية التي وقعت في إطار البحث والنقاش بين فقهاء الشيعة فتربو على أكثر

من خمسين كتاباً، وإليك أسماءها:

- ١- كتاب الطهارة. ١٩- كتاب الضمان. ٣٧- كتاب الخلع والمباراة.
- ٢- كتاب الصلاة. ٢٠- كتاب الحوالة. ٣٨- كتاب الظهر.
- ٣- كتاب الزكاة. ٢١- كتاب الكفالة. ٣٩- كتاب الإيلاء.
- ٤- كتاب الخمس. ٢٢- كتاب الصلح. ٤٠- كتاب اللعان.
- ٥- كتاب الصوم. ٢٣- كتاب الشركة. ٤١- كتاب العتق.
- ٦- كتاب الاعتكاف. ٢٤- كتاب المضاربة. ٤٢- كتاب التدبير والمكاتبة
- ٧- كتاب الحج. ٢٥- كتاب الوديعة. والاستيلاء.
- ٨- كتاب الجهاد. ٢٦- كتاب العارية. ٤٣- كتاب الإقرار.
- ٩- كتاب الكفارات. ٢٧- كتاب المزارعة. ٤٤- كتاب الغصب.
- ١٠- كتاب النذر. ٢٨- كتاب المساقاة. ٤٥- كتاب اللقطة.
- ١١- كتاب القضاء. ٢٩- كتاب الإجارة. ٤٦- كتاب إحياء الموات.
- ١٢- كتاب الشهادات. ٣٠- كتاب الوكالة. ٤٧- كتاب الصيد والذبائح.
- ١٣- كتاب الوقف. ٣١- كتاب الشفعة. ٤٨- كتاب الأطعمة والأشربة.
- ١٤- كتاب العطية. ٣٢- كتاب السبق والرماية. ٤٩- كتاب الميراث.
- ١٥- كتاب المتاجر. ٣٣- كتاب الجعالة. ٥٠- كتاب الحدود.
- ١٦- كتاب الدين. ٣٤- كتاب الوصايا. ٥١- كتاب القصاص.
- ١٧- كتاب الرهن. ٣٥- كتاب النكاح. ٥٢- كتاب الديات.
- ١٨- كتاب الحجر. ٣٦- كتاب الطلاق.

الملاح العامة للفقہ الشيعي:

إنّ للفقہ الشيعي ملاح عامة يتميز بها عن سائر المناهج الفقهيّة، وإليك بيانها:

١- الفقہ الشيعي هو حصيلة النصوص الشرعية الواردة في الكتاب والسنة وذلك، لأنّ الأحاديث الفقهيّة عند أهل السنة لا تتجاوز عن ٥٠٠ حديث يدعمها مراسيل وموقوفات، قال السيد محمد رشيد رضا مؤلف المنار: إنّ أحاديث أحكام الأصول خمسمائة حديث فعدها أربعة آلاف فيما أذكر^(١)، وما يذكره من أربعة آلاف إنّما هي موقوفات ومراسيل لا يحتاج بها.

وعلى كل تقدير صار ذلك سبباً للجوئهم في استنباط الأحكام إلى غير النصوص، كالقياس والاستحسان وسدّ الذرائع، وأمّا الشيعة فيما أنّهم أناخوا مطيتهم على باب العترة الطاهرة فتسنّى لهم الوقوف على حجم هائل من الأحاديث النبوية أكثر من غيرهم حتى صار ذلك سبباً لشراء الفقہ الشيعي، من غير حاجة إلى العمل بغير النصوص.

٢- قد عرفت أنّ باب الاجتهاد مفتوح عندهم منذ رحيل النبي ﷺ إلى يومنا هذا ولم يتوقف يوماً ما فأدّى إلى نضارة الفقہ وتبلوره وإعداده للإجابة على المستجدات الطارئة.

ولا شك أنّ الحقيقة بنت البحث، والعلم يتكامل إذا دخل حلبة الصراع الفكري، وفقهاء الشيعة بذلوا جهوداً مضيئة على هذا الصعيد بغية تنمية الفقہ وتكامله فصار فقهم متكامل الجوانب.

٣- إن الاجتهاد عند فقهاء الشيعة ليس اجتهاداً في مذهب خاص وإنما هو اجتهاد حر موضوعي لا يختص بمذهب دون آخر.

فالمجتهد الحنفي إنَّما يجتهد للبحث عن رأي إمامه في المسألة، وهكذا المجتهد الشافعي ولا يخرج عن إطار المذهب وإن تبين أنَّ الحق على خلافه.

وأما الاجتهاد في المذهب الشيعي فليس اجتهاد في مذهب الإمام جعفر الصادق أو غيره من أئمة الشيعة، إذ ليست الأئمة عندهم مجتهدين أو مفتين وإنما هم رؤاة سنن النبي ﷺ وعيبة علمه غير مشوب بالخطأ، فالمجتهد الشيعي إنَّما هو بصدد استنباط الحكم الواقعي الذي نزل به الوحي وبيَّنه النبي ﷺ.

٤- المذهب الفقهي يتمتع بالدقة في السند والدلالة فربَّ رواية يراها الإنسان العادي دليلاً على الحكم الشرعي، ولكنَّهم بإمعان الدقة، يرونها غير دالة عليه، يعلم ذلك بالرجوع إلى كتبهم الفقهية.

٥- الشيعة تستمد اجتهادها من القواعد العامة المسماة بأصول الفقه، وقد تكامل هذا العلم منذ عصر الأئمة إلى يومنا هذا على وجه أوجد فجوة سحيقة بين ما ألفه علماء السنَّة في الأصول كالمختصر لابن الحاجب، والمستصفي للغزالي، وما ألفه علماء الشيعة في أصول الفقه في القرنين الأخيرين، وما ذلك إلَّا نتيجة التعمق في القواعد الأصولية من خلال فتح باب الاجتهاد.



وحصيلة القول

إنَّ الفقه الشيعي كالفقه السنِّي يسيران جنباً إلى جنب في استنباط الحكم الشرعي مع اختلاف يسير في الطرق والمشارب.

فالأدلة الفقهية عند الشيعة هي الأربعة السالفة الذكر، وعند السنَّة إضافة

إلى الكتاب والسنة والإجماع، القياس والاستحسان وسدّ الذرائع.

ف نجد أنّ الفقه الشيعي يتفق في غالب المسائل الفقهية مع أحد المذاهب الأربعة نتيجة اتفاقهم في أصول الاستنباط، وأمامك كتاب الخلاف للشيخ الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) فهو خير شاهد على ما ندّعيه، فإنّه فقه مقارن يبحث عن الحكم الشرعي على ضوء المذاهب الخمسة .

نعم ثمة مسائل خلافية انفردت الشيعة بها ونشير إلى بعضها:

١- إنّ الشيعي يمسح الرجلين في الوضوء والسني يغسلهما.

٢- إنّ الشيعي يصلي بلا قبض اليسرى باليمنى والسني يصلي مع القبض إلا المالكى.

٣- الشيعي يطلق ضريبة الخمس إلى أرباح المكاسب والسني يخصصها بالغنائم الحربية.

٤- الشيعي جوّز الوصية للوارث دون السني.

٥- السني يقول بالعول والتعصيب في الارث دون الشيعي.

وهذا المقدار الضئيل من الاختلافات ليس بشيء أمام الفقه الإسلامي الواسع والذي هو محيط لا يدرك ساحله ولا يضر بالوحدة المنشودة ولا يقطع عرى الأخوة.

ولو أقيم مؤتمر فقهيّ حول هذه المسائل التي تفرّدت بها الشيعة لتجلّت الحقيقة بأجلى مظاهرها، وتقاربت الخطى وأخذ الجميع برأي واحد كما صار الحال كذلك في الطلاق ثلاثاً في مجلس واحد، فقد أخذ الفقه المصري في هذه المسألة برأي الشيعة الإمامية من أنّه يحسب طلاقاً واحداً، لا ثلاثاً وصادقت المحاكم المصرية على ذلك.

الفصل السابع:

الشيعة والتراث الفكري

إنّ المسلمين بصورة عامة شيّدوا أركان الحضارة الإسلامية في ظلّ الخطوط التي رسمها النبي ﷺ من خلال القرآن والسنة فأصبحت لهم قوة اقتصادية ونظم سياسية وتقاليد دينية وخلقية، وأصبحت العلوم والفنون تتطور وتتقدم، وقد قاموا بترجمة كتب اليونانيين والفرس وغيرهم إلى لغتهم فصارت الحضارة الإسلامية مزدهرة، بفضل هذه العلوم وتطویرها.

والذي يطيب لنا في هذا الموضوع ذكر مساهمة الشيعة في بناء الحضارة خصوصاً فيما يرجع إلى العلوم والفنون:

١- الشيعة وعلم النحو:

قام أبو الأسود الدؤلي - الذي كان من سادات التابعين وصاحب علياً عليه السلام وشهد معه الجمل و صفين - بوضع قواعد نحوية ودونها بأمر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وإرشاده وتعليمه قسماً من القواعد.

ومن المعلوم أنّ هذه القواعد لم تكن تسدّ الحاجة الملحة ولكن أبا الأسود قام بإكمالها، ثم عُرف فيما بعد بأنّه مدوّن علم النحو وواضعه وتوالى التأليف بعده من الطائفتين.

٢- الشيعة وعلم الصرف:

كما أنّ أوّل من دَوّن الصرف هو أبو عثمان المازني، وكان قبل ذلك مندرجاً في علم النحو كما ذكره في كشف الظنون . وأبسط كتاب في الصرف، ما كتبه نجم الأئمة أعني محمد بن الحسن الاسترّبادي الغروي، له شرح الشافية في الصرف كما له شرح الكافية في النحو، وكلا الكتابين جليلاً الخطر محموداً الأثر.

٣- الشيعة وعلم اللغة:

وقد ألّفت الشيعة كتباً في علم اللغة، فأوّل من ضبط اللغة هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي الأزدي الذي وضع علم العروض فهو سيد أهل الأدب، وقد سبق الجميع إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على حروف المعجم، فألّف كتابه «العين» جمع فيه ما كان معروفاً في أيامه من ألفاظ اللغة وأحكامها وقواعدها، ورتب ذلك على ترتيب خاص.

ولم يشك أحد من علمائنا أنّ الخليل كان شيعياً، وعن المرزباني أنّه ولد عام مائة بعد الهجرة وتوفي عام ١٧٠ أو ١٧٥ هـ وقد ألّف كتاباً في الإمامة كما نقله ابن قانع.

٤- الشيعة وعلم العروض:

وإذا كانت الشيعة هي التي ابتكرت علم النحو بهداية من أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، ولحسن الحظ أنّها المبتكرة أيضاً لعلم العروض وظهوره إلى الوجود، كما تقدّم وقد ألّف كافي الكفاة صاحب بن عباد الذائع الصيت، كتاباً في العروض أسماه «الاقناع» وقد توالى التأليف بعده إلى عصرنا هذا، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المعاجم حول مصنّفات الشيعة.

٥- الشيعة والشعر:

وجدت في الشيعة طبقة راقية منذ أوائل القرون الأولى، وكان أئمة أهل البيت يقدرون جهودهم ويرحبون بهم بكل حفاوة كما نطق به التاريخ في حق الفرزدق وميمته، وهاشميات الكميت، وعينية الحميري، وتائية دعل، لقد حظوا جميعاً بتقدير واحترام الأئمة وصار عملهم في هذا المجال أسوة الشيعة.

وإليك أسماء قليل من شعراء الشيعة:

١- قيس بن سعد بن عبادة.

٢- الكميت.

٣- السيد الحميري.

٤- دعل الخزاعي.

٥- ابن الرومي.

٦- أبو فراس.

٧- أبو الطيب المتنبي.

٦- الشيعة وعلم التفسير :

إن مدرسة الشيعة منذ أن ارتحل النبي ﷺ إلى يومنا هذا، أنتجت تفاسير على أصعدة مختلفة وخدمت الذكر الحكيم بصور شتى.

إن أئمة أهل البيت ﷺ بعد الرسول ﷺ هم المفسرون للقرآن الكريم حيث فسروا القرآن بالعلوم التي نحلهم الرسول ﷺ بأقوالهم وأفعالهم وتقريراتهم التي لا تشذ عن قول الرسول وفعله وتقريره، ومن الظلم الفادح أن نذكر الصحابة والتابعين في عداد المفسرين ولا نعترف بحقوق أئمة أهل البيت ﷺ.

عكف المسلمون على دراسة القرآن وأول ما فوجئوا به بعد وفاة النبي ﷺ هو قصور باع لفيف منهم عن فهم بعض ألفاظ القرآن، والقرآن وإن نزل بلغة الحجاز، لكن توجد فيه ألفاظ غير رائجة وربما كانت رائجة بين القبائل الأخرى، وهذا النوع من الألفاظ ما سَمَّوه «غريب القرآن».

وبما أن تفسير غريب القرآن كانت الخطوة الأولى لتفسيره، ألف غير واحد من علماء الشيعة إبان التدوين كتباً في ذلك المضمار، نذكر إليك بعضها:

- ١- غريب القرآن لأبان بن تغلب بن رباح البكري (المتوفى ١٤١ هـ).
- ٢- غريب القرآن لمحمد بن السائب الكلبي من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.

٣- غريب القرآن لأبي روق، عطية بن الحارث الهمداني الكوفي التابعي.

٤- غريب القرآن لعبد الرحمن بن محمد الأزدي الكوفي.

٥- غريب القرآن للشيخ أبي جعفر أحمد بن محمد الطبري الأملي الوزير الشيعي المتوفى عام ٣١٣ هـ.

كما أن هناك لونا آخر من التفسير يهدف إلى بيان مقاصده ومعانيه فيما إذا كانت الآية مشتملة على المجاز والكناية والاستعارة، ونأتي ببعض ما ألف في ذلك المجال بيد أعلام الشيعة:

- ١- مجاز القرآن، لشيخ النحاة الفراء يحيى بن زياد الكوفي المتوفى عام ٢٠٧ هـ.

٢- مجاز القرآن، لمحمد بن جعفر أبو الفتح الهمداني وله كتاب «ذكر المجاز في القرآن».

٣- مجازات القرآن، للشريف الرضي المسمى بـ «تلخيص البيان في مجازات القرآن».

وهناك لون آخر من التفسير يندفع فيه المفسر إلى توضيح قسم من الآيات تجمعها صلة خاصة كالمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وآيات الأحكام، وقصص الأنبياء، وأمثال القرآن، والآيات الواردة في مغازي النبي ﷺ والنازلة في حق العترة الطاهرة إلى غيرها من الموضوعات التي لا تعم جميع آيات القرآن بل تختص بموضوع واحد.

وقد خدمت الشيعة كتاب الله العزيز بهذه الأنواع من التفاسير ومن أراد أن يقف عليها فعليه أن يرجع إلى المعاجم وأخص بالذكر الذريعة إلى تصانيف الشيعة.

٧- الشيعة والتفسير الموضوعي:

إنّ هذا النمط من التفسير هو غير النمط المعروف بالتفسير الترتيبي فإنّ النمط الثاني يتّجه إلى تفسير القرآن سورة بعد سورة وآية بعد آية، وأمّا النمط الأول فيحاول فيه المفسر إيراد الآيات الواردة في موضوع خاص في مجال البحث وتفسير الجميع جملة واحدة وفي محل واحد.

ولعلّ العلامة المجلسي (١٠٣٧ - ١١١٠ هـ) أوّل من فتح هذا الباب على مصراعيه في موسوعته «بحار الأنوار» حيث يورد في أوّل كل باب الآيات الواردة حولها ثم يفسرها إجمالاً، وبعد الفراغ عنها، ينتقل إلى الأحاديث التي لها صلة بالباب.

٨- الشيعة والتفسير الترتيبي:

إنّ المنهج الراسخ بين القدماء وأكثر المتأخرين هو التفسير الترتيبي، وقد نهجت الشيعة منذ عصر الإمام عليّ إلى العصر الحاضر هذا النمط من التفسير،

إمّا بتفسير جميع السور أو بعضها، والغالب على التفاسير المعروفة في القرون الثلاثة الأولى، هو التفسير بالأثر ولكن تحول إلى اسلوب آخر وهو التفسير العلمي والتحليلي منذ أواخر القرن الرابع.

فأول من ألف من الشيعة على هذا الاسلوب هو الشريف الرضي (٣٥٧- ٤٠٦ هـ) مؤلف كتاب «حقائق التأويل» في عشرين جزءاً ثم جاء بعده أخوه الشريف المرتضى فسلك مسلكه في أماليه المعروفة بالدرر والغرر، ثم توالى التأليف على هذا الاسلوب في عصر الشيخ الأكبر الطوسي (٣٨٥- ٤٦٠ هـ) مؤلف «البيان في تفسير القرآن» في عشرة أجزاء.

٩- الشيعة وعلم الحديث:

إنّ السنّة هي المصدر الثاني للثقافة الإسلامية على كافة الأصعدة، ولم يكن شيء أهم، بعد كتابة القرآن وتدوينه وصيانته من نقص وزيادة، من كتابة حديث الرسول وتدوينه وصيانته من الدس والدجل وقد أمر به الرسول ﷺ غير مرة.

لقد تعرّف على أنّ أئمة أهل البيت هم رواة سنن النبي وأحاديثه وقد التفت حولهم الشيعة فأنجبت مدرسة أهل البيت في القرون الثلاثة الأولى محدّثين كبار لكلّ منهم جامع حديثي نذكر منهم ما يلي:

١- يونس بن عبد الرحمن، من تلامذة الإمام موسى بن جعفر والإمام الرضا ﷺ، وقد وصفه ابن النديم في فهرسته بعلامة زمانه، له جوامع الآثار، والجامع الكبير، وكتاب الشرائع.

٢- صفوان بن يحيى البجلي (المتوفى ٢٢٠ هـ) كان أوثق أهل زمانه وصنّف ثلاثين كتاباً.

- ٣ و ٤- الحسن والحسين ابنا سعيد بن حماد الأهوازي صنفًا ٣٠ كتاباً.
- ٥- أحمد بن محمد بن خالد البرقي (المتوفى ٢٧٤ هـ) صاحب كتاب المحاسن.
- ٦- محمد بن أحمد بن يحيى الأشعري القمي صاحب الجامع المعروف (المتوفى حوالي ٢٩٣ هـ).
- ٧- أحمد بن محمد ابن أبي نصر البزنطي (المتوفى ٢٢١ هـ) صاحب الجامع المعروف.
- هذه هي الجوامع الحديثية الأولية للشيعة، وهناك جوامع حديثة أخرى ألّفت في القرن الرابع والخامس مستمدة تأليفها من الجوامع الأولية وهي:
- ١- الكافي، لثقة الإسلام الكليني (المتوفى ٣٢٩ هـ) طبع في ٨ أجزاء.
 - ٢- من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق (٣٠٦ - ٣٨١ هـ) طبع في ٤ أجزاء.
 - ٣- التهذيب طبع في عشرة أجزاء.
 - ٤- الاستبصار طبع في أربعة أجزاء.
 - كلاهما لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ).
- وهذه هي الجوامع الحديثية الثانوية.
- وهناك جوامع أخرى ألّفت في القرن الحادي عشر وقد استمد مؤلفوها من الجوامع الثانوية وهي:
- ١- وسائل الشيعة، للشيخ الحر العاملي (المتوفى ١١٠٤ هـ) وطبع في ٢٠ جزءاً.

- ٢- الوافي، للمحدث الكاشاني (المتوفى ١٠٩١ هـ) طبع حديثاً وراء طبعته القديمة في خمسة وعشرين جزءاً.
- ٣- بحار الأنوار، للشيخ محمد باقر المجلسي (١٠٣٧ - ١١١٠ هـ) وقد طبع في مائة وعشرة أجزاء.
- والركب بعدُ غير متوقف فقد انتشر في الآونة الأخيرة جامع حديثي للشيعة ألفته لجنة علمية بإشراف من فقيه العصر ومحدثه السيد حسين البروجردي، وقد تمّ طبعه في ٢٦ جزءاً.
- كل ذلك ينم عن اعتناء الشيعة بالأحاديث النبوية والآثار المروية عن أئمة أهل البيت، ولو رجع محدثو السنة وفقهاؤهم إلى هذه الكنوز الثمينة لوجدوا فيها درراً و لآئ لا معة تقرّ بها عيونهم.

١٠- الشيعة وعلم أصول الفقه:

انبرى أئمة أهل البيت عليهم السلام إلى إملاء ضوابط وقواعد يرجع إليها الفقيه عند فقدان النص، أو إجماله أو تعارضه إلى غير ذلك من الحالات، وتلك الأصول هي التي تشكّل أساساً لعلم أصول الفقه، ولقد جمعها عدة من الأعلام في كتب خاصّة أفضلها «الفصول المهمة في أصول الأئمة» للشيخ المحدث الحر العاملي المتوفى عام ١١٠٤ هـ.

كما ونرى أنّ لفيفاً من صحابة الأئمة درسوا بعض مسائل أصول الفقه نظير:

- ١- هشام بن الحكم (المتوفى سنة ١٩٩ هـ) صنف كتاب الألفاظ.
- ٢- يونس بن عبد الرحمن، صنف كتاب اختلاف الحديث ومسائله.
- ٣- إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت (٢٣٧ -

٣١١ هـ) صَنَّف كتاب الخصوص والعموم وكتاب إبطال القياس وكتاب نقض اجتهد الرأي.

٤- أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي من علماء القرن الثالث، له كتاب الخصوص والعموم والخبر الواحد.

٥- محمد بن أحمد بن داود بن علي المتوفى عام ٣٦٨ هـ، له كتاب الحديثين المختلفين.

٦- محمد بن أحمد بن الجنيد المتوفى عام ٣٨١ هـ، له كتاب كشف التمويه والالتباس في إبطال القياس.

١١- الشيعة وعلم المغازي والسير:

مغازي النبي ﷺ جزء من تاريخ حياته وسيرته، والرسول ﷺ قدوة وأسوة وفعله كقوله حجة بلا إشكال، وقد وضع بعضهم كتباً في فقه السيرة فكان على المسلمين ضبط دقيقها وجليلها وقد قاموا بذلك لولا أنّ الجهاز الحاكم حال دون تحقق تلك الأمانة.

ولكن قيض الله سبحانه رجالاً من الشيعة في ذلك المجال ضبطوا سيرة الرسول ومغازيه، منهم:

١- محمد بن إسحاق بن يسار (المتوفى ١٥١ هـ).

٢- عبيد الله بن أبي رافع، من أصحاب الإمام أمير المؤمنين فقد عمل كتاباً أسماه «تسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل وصفين والنهروان من الصحابة».

٣- كما ألف جابر بن يزيد الجعفي (المتوفى ١٢٨ هـ) كتاباً في ذلك المجال، منها: كتاب الجمل، كتاب صفين، كتاب النهروان، كتاب مقتل أمير

المؤمنين وكتاب مقتل الحسين عليه السلام.

٤- أبان بن عثمان الأحمر البجلي الكوفي.

٥- أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الغامدي، شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة، صنف كتباً منها: كتاب المغازي، وكتاب السقيفة، وكتاب الردة، وكتاب فتوح الإسلام، وكتاب المختار الثقي، وكتاب صفين، وكتاب الجمل.

٦- نصر بن مزاحم ألف كتباً كثيرة في هذا المجال أشهرها كتاب صفين، وهو كبير الحجم.

٧- هشام بن محمد بن السائب الكلبي (المتوفى ٢٠٦ هـ).

١٢- الشيعة وعلم الرجال:

اهتم علماء الشيعة بعد عصر التابعين بعلم الرجال، نذكر المؤلفين الأوائل منهم:

١- عبد الله بن جبلة الكناني (المتوفى ٢١٩ هـ).

٢- علي بن الحسن بن فضال، كان فقيه أصحابنا بالكوفة ووجههم وثقتهم وعارفهم بالحديث.

٣- الحسن بن محبوب السراة (١٥٠ - ٢٢٤ هـ) له كتاب «المشيخة» و«معرفة رواة الأخبار».

٤- أبو عمرو الكشي، له كتاب «معرفة الرجال».

٥- أبو العباس أحمد بن علي النجاشي (٣٧٢ - ٤٥٠ هـ).

٦- الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) له كتاب «الفهرست» و«الرجال».

١٣- الشيعة والعلوم العقلية:

إنَّ خطب الإمام علي عليه السلام ورسائله وقصار حكمه شكلت إحدى المصادر المهمة لكلام الشيعة وآرائهم في العقائد والمعارف، ولم يقف نشاط الشيعة عند هذا الحد بل جاءت الأئمة عليهم السلام وحثوا شيعتهم على التدبّر والتفكير في المعارف حتى تربى في مدرستهم رواد الفكر من عصر سيد الساجدين إلى عصر الإمام العسكري، تجد أسماءهم وتأليفهم وأفكارهم في المعاجم وكتب الرجال. وقد نبغ في عصر أئمة أهل البيت مفكرون بارزون أفادوا الأجيال من بعدهم.

وإليك أسماء بعض متكلمي الشيعة في القرون الأولى:

١- زرار بن أعين، شيخ أصحابنا في زمانه، كان قارئاً متكلماً، قال ابن النديم: وزرارة أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام (المتوفى ١٥٠هـ).

٢- محمد بن علي بن النعمان البجلي المعروف بمؤمن الطاق (المتوفى ١٤٨هـ). له كتب في الكلام قال ابن النديم: وكان متكلماً حاذقاً، وله من الكتب: كتاب الإمامة والمعرفة، وكتاب الرد على المعتزلة.

٣- هشام بن الحكم، قال ابن النديم: هو من متكلمي الشيعة الإمامية وبطانتهم، وقد ذكر الرجال المعروف النجاشي كتبه الكلامية البالغة ٣٠ كتاباً، قال أحمد أمين المصري: هشام بن الحكم أكبر شخصية شيعية في الكلام، وكان قوي الحجة، ناظر المعتزلة وناظروه.

٤- قيس بن الماصر، أحد أعلام المتكلمين تعلّم الكلام من علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وهو من عيون المتكلمين بين أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.

٥- عيسى بن روضة، كان متكلماً جيّد الكلام وله كتب في الإمامة.

إلى غير ذلك من متكلمي القرن الثاني ويليهم في القرن الثالث أناس بارزون في الكلام، وإليك أسماء طائفة منهم:

١- الفضل بن شاذان (المتوفى ٢٦٠ هـ).

٢- الحكم بن هشام بن الحكم المتوفى في أوائل القرن الثالث.

٣- محمد بن عبد الله بن مملك الاصفهاني، له كتاب مجالس مع أبي علي الجبائي.

٤- إسماعيل بن محمد المخزومي، له كتاب المعرفة.

إلى غير ذلك من متكلمي الشيعة في القرن الثالث.

دخل القرن الرابع وبرز متكلمون من الشيعة، كالحسن بن علي بن أبي عقيل، وإسماعيل بن علي بن نوبخت، ومحمد بن عبد الرحمن بن قبة الرازي، والحسن بن موسى أبي محمد النوبختي، مؤلف كتاب الآراء والديانات، وكتاب فرق الشيعة.

وأما القرن الخامس فحدث عن متكلمي الشيعة فيه ولا حرج كابن المعلم المفيد (المتوفى ٤١٣ هـ) الذي انتهت إليه رئاسة متكلمي الشيعة وتلميذه السيد الرضي، وتلميذه الآخر السيد المرتضى وغيرهم.

وأما مساهمة الشيعة في العلوم الطبيعية فمن أكبر علمائهم جابر بن حيان وهو الذي ظهر في حقل الكيمياء، والشريف أبو القاسم علي بن قاسم القصري من علماء القرن الرابع، إلى إن وصلت النوبة إلى نصير الملة والدين نصير الدين الطوسي، فأسس معهداً للأبحاث الطبيعية لا مثيل له وجهزه بالآلات الفلكية التي زادت في شهرة المعهد ورفعت مكانته.

كما أسس مرصد مراغة وجلب إليه علماء من مختلف أنحاء المعمورة.

تقول السيدة زبيغريد هونكه: «إن نصير الدين أحضر إلى مكتبة المعهد أربعمائة ألف مجلد كانت قد سرقت من مكتبات بغداد وسوريا وبلاد بابل، وقد استدعى علماء ذوي شهرة واسعة من اسبانيا ودمشق وتفليس والموصل إلى مدينة مراغة لكي يعملوا على وضع الازياج بأسرع وقت ممكن»^(١).

وفي مجال الجغرافيا نذكر في المقام رحالتين طافا في البلاد الإسلامية وكتبا ما يرجع إلى جغرافية البلدان وقد صار كتاباهما أساساً للآخرين:

١- أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي، المتوفى في أواخر القرن الثالث، فهو أول جغرافي بين العرب وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته الخاصة متوخياً ضبط ما أراد من وصف البلد وخصائصه.

٢- أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (المتوفى ٣٤٦ هـ) فقد ألف في ذلك المضمار كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وكتابته الآخر: «التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم» وكتابته الثالث «التنبية والاشراف» فقد اشتمل وراء التاريخ على الجغرافية وتقويم البلدان، وقد جره حبه للاستطلاع إلى السفر إلى بلاد نائية فكتب ما رآه وشاهده.



هذه الإمامة عابرة حول الشيعة وفقهها وتاريخها، وتراثها، والأعمال التي قامت بها في بناء الحضارة الإسلامية ذكرناها على وجه الإيجاز، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب الموسعة المعدة لذلك، ونذكر على سبيل المثال:

١- المراجعات، تأليف السيد شرف الدين الموسوي العاملي (١٢٩٠-).

١. السيدة زبيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب: ١٣٣. والتسمية الأجدر: شمس الإسلام ...

١٣٧٧ هـ).

٢- أصل الشيعة وأصولها، للشيخ محمد كاشف الغطاء (١٢٩٥-١٣٧٣ هـ).

٣- تاريخ الشيعة، للشيخ محمد حسين المظفر (المتوفى ١٣٧٥ هـ).

٤- أوائل المقالات، للشيخ المفيد (٣٣٦-٤٠٣ هـ).

٥- الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الإمامية، للسيد صدر الدين المدني الحسيني (المتوفى ١١٢٠ هـ).

٦- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، للشيخ آغا بزرك الطهراني (١٢٩٣ - ١٣٨٩ هـ).

٧- الشيعة والتشيع، تأليف محمد جواد مغنية (المتوفى ١٤٠٠ هـ).

٨- الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، تأليف هاشم معروف الحسني (المتوفى ١٤٠٧ هـ).

٩- أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين العاملي (١٢٨٤ - ١٣٧١ هـ).

١٠- آخرها «الإلهيات» بقلم المؤلف.

جامعات الشيعة:

الإسلام دين العلم والمعرفة يحاول دفع الإنسان من حضيض الجهل إلى أعلى مستويات العلم والكمال، فأراد للإنسان حياة نابضة بالفكر والثقافة وقد كانت للشيعة خلال القرون الماضية جامعات في أقطار مختلفة نشير إلى بعضها:

١- المدينة المنورة:

إنّ الجامعة الأولى للشيعة أسست بيد الإمامين الهامين الباقر والصادق

ﷺ فقد تقاطر طلاب العلم وعشاق الحقيقة إلى الاستفادة من علومهما، وكان لهما دور في صيانة وإحياء السنّة النبوية وتفسير القرآن الكريم وتربية طليعة إسلامية في العلوم المختلفة .

٢- الكوفة وجامعها الكبير:

لما هاجر الإمام أمير المؤمنين من المدينة إلى الكوفة، استوطن معه خيار شيعته ومن تربى على يديه من الصحابة والتابعين وكانت نواة لجامعة شيعية ثانية.

ولما غادر الإمام الصادق المدينة المنورة إلى الكوفة أيام أبي العباس السفاح حيث مكث فيها مدة سنتين مغتماً تلك الفرصة الذهبية التي أوجدتها الظروف السياسية، فربى جيلاً كبيراً من المحدثين والفقهاء في عصره، وكان أبو حنيفة واحداً ممن تربى على يد الإمام الصادق ﷺ مدة سنتين.

وهذا هو الحسن بن علي الوشاء يحكي لنا ازدهار مدرسة الكوفة بعد رحيل الإمام الصادق ﷺ يقول: أدركت في هذا المسجد يعني مسجد الكوفة تسعمائة شيخ كلُّ يقول حدّثني جعفر بن محمد ﷺ.

ويضيف النجاشي - ذلك الرجالي الكبير - ويقول:

كان هذا الشيخ (الحسن بن الوشاء) عيناً من عيون هذه الطائفة، ثم ذكر كتبه.

ومن خريجي هذه المدرسة: هشام بن محمد بن سالم الكلبي الذي ألّف أكثر من مائتي كتاب، وابن شاذان الذي ألّف ٢٨٠ كتاباً، وابن أبي عمير الذي صنّف ١٩٤ كتاباً، وابن دوئل الذي صنّف ١٠٠ كتاب، وجابر بن حيّان أستاذ الكيمياء والعلوم الطبيعية.

٣- مدرسة قم والرِّي:

كانت مدرسة الكوفة مزدهرة بالعلم والثقافة ففي حوالي سنة ٢٥٠ هـ هاجر إبراهيم بن هاشم الكوفي إلى قم ونشر فيها حديث الكوفيين فصارت مدرسة قم والرِّي مزدهرة بالمحدثين والرواة الكبار، وساعد على ذلك بسط الدولة البويهية نفوذها على تلك البلدان، وقد خرج من تلك المدرسة علماء ومحدثون، نظراء:

١- محمد بن يعقوب الكليني المتوفى ٣٢٩ هـ مؤلف الكافي في الأصول والفروع.

٢- علي بن حسين بن بابويه والد الشيخ الصدوق صاحب الشرائع المتوفى عام ٣٢٩ هـ.

٣- ابن قولويه أبي القاسم جعفر بن محمد (٢٨٥ - ٣٦٨ هـ) إلى غير ذلك من أعلام الحديث والفقه.

٤- مدرسة بغداد:

كانت مدرسة الكوفة تزدهر بمختلف النشاطات العلمية حينما كانت بغداد عاصمة للخلافة. ولما أخذ الضعف يدب في الخلافة العباسية وكانت مقاليد الأمور بيد البويهيين، تنفّس علماء الشيعة الصعداء في أكثر مناطق العراق فأسسوا مدرسة رابعة للشيعة في بغداد أنجبت شخصيات مرموقة تفتخر بها الإنسانية ومن نتائجها ظهور أعلام نظير:

١- الشيخ المفيد (٣٣٦ - ٤١٣ هـ) تلك الشخصية الفذة حيث اعترف الموافق والمخالف بعلمه وفضله.

٢- السيد المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ) صاحب الانتصار في الفقه والأمثالي.

٣- السيد الرضي (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ) جامع نهج البلاغة، ومؤلف الكتب القيمة في التفسير والأدب، وهو وأخوه كوكبان في سماء العلم والأدب غنيان عن التعريف.

٤- الشيخ الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) وهو شيخ الطائفة ومن أعلام الأئمة تربى على يد شيخه المفيد والسيد المرتضى وله كتاب «التبيان في تفسير القرآن» و«التهذيب» و«الاستبصار» وهما من المصادر المهمة عند الشيعة.

وكانت مدرسة بغداد زاهرة في عهد هؤلاء الأعلام، وقام كلّ منهم بدور كبير في تطوير العلوم وتقدّمها من خلال تخريج نخبة من المجتهدين والمحدثين، من الشيعة والسنة.

٥- جامعة النجف الأشرف:

لما دخل طغرل بك - الحاكم التركي - بغداد وأشعل نار الفتنة بين الطائفتين السنة والشيعة، وأحرق دوراً في الكرخ ومكتبة الشيخ الطوسي، لم يجد زعيم الشيعة آنذاك بداً من مغادرة بغداد إلى النجف الأشرف، وتأسيس جامعة علمية فقهية عند جوار ضريح أمير المؤمنين عليه السلام سنة ٤٤٨ هـ.

وقد مضى على عمرها قرابة ألف سنة وهي جامعة كبيرة لها حقوقها الكبرى على الإسلام والمسلمين، وقد خرّجت الكثير من المحققين والمفكرين في مختلف أصناف العلوم ولم تزل مشعة حتى اليوم.

٦- مدرسة الحلة:

في الوقت الذي كانت جامعة النجف تزدهر وتنجب أفضالاً أسست جامعة في الحلة الفيحاء وكانت تحتضن كبار المحققين، كالمحقق الحلي صاحب

الشرائع (٦٠٢ - ٦٦٧ هـ)، وجمال الدين الحسن بن يوسف المعروف بالعلامة الحلي (٦٤٨ - ٧٢٦ هـ) صاحب الموسوعات الفقهية الكبيرة، وفخر المحققين ولد العلامة الحلي (٦٨٢ - ٧٧١ هـ)، إلى غير ذلك من رجال الفكر كابن طاووس، وابن ورام، وابن نما، وابن أبي الفوارس الذين أنجبهم مدرسة الحلة.

٧- الجامع الأزهر:

امتدّ سلطان الدولة الفاطمية من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، ونافست الدولة الفاطمية الشيعية خلافة الحكّام العباسيين في بغداد، وكان المعز لدين الله (٣١٩ - ٣٦٥ هـ) أحد الخلفاء الفاطميين بمصر رجلاً مثقفاً ومولعاً بالعلوم والآداب، وقد أسس أعظم جامعة علمية إسلامية باسم الجامع الأزهر، وكانت جامعة شيعية من بدء تأسيسها إلى قرنين. وهناك جامعات أخرى للشيعية في أقطار العالم كافغانستان وباكستان والهند وسوريا تضم علماء ومدّرسين كبار.

وأما اليوم فالجامعة العلمية بقم التي أسسها الشيخ عبد الكريم الحائري (١٢٧٤ - ١٣٥٥ هـ) عام ١٣٤٠ هـ أكبر جامعة شيعية تحتضن قرابة ٢٨ ألف أستاذ ومساعد وطالب ومحقق وكاتب ومفكر.

دول الشيعة:

حاول الأمويون القضاء على التشيع وأراد العباسيون الحدّ من انتشاره بعد اليأس من استئصاله ولكن نما وازدهر عبر القرون بالرغم من تلك العوائق، بل قامت لهم هنا وهناك دول ودويلات نظير:

- ١- دولة الادارسة في المغرب (١٩٤ - ٣٠٥ هـ).
- ٢- دولة العلويين في الديلم (٢٠٥ - ٣٠٤ هـ).
- ٣- دولة البويهيين في العراق وما يتصل بها من بلاد فارس (٣٢١ - ٤٤٧ هـ).
- ٤- دولة الحمدانيين في سوريا والموصل وكركوك (٢٩٣ - ٣٩٢ هـ).
- ٥- دولة الفاطميين في مصر (٢٩٦ - ٥٦٧ هـ).
- ٦- دولة الصفويين في إيران (٩٠٥ - ١١٣٣ هـ).
- ٧- دولة الزندين (١١٤٨ - ١١٩٣ هـ).
- ٨- دولة القاجاريين (١٢٠٠ - ١٣٤٤ هـ).

أضف إلى ذلك وجود امارات للشيعية في نقاط مختلفة.

إنّ اطناب القول في مؤسس هذه الدول وترجمة أحوالهم وما آل إليه مصيرهم يحوجنا إلى تأليف كتاب مستقل فنترك المقال في ذلك وعلى القراء مراجعة الكتب المؤلفة في هذه المواضيع.

أمّا اليوم فتتواجد الشيعة في جميع أنحاء العالم بنسب مختلفة وربّما تعد بعض البلدان معقل الشيعة و التشيعُ مذهباً سائداً فيها. وإليك أسماء بعضها وهي : إيران، والعراق، والحجاز، والشام، وتركيا، وأفغانستان، والباكستان، والهند، واليمن، ومصر، والامارات العربية المتحدة، والبحرين، والاحساء، والقطيف، والكويت، ومسقط، وعمان، والتبت، والصين، وجمهورية اذربايجان، وطاجيكستان، والجمهوريات المتحررة بانحلال الاتحاد السوفيتي، وماليزيا، واندونيسيا، وسيلان، وتايلند، وسنغافورة، وأفريقيا الشمالية، والصومال، والارجنتين، وبريطانيا، والمانيا، وفرنسا، والبنانيا، والولايات المتحدة، وكندا، وغيرها مما يعسر عدها.

خاتمة المطاف:

قاربوا الخطي أئها المسلمون

قد تعرّفت على المنهج الشيعي عقيدة وشريعة، بقيت هنا كلمة وهي أنّ المذهب الشيعي على الرغم من امتيازه بأصول وفروع نابغة عن صميمه، لكنه لا يحول دون اتحاد المسلم الشيعي مع أخيه المسلم السنّي.

هذا هو القرآن الكريم يتطرق إلى الوحدة ورص الصفوف ويمدحه بحماس ويقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١).

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾^(٢).
ويذم بشدة كل ما يمس بهذه الوحدة قائلاً: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا
وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾^(٣).

حتى إنه سبحانه يعدّ الفرقة نوع عذاب من الله سبحانه إلى من سعى إليها.
ويقول سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ
مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾^(٤).

ففي ظلّ هذه الدعوة المباركة ترحّب الشيعة بكلّ خطوة نحو التقريب ولمّ الشمل وتندد بكل نكرة طائفية تفرّق شمل المسلمين وتهذّ كيانهم.

إنّ دعاة الوحدة لا ييغون سوى تقريب الخطي وتعريف المسلمين بعضهم

٢. الحجرات: ١٠.

٤. الأنعام: ٦٥.

١. آل عمران: ١٠٣.

٣. آل عمران: ١٠٥.

ببعض حتى يقفوا على المشتركات الكثيرة التي تجمعهم وهي الكتاب وسنة النبي ﷺ وإنما اختلافهم في فهم هذين المصدرين ولكل حجة ودليله. وللمصيب أجران وللمخطي أجر واحد.

نحن نعيش في عصر تحالفت فيه القوى الكافرة، على إطفاء نور الله والحدّ من الصحوّة الإسلامية فعلى الرغم من التشتت السائد بين تلك القوى العاشمة في أصول السياسة والاقتصاد، لكنهم متفقون على إبعاد الإسلام عن ساحة الصراع الحضاري للحيلولة دون وصول المسلمين إلى مركزهم المرموق في بناء الحضارة.

فالمعسكر الشرقي والغربي طرفا مقص يتحركان معاً لاجتثاث الإسلام. فإذا كان هذا ديدنهم فلماذا لا نتحد نحن معاصر المسلمين فإنّ ما يجمعنا أكثر ممّا يفرّقنا؟

إنّ التعاون والمواساة من أهمّ الأصول الاجتماعية، إذ بالتعاون يقوم صرح المجتمع وقد ندب إليه الإسلام حيث قال ﷺ: «من أصبح ولم يهتم بأُمور المسلمين فليس بمسلم»، فعلى المسلمين جميعاً أن يتعاونوا في مسائلهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصناعية ليستغنوا بذلك عن القوى الشرقية والغربية.

يا أبناء أمتنا الإسلامية المجيدة فالله ربكم والقرآن كتابكم والكعبة قبلتكم والسنة منهجكم، فكونوا يداً واحدة على من سواكم، ورضوا صفوفكم أمام أعدائكم، ولا تصغوا لكل نكرة تهدّد وحدة كلمتكم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

جعفر السبحاني

قم - الحوزة العلمية

١١ / ربيع الآخر / ١٤١٧ هـ

الرسالة الثانية



الشيعة الإمامية

في دائرة المعارف المصرية «السفير»

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.
أما بعد: فقد وقفت على مقال حول الفرقة الاثني عشرية في دائرة المعارف المصرية «السفير»، قرأته بامعان ودقة فوجدت فيه أخطاء لا تُغفر، وزلات لا تُستقال، علّقتُ عليه التعليقات الآتية مع تبني الایجاز والاختصار.
إنَّ السَّنةَ المتَّبعةَ عند كُتَّاب دائرة المعارف هو تبين المفاهيم المختلفة استناداً إلى المصادر والمراجع المقبولة، بلا أيّ تحيُّز، لكن المقال كُتِبَ لغاية الردِّ على هذه الطائفة لا على تبين عقائدها حقّة كانت أم باطلة.
كان من اللازم على كاتبه أن يشير إلى عقائدهم وأصولهم وفروع مذهبهم في مقال خاص، ثم يُعلّق عليها في آخر المقال بشيء ...، لا أن يبتدئ بالردِّ والنقد العنيف معتمداً على كتب الخصوم بدل كتبهم الخاصة بهم.
هذه هي السَّنةُ الدارجة بين أبناء دائرة المعارف ولكن الكاتب لم يتَّبِعها. فما هو الوجه؟ لا أدري ولا المنجم يدري، ولا القراء يدرون !!
ولإيقاف القارئ على ما في المقال من الأخطاء والقضاء الجائر نأتي بنصه أولاً ثم نردفه بالتعليق ثانياً:

نص المقال في دائرة المعارف المصرية «السفير» :

الاثنا عشرية

هي إحدى فرق الشيعة، ويُطلق عليها أيضاً عدة أسماء أخرى، منها:
«الجعفرية» نسبة إلى «جعفر الصادق».

و «الرافضة» لأنهم رفضوا نصرة الإمام «زيد بن علي زين العابدين» (٧٩ - ١٢٢ هـ = ٦٩٨ - ٧٤٠ م) حين طلبوا منه سب «أبي بكر» و «عمر» - رضي الله عنهما - فأبى.

و «الإمامية» نظراً لآرائهم الخاصة في الإمامة، وجعلهم إياها أصلاً من أصول الدين.

أمّا لقبهم «الاثنا عشرية»؛ فلقبهم بأنّ منصب الإمامة ليس باختيار الأمة، وإنّما قد حدده الله وعينه في «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه، وفي أحد عشر من ذريته من أولاد «فاطمة الزهراء» رضي الله عنها، وهم بالتتابع بعد «علي» رضي الله عنه (المعروف عندهم بعلي المرتضى):

١- «الحسن بن علي» المتوفى سنة (٥٠ هـ = ٦٧٠ م) ولقبه «الحسن المجتبي».

٢- «الحسين بن علي» المتوفى سنة (٦١ هـ = ٦٨٠ م) ولقبه «الحسين الشهيد».

٣- «علي زين العابدين بن الحسين» المتوفى سنة (٩٤ هـ = ٧١٢ م) ولقبه «السّجاد».

٤- «محمد بن علي زين العابدين» المتوفى سنة (١١٤ هـ = ٧٣٢ م) ولقبه «محمد الباقر».

٥- «جعفر بن محمد» المتوفى سنة (١٤٨ هـ = ٧٦٥ م) ولقبه «جعفر الصادق».

٦- «موسى بن جعفر» المتوفى سنة (١٨٣ هـ = ٧٩٩ م) ولقبه «موسى الكاظم».

٧- «علي بن موسى» المتوفى سنة (٢٠٣ هـ = ٨١٨ م) ولقبه «علي الرضا».

٨- «محمد بن علي» المتوفى سنة (٢٢٦ هـ = ٨٤٠ م) ولقبه «محمد الجواد».

٩- «علي بن محمد» المتوفى سنة (٢٥٤ هـ = ٨٦٨ م) ولقبه «علي الهادي».

١٠- «الحسن بن علي» المتوفى سنة (٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م) ولقبه «الحسن العسكري».

١١- «محمد بن الحسن» المتوفى سنة (٢٦٥ هـ = ٨٧٨ م) ولقبه «محمد المهدي».

و «الاثنا عشرية» أكثر فرق الشيعة عدداً في العالم، وبخاصة في قارة «آسيا»، ويبلغ عدد الشيعة بعامة قرابة (١٠٠) مليون شخص يمثلون حوالي ١٠٪ تقريباً من إجمالي عدد المسلمين.

وفي أواخر عهد الإمام السادس «جعفر الصادق» أخذ بعض الغلاة يتجمعون حول ولده إسماعيل؛ مما دفعه إلى جمع الناس وإشهادهم على وفاة إسماعيل الذي مات في حياة أبيه عام (١٤٣ هـ = ٧٦٠ م) واختار ولده الآخر «موسى الكاظم» - كما تروي الاثنا عشرية - إماماً بعده، وقد قام بأمر الطائفة في نطاق سياسة أبيه «جعفر» التي نزعت إلى السلم، واتجهت إلى العلم والنشاط

الروحي، ومن «الكاظم» تناسل الأئمة حتى «محمد بن الحسن العسكري» الإمام الثاني عشر و «المهدي المنتظر».

لكن الشيعة انقسموا بعد وفاة «جعفر» - رضي الله عنه - فتنع أكثرهم «الكاظم» وهم الاثنا عشرية، وأصرت طائفة أخرى على إمامة «إسماعيل» منكرة إمامة «الكاظم»، وقالوا بإمامة «محمد بن إسماعيل» بعد «جعفر» مباشرة، ومن هؤلاء تشكلت طائفة الإسماعيلية التي تغلو في التأويل الباطني، وترى أنّ للإمام وظيفة كونية بجانب سلطته التشريعية كمصدر للشرع، وسلطته التنفيذية كمنفذ له. كما نزعت إلى المبالغة في التقيّة والاختفاء، والظاهر والباطن في تأويل أحكام الدين، وقد استخدمت دولتها الفاطمية في «مصر» و «المغرب» في تحقيق ما ترمي إليه.

وكان الشيعة الاثنا عشرية - بخلاف «الزيدية» و «الإسماعيلية» - قد اتجهوا وجهة ثقافية روحية بتأثير «جعفر الصادق»، وأعرضوا عن النشاط السياسي إلى حد كبير؛ وبخاصة النشاط الثوري المسلح الذي لجأت إليه فرق الشيعة الأخرى، إلّا ما كان منهم عند سقوط «بغداد» في يد «التتار» ونشوء الدولة «الإيلخانية» التي قامت بعد ذلك في القرنين (٧، ٨ هـ = ١٣، ١٤ م).

وعلى الرغم ممّا يؤخذ عليهم في أثناء هذه الفترة، فقد أسهموا في تحويل بعض قادة المغول إلى الإسلام، وإلى التشيع بطبيعة الحال، ولكنهم أحسوا ببعض القوة في العهد الجديد الذي أعقب سقوط الخلافة العباسية؛ ممّا كان له أثر في إشعال الجدل الطائفي الذي يتمثل في عدة مؤلفات: من أبرزها كتاب «الحسن بن المطهر» «منهاج الكرامة» الذي ردّ عليه «ابن تيمية» بكتابه «منهاج السنّة»، وتابعه علماء آخرون، وبخاصة في الهند وفارس وما حولهما. ومن أبرز ما كتبه أهل السنّة في ذلك «التحفة الاثنا عشرية» للشيخ «عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي».

وفي أواخر عهد الأئمة كان من بين الاثني عشرية رجل بلغ النشاط والحماة للمذهب، مع نزوع إلى الغلو، اسمه «محمد بن نُصَيْر النميري» (٢٧٠ هـ = ٨٨٣ م) وقد عاصر الأئمة الثلاثة المتأخرين: «علي الهادي» (٢١٤ - ٢٥٤ هـ = ٨٢٩ - ٨٦٨ م) و «الحسن العسكري» (٢٣٠ - ٢٦٠ هـ = ٨٤٤ - ٨٧٣ م) و «محمد المهدي» الثاني عشر المولود (٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م) والمتنظر ظهوره فيما يعتقدون.

وقد زعم «ابن نصير» هذا أنه «الباب» إلى الإمام «الحسن العسكري»، فتبعه طائفة من الشيعة سموا بالنُصَيْرية، وخالفه جمهورهم الذين أنكروا ادعاءاته، وقالوا بأن المرجعية الدينية بعد موت «العسكري» وغيبة ولده «المهدي» ترجع إلى لجنة من أربعة أشخاص، هم: «عثمان بن سعيد العمري»، و «محمد بن عثمان بن سعيد»، و «الحسين بن روح النوبختي»، و «علي بن محمد السمرى».

ويغلب الغلو على عقائد النصيرية، إذ يؤلهون علياً، ويتركون ظاهر الشرع، ويهملون المساجد وصيام رمضان، ويخالفون بعض الأحكام في النكاح وغيره، ويقولون بثالوث من علي ومحمد وسلمان الفارسي، وأن معنى الألوهية تَشَخُّص في علي، ثم محمد، ثم سلمان الفارسي، ثم المقداد.

وتتسم عقيدتهم بالمبالغة في السرية، وهم في هذا كله يقلدون من سبقهم من غلاة الشيعة منذ عبد الله بن سبأ، ومن جاء بعده؛ وخاصة «الخطابية» أتباع «أبي الخطاب الكاهلي» الذي زعم أنه (الباب) للإمام الخامس^(١) «موسى الكاظم»، ثم قال بتأليه الأئمة ونسخ بعض الأحكام الشرعية، والإسراف في التأويل الباطني، فأخذ النصيرية بهذا كله.

ولكن «الاثني عشرية» ينكرون مزاعم «ابن نصير» ويكفرون من اعتقد هذه

١. كذا في أصل المقال، والصحيح: السابع. المعلق.

الأقاول، بصرف النظر عن العلاقات العملية التي قد تقوم بين الطائفتين.

وقد عادت الطائفة «الاثنا عشرية» إلى تقاليدھا المسالمة وعنايتها بإشاعة العلم والاهتمام بالشؤون الاجتماعية والروحية لأتباعها إلى أن قامت للاثني عشرية دولة في «إيران» لأول مرة في التاريخ على يد الشاه «إسماعيل الصفوي» (٩٠٦ - ٩٣٠ هـ = ١٥٠٠ - ١٥٢٣ م) الذي نزع هو وخلفاؤه إلى التشيع على الرغم من أصولهم السنية الصوفية. وقد استمر حكم «الصوفيين» لإيران قرابة قرنين ونصف قرن إلى سنة ١١٤٨ هـ ^(١) = ١٧٣٥ م)، وكانوا خلال حكمهم في عداء شبه مستمر مع الخلافة العثمانية، ونشبت بينهما الحروب التي أسهمت في انحسار المد الإسلامي عن «أوربا» وتمزق بلدان العالم الإسلامي وتفككها، ثم سقوطها في براثن الاستعمار الغربي، ومما ساعد على ذلك: اتفاق الشاه «إسماعيل الصفوي» مع البرتغاليين ضد دولة الخلافة العثمانية، وسيطرتهم على بعض جزر الخليج كقاعدة موجهة لحرب «الخلافة العثمانية»، ثم قيام الشاه «عباس الصفوي» بعد توليه الحكم عام ٩٩٦ هـ = ١٥٨٧ م) بالتحالف مع «الإنجليز» لمحاربة دولة الخلافة، كما توقف الحج إلى «مكة» في عهده، وروجت الدولة لزيارة مدينة «مَشهد»، وهي مدينة «طُوس» القديمة التي دفن بها «الرشيد» وولد فيها «أبو حامد الغزالي» وغيره من أئمة المسلمين، ولكن مكانتها الدينية لدى الاثني عشرية ترجع إلى كونها تضم رفات الإمام الثامن «علي الرضا». وهو الإمام الوحيد المدفون بإيران، وبسبب ذلك اشتهرت باسمها الحالي.

وهذا التحالف مع الغزاة الأجانب، مع تمادي الخلاف بين الدولتين، قد مهد للاستعمار الغربي فرصة تمزيق العالم الإسلامي واحتلال أراضيه، وكان هذا الصراع المذهبي والسياسي من أهم أسباب هزيمة العثمانيين - والعالم الإسلامي

من ورائهم - أمام حمية الغرب الغازية.

وحين تحولت «الدولة الصفوية» إلى المذهب الشيعي كثر التشيع بإيران وصار أتباعه هناك أكثرية. بعد أن كانت الأغلبية سنية في تلك البلاد، ويرجع الاضطراب بين الطائفتين - إلى حد كبير - إلى العداء الذي خلفته «الدولة الصفوية» في إيران ضد أهل السنة، فبرغم أن عدد أهل السنة يصل الآن حوالي ٢٠٪ من إجمالي عدد السكان في إيران إلا أنهم محرومون من تولي الوظائف الرئيسية في الدولة، ومن صلاة العيدين، ومن بناء مسجد لهم بطهران العاصمة، على الرغم من وجود (١٢) كنيسة للنصارى بها ومعبدين لليهود، ومثلهما للمجوس، وآخرين للهندوس.

وقد تطور مذهب الاثني عشرية على مر الزمن وأسهم العداء السياسي والغلو المذهبي في انفراد الطائفة بعقائد ومبادئ تتجافى عن روح الإسلام السمحة، ومقتضيات المنطق السليم، ومنها:

١. الإمامة والخلافة:

يدعي «الاثنا عشرية» أن الله أمر نبيّه بأن يعلن في الناس أن عليّاً وصيّهُ وأنّه الإمام من بعده عُقْب حجة الوداع في طريق عودته من مكة إلى المدينة عند مكان يسمى «غدير خُم»، ويرون أن تستمر الإمامة في ولد «علي بن أبي طالب» و«فاطمة الزهراء» إلى يوم القيامة، وأنّ «عليّاً» هو الإمام بعد النبي ﷺ بلا فصل بتعيين الله له، ولكن الصحابة بايعوا «أبا بكر الصديق» و«عمر» و«عثمان» - رضي الله عنهم - ولذلك فإنّهم يعتقدون أن أكثر الصحابة خالفوا النص، وهو قول النبي ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه».^(١)

وقوله: «... اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاداه»^(١).

وقد ورد كلا الحديثين فيما يرويه أهل السنّة من سنن النبي ﷺ وآثاره، ومعناها - فيما يتأوله «الاثنا عشرية» - الوصية له بالخلافة، ولكنها لدى أهل السنّة وصية عامة بإكرام آل البيت، وتنويه بمكانة «علي» رضي الله عنه.

وهم يستشهدون أيضاً بآثار أخرى، بعضها ضعيف والآخر موضوع (زائف) تدلّ لديهم على ولاية الإمام «علي بن أبي طالب» - رضي الله عنه - وخلافته للنبي ﷺ، وهذه الآثار لا تدل عند علماء السلف والخلف من أهل السنّة على ما ذهبوا إليه من وصية الرسول ﷺ لـعلي بالخلافة من بعده؛ إذ الولاية تُردّ بمعنى النصرة والمودة والولاء والأخوة، لا بمعنى الإمامة والخلافة حتّى، كما في قوله تعالى عن ولاية المؤمنين بعضهم بعضاً:

﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٢).

كما قال سبحانه عن ولاية الكافرين بعضهم بعضاً:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٣).

والإمامة عند الاثني عشرية من حق «علي» رضي الله عنه، وأحد عشر من ذريته، حيث نص كل إمام على من بعده حسب رواياتهم المتداولة فيما بينهم.

وهم يعنون الإمامة ركناً وأصلاً من أصول الدين، ولكنها (أي الإمامة) أصل مذهبي في رأيهم، فمن لم يعرف إمام زمانه ولم يُبايعه عُددَ خارجاً عن المذهب، ولكنّه في عامة المسلمين، وربّما غلا بعضهم فكفره، غير أنّهم يرون فسق من لم يُبايع الإمام وكفر من يجاربه، مع أنّ الإمام «عليّاً» - رضي الله عنه - لم يكفر

١. مسند أحمد: ١/١١٨.

٢. الأنفال: من ٧٢.

٣. الأنفال: من ٧٣.

الخوارج الذين كفّروه وحاربوه، وأمر ألا يُمنعوا من المساجد، وأن يُدفن موتاهم في مقابر المسلمين.

ويزعم «الاثنا عشرية» أن أئمتهم معصومون من الخطأ، والمعصية، ولهم صفة المعرفة اللدنية، دون حاجة إلى تلقين الرواة، فيصح لهم أن يرووا عن رسول الله ﷺ مباشرة دون سند من الرجال، كما أنهم يعلمون الغيب، ولا يموتون إلا باختيار منهم، ولذا يعتبرون عهد الوحي مستمراً إلى غيبة الإمام الثاني عشر، ولا يُباح الاجتهاد مع وجود الإمام، وإنما يبدأ الاجتهاد الفقهي بعد تلك الغيبة.

وفكرة «الإمامة» على هذا النحو ترجع إلى آراء مغالية ظهرت في الفترات الأولى من تاريخ المسلمين، ثم ورثها الاثنا عشرية، واتخذوها أصولاً لهم، وكان من نتائجها إيقاع العداوة والشقاق بين جمهور المسلمين.

ومّا يدل على بطلان مبدأ «الإمامة» بصيغته تلك — عند «الاثني عشرية» — ما فعله الإمام «علي» رضي الله عنه؛ إذ بايع «أبا بكر الصديق»، ونصره بنفسه وولده، ممّا يدل على عدم وجود نص لديه يوصي له بالإمامة، ولو وُجد هذا النص لأخذ به الصحابة — رضوان الله عنهم — الذين كانوا أشد حرصاً على طاعة الله ورسوله، وكذلك بايع «علي» — رضي الله عنه — كلاً من «عمر» و «عثمان» — رضي الله عنهما — بالخلافة، وسمى أولاده بأسمائهم، كما زوج «عمر بن الخطاب» من ابنته «أم كلثوم»، وأخلص لهؤلاء الخلفاء الثلاثة المشورة والنصرة.

وكل هذه الوقائع تدل على أنه بايع مختاراً، وليس مكرهاً كما يدعي «الاثنا عشرية»، وعندما سئل وهو على فراش الموت عمن يستخلفه من بعده، قال: «لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ».

ولو كانت الإمامة حُدّدت في «علي» وأولاده كما يزعمون، لعَيّن الإمام «علي» ابن أبي طالب — كرم الله وجهه — ابنه «الحسن» — رضي الله عنه — خليفة للمسلمين

من بعده.

وبعد أن بُوع «الحسن» بالخلافة، صالح «معاوية بن أبي سفيان» - رضي الله عنه - وتنازل له عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين، مما يسقط دعاوى القوم في بطلان ولاية أي إمام غير الاثني عشر.

ثم إنّ الإمامة لو كانت معينة بوصية الرسول ﷺ في «علي» وأولاده كما يرون، لما استطاع أحد من الصحابة أن يخالفها.

٢. المعاد والرجعة:

تعتقد الاثنا عشرية بالمعاد واليوم الآخر، وبتفاصيل ذلك من الجنة والنار، والنعيم والعذاب الحسيين، وبالحياة البرزخية، والحشر والنشر، والميزان والصراف كما وردت في الكتاب والسنة، وأنّ الله تعالى هو الذي يحاسب الخلق على ما قدموا في حياتهم الدنيا، ويجزيهم عليها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ويعتقدون برجعة «المهدي المنتظر» الإمام الثاني عشر «محمد بن الحسن العسكري» قبل القيامة مهما طال غيبته ليملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، ويقول بعض غلاتهم برجوع الأئمة الاثني عشر إلى الدنيا بعد أن يكون «المهدي» قد سبقهم إليها، كما يعود إلى الحياة أعداء الأئمة من الصحابة وغيرهم ليقتص منهم على رؤوس الأشهاد، ثم يموتون انتظاراً للبعث والجزاء الأخروي.

وهذه المعتقدات الغالية - مما لا دليل عليه - ليست عامة في مذهبهم، ولكن ما هي إلا روايات ضعيفة منسوبة إلى بعض أئمتهم.

وأول من قال بفكرة (الرجعة) ودعا إليها «عبد الله بن سبأ» اليهودي، فأخذ يقول برجعة الرسول ﷺ مثل «عيسى» عليه السلام، واستشهد بقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ﴾ . (١)

ثم قال برجعة «علي بن أبي طالب» - رضي الله عنه - . وقد ترتب على القول بعقيدة «الرجعة» تمزيق الصف الإسلامي، وتقوية الفرقة بين الشيعة وأهل السنة، كما أثرت في دعاة الفرق الغالية المتأخرة التي تشبثت بهذه الأقاويل الفاسدة، من آخرهم: «ميرزا محمد» مؤسس «البابية» (وهي فرقة دينية نشأت بإيران منشقة عن الاثني عشرية إبان القرن ١٣ هـ = ١٩ م) و «الميرزا حسين، بهاء الله» مؤسس «البهائية» وهي صورة متطورة من البابية اختلفت عنها في أهدافها وأساليبها، تنحت تقليد الغلاة السابقين، وأعلنت نفسها ديانة جديدة تنسخ الجهاد وتنادي بالسلام، وتتخذ كتباً مقدسة بديلة عن القرآن، وتهدد وحدة الأمة الإسلامية بوجه خاص، وتحظى بتأييد الغرب وأجهزته الاستعمارية، ويعيش رؤساؤها الآن في ظعن الدولة الصهيونية التي تحتل فلسطين.

٣. سب بعض الصحابة وأزواج الرسول ﷺ :

ويستبيح «الاثنا عشرية» سب بعض الصحابة وأزواج الرسول ﷺ، وبخاصة السيدة «حفصة» و السيدة «عائشة» رضي الله عنهما، على الرغم من نهي النبي ﷺ عن سب الصحابة - رضوان الله عليهم -، فقال:

«لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه». (٢)

وبرغم أن سب الصحابة - رضوان الله عليهم - واتهامهم بالكذب قد يؤدي

١. القصص: من ٨٥.

٢. صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة.

المذك: مكيال قديم، نصيفه: نصفه، والمراد أن القليل الذي أنفقه أحدهم خير من الكثير الذي ينفقه غيرهم.

إلى التشكيك في القرآن الكريم والسنة النبوية، لأنهما نُقلا عن طريق الصحابة رضوان الله عليهم، ومن بعدهم من علماء الأمة بالشروط الشرعية في العدالة، والضبط وما يتصل بهما. وسب الصحابة يشيع للأسف بين عوام الاثني عشرية، ويوجد كذلك في كتب شيوخهم وعلمائهم، وكان ينبغي تنزههم عن ذلك ما داموا يدعون إلى تقارب المذاهب والفرق الإسلامية.

٤. الطعن في القرآن الكريم ودعوى التحريف:

يؤمن جمهور «الاثني عشرية» بالمصحف الذي بين أيدي المسلمين، ويعتقد بعض غلاتهم أنّ الإمام «عليّاً» - كرم الله وجهه - والسيدة «فاطمة الزهراء» - رضي الله عنها - كان لهما مصحف يخالف هذا المصحف المتواتر بين المسلمين، ويزعم هؤلاء الغلاة أنّ الصحابة قاموا بتبديله فأسقطوا كثيراً من السور والآيات التي نزلت في فضائل أهل البيت، ومن جملة ما يدعون إسقاطه ما يسمونه سورة «الولاية»، وادّعوا أنّه كان فيها: (يا أيها الذين آمنوا آمِنُوا بالنبي والولي اللذين بعثناهما يهديانكم إلى صراط مستقيم ... الخ).

وقد يضيفون أحياناً إلى بعض الآيات في السور الموجودة بالمصحف المتواتر عبارات من عندهم ليؤيدوا بها ولاية «علي» - رضي الله عنه - وأبناء الأئمة، ومن ذلك: (ألم نشرح لك صدرك [بعلي]. ومن يطع الله ورسوله [في ولاية علي والأئمة بعده] فقد فاز فوزاً عظيماً).

وهؤلاء الغلاة من دعاة التحريف يتواصلون بالعمل بها في المصحف الذي بين أيدينا؛ حتى يخرج «المهدي» ومعه المصحف الكامل في زعمهم.

ولا يخفى أنّ ما ذهبوا إليه باطل من أساسه، فقد تكفل الله تعالى بحفظ

القرآن، فقال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ^(١)

وقد روت الأمة — بأجيالها المتعاقبة وشعوبها في أركان الأرض — القرآن الكريم بسوره وآياته وحروفه بالتواتر والإجماع، كما شهدت الأمة كلها على مدى (١٤) قرناً أنَّ المصحف الذي بين الدفتين هو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ دون تحريف أو تبديل، ولم يثبت وجود مصحف لعلي أو «فاطمة الزهراء» — رضي الله عنهما — مخالف لما في أيدي المسلمين، وكان سائر أئمتهم يتلون هذا القرآن في صلواتهم ويستشهدون به في دروسهم، وكل ما روي عنهم ما زال على ما هو عليه الآن في أيدي المسلمين.

وقد سئل «علي بن أبي طالب» نفسه: هل عندكم شيء ما ليس في القرآن، فقال: والذي فلقَ الحَبَّةَ وبرأ النِّسْمَةَ (كل كائن حي فيه روح) ما عندنا إلا ما في القرآن، إلا فهما يُعطَى رجل في كتابه... ^(٢). وهذا ما أجمع عليه المسلمون كافة.

٥. التَّقِيَّةُ:

ويقصدون بها أن يُظهر الإنسان خلاف ما يُبطن، فيقول شيئاً ويضمر غيره، أو أن يقوم بعمل تعبدي لا يعتقد صحته، ثم يؤديه بعد ذلك بالصورة التي يعتقد صحتها، فالشيعة يتصرف بين خصومه كما لو كان يدين بعقيدتهم. وقد بدأوا العمل بهذا المبدأ منذ القرن الرابع الهجري، وقد يصل العمل بهذه التقية إلى حد استباحة الكذب والنفاق، وإخفاء العقيدة الأصلية عن الخصوم، ومع هذا فإنهم ينسبون إلى أئمتهم؛ بل يرفعونها إلى الرسول ﷺ فيما زعموا، مع أنه ﷺ — وأبناءه

١. الحجز: ٩.

٢. صحيح البخاري: كتاب الديات.

من علماء أهل البيت - كانوا أبعد الناس عن التقية، وكانوا من الشجاعة والإقدام بحيث يتحملون المشاق الناجمة عن مواقفهم وأرائهم بلا خوف أو تردد.

وهم ينسبون إلى «جعفر الصادق» قوله: «التقية ديني ودين آبائي». والتقية مبيحة للكذب والنفاق مبدأ مذموم في الإسلام، قال تعالى في معرض ذمه للمنافقين:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾. ^(١)

وقال ﷺ: «كبرت خيانة أن تُحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب». ^(٢)

وقال أيضاً:

«إنَّ الصدق بر، وإنَّ البر يهدي إلى الجنة، وإنَّ العبد ليتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً، وإنَّ الكذب فجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، وإنَّ العبد ليتحرى الكذب حتى يُكتب كذاباً». ^(٣)

وقد كانت التقية من أهم الأسباب التي أدت إلى غلو كثير من الشيعة، وإلى إنشاء الجمعيات المنحرفة ذات الأهداف الباطنية الهدامة، وإن كان القرآن الكريم قد أباح للمسلم - في حالة الخوف والإكراه الملجئ - أن ينطق بكلمة الكفر ظاهراً وقلبه مطمئن بالإيمان، كما في قوله تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَنِ﴾. ^(٤)

١. البقرة: ١٤.

٢. سنن أبي داود: كتاب الأدب.

٣. صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب.

٤. النحل: ١٠٦.

٦. البداء:

يقول بعض الغلاة بأن الله سبحانه وتعالى يبدو له - أحياناً - غير الذي أراده فيرجع عن إرادته الأولى إلى الذي بدأ له، وفي هذا مساس بالقدرة الإلهية، والكمال الإلهي، مما يتناقض مع العقيدة السليمة ومقتضيات العقل، كما يتعارض مع صريح القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٢).

والبداء بهذا المعنى فكرة يهودية روجها «عبد الله بن سبأ» واستغلها بعض الشيعة، لئلا يظهر على أئمتهم كذب فيما يدعونه من علم الغيب، فإن تحقق ما يقولونه لأتباعهم، قالوا لهم: ألم نعلمكم أنّ هذا سيكون، فنحن نعلم من قبل الله عز وجل ما علمته الأنبياء عن الله، وإن جاء الواقع بخلافه اعتذروا لشيعتهم وقالوا لهم: بدا الله في ذلك أمر.

ولكن «الاثني عشرية» وإن قالوا بالبداء، فهم يفسرونه بمثل ما قال به بعض أهل السنة، من قضاء مبهم وقضاء معلق، وما أشارت إليه خواتيم سورة الرعد من محو وإثبات:

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٣).

فأما القضاء المعلق فهو ما توجهت إليه الإرادة من البداية معلقاً على شرط حصوله، وكلاهما مراد منذ البدء دون بداء أو تغير في العلم أو الإرادة، وليس هذا من قبيل ما كان يلجأ إليه كذبة الغلاة تضليلاً لأتباعهم حين يتخلف بعض ما

١. طه: من ٥٢.

٢. ق: ٢٩.

٣. الرعد: ٣٩.

قالوا، ولا هو مستلزم لنسبة الجهل أو تخلف المعلوم إلى الله تعالى ويقولون بأنّ النسخ في عالم التكوين كالنسخ في عالم التشريع، فكما أنّ للنسخ حكماً وأسراراً قد تظهر أو لا تظهر، فللبداء بهذا المعنى حكم ومصالح قد تخفى على العباد.

٧. زواج المتعة:

وهو الزواج لمدة محددة، وكان الرسول ﷺ قد أباحه في بدء البعثة ^(١)، ثم حرمه تحريماً مؤبداً بعد ذلك وثبت ذلك عنه ﷺ، كما حرمه الإمام «علي بن أبي طالب» أيضاً وعمل الإمام حجة ملزمة عند الشيعة، ومع هذا فإنّ جمهور الشيعة وبعض علمائها يبيحونه ويستدلون له بآية من سورة النساء كما يؤولونها، وهي قوله سبحانه:

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. ^(٢)

وإباحة زواج المتعة يُسبب اضطراب العلاقة الزوجية، ويهز أركان الأسرة المسلمة، وإن كانوا يبررونها بأمر، منها أنّها تحل مشاكل الشباب المسلم حين يرحل إلى خارج العالم الإسلامي، غير أنّ مسألة نكاح المتعة على كل حال حكم فرعي لا يتصل بالعقيدة.

وقد ثبت عن النبي ﷺ نسخه، حيث قال:

«يا أيها الناس إنّي قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء. وإنّ الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليُخَلِّ سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً». ^(٣)

١. الصحيح: في دار الهجرة.

٢. النساء: من ٢٤.

٣. صحيح مسلم: كتاب النكاح.

٨. بدع يوم عاشوراء:

يقوم عوام الشيعة بضرب ظهورهم بالسلاسل حتى يدموها، وضرب أجسادهم بالسيوف حتى يقطعوها حزناً على استشهاد «الحسين» وفقده، أو تطهراً من مسئولية خذلانه، وغالباً ما تؤدي هذه العادات المنكرة إلى حدوث صراع بين الشيعة والسنة في المجتمعات المشتركة، وذهاب العديد من الأرواح البريئة. وليست هذه الأمور من أصول المذهب أو فروعه، ولكنها شاعت بين جماهيره - وخاصة العوام منهم - في أقطار عديدة.

وكانت السياسة الاستعمارية قد روجت لشيوع ذلك في العالم الإسلامي منذ (٢٠٠) عام، وبخاصة في شبه القارة الهندية، ولا يزال لهذه العادة نفوذ بالغ وأثر سيئ هناك؛ وإن أخذت تقل حدتها وتختفي في مناطق أخرى. ويستغل أعداء الإسلام فرصة هذه المواقب المشينة في يوم عاشوراء، ويسجلونها، ويصفون المسلمين من أجلها بالوحشية والرجعية.

٩. الخمس:

يرى الاثنا عشرية وجوب دفع الخمس من دَخل كل اثني عشري في كل عام إلى مراجع المذهب، وهم المجتهدون من قادة الطائفة الذين يتبعهم العوام ويقلدونهم ويلتزمون بفتاواهم، وذلك لينفق منه على الشؤون المذهبية والمصالح الدينية التي يقدرها هؤلاء القادة، وهم يرون ذلك بديلاً عن الزكاة وفي بعض المجتمعات التي فرضت فيها الزكاة الشرعية بحكم القانون - كباكستان - رفض الاثنا عشرية دفعها للدولة بسبب دفعهم هذا الخمس إلى مراجعهم الدينية الخاصة.

هذا وقد أحدثت «الاثنا عشرية» في الصلاة أموراً منها «السجود على التربة

الحسينية» وذلك لأنهم يقدسون تراب مدينة كربلاء (النجف) التي استشهد فيها الإمام «الحسين بن علي» رضي الله عنهما، فلا يكاد يخلو بيت من بيوت الشيعة من تلك التربة.

ومن مظاهر تقديسهم لها أنهم يقومون بالسجود عليها وتقبيلها والتبرك بها، بل وأكل قليل منها للشفاء - على الرغم من أن الفقه الشيعي يحرم أكل التراب - كما يصنعون من هذه التربة أشكالاً مختلفة يحملونها في سفرهم ويسجدون عليها في صلواتهم التماساً للقبول والبركة.

وأهم تطور في حياة الفرقة «الاثني عشرية» في العصر الحديث هو اتجاههم إلى النشاط السياسي، والعمل على إقامة الدولة التي ترعى المذهب وتحقق أهدافه وتشر مبادئه، وأهم مظهر لذلك هو قيام دولتهم المسماة «بالجمهورية الإسلامية» في إيران التي ينظمها دستور أعلنه الخميني قائد الثورة التي أقامت هذه الجمهورية. ومارس فيها الخميني ومن بعده خليفته - مرشد الجمهورية - السلطة العليا نيابة عن الإمام الغائب حتى يظهر بناءً على ما للفقهاء من سلطة وولاية حال غياب الإمام، برغم أن الثورة قبل قيام الجمهورية كانت تبدي وجهاً إسلامياً متسامحاً، ولا تتورط في مثل هذه الأمور الطائفية، ولكن بعض الشيعة من المجتهدين وغيرهم في بعض أنحاء العالم الإسلامي يرون أن ولاية الفقيه بهذا المفهوم السياسي ليست من مسلمات المذهب، وأن الأقرب إلى موقف الأئمة وخاصة «علي» - رضي الله عنه - تقديم وحدة الأمة على مسائل الإمامة، وجمع كل المسلمين على ما يحفظ مصالحهم في ظل الشريعة الخاتمة أيّاً كان شخص الحاكم القائم بذلك فيهم، فعسى أن يحقق الله ذلك وهو الغالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

كان هذا نص المقال المنشور في دائرة المعارف الموسومة بـ «السفير» ، وقد بلغنا أنّ بعض المهتمين بهذه الموسوعة قد وقف على أنّ فيه بخساً لبعض حقوق الاثني عشرية فاستعدوا لتصحيحها بإرشادهم إلى مواقف الخطأ والاشتباه حتى يستدركوا في الطبعة الثانية فقمنا بعملين:

١- التنويه بمواضع الخطأ والاشتباه في المقال المطبوع وناقشناها بأرقام متسلسلة. وهذا هو الذي نقدمه في هذه الكراسة.

٢- تأليف مقال^(١) يتضمن تاريخ الفرق الاثني عشرية وجذورهم وأصولهم وعقائدهم ودورهم في بناء الحضارة الإسلامية. سوف يرسل إلى اللجنة التي ترأس دائرة المعارف إذا طلبت منا. راجين أن ينشر بدلاً عن المقال المنشور سابقاً.

ونقتصر في النقد والتحليل بما يمتّ إلى المذهب الاثني عشري بصفة وأما ما طرحه في ثنايا المقال من مسائل سياسية واشتباهاات من تحالف الصفوية مع انكلترا، فنمر عليها مر الكرام.

١. المراد الرسالة الأولى في هذه المجموعة وقد ألف بعد هذا المقال ونشر في صحيفة اللواء.

تحليل المقال ونقده

١ . يقول: «من أسماهم الرافضة لأنهم رفضوا نصرته الإمام زيد بن علي زين العابدين (٧٩- ١٢٢ هـ) حين طلبوا منه سبَّ أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) فأبى».

مناقشتنا:

إنَّ الرافضة مصطلح سياسي قد كان رائجاً قبل ولادة زيد بن علي بأعوام، وكان يطلق على من لم يعترف بشرعية النظام السياسي الحاكم، ولأجل ذلك نرى أنَّ معاوية يصف مخالفه علي عليه السلام بالرفض ويُسمِّيهم بالرافضة.

ينقل نصر بن مزاحم المنقري (٢١٢ هـ) في كتابه «وقعة صفين» عن معاوية، أنَّه كتب إلى عمرو بن العاص وهو في البيع في فلسطين، أمَّا بعد: فإنَّه كان من أمر عليّ وطلحة والزبير ما قد بلغك وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة وقدِمَ علينا جريرُ بن عبد الله ...»^(١).

تري أنَّه يصف مروان بن الحكم ومن كان معه بالرفض وما ذلك إلاَّ لأنهم

١ . نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين: ٢٩، ط: مصر.

لم يعترفوا بشرعية حكومة الإمام علي عليه السلام وهذا يعرب عن تقدم الاستعمال على ولادة زيد.

إن الشيعة عن بكرة أبيهم لم يعترفوا بشرعية خلافة غير الإمام فصاروا رافضة، كما أنَّ الخوارج والأمويين بما أنَّهم لم يعترفوا بشرعية خلافة الإمام سُمُّوا رافضة.

فلا يصح اسناد تسمية الشيعة بالرافضة إلى زيد بن علي عليه السلام، فما جاء في المقال مأخوذ من كتب المخالفين.

يقول البزدوي: «وإنَّما سَمُّوا روافض، لأنَّهم وقعوا في أبي بكر وعمر فزجرهم زيد فرفضوه فسُمُّوا روافض»^(١).

والتاريخ يشهد بأنَّ الشيعة كانت تسمى بالرافضة في أعوام متقدمة على ميلاد زيد^(٢).

٢. يقول الكاتب في شأن الإمام الثاني عشر:

«محمد بن الحسن المتوفى سنة ٢٦٥ = ١٧٨ الخ».

مناقشتنا:

الإمام الثاني عشر عند الاثني عشرية حيَّ يُرزق فكيف يقول بأنَّه المتوفى سنة ٢٦٥ ؟! والظاهر أنَّه من هفوة القلم. كما أنَّ عدَّ الإمام الكاظم عليه السلام الإمام الخامس ناشئ من قلة الإمعان في دراسة الموضوع.

١. البزدوي، أصول الدين: ٢٤٨.

٢. المرتضى، الأمالي: ١/ ٦٨، قسم التعليق، لاحظ: بحوث في الملل والنحل: ١/ ١٢٢-١٢٥.

٣. يقول في عدد الشيعة:

«ويبلغ عدد الشيعة بعمامة فرقها، قرابة ١٠٠ مليون شخص يمثلون حوالي ١٠٪ تقريباً من اجمالي عدد المسلمين».

مناقشتنا:

أنّ دوائر الاحصاء في العالم تحت نفوذ الصهاينة، وأعداء الإسلام وهتهم تقليل المسلمين وتكثير غيرهم.

وعدد الشيعة ما يقارب ٢٥٠ مليون شخص وهم يمثلون ٢٥٪ تقريباً من اجمالي عدد المسلمين لو صح أنّ عددهم في العالم يبلغ مليار مسلم.

٤. يقول: «وفي أواخر عهد الإمام السادس، جعفر الصادق أخذ بعض الغلاة يتجمعون حول ولده إسماعيل مما دفعه إلى جمع الناس وإشهادهم على وفاة إسماعيل الذي مات في حياة أبيه عام ١٤٣ هـ».

مناقشتنا:

أنّ إسماعيل أعلى شأنًا ومقاماً من أن يجتمع حوله بعض الغلاة ويستغلوا مكانته الاجتماعية، والدليل على ذلك «أنّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام كان يحبه حباً كثيراً وعندما توفي جزع أبو عبد الله عليه السلام جزعاً شديداً، وتقدم سريره بغير حذاء ولا رداء وأمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه، مراراً واستتاب أجيراً ليحج عنه وكتب على كفنه: إسماعيل يشهد أن لا إله إلا الله»^(١).

فلو كان إسماعيل ممن تستغله الغلاة لما كمال له الإمام الصادق بهذا الصاع

الكبير.

وأما استشهاد الإمام على وفاته فلم يكن لأجل اجتماع الغلاة حوله، بل كان ردّاً لما اشتهر بين الشيعة في ذلك اليوم، أنّ الإمامة للولد الأكبر وكان إسماعيل أكبر ولده، فلأجل إبطال تلك الفكرة أشهد الإمام عليه السلام على وفاته، ومع ذلك ذهبت ثلة من الشيعة - بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام - إلى إمامة ولده محمد بن إسماعيل.

٥. يقول في حق الإمام الكاظم عليه السلام: «وقد قام بأمر الطائفة في نطاق سياسة أبيه جعفر التي نزعت إلى السلم».

مناقشتنا:

إنّ نسبة النزوع إلى السلم إلى الإمام الصادق ولده الكاظم عليه السلام نسبة خاطئة مستندة إلى النظر إلى ظواهر الأحوال من دون فحص عمّا كان يقوم به الإمام عليه السلام سرّاً، فقد كان الإمام الصادق عليه السلام يدعم ثورة زيد وثورات الآخرين التي تلت ثورته.

وكان الإمام الكاظم عليه السلام مسانداً لثورة الحسين بن علي الخير (شهيد فخ). نعم كانت المصالح يومذاك تستدعي كون الحركة ثقافية في الظاهر، ودعم الكفاح المسلح ضد الطغاة سرّاً لا علانية.

وبذلك يعلم عدم صواب كلامه الآخر، حينما قال: «وكان الشيعة الاثنا عشرية قد اتجهوا وجهة ثقافية روحية بتأثير جعفر الصادق وأعرضوا عن النشاط السياسي إلى حد كبير».

ولا نعود إلى نقده.

٦. يقول: «وعلى الرغم مما يؤخذ عليهم في أثناء هذه الفترة فقد أسهموا في تحويل بعض قادة المغول إلى الإسلام وإلى التشيع بطبيعة الحال، ولكنهم أحسوا ببعض القوة في العهد الجديد الذي أعقب سقوط الخلافة العباسية، مما كان له أثر في إشعال الجدل الطائفي الذي يتمثل في عدة مؤلفات من أبرزها كتاب الحسن بن المطهر «منهاج الكرامة» الذي ردّ عليه ابن تيمية بكتابه «منهاج السنة».

مناقشتنا:

إنّ السقيفة التي تم فيها الانتخاب المسرحي للخلافة كان مبدءاً لافتتاح باب الجدل الطائفي وربّما أعقب حروباً دامية ولأجل ذلك يقول الشهرستاني: «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كلّ زمان»^(١)، وقد اشتد الجدل الكلامي في القرن الثاني في عصر الإمام الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام يعلم ذلك من المناظرات التي دارت بين تلاميذهما كهشام بن الحكم، ومؤمن الطاق، وهشام بن سالم، مع مخالفيهم. وفي القرن الرابع والخامس استفحل فيها الجدل في الإمامة بين المعتزلة والشيعة الإمامية وهذا هو عبد الجبار القاضي المتوفى عام ٤١٥ هـ ألف كتابه المغني في عشرين جزء وخص الجزء الأخير بمسألة الإمامة في الردّ على الإمامية، ونقضه السيد المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ) بكتاب أسماه «الشافي» وقد طبع في أربعة أجزاء ولخصه تلميذه الشيخ الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) إلى غير ذلك من المؤلفات الكلامية قبل حلول القرن السابع. والذي يدل على سبق الجدل أنّه ألف عشرات الكتب باسم الإمامة قبل حلول القرن الرابع. لاحظ الذريعة^(٢).

١. الشهرستاني، الملل والنحل: ١/ ٢٤ دار المعرفة، بيروت - ١٤٠٢ هـ.

٢. آقا بزرگ الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ج ٢، مادة الإمامة.

٧. يقول: «وفي أواخر عهد الأئمة كان من بين الاثني عشرية رجل بلغ النشاط والحماسة للمذهب، مع نزوع إلى الغلو اسمه محمد بن نصير النميري...».

مناقشتنا:

كان اللازم لمن يريد أن يكتب عن الاثني عشرية أن لا يكتب عن الغلاة شيئاً لأن الغلاة عندهم وعند جمهور المسلمين ليسوا بمسلمين.

٨. يقول: «إنّ المرجعية الدينية بعد موت العسكري وغيبة ولده المهدي ترجع إلى لجنة من أربعة أشخاص، هم: عثمان بن سعيد العمري، ومحمد ابن عثمان بن سعيد، والحسين بن روح النوبختي، وعلي بن محمد السمری».

مناقشتنا:

إنّ ما ذكره من غرائب الهفوات فإنّه لم تكن هناك أي لجنة بينهم لإدارة أمور الشيعة بل كان كل واحد من الأربعة سفيراً عن الإمام في عصر يختلف عن عصور الآخرين.

وإليك تاريخ سفارتهم:

- ١ - عثمان بن سعيد العمري وكانت سفارته ما بين ٢٦٠ - ٢٦٥ هـ.
- ٢ - محمد بن عثمان العمري وكانت سفارته ما بين ٢٦٥ - ٣٠٥ هـ.
- ٣ - الحسين بن روح النوبختي وكانت سفارته بين ٣٠٥ - ٣٢٦ هـ.
- ٤ - علي بن محمد السمری وكانت سفارته بين ٣٢٦ - ٣٢٩ هـ.

٩. يقول: «ولكن الاثني عشرية ينكرون مزاعم ابن نصير ويكفرون من اعتقد هذه الأقاويل بصرف النظر عن العلاقات العملية التي قد تقوم بين الطائفتين».

مناقشتنا:

أن صدر هذا الكلام يناقض ذيله، فإذا كانت الاثنا عشرية يكفرون النصيرية فما معنى العلاقات العملية التي تقوم بين الطائفتين؟!

١٠. يقول: «إلى أن قامت للاثني عشرية دولة في إيران لأول مرة في التاريخ على يد الشاه إسماعيل (٩٠٦ - ٩٣٠) الخ».

مناقشتنا:

مضافاً إلى أن مبدأ الحكومة الصفوية كان عام ٩٠٥ لا ٩٠٦، أنه قد سبقت الدولة الصفوية في إيران، دولة البويهيين في العراق، وما اتصل بها من بلاد فارس وغيرها، ودولة السربدارية في خراسان حوالي ٧٨٠، وقد طلب رئيس الدولة السربدارية وهو علي بن مؤيد من الشهيد الأول محمد المكي العاملي (٧٣٤ - ٧٨٦) السفر إلى خراسان فامتنع الشهيد عن ذلك وأرسل إليهم رسالة اللمعة الدمشقية وهي دورة فقهية مختصرة على أساس الفقه الإمامي.

وكذلك دولة السلطان خدابنده المغولي الذي تشييع على يد العلامة الحلي وأمر بذكر «حيّ على خير العمل» في الاذان وضرب السكة بأسماء أئمة أهل البيت عليهم السلام. وكان حاكماً على البلاد بين سنة ٧٠٣ - ٧١٦.

١١ . يصف الشاه إسماعيل بقوله: «الذي نزع هو وخلفاؤه إلى التشيع على الرغم من أصولهم السنية الصفوية».

مناقشتنا:

أنّه لم يكن الشاه إسماعيل ولا أبوه وجده سنيّين وإنّما طرأ عليهم التشيع في القرن الثامن وأوّل من تشيع منهم جدّهم الأعلى صفي الدين الأردبيلي المتوفى عام ٧٣٥ أي قبل نشوء الدولة الصفوية بقرنين.

١٢ . يصف حكم الصفويين بأنّهم كانوا خلال حكمهم في عداء شبه مستمرّ مع الخلافة العثمانية ونشبت بينهما الحروب التي أسهمت في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا وتمزّق بلدان العالم الإسلامي وتفكّكها. الخ».

مناقشتنا:

لا شك أنّه قامت بين الدولتين حروب طاحنة إنّما المهم هو تعيين المعتدي، والكاتب كتب وقد أغمض عينه عن الواقع التاريخي فإنّ اعتداء الخلافة العثمانية على الشيعة إلى عهد انقراضها، كالشمس في رابعة النهار وقد قتل السلطان سليم العثماني من الشيعة في يوم واحد حوالي أربعين ألفاً، مضافاً إلى اعتداءات وجرائم نكراء بأيدي عمّاله في العراق والشام ولبنان ضد المواطنين الشيعة، وقصة الجزار معروفة فمن أراد أن يقف على تلك الاعتداءات ويتعرف على البادئ فليراجع كتاب «الشيعة والحاكمون» وبما أنّ التفصيل في المقام موجب لجرح العواطف نقصر على هذا الموجز.

ثم إنّ الخلافة العثمانية كانت في عهد الصفويين في ذروة قدرتها وسلطانها، ولم يكن آنذاك أيّ انحسار للمد الإسلامي.

وإنّما بدأ الانحسار في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري لعللٍ داخلية وخيانات في البلاط العثماني، والضباط الأتراك العملاء للأحزاب العلمانية.

ولا تنسَ يا كاتب ! أنّ فكرة العروبة والقومية العربية التي كان يتبنّاها سياسيو الأمة العربية في القرنين الأخيرين، كانت هي الضربة القاضية على هيكل الخلافة العثمانية، وهذه الفكرة بعد لا تزال حية، ولما سقطت قلعة العثمانيين ارتفعت قلاع باسم الدول العربية تحمل الشعارات القومية بدل الإسلامية.

لا تكشفن مغطاً فلربّ —————
ما كشفن جيفةً

تلك شقشقة هدرت ثم قرّت.

١٣ . يقول عن عهد الشاه عباس الصفوي بأنّه: «توقف الحج إلى مكة في عهده ووجبت زيارة مدينة مشهد وهي مدينة طوس القديمة الخ».

مناقشنا:

أنّه لو ثبت أنّ الحج توقف يوم ذاك فإنّما توقف لفقد شرط وجوبه وهو أمن السرب والطريق ولم يكن المنع مختصاً بهذا العصر ففي عصر القرامطة مُنع المسلمون من الحج لأجل فقد شرطه.

على أنّ عمل فرد من ملوك الشيعة لا يعتبر دليلاً على أنّه من عقائد الشيعة والكاتب بصدد بيان مذهب الاثني عشرية بما له من الأصول والفروع.

١٤ . يقول: «فبرغم أنّ عدد أهل السنة في إيران يصل إلى حوالي ٢٠٪ من إجمالي عدد السكان في إيران إلا أنّهم محرومون من تولي الوظائف الرئيسية في الدولة، ومن صلاة العيدين، ومن بناء مسجد لهم بطهران العاصمة الخ».

مناقشتنا:

إنّ الكاتب كأنّه يكتب عن أمة بعيدة عن أعين المسلمين ووكالات الأنباء العالمية، ونحن ندعو الكاتب لزيارة إيران حتى يرى بأّم عينه أنّ إخواننا السنّة أحرار في عقائدهم وشعائهم كما أنّ لهم مندوبين في مجلس الشورى الإسلامي، وإنّ الجمهورية الإسلامية هي المتبنية للتقريب بين المسلمين عن طريق مساهمتها في تأسيس دار المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وقد شارك في تأسيس تلك الدار رجال من الشيعة والسنّة من الداخل والخارج، كما وتصدر عنها مجلة رسالة التقريب، والكاتب إنّما كتب هذه السطور لاثارة الفتنة بين الإخوة.

لكن نعود فنسأله إنّ القاهرة مكتظة بالشيعة، فهل لهم فيها مكتبة رسمية أو مسجد أو مدرسة؟ وهل تسمح الحكومة بإقامة شعائهم علناً.

إنّ الحرمين الشريفين لا يختصان بطائفة دون أخرى وإنّما هما لجميع المسلمين ﴿سواء العاكف فيه والباد...﴾^(١).

ولكن الشيعة محظور عليهم التظاهر بشعائر دينهم أو بناء مسجد أو مدرسة أو مكتبة لهم.

فدع عنك نهباً صريحاً في حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل وأما ما ذكر من عدد أهل السنّة فلا أدري من أين جاء بتلك الاحصاءات فإنّ احصاء عدد النفوس في إيران لم يتم على أساس المذهب حرصاً على وحدة الكلمة بين الطائفتين.

١٥. يقول: «وقد تطور مذهب الاثني عشرية على مرّ الزمن وأسهم العداء السياسي والغلو المذهبي في انفراد الطائفة بعقائد ومبادئ تتجافى عن روح الإسلام السمحة ومقتضيات المنطق السليم».

مناقشتنا:

إنّ عقائد الإمامية مأخوذة من الكتاب وأحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام والعقل الصريح ولم يكن هناك أي تطور فيها. نعم نضجت المسائل الكلامية عبر القرون كسائر العلوم الإسلامية، ولأجل الإشارة إلى ذلك نذكر فيما يلي ما كتب حول عقائد الشيعة في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث:

الف - كتب الإمام الرضا عليه السلام للمأمون رسالة في محض الإسلام^(١).

ب - وقد عرض السيد عبد العظيم الحسيني عقائده على الإمام الهادي عليه السلام المتوفى عام ٢٥٤ هـ وهو مكتوب^(٢).

ج - وبعده توالى الرسائل العقائدية للشيعة ومعارفهم. يقف عليها من تتبع كتبهم الكلامية.

فهذا هو الصدوق (٣٠٦ - ٣٨١ هـ) له رسالة في عقائد الشيعة، وللشيخ المفيد (٣٣٦ - ٤١٣ هـ) رسالة أسماها «شرح عقائد الصدوق»، وللمرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ) رسالة «جمل العلم والعمل» ومن تتبّعها يرى أنّ الرسائل كلّها على غرار واحد ولو كان هناك خلاف فإنّما هو في البحوث الكلامية والتي لا تمت إلى ذات العقائد بصلة.

نحن لا نريد المقابلة بالمثل، وإلاّ فإنّ الإمام الأشعري كتب عقائد أهل

١. الصدوق، عيون أخبار الرضا: ١٢١/٢.

٢. الصدوق، التوحيد: ٨١ رقم الحديث ٣٧.

السنة في عدة بنود في كتابه «الابانة عن أصول الديانة» وأفرد كل واحد منها، للرد على الفرق الإسلامية فصارت عقائد أهل السنة حصيله الردود على عقائد الآخرين، ولولا هذه الفرق، لم يكن هناك سبب لعقدها.

١٦ . يتعرض الكاتب إلى حديث الغدير ويؤوله بأنه لدى أهل السنة وصية عامة لإكرام آل البيت والتنويه بمكانة علي رضي الله عنه .

مناقشتنا:

أن من قرأ تاريخ حديث الغدير وتدبر في خطبة النبي ﷺ قبل أن يدلي بقوله في حق علي عليه السلام : «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» لا يشك في أن النبي ﷺ بصدد تعيين الوصي من بعده. ونحن نذكر مقتطفاً من خطبة النبي الأكرم ﷺ في ذلك الحشد العظيم حتى يعلم مدى صدق قول القائل بأنها بصدد إيصال عام بإكرام آل البيت عليه السلام؟

قال ﷺ: «أيها الناس إنّه قد نبأني اللطيف الخبير أنّه لم يعمر نبي إلا نصف عمر الذي يليه من قبله، وإنّي لأظنّ أني يوشك أن أدعى فأجيب وأنّي مسؤول وأنكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟».

قالوا: نشهد إنك قد بلغت وجهدت ونصحت فجزاك الله خيراً، فقال: «أليس تشهدون أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنته حق، وأنّ ناره حق، وأنّ الموت حق، وأنّ البعث حق بعد الموت، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى، نشهد بذلك، قال: «اللهم اشهد» ثم قال: «يا أيها الناس إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا - يعني علياً - مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» ثم قال: «يا أيها الناس إنّني فرطكم وأنكم واردون عليّ الحوض، حوض أعرض مما بين

بُصرى، إلى صنعاء، فيه عدد النجوم قدحان من فضة وأني سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله عزّ وجلّ سبب، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلّوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي، فإنّه نبأني اللطيف الخبير أنّها لن ينقضيا حتى يردا عليّ الحوض»^(١).

وأخرجه غير واحد من أئمة الحديث منهم الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم، قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ بواد يقال له وادي خُم، فأمر بالصلاة فصلّاها بهجير، قال: «فخطبنا وظلل لرسول الله ﷺ بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فقال: «ألستم تعلمون، أولستم تشهدون، أيّ أولى بكلّ مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(٢).

وأخرجه الحاكم في مناقب عليّ من مستدركه عن طريق زيد بن أرقم من طريقين صحيحهما على شرط الشيخين، قال: لما رجع رسول الله من حجة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقممن، فقال: «إني دُعيتُ فأجبتُ، قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فاتّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، ثم قال: إنّ الله عزّ وجلّ مولاي وأنا مولى كلّ مؤمن - ثم أخذ بيد عليّ فقال: - من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه...»^(٣).

وأخرجه النسائي في خصائصه عن زيد بن أرقم، قال: لما رجع النبي ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقممن، ثم قال: «كأني دُعيت

١. الصواعق: ٤٣ - ٤٤ وأخرجه عن طريق الطبراني وغيره، وحكم بصحته.

٢. مسند الإمام أحمد: ٤/ ٣٧٢، وأخرجه الإمام أيضاً في مسنده من حديث البراء بن عازب من طريقين، لاحظ الجزء الرابع الصفحة ٢٨١.

٣. المستدرک: ١٠٩/٣، مع أنّ الذهبي في تعليقه على المستدرک يعلّق على مواضع من تصحيحات الحاكم صرح في هذا المقام بصحة الحديث.

فأجبت، وأتني تارك فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وأهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فأنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض - ثم قال: - إنَّ الله مولاي وأنا وليَّ كل مؤمن - ثم أخذ بيد عليٍّ فقال: - من كنت وليه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه؛ قال أبو الطفيل: فقلت لزريد: سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: وإنَّه ما كان في الدوحات أحد إلَّا رآه بعينه وسمعه بأذنه^(١).

إنَّ سؤال أبي الطفيل يعرب عن حقيقة مرّة، وهو أنَّه يرى التنافي بين مضمون الحديث وعمل أكثر الأمة، فإنَّ الحديث نص على ولايته وخلافته، وأكثر الأمة صرفتها عن علي، فلاجل ذاك عاد يتعجب ويسأل، وليس التعجب مختصاً به، فهذا هو الكميت يصرح به في هاشمياته ويقول:

ويوم الدوح دوح غدیر خم أبان له الخلافة لو أطيعا

ولكن الرجال تبايعوها فلم أر مثلها خطراً مبيعا

ولم أر مثل ذاك اليوم يوما ولم أر مثله حقاً أضيعا^(٢)

ولو أردنا استقصاء مصادر الحديث وأسانيده ورواته من الصحابة والتابعين والعلماء لأحوجنا ذلك إلى تأليف مفرد، وقد قام بحمد الله أعلام العصر ومحققوه بذلك المجهود^(٣).

والمهم هو دلالة الحديث على الولاية العامة والخلافة الكبرى لعليٍّ بعد الرسول، وقبل الخوض في ذلك نقدم الأمور التالية:

١. الخصائص العلوية: ٢١.

٢. الهاشميات طبعت غير مرّة وشرحها غير واحد من أدباء العصر كالرافعي المصري، والأستاذ محمد شاكر الخياط وقد دبَّ إليها الدس والتحريف، لاحظ الغدير: ١٨١/٢.

٣. العباثات للسيد مير حامد حسين (المتوفى ١٣٠٦ هـ) والغدير للعلامة الفذ عبد الحسين الأميني (المتوفى ١٣٩٠ هـ) وكلاهما من حسنات الدهر.

١- أنه ﷺ قال في خطبته: «إِنَّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فهذا - يعني علياً - مولاه» وهذا قرينة لفظية على أَنَّ المراد من «مولاه» الثانية عَيْنُ المراد من «مولاه» الأولى فالمعنى أَنَّ الله أولى بي من نفسي، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ومن كنت أولى به من نفسه، فعليّ أولى به من نفسه، وهذا هو معنى الولاية الكبرى للإمام.

٢- ذيل الحديث وهو قوله ﷺ: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وفي بعض الطرق «وانصر من نصره واخذل من خذله» فأنه ﷺ لما نصبه إماماً على الأمة بعده، كان يعلم أَنَّ تطبيق هذا الأمر رهن توفر الجنود والأعوان، وطاعة أصحاب الولايات والعمال، مع علمه بأنَّ في الملأ من يحسده وفيهم من يحقد عليه، وفي زمرة المنافقين من يضمّر له العدا، فعاد يدعو لمن والاه ونصره، وعلى من عاداه وخذله، ل يتم أمر الخلافة وليعلم الناس أَنَّ موالاته موالاة الله وأنَّ عداؤه عداؤه، والحاصل أَنَّ هذا الدعاء لا يناسب إلّا من نصب زعيماً للإمامة والخلافة.

٣- أنه ﷺ صَدَّر كلامه بأخذ الشهادة من الحاضرين بأنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ثم قال: إِنَّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فقال: «فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»، وهذا يدلّ على أَنَّ التالي، من جنس المقدم وأنه ركن من الدين كما هما ركنان.

٤- أنه ﷺ ذكر قبل بيان الولاية قوله: «كأني دُعيت فأجبت» أو ما يقرب من ذلك، وهو يعرب عن أَنَّهُ ﷺ لم يبق من عمره إلّا قليل ويُحاذر أن يدركه الأجل، فأراد سدّ الفراغ الحاصل بموته ورحلته بتنصيب عليّ إماماً وقائداً من بعده.

هذه القرائن وغيرها الموجودة في كلامه، توجبُ اليقين بأنَّ الهدف من هذا النبأ في ذلك الحشد العظيم ليس إلّا إكمال الدين واتمام النعمة من خلال ما أعلن

عنه ﷺ أَنَّ عَلِيًّا قَائِدٌ وَإِمَامٌ لِلأُمَّةِ، وَمَنْ أَرَادَ الْحَصُولَ عَلَى الْمَزِيدِ مِنْ هَذِهِ الْقَرَائِنِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى كِتَابِ الْغَدِيرِ الْقِيمِ^(١).

لا يشك من درس مضمون حديث الغدير وما احتف به من القرائن يقف على أَنَّ المراد منه هو نصب علي للإمامة والخلافة وهذا هو الذي فهمه الحضور من المهاجرين والأنصار في ذلك المحفل كما فهمه من بلغه النبأ بعد حين، ممن يحتاج بقوله في اللغة، وتتابع هذا الفهم فيمن بعدهم من الشعراء ورجال الأدب إلى العصر الحاضر، وهذا هو حسان بن ثابت الذي حضر مشهد الغدير قد استأذن رسول الله أن ينظم الحديث في أبيات منها قوله:

وقال له قم يا علي فأنني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً^(٢)

١٧. يقول: «وهذه الآثار لا تدل عند علماء السلف والخلف من أهل السنة على ما ذهبوا إليه من وصية الرسول لعلي بالخلافة من بعده إذ الولاية ترد بمعنى النصرة والمودة والولاء والاخوة لا بمعنى الإمامة والخلافة حتماً».

مناقشتنا:

أنه ورد في الحديث لفظ المولى وليس له إلا معنى واحد وهو الأولى، قال سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٣).

وقد فسر المولى في الآية بمعنى الأولى، وإذا استعمل في مورد الجار وابن العم والعبد وغيرهم فبنفس ذاك الملاك فالجار أولى بأن يحمي الجار، وابن العم

١. الغدير: ١/ ٣٧٠، وقد ذكر هناك ما يقرب من عشرين قرينة على ما هو المراد من الحديث.

٢. رواه غير واحد من حفاظ الفريقين لاحظ الغدير: ٢/ ٣٥ - ٣٧.

٣. الحديث: ١٥.

أولى بنصر ابن عمه، والعبد أولى بإطاعة أمر مولاه وهكذا.

والدليل على أنّ المولى في حديث الغدير بمعنى الأولى هو كلام الرسول ﷺ قبل هذه الجملة فقد قال: «ألستم تشهدون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى. قال: فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»^(١).

على أنّ ذكر التوحيد والمعاد والرسالة في خطبة الرسول ﷺ والتنويه برحيله عن قريب وذكر الثقلين، كل ذلك يعرب عن أنّ النبي ﷺ بصدد بيان أمر خطير فيه اكمال الدين واتمام النعمة لا بصدد الايضاء بإكرام أهل بيته الذي لم يكن أمراً مستوراً على الأمة.

أضف إلى ذلك أنّه لو كان الهدف من كلام النبي ﷺ هو الايضاء بالمحبة والمودة فلماذا أخره إلى أخريات أيام حياته الشريفة؟ ولماذا نوه به في حشد عظيم في صحراء لا يخيم على الناس فيها إلا حر الشمس؟ أوليس هذا بعيداً عن بلاغة النبي ﷺ ورعاية مقتضى الحال؟

١٨. يقول: «والشيعة يستشهدون أيضاً بآثار أخرى بعضها ضعيف والآخر موضوع».

مناقشتنا:

ماذا يريد بالآثار الموضوعية؟ فالشيعة تستدلّ بحديث الثقلين الذي مرّ في كلام الرسول في خطبة الغدير، وأخرجه الترمذي والنسائي في سننهما، وأحد في مسنده، والحاكم في مستدركه فلاحظ المصادر التالية:

الف - كنز العمال ١ / ٤٤ .

١. مسند الإمام أحمد: ٤ / ٣٧٤ و ٢٨١ وغير ذلك.

ب- مسند أحمد ١٨٢/٥ و ١٨٩ و ج ١٧/٣ و ٢٦.

ج- المستدرک للحاکم ١٠٩/٣.

إلى غيرها من المصادر المتوفرة التي يضيق المقام عن بيانها.

وقد ألف غير واحد من المحققين رسائل في أسانيد هذا الحديث.

وتستدل الشيعة بحديث السفينة وفيه يقول النبي ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ أَهْلِ بَيْتِي

فِيكُمْ مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مِنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ».

يرويه الحاكم بسنده إلى أبي ذر، لاحظ ج ١٥١/٣، وبسنده إلى ابن عباس

ج ١٤٩/٣، و يرويه النبهاني في أربعينه ص ٢١٦، نقله عن الطبراني في الأوسط،

ويرويه ابن حجر في صواعقه الباب الحادي عشر ص ٩١ و ١٤٩.

والشيعة تستدل بحديث الأئمة الاثني عشر، فقد أخرج البخاري عن جابر

ابن سمرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَكُونُ اثْنَا عَشَرَ أَمِيرًا فَقَالَ كَلِمَةً لَمْ

أَسْمِعْهَا، فَقَالَ أَبِي: إِنَّهُ قَالَ: كُلُّهُمْ مِنْ قَرِيشٍ»^(١).

وأخرج مسلم عنه أيضاً، قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعتة يقول:

«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْقُضِي حَتَّى يَمْضِيَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً» قال ثم تكلم بكلام

خفي عليّ، قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كُلُّهُمْ مِنْ قَرِيشٍ»^(٢) إلى غير ذلك

من الأحاديث التي جاءت في المجاميع الحديثية. فما ظنك بحديث يرويه

الشيخان؟ فهل ما يرويه الإمام البخاري موضوع فلو كان موضوعاً ﴿فَبَآئِيَ حَدِيثٌ

بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣)!!؟

إِنَّ الْأَحَادِيثَ الَّتِي تَنْصُ عَلَى عَدَدِ خُلَفَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَذَكُرُ سَمَاتِهِمْ أَكْثَرُ مِمَّا

١. صحيح البخاري: ١٠١/٩، كتاب الأحكام، الباب ٥١ (باب الاستخلاف).

٢. صحيح مسلم: ٣/٦. باب الناس تبع لقريش من كتاب الامارة.

٣. الأعراف: ١٨٥.

نقلناه ونقتصر في المقام على نقل السمات الواردة فيها حتى نتعرف من خلالها على أصحابها فقد ورد فيها:

١- لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة.

٢- لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً.

٣- لا يزال الدين قائماً.

٤- لا يزال أمر أمّتي صالحاً.

٥- لا يزال أمر هذه الأُمة ظاهراً.

٦- حتى يمضي فيهم اثنا عشر.

٧- ما وليهم اثنا عشر خليفة كلّهم من قریش.

٨- عددهم كعدد نقباء بني إسرائيل.

وهذه السمات والخصوصيات لا توجد مجتمعة إلا في الأئمة الاثني عشر المعروفين عند الفريقين، وتلك الأحاديث من أنباء الغيب ومعجزات النبي ﷺ خصوصاً إذا ضُمَّت إليها أحاديث الثقلين والسفينة وكون أهل بيت النبي ﷺ أماناً لأهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء.

فالأئمة الاثنا عشر المعروفون بين المسلمين، أولهم علي أمير المؤمنين عليه السلام، وآخرهم المهدي عليه السلام تنطبق عليهم تلك العلامات، ومن وقف على حياتهم العلمية والاجتماعية والسياسية يجزم أو يقطع بأنهم هم المثل العليا في سماء الأخلاق والعلم والاحاطة بالقرآن والسنة، وأنه سبحانه بهم حفظ دينه عن التحريف وبهم اعترّ الدين.

وأما ما ورد في بعض هذه الطرق: «كلّهم تجتمع عليهم الأُمة» على فرض الصحة، فالمراد تجتمع على الاقرار بإمامتهم جميعاً وقت ظهور آخرهم، و - على

فرض الإبهام - لا تمتنع عن الأخذ بمضامين الحديث.

هلمّ معي نقرأ ماذا يقول غير الشيعة في حق هذه الأحاديث، وكيف يفسّرها بالخلفاء القائمين بالأمر بعد النبي ﷺ؟ ولننقل إليك شيئاً من كلامهم:

إنّ قوله اثنا عشر إشارة إلى عدد خلفاء بني أمية وأول بني أمية يزيد بن معاوية وآخرهم مروان الحمار وعدتهم اثنا عشر ولا يعد عثمان ومعاوية ولا ابن الزبير لكونهم صحابة، ولا مروان بن الحكم لكونه صحابياً أو لأنّه كان متغلباً بعد أن اجتمع الناس على عبد الله بن الزبير، وليس على المدح بل على استقامة السلطنة وهم يزيد بن معاوية وابنه معاوية ثم عبد الملك ثم الوليد ثم سليمان ثم عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك ثم هشام بن عبد الملك ثم الوليد بن يزيد ثم يزيد بن الوليد، ثم إبراهيم بن الوليد ثم مروان بن محمد^(١).

يلاحظ عليه: إذا كان الرسول أراد هذا ولم يكن في مقام مدحهم فأى فائدة في الاخبار بذلك. ثم كيف يقول إنّها صدرت على غير سبيل المدح مع ما عرفت من السمات الواردة الصريحة في المدح فيقول: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً قائماً»، أو «أمر أمتي صالحاً» والعجب أنّه جعل أول الخلفاء يزيد بن معاوية بحجّة أنّه استقامت له السلطنة، إذ كيف استتبّت له السلطنة وقد ثار عليه أهل العراق في السنة الأولى وثار عليه أهل المدينة في السنة الثانية وكان مجموع أيامه مؤلف من حروب دامية وقتل ونهب وتدمير.

١٩. يقول: الإمامة عند الشيعة ركن وأصل من أصول الدين ولكنها (أي الإمامة) أصل مذهبي في رأيهم فمن لم يعرف أئمة زمانه ولم يبايعه عدّ

١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١٣/٢١٢ ط دار المعرفة. وفي المصدر: عدتهم ثلاثة عشر.

خارجاً عن المذهب ولكنّه في عامّة المسلمين وربّما غلبا بعضهم فكفّره
الخ».

مناقشتنا:

إنّ الإمامة عند الشيعة من الأصول ولكن انكارها لا يلزم الخروج عن
الإسلام بل يوجب الخروج عن حظيرة التشيع ثم إنّ الكاتب يذكر في ذيل كلامه
أنّ علياً لم يكفر الخوارج الذين كفّروه وحاربوه» وليس لكلامه هذا صلة بعقائد
الشيعة. فإنّ الشيعة عن بكرة أبيهم يعدون أهل السنّة إخواناً وإن كانوا خاطئين
في مسألة الإمامة.

٢٠. قال: «ويزعم الاثنا عشرية أنّ أئمّتهم معصومون من الخطأ والمعصية،
ولهم صفة المعرفة اللدنيّة، دون حاجة إلى تلقين الرواة فيصح لهم أن يرووا
عن رسول الله ﷺ مباشرة دون سند من الرجال، كما أنّهم يعلمون الغيب،
ولا يموتون إلّا باختيار منهم، ولذا يعتبرون عهد الوحي مستمراً إلى غيبة
الإمام الثاني عشر، ولا يباح الاجتهاد في وجود الإمام، وإنّما يبدأ الاجتهاد
الفقهي بعد تلك الغيبة».

مناقشتنا:

إنّ هذه الفقرة تشتمل على أمور صحيحة، وأخرى خاطئة نشير إليها على
وجه الاجمال لأنّ التفصيل يحوجنا إلى أفراد رسالة خاصة.

ألف — إنّ الأئمّة الاثني عشر معصومون من الخطأ والمعصية بدليل أنّهم
عدل الكتاب وقرناؤه في قول النبي ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي،
إنّ اقتران العترة بالقرآن يدل:

أولاً: على أن عندهم علم القرآن وفهمه فهماً لاثقاً بشأنه.

وثانياً: أن التمسك بالكتاب والعترة يعصم من الضلالة.

وثالثاً: يحرم التقدم على العترة كما يحرم الابتعاد عنهم.

ورابعاً: أن العترة لا تفارق الكتاب إلى يوم القيامة.

وخامساً: أن الكتاب مصون من الخطأ وهكذا عدله.

مضافاً إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١).

والمراد من الرِّجس هو العصيان والارادة ارادة كونية وهي التي لا تنفك فيها الارادة عن المراد والمراد من أهل البيت هم الذين أدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء، وقال: اللهم ان لكل نبي أهل بيت وهؤلاء أهل بيتي. ولما أرادت أم سلمة أن تدخل تحت الكساء منعها وقال: أنت على خير ولست من أهل البيت.

ب - ان علوم أئمة أهل البيت ﷺ مستندة إلى مصادر مختلفة فتارة يروون الحديث عن آبائهم عن رسول الله ﷺ وما أكثر هذا القسم من الأحاديث في رواياتهم. وأخرى يعتمدون على كتاب عليّ الذي أملاه الرسول وكتبه الوصي وهو في سبعين ذراعاً. وثالثة يعتمدون على تحديث الملك فهم محدثون والمحدث عبارة عن يسمع كلام الملك ولا يرى عينه وقد عقد الإمام البخاري باباً للمحدث وعدّ منهم عمر بن الخطاب والمحدث غير الرسول والنبي ومن أراد الوقوف على واقع المحدث فعليه بشرح صحيح مسلم للإمام النووي فقد أسهب فيه الكلام.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: لقد كان فيمن كان قبلكم من بني اسرائيل رجال يُكَلِّمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن

يكن من أمتي منهم أحد، فعمر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: من نبي ولا محدث^(١).

وبذلك يعلم مدى صحة كلمة الكاتب: من أن للأئمة أن يرووا عن رسول الله مباشرة من دون سند من الرجال.

وذلك لما عرفت أن مصادر علومهم مختلفة فتارة يروون عن طريق آبائهم عن رسول الله ﷺ وأخرى يروون عن كتاب علي وثالثة يروون عن طريق التحديث. ج - قال: إن الأئمة يعلمون الغيب.

مناقشتنا:

إن علم الغيب مختص بالله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٢).

وأما تحديثهم عن الغيب فإنما هو تعلم من ذي علم فلا مانع من أن يلهم الله سبحانه أوليائه أموراً غيبية كما ألهم يوسف وهو شاب غير مبعوث ثم استمر الإلهام إلى آخر عمره.

وليست أئمة أهل البيت ﷺ بأقل شأناً من أم موسى فقد أخبرها سبحانه عن مصير ولدها، وقد علم مصاحب موسى بمصير الغلام الذي قتله، وقال: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾^(٣) إلى غير ذلك من الأمور الغيبية التي أوقف الله سبحانه عباده الصالحين عليها من دون أن يكونوا أنبياء كرامة لهم، وإعظاماً لمقامهم.

د - يقول: ولذا يعتبرون عهد الوحي مستمراً إلى غيبة الإمام الثاني عشر.

١. صحيح البخاري: ٢/ ١٩٤ باب مناقب عمر بن الخطاب.

٢. النمل: ٦٥.

٣. الكهف: ٨٠.

مناقشتنا:

أنّه خلط في كلامه الوحيّ التشريعي المختصّ بالأنبياء والرسل، بالتحديث الذي أطبقت الأمة على حصوله وعلى وجود محدّثين في الأمة الإسلامية، فالأئمة ملهمون، محدّثون وليسوا أنبياء يوحى إليهم.

هـ- يقول: ولا يباح الاجتهاد في وجود الإمام وإنما يبدأ الاجتهاد الفقهي بعد تلك الغيبة.

مناقشتنا:

أنّ الاجتهاد كان موجوداً بعد رحيل الرسول ﷺ إلى يومنا هذا ومفتوحاً بابه في وجه الأمة ولم يغلق أبداً ويحرم تقليد المجتهد لغيره وأمّا عدم الاجتهاد عند وجود الإمام فالمراد منه أن يكون الانسان في حضرة الإمام، وأمّا البعيد عنه كمن يقطن خراسان والإمام في المدينة فله أن يجتهد على ضوء الكتاب والسنة وأحاديث أئمة أهل البيت وقد كان بين أصحاب أبي جعفر الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام مجتهدون كبار يعلم من رجع إلى أحوالهم.

٢١. يقول: «فكرة الإمامة على هذا النحو ترجع إلى آراء مغالية ظهرت في الفترات الأولى من تاريخ المسلمين ثم ورثها الاثنا عشرية واتخذوها أصولاً لهم وكان من نتائجها ايقاع العداوة والشقاق بين جمهور المسلمين».

مناقشتنا:

أنّ فكرة الإمامة ترجع إلى الكتاب والسنة بشرط الفحص عن أسباب النزول، والتاريخ الصحيح، والروايات الواردة حول الآيات.

أن النبي ﷺ هو الذي بذر فكرة الإمامة في حديث الدار عندما نزل قوله سبحانه:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ .^(١)

ففي هذا اليوم قال النبي ﷺ في علي: «إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»^(٢).

ولما نزل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين»^(٣).

وفي رواية أخرى، قال: «والذي نفسي بيده أن هذا (مشير إلى علي) وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»^(٤).

إن فكرة الإمامة تمخضت من حديث الثقلين وحديث السفينة وحديث الغدير إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وإذا كان ثمة اعتراض فأنما يتوجه إلى المعارضين عن هذه الأحاديث لا إلى المتمسكين بها.

أن الذي أوقع العداوة والشقاق بين جمهور المسلمين هو معاوية وحزبه الأموي. فقد أصدر بياناً قاطعاً حاسماً بقتل الشيعة وقطع منحهم وبذلك أغرى الحزب الأموي ومن والاه على الخوض في دماء شيعة أهل البيت.

١. الشعراء: ٢١٤.

٢. مسند أحمد: ١/١١١، تاريخ الطبري: ٢/٦٢ - ٢/٦٣، تاريخ الكامل: ٢/٤٠ - ٢/٤١، إلى غير ذلك من المصادر المتوفرة يقف عليها من سبر كتب السيرة - عند سرد حوادث بدء الدعوة وكتب التفسير في تفسير الآية الآتفة في سورة الشعراء.

٣. الدر المنثور: ٦/٥٨٩. والآية ٧ من سورة البيّنة.

٤. نفس المصدر.

كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بدء عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته. فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام فاستعمل عليها زياد بن سمية وضم إليه البصرة، وكان تتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق أن لا يميزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة^(١).

نسأل الكاتب، فمن الذي أوقع العداوة والشقاق بين جمهور المسلمين؟ ولو أردنا أن نسبر التاريخ لنرى قتل الشيعة من صحابيتهم إلى تابعيتهم إلى تابعي التابعين لطلال بنا المقام.

٢٢. يقول: «ومما يدل على بطلان مبدأ الإمامة بصيغته تلك عند الاثني عشرية فعل الإمام علي رضي الله عنه إذ بايع أبا بكر الصديق ونصره بنفسه وولده وكذلك بايع كلاً من عمر و عثمان بالخلافة الخ».

مناقشتنا:

العجب كل العجب أن نترك النصوص الواردة في الكتاب والسنة والتاريخ الصحيح ونستدل بفعل عليّ وبيعته التي لم تثبت قط وإنما يرونها رواية مدرسة الخلفاء وتكذبها رواية مدرسة أهل البيت. إن الإمام لم يبايع قط، وإنما تعاون مع

الخلفاء لما رأى أنّ في ترك التعاون معهم ضرراً أعظم من ذهاب ولايته وهو سلام الله عليه يشرح لنا سبب مساهمته وسكوته ورفقه .

إذ يقول ﷺ : «فوالله ما كان يُلقى في روعي، ولا يخطر ببالي، أنّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده ﷺ عن أهل بيته، ولا أنّهم مُنْحَوَه عني من بعده. فما راعني إلاّ إنشغال الناس على فلان يبائعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد ﷺ فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله، أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه»^(١).

فقد جاء في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري: الذي ورد فيه ذكر حوادث حدثت في صدر الإسلام والكتاب جدير بالمطالعة لطالبي الحقيقة وقد جاء فيه أنّ أبا بكر أرسل عمر ومعه جماعة إلى بيت فاطمة الذي كان فيه عليّ وجماعة من بني هاشم متخلفين عن البيعة فأزعجوا فاطمة بنت رسول الله ﷺ أيّما ازعاج حيث نادت بأعلى صوتها: يا أبتا يا رسول الله ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة، فلما سمع القوم صوتها وبكاءها انصرفوا باكين وكادت قلوبهم تتصدع وأكبادهم تنفطر وبقي عمر ومعه قوم فأخرجوا عليّاً ومضوا به إلى أبي بكر فقالوا له بايع، قال: ان أنا لم أفعل فمه؟ قالوا: إذا والله الذي لا إله إلا هو نضرب عنقك، قال: أتقتلون عبد الله وأخا رسوله؟ قال عمر: أمّا عبد الله فنعم وأمّا أخا رسوله فلا. وأبو بكر ساكت لا يتكلم. فقال عمر: ألا تأمر فيه بأمرك؟ فقال: لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه^(٢).

١. نهج البلاغة، الكتاب: ٦٢.

٢. الإمامة والسياسة: ١/ ١٣.

وهذا شاعر النيل حافظ إبراهيم المصري (المتوفى ١٣٥١ هـ) يصف لنا كيف تم أخذ البيعة في قصيدته العمرية ويقول:

وقولة لعل قالها عمر أكرم بسامعها أعظم بملقيها
حرقت دارك لا أبقي عليك بها إن لم تبائع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفص يفوه بها أمام فارس عدنان وحاميه^(١)
أبعد هذا يمكن أن يحتاج بهذا الشكل من البيعة؟ والنار موجهة تكاد أن
تأكل الرطب واليابس وهذا هو الطبري (المتوفى ٣١٠ هـ) يصف لنا كيفية أخذ
البيعة ويقول: أتى عمر بن الخطاب منزل علي فقال لأحرقنّ عليكم أو لتخرجنّ
إلى البيعة^(٢).

وهذا ابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى ٤٩٥ هـ) يقول: بعث إليهم أبو بكر
عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيت فاطمة وقال له: إن أبوا فقاتلهم. فأقبل
بقبس من النار على أن يضرم عليهم الدار. فقالت: يا ابن الخطاب أجئت لتحرق
دارنا؟ قال: نعم أو تدخلوا فيها دخلت فيه الأمة^(٣).

٢٣. قال: «ولو وجد هذا النص لأخذ به الصحابة رضوان الله عليهم الذين
كانوا أشد حرصاً على طاعة الله ورسوله».

مناقشتنا:

قد أخذ لفيف من الصحابة بنصوص الخلافة في حق علي عليه السلام من مشاهير
بني هاشم وغيرهم.

١. ديوانه: ٨٤/١.

٢. تاريخ الطبري: ٣/٢٠٢ ط: دائرة المعارف.

٣. العقد الفريد: ٤/٢٦٠؛ ولاحظ تاريخ أبي الفداء: ١/٣٥٦؛ وأعلام النساء: ٣/١٢٠٧.

وإليك فهرس أسماء خمسين صحابياً كانوا رواد التشيع في عصر النبي وما

بعده:

- ١- عبد الله بن عباس ٢- الفضل بن العباس ٣- عبيد الله بن العباس
- ٤- قثم بن العباس ٥- عبد الرحمن بن العباس ٦- تمام بن العباس
- ٧- عقيل بن أبي طالب ٨- أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ٩- نوفل بن
- الحرث ١٠- عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ١١- عون بن جعفر ١٢- محمد بن
- جعفر ١٣- ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ١٤- الطفيل بن الحرث ١٥- المغيرة
- ابن نوفل بن الحارث ١٦- عبد الله بن الحرث ابن نوفل ١٧- عبد الله بن أبي سفيان
- ابن الحرث ١٨- العباس بن ربيعة بن الحرث ١٩- العباس بن عتبة بن أبي لهب
- ٢٠- عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث ٢١- جعفر بن أبي سفيان بن الحرث.

هؤلاء من مشاهير بني هاشم، وأمّا غيرهم فإليك أسماء ثلثة منهم:

- ٢٢- سلمان المحمدي ٢٣- المقداد بن الأسود الكندي ٢٤- أبو ذر
 - الغفاري ٢٥- عمار بن ياسر ٢٦- حذيفة بن اليمان ٢٧- خزيمة بن ثابت
 - ٢٨- أبو أيوب الأنصاري مضيّف النبي ٢٩- أبو الهيثم مالك بن التيهان
 - ٣٠- أبي بن كعب ٣١- سعد بن عباد ٣٢- قيس بن سعد بن عباد ٣٣- عديّ
 - ابن حاتم ٣٤- عباد بن الصامت ٣٥- بلال بن رباح الحبشي ٣٦- أبو رافع
 - مولي رسول الله ٣٧- هاشم بن عتبة ٣٨- عثمان بن حنيف ٣٩- سهل بن حنيف
 - ٤٠- حكيم بن جبلة العبدي ٤١- خالد بن سعيد بن العاص ٤٢- ابن الحصيب
 - الأسلمي ٤٣- هند بن أبي هالة التميمي ٤٤- جعدة بن هبيرة ٤٥- حجر بن
 - عدي الكندي ٤٦- عمرو بن الحمق الخزاعي ٤٧- جابر بن عبد الله الأنصاري
 - ٤٨- محمد بن الخليفة أبي بكر ٤٩- أبان بن سعيد بن العاص ٥٠- زيد بن
- صوحان العبدي.

هؤلاء خسون صحابياً من الطبقة الأولى للشيعنة، فمن أراد التفصيل والوقوف على حياتهم وتشيعهم فليرجع إلى الكتب المؤلفة في الرجال ولكن ببصيرة نافذة.

وأما الذين لم يأخذوا به فهؤلاء هم الذين خالفوا الرسول ﷺ في غير واحد من المواقف. فقد خالفوه في المواقف التالية:

- ١- في الأنفال والأسرى في غزوة بدر.
 - ٢- في أحد حيث أعرضوا عن امتثال أمر النبي ﷺ في الوقوف في المضيق.
 - ٣- في صلح الحديبية حيث نسبوا صلحه إلى الدنية في الدين.
 - ٤- في تجهيز جيش أسامة حيث لم يخرجوا معه و قاموا في معسكر المدينة حتى أتى قبض النبي ﷺ فرجعوا إلى البلدة وفعلوا ما فعلوا.
 - ٥- في احضار القلم والدواة في أخريات عمره الشريف.
 - ٦- زيادتهم في الأذان التشويب (أي الصلاة خير من النوم) حسب ما يرويه الإمام مالك في موطنه.
 - ٧- حذف (حي على خير العمل) من فصول الأذان.
 - ٨- الحيلولة بين فاطمة وميراثها.
 - ٩- النهي عن متعة الحج.
 - ١٠- اسقاط أسهم ذوي القربى من الخمس بعد وفاة الرسول.
- تلك عشرة كاملة خالف فيها بعض الصحابة النبي ﷺ وكم لها من نظير. والعجب أن الكاتب ومن لفّ لفه ألبسوا الصحابة ثوب العصمة فصار صمتهم وسكوتهم حجة إلهية فضلاً عن قولهم وكلامهم وفيهم المنافقون المندسون غير المعروفين حتى لدى النبي ﷺ.

قال سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ لَا يَتْلَمَهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾^(١).

أنه لا يرضى من الشيعة القول بعصمة اثني عشر إماماً، ولكنه ومن لف لفه يرون أن الصحابة معصومون ولا يذكرون لهم أي ذنب ولا خطأ.

انهم ينسبون في تواريخهم وتفسيرهم أموراً إلى الأنبياء من الخطأ والعصيان بارتياح وبلا تحرج فلاحظ كتب التفسير والتاريخ فاتها مليئة بنسبة الخطايا والذنوب إلى يوسف وداود وسليمان وغيرهم. وعند ما يذكر أحد شيئاً في حق الصحابة مما يعاب به عليهم، ثارت ثائرتهم وما هذا إلا لأن الصحابة بمنزلة السائر الأول لهم ومنهم أخذوا دينهم، فإذا دب الجرح إليهم إنهار دينهم وفقههم، ولأجل صونهم عن أي ذنب وخطأ، حرّموا أي كلام حولهم وانفقوا على عدالتهم المساوية لعصمتهم.

٢٤. يقول: «لو كانت الإمامة حُدِّدت في عليٍّ وأولاده كما يزعمون لعين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ابنه الحسن رضي الله عنه خليفة للمسلمين من بعده».

مناقشتنا:

إن ما ذكره تجاهل للواقع أو غفلة عن حقيقة الحال أو ناشيء عن قلة التتبع. فقد تضافر النص من علي عليه السلام على وصيه وإمام المسلمين من بعده. وهو الحسن بن علي عليه السلام فمن أراد الوقوف على النص فليرجع إلى مظانه^(٢).

١. التوبة: ١٠١.

٢. الكافي: ١/٢٩٧ باب النص على الحسن بن علي، واثبات الهداة: ٢/٥٤٣.

وأما ما نسب إلى علي من أنه سئل عمن يستخلفه من بعده، فقال: ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ: فهو موضوع على لسانه. فرسول الله ﷺ لم يترك الأمة سدى وهو الذي يأمر الأمة أن لا يموت واحد منهم بلا وصية فكيف يموت هو ﷺ بلا وصية؟

وقد كانت سيرة الخلفاء على الايصاء فقد أوصى أبو بكر إلى عمر بن الخطاب كما أنّ عمر بن الخطاب لم يترك الناس على أن يختاروا لأنفسهم خليفة باختيارهم فقام بتشكيل شورى سداسية أشبه بلعبة سياسية منتهية إلى خلافة من كان يهوى خلافته.

وهذه هي السيدة عائشة حينما ضرب عمر في بطنه وأشرف على الموت قالت لعبد الله بن عمر: «أبلغ أباك سلامي وقل له لا تدع أمة محمد بلا راعٍ استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملاً»^(١).

وهذا هو معاوية بن أبي سفيان قد أخذ البيعة لابنه يزيد في حياته بترغيب وارهاب.

فلو كانت السنّة الموروثة في الخلافة هي ترك الايصاء فلماذا خالفها الخلفاء حيث لم يتركوا الأمة سدى ونصبوا قائداً لها بأشكال مختلفة؟ أوليس الرسول ﷺ هو الأسوة كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٢)؟

وكل ذلك يشهد على أنّ الرواية موضوعة على لسان علي عليه السلام الذي لم يكن يتخلف عن الرسول ﷺ قيد شعرة.

١. ابن قتيبة الدينوري المتوفى: ٢٧٦ هـ، تاريخ الخلفاء الراشدين المعروف بالإمامة والسياسة:

٢٢/١.

٢. الأحزاب: ٢١.

٢٥. يقول: «بعدما بويع الحسن بالخلافة وتنازل لمعاوية عن الخلافة حقاً لدماء المسلمين مما يسقط دعاوى القوم في بطلان ولاية أي إمام غير الاثنى عشر».

مناقشتنا:

إن الإمام الحسن عليه السلام لم يتنازل عن الخلافة إلا بعد أن أتمّ الحجة وأرسل كتابه إلى ميادين الحرب فلما لم يجد في جيشه من ينصره وكادت الحرب تنتهي إلى إهراق دماء الصلحاء من شيعة علي عليه السلام بلا جدوى. إضافة إلى ما وصله من أخبار تهيؤ الروم للوثوب على بلاد الإسلام وعزمهم على سحق المسلمين بلا فرق بين أموي وعلوي فلم يكن أمامه عليه السلام مناص إلا التنازل عن الخلافة لحفظ كيان الإسلام. كما تنازل رسول الله صلى الله عليه وآله عن كتابة «رسول الله» بعد اسمه الشريف في صلح الحديبية^(١) فلم يكن التنازل حجة على أنه ليس برسول الله.

٢٦. يقول: «ويعتقدون برجعة الإمام المهدي المنتظر قبل القيامة».

مناقشتنا:

إن مسألة المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) مسألة إسلامية لا تختص بطائفة دون طائفة فقد أطبقت الأمة على ظهور المهدي في آخر الزمان وليس حديث الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) حديث رواية واحدة أو اثنتين بل روايات متواترة ملأت الصحاح والمسانيد ومن أراد فليرجع إلى الكتب المؤلفة في هذا الصدد ولكن الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) عند الشيعة حيٌّ يُرزق وليس له رجوع وإنما له ظهور بعد الغيبة

١. السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٧/٢ ط الحلبي مصر، السيرة الحلبية: ٣/١٩ ط مصر.

الكبرى.

فليرجع الكاتب إلى الكتب التالية:

- ١- «البيان في أخبار صاحب الزمان» للكنجي الشافعي.
- ٢- «البرهان في علامات المهدي آخر الزمان»، لملا علي المتقي صاحب كنز العمال.
- ٣- «العرف الوردي في أخبار المهدي» للحافظ السيوطي.
- ٤- «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر» لابن حجر.
- ٥- «عقد الدرر في أخبار الإمام المنتظر» للشيخ جمال الدين الدمشقي.
- ٦- وأخيراً «بين يدي الساعة» للدكتور عبد الباقي إلى غير ذلك من المؤلفات.

٢٧. ويقول: «ويقول بعض غلاتهم برجع الأئمة الاثني عشر إلى الدنيا بعد أن يكون المهدي قد سبقهم إليها».

مناقشتنا:

القول بالرجعة عقيدة معروفة عند الشيعة ويعنون برجع الأئمة عليهم السلام أحد الأمرين إما رجوع دولتهم لا أنفسهم كما عليه جماعة من أعلامهم كالسيد المرتضى وغيره، أو رجوع أعيانهم وليس فيه أي بُعد وعجب فإنه سبحانه أحى أناساً من الأمم السالفة.

يقول سبحانه: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَتَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ...﴾ ^(١).

وقد أحى أصحاب الكهف بعد أن أنامهم نومة شبه الموت مئات السنين .
 يقول سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ...﴾ (١).
 إلى أن قال سبحانه: ﴿وَلْيُسْأَلُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٢).

ومن أنكر امكان الرجعة فقد أنكر قدرة الله، وأمّا الوقوع فإن كانت الروايات متواترة نأخذ بها في مجال العقيدة وإلا فروايات الآحاد لا تفيد في مجالها ولا يؤخذ بها.

٢٨ . يقول: «وأول من قال بفكرة الرجعة ودعا إليها عبد الله بن سبأ اليهودي فأخذ يقول برجعة الرسول ﷺ مثل عيسى واستشهد بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾» (٣).

مناقشتنا:

إنّ من المؤسف جداً أن ينسب فكرة الرجعة إلى شخصية اسطورية لم يثبت أي وجود لها بالوصف المذكور في التاريخ حيث إنّه يوصف فيه أنّه بتجوّله في البلاد استطاع أن يقلب وضع المسلمين رأساً على عقب ويشيرهم ضد الخليفة عثمان بن عفان و ... ، أنّ ذلك ممّا لا يقبله العقل السليم، ولا سيرة المسلمين أيام الخلفاء.

لم يكن ابن سبأ المزعوم بأعز من أبي ذر - ذلك الصحابي العظيم - عند عثمان فقد نفاه إلى الربرة فمات هناك وحيداً فلم يبق له من الخليفة في حق عدوه المزعوم حتى أفسد الجو وأثار الفتنة وانتهى الأمر إلى قتله في عقر داره كل ذلك

١. الكهف: ١٩.

٢. الكهف: ٢٥.

٣. القصص: ٨٥.

يؤكد أنّ ما ذكر له من الصفات مما صنعته يد الوضع ضد الشيعة، وإنّ للمقال صلة موكولة إلى محلها.

إنّ أوّل من قال بالرجعة هو الذكر الحكيم.

يقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يَكْذِبُ بآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(١).

والآية لا علاقة لها بيوم القيامة فإنّ الحشر هناك يتعلق بالجميع لا بالبعض على خلاف ما ورد في هذه الآية.

قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾^(٢).

ثم إنّ من أنكر موت الرسول ﷺ وقال إنّهُ سيرجع ويقطع أيدي القائلين بموته هو عمر بن الخطاب.

فهذا ابن سعد يقول: «لما توفي رسول الله ﷺ بكى الناس فقام عمر بن الخطاب في المسجد خطيباً فقال: لا أسمعنّ أحداً يقول: إنّ محمداً مات ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عمران فلبث عن قومه أربعين ليلة. والله أنّي لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنّه مات».

فقال العباس: ادفنوا صاحبكم، أيّميت أحدكم ميتة واحدة ويُميته إمامتين؟ وقد كان عمر بن الخطاب مصراً على أنّه سيرجع حتى خطب أبو بكر فأمره بالسكوت فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٣) إلى آخر ما ذكر^(٤).

وقد ذكر ذلك ابن هشام في السيرة النبوية أيضاً.

١. النمل: ٨٢ - ٨٣.

٢. الكهف: ٤٧.

٣. الزمر: ٣٠.

٤. طبقات ابن سعد: ٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

٢٩. يقول: «إنَّ البابية فرقة دينية نشأت في إيران منشعبة عن الاثني عشرية أبان القرن الثالث عشر والميرزا حسن بهاء الله مؤسس البهائية وهي صورة متطورة من البابية اختلفت عنها في أهدافها وأساليبها» .

مناقشتنا:

لم أزل أتعجب من الكاتب كيف ينسب البابية والبهائية إلى الشيعة الاثني عشرية!! وليست البابية والبهائية إلاّ حزينين سياسيين أضفي عليهما طابع الدين أسسهما الاستعمار الغربي لايجاد الفوضى الدينية في الأوساط الشيعية كالحركة القاديانية في الأوساط السنية .

البهائية - بدّد الله شملهم - ينكرون الخاتمية ويدّعون النبوة بل اللوهمية لزعيمهم حسين علي البهائي وقد ألف علماء الشيعة ردوداً عليهم واقصوهم عن مجامع المسلمين ومجالسهم أفهل يصح لنا أن ننسب إلى السنّة، المذهب القادياني وهو في حركته كحركة البابية والبهائية، غير أنّها حدثا في إيران بين الشيعة، والقاديانية حدثت في الهند بين السنة.

٣٠. يقول: «ويستبيح الاثنا عشرية سب بعض الصحابة وأزواج الرسول ﷺ وبخاصة السيدة حفصة والسيدة عائشة - رضي الله عنهما - ...» .

مناقشتنا:

إنّه من المستحيل أن يحبّ الانسان النبي ﷺ وفي الوقت نفسه يبغض من ضحّى بنفسه ونفيسه في طريق رسالته، والانسان العاقل لا يمكنه أن يجمع في قلبه حالتين متضادتين.

والذي دعا أهل السنّة إلى اتهام الشيعة بالسبّ هو اعتقادهم بعدالة

الصحابة كلهم من أولهم إلى آخرهم، والشيعه الاثنا عشرية لا تعترف بذلك، بل أنّ الصحابة والتابعين وغيرهم من تابعي التابعين عندهم في صف واحد ولا ترى أي ملازمة بين كون الرجل صحابياً رأى النبي ﷺ، وبين كونه رجلاً مثالياً يكون القدوة والاسوة للمسلمين إلى يوم القيامة. بل تعتقد أنّ مصير الصحابة كمصير الآخرين فيهم الصالح والتقوي والمخلص، وفيهم الطالح والمنافق ويدل على ذلك أمور كثيرة نذكر منها ما يلي:

١- إنّ المنافقين كانوا مندسّين بين الصحابة وحتى النبي ﷺ لم يكن يعلم بهم. قال سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾^(١) ومع ذلك كيف يصح أخذ الدين والحكم الشرعي عن كل صحابي بمجرد أنّه رأى النبي ﷺ مع أنّه من المحتمل أن يكون منافقاً فلاجل ذلك يجب التمييز والتفريق بين من ثبت إسلامه وإيمانه ومن ثبت نفاقه كعبد الله بن أبي، والاجتناب عمن لم يعرف بأحد الأمرين: الايمان والنفاق.

٢- أنّه سبحانه يقول: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِیْءٍ فَتَبَيَّنُوا﴾^(٢) فنسأل: من هذا الفاسق الذي جاء بخبر كاذب في عصر النبي ﷺ فهل كان واحداً من الصحابة أم كان من غيرهم؟

إننا إذا راجعنا أسباب النزول نرى أنّ الروايات متفقة على أنّ المراد بالفاسق هو الوليد بن عقبة الصحابي الذي كان عاملاً للخليفة عثمان في الكوفة وقد ألقى إليه زمام المسلمين من قبل الخليفة هناك.

ومن أراد أن يقف على رأي الشيعة في الصحابة فعليه بما يقوله إمام المسلمين علي عليه السلام في حقهم، يقول: «أين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على

١. التوبة: ١٠١.

٢. الحجرات: ٦.

الحق. أين عمار وأين ابن التيهان وأين ذو الشهادتين وأين نظراؤهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على المنية وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة. أوه على اخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض وأقاموه، أحيوا السنة وأماتوا البدعة، دُعوا للجهاد فأجابوا ووثقوا بالقائد فاتبعوه»^(١).

وهذا هو علي بن الحسين عليه السلام وهو الإمام الرابع للشيعة يذكر في بعض الأدعية صحابة النبي صلى الله عليه وآله ويقول: اللهم وأصحاب محمد صلى الله عليه وآله خاصة الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره وكافوه، وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته وفارقوا الأزواج والأولاد في اظهار كلمته وقتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته الخ»^(٢).

أفهل يمكن بعد كل هذه التصريحات أن يُنسب سب بعض الصحابة إلى عقائد الشيعة؟

نعم إذا كان للشيعة كلام حول بعض الصحابة فإننا يذكرهم أعماهم ويصفون أفعالهم حسب ما ورد في القرآن والسنة مثلاً السيدة عائشة مع ما لها من المكانة بين المسلمين ولكنهم لا يمنعهم ذلك عن الحكم بخطئها في خروجها على علي عليه السلام لأنها كانت مأمورة بلزوم بيتها.

يقول سبحانه: ﴿... وَقرنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى...﴾^(٣) فما للنساء وقيادة الجيش الجرار ضد من أصفقت الأمة على خلافته وإمامته وبايعه وجوه الصحابة من الأنصار والمهاجرين إلا من شذ من الذين لا يعبأ بهم أمام غالبية المسلمين.

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢.

٢. الصحيفة السجادية، الدعاء الرابع.

٣. الأحزاب: ٣٣.

فتحليل حياة السيدة عائشة على ضوء الكتاب والسنة والتاريخ الصحيح لا يعد سباً بل يعد فهماً للتاريخ وتعرفاً على الصحابييات عن كتب.

إنّ الذكر الحكيم قد تعرض إلى بعض أزواج النبي ﷺ وقال في حقها: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(١).

فمن يُضفي على أمهات المؤمنين ثوب العصمة فعليه دراسة هذه الآية بإمعانٍ بما لها من سببٍ للنزول.

إنّ أول من روج سبّ الصحابة هو معاوية بن أبي سفيان. فقد أمر بسبّ أول المؤمنين إسلاماً وإيماناً وأخا رسول الله علياً حتى سُبّ على صهوات المنابر بأمره قرابة ستين سنة ومع ذلك كلّهُ هو صحابي يدعى له كلما ذكر بـ -رضى الله عنه - . فما هذا التناقض في حياة الصحابة يا ترى؟!

وتبرير أفعال السابّين بالاجتهاد أشبه بالمهزلة، أفيصح الاجتهاد مع وجود الدليل القاطع؟ ما هذا الاجتهاد الذي يُبيح إراقة دماء آلاف من المسلمين في حروب الناكثين والقاسطين فما قيمة صحابي أو صحابية أثار أو أثارت فتنة قُتل فيها الأبرار من الصحابة والتابعين.

والنبي الأعظم أعرف من كل الناس بصحابته ومكانتهم من الأمانة والديانة فما هو يحدثنا عن حالاتهم يوم القيامة:

روى أبو حازم عن سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ: «إِنِّي فُرْطُكُمْ»^(٢) على الحوض من ورد شرب، ومن شرب لم يظماً أبداً وليردّن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني

١. التحريم: ٤.

٢. الفُرْط: المتقدم قومه إلى الماء ويستوي فيه الواحد والجمع .

ثم يحال بيني وبينهم...» قال أبو حازم: فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم بهذا الحديث فقال: هكذا سمعت سهلاً يقول، فقلت: نعم قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسماعته يزيد فيقول: «إنهم مني» فقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول: «سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي». أخرجه البخاري ومسلم^(١).

وظاهر الحديث أنّ المراد بقريّة «بدل بعدي» أصحابه الذين عاصروه وصحبوه وبقوا بعده مدة ثم مضوا. أخرج البخاري ومسلم أنّ رسول الله ﷺ قال: يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي - أو قال من أمتي - فيحلّون عن الحوض فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقول: إنّه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري^(٢).

ثم قال: وللبخاري: إنّ رسول الله ﷺ قال: «بيننا أنا قائم على الحوض إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم. فقلت: أين؟ فقال: إلى النار والله، فقلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري، ثم إذا زمرة أخرى، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم: هلم. فقلت إلى أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلّا همل النعم»^(٣).

وظاهر الحديث بقريّة «حتى إذا عرفتهم» وقوله: «ارتدوا على أدبارهم القهقري» أنّ الذين أدركوا عصره وكانوا معه هم الذين يرتدون بعده.

١. جامع الأصول لابن الأثير: ١١/ ١٢٠، كتاب الحوض في ورود الناس عليه، رقم الحديث ٧٩٧٢.

٢. جامع الأصول: ١١/ ١٢٠ رقم الحديث ٧٩٧٣.

٣. جامع الأصول: ١١/ ١٢١، و «همل النعم» كناية عن أنّ الناجي عدد قليل، وقد اكتفينا من الكثير بالقليل ومن أراد الوقوف على ما لم نذكره فليرجع إلى «جامع الأصول».

٣١. يقول: «يؤمن جمهور الاثني عشرية بالمصحف الذي بين يدي المسلمين ويعتقد بعض غلاتهم أنّ الإمام علياً كرم الله وجهه والسيدة فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - كان لهما مصحف يخالف هذا المصحف المتواتر بين المسلمين...».

مناقشتنا:

أنّ جمهور الشيعة الإمامية يعتقدون بصيانة القرآن عن التحريف كما اعترف به الكاتب وأما ما نسب إلى بعضهم فقد أخطأ فيه من وجهين:

ألف - أنّ القرآن الذي قام عليّ بجمعه هو نفس ذلك القرآن ولكن يختلف معه في ترتيب السور فقد جمع الإمام الذكر الحكيم حسب تاريخ النزول وهذا أمر مشهور بين المفسرين.

ب - وأما المصحف المنسوب إلى السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام فلا يراد به القرآن بل المصحف بمعنى الكتاب وهو ما حدّثتها به الملائكة من الحوادث المستقبلية وكتبه علي عن لسانها. فالمصحف بمعنى القرآن مصطلح متأخر وهو في عصر النزول بمعنى مطلق الكتاب، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرتْ﴾^(١) والإمام الصادق عليه السلام يصف مصحف فاطمة ويقول: «والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد»^(٢).

ونحن بدورنا نتقدم بالشكر إلى الكاتب لأنّه لم ينسب التحريف إلى جمهور الإمامية كما فعله بعض المغفلين من الكتّاب الجدد، ولكن يجب إضافة هذه النكته أنّه ليس كل من قال بالتحريف فهو غال وإنّما هو مخطئ في تلك الفكرة التي

١. التكوين: ١٠.

٢. الكافي: ١/ ٢٣٩ باب ذكر الصحيح ومصحف فاطمة.

تضاد الذكر الحكيم حيث تكفل الله تعالى بحفظ القرآن، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١).

فليس القول بالتحريف ملازماً للغلو هذا هو الإمام البخاري ينقل عن عمر بن الخطاب سقوط آية الرجم من القرآن الكريم^(٢). وقد روي أنّ السيدة عائشة تقول: إنّ سورة الأحزاب كانت مائتي آية^(٣).

ولما كانت هذه الروايات تمس كرامة القائلين بالتحريف راحوا يؤولونها بأنها من باب نسخ التلاوة. فإذا كان هذا التأويل صحيحاً فليكن صحيحاً في ما يقوله بعض الشواذ من الشيعة.

٣٢. يقول: «ويقصدون بالتقية أن يظهر الانسان خلاف ما يُبطن ... فالشيعي يتصرف بين خصومه كما لو كان يدين بعقيدتهم. وقد بدأوا العمل بهذا المبدأ منذ القرن الرابع الهجري، وقد يصل العمل بهذه التقية إلى حد استباحة الكذب والنفاق ... ومع هذا فإنهم ينسبوننا إلى أئمتهم بل يرفعونها إلى الرسول ﷺ فيما زعموا، مع أنّه ﷺ - وأبناءه من علماء أهل البيت - كانوا أبعد الناس عن التقية وكانوا من الشجاعة والاقدام بحيث يتحملون المشاق الناجمة عن مواقفهم وآرائهم بلا خوف أو تردد».

مناقشتنا:

إنّ الكاتب خلط بين النفاق والتقية، والنفاق اظهار الإيماّن وابطان الكفر،

١. الحجز: ٩.

٢. صحيح البخاري: ٢٠٨/٨ - ٢١١، باب رجم الحبل؛ وراجع صحيح مسلم: ٤/١٦٧ و ١١٦/٥، ومسند أحمد: ١/٢٣ و ٥/١٣٢ و ١٨٣، وسنن أبي داود، الحدود: ٢٣ و

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي في مقدمة تفسير سورة الأحزاب.

والتقية على خلافه فهي عبارة عن اظهار الكفر وابطان الإيمان. وشتان ما بينهما. إن التقية سلاح الضعيف في مقابل القوي الغاشم. سلاح من يتلى بمن لا يحترم دمه وعرضه وماله، لا شيء إلا لأنه لا يتفق معه في بعض المبادئ والأفكار. إنما يمارس التقية من يعيش في بيئة صودرت فيها الحرية في القول والعمل والرأي والعقيدة فلا ينجو المخالف إلا بالصمت والسكوت مرغماً أو بالتظاهر بها يوافق هوى السلطة وأفكارها وربما يتظاهر بموافقة السلطة لأجل أن ينجي مؤمناً كما كان عليه مؤمن آل فرعون.

فإذا كان هذا مفهوم التقية وعللها فهو مما يبرره ويمضيه الشرع في غير واحد من آياته.

قال سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلُوبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(١).

وقال سبحانه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾^(٢). وقد فسرت الآيتان بالتقية:

قال جمال الدين القاسمي: «استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف، وقد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليباني في كتابه ايثار الحق على الخلق»^(٣).

ومورد الآيات وإن كان هو التقية في مقابل الكافر ولكن العلماء فهموا المعنى العام حتى في مقابل المسلم الظالم.

١. النحل: ١٠٦.

٢. آل عمران: ٢٨.

٣. جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل: ٨٢ / ٤.

قال الرازي ناقلاً عن الإمام الشافعي: «إنّ الحالة بين المسلمين، إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والكافرين حلت التقية محاماة عن النفس»^(١).

إنّ الشيعة والسنة يتقون الكفار لصيانة النفس والنفس غير أنّ الشيعي ربّما يتقي أخاه المسلم لا لتقصير أو قصور في الشيعي بل لخوفه بطش أخيه الذي دفعه إلى ذلك لأنّه يدرك أنّ الفتك والقتل مصيره إذا ما صرح بمعتقدده الذي هو موافق عنده للدليل والبرهان.

إنّ الشيعي يتحاشى أن يقول: إنّ الله ليس له جهة، ولا يُرى يوم القيامة وإنّ المرجعية العلمية والسياسية لأهل البيت بعد رحيل النبي ﷺ وأنّ حكم المتعة غير منسوخ وذلك لأنّه إذا صرح بمعتقدده فقد عرّض نفسه ونفيسه للمهالك والمخاطر.

قال جمال الدين القاسمي: «وزاد الحق غموضاً وخفاءً، خوف العارفين مع قلتهم من علماء السوء وسلاطين الجور، وشياطين الخلق مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن واجماع أهل الإسلام. وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق وما برح المحقّ عدواً لأكثر الخلق وقد صحّ عن أبي هريرة، أنّه قال: في ذلك العصر الأول: حفظتُ من رسول الله وعائين أمّا أحدهما فبشّته في الناس وأمّا الآخر فلو بشّته لقطع هذا البلعوم»^(٢).

ومن وقف على الظروف العصيبة التي مرّت بها الشيعة وجد المبرر الكافي لاعمالهم التقية صيانة لوجودهم وكيانهم فلو كان في التقية غضاضة فهي تتوجه على من حمل الشيعة على التقية.

١. الرازي، مفاتيح الغيب: ١٣/٨ في تفسير الآية.

٢. جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل: ٨٢/٤.

٣٣. يقول: «يقول بعض الغلاة بأنَّ الله سبحانه يبدو له أحياناً غير الذي أراده فيرجع عن ارادته الأولى إلى الذي بدا له ... ولكن الاثني عشرية وإن قالوا بالبداء فهم يفسرونه بمثل ما قال به أهل السنة من قضاء مبهم وقضاء معلق».

مناقشتنا:

إنَّ مسألة البداء من المسائل التي كان يُتَحامل بها على الشيعة، وذلك لأنَّ أهل السنة يزعمون أنَّ الشيعة يقولون بمقالة الغلاة (لو صحت النسبة إليهم) ولأجل ذلك ترى أنَّ علماءهم يتحاملون على الشيعة في كتبهم الكلامية والتفسيرية بالبداء، ونحن نشكر الكاتب حيث خطا خطوة مباركة بتفسيره البداء تفسيراً صحيحاً.

وقد ورد البداء بهذا المعنى في كتب أهل السنة حتى في صحيح البخاري في حديث الأبرص والأقرع والأعمى حيث ينقل عن النبي ﷺ، أنه قال: «بدا لله أن يتليهم فبعث إليهم ملكاً الخ»^(١).

وواقع البداء هو عبارة عن تغيير المصير بالأعمال الصالحة أو الطالحة. وهو من ضروريات الإسلام والذكر الحكيم.

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

فالقول بالبداء على طرف النقيض مما يزعم به اليهود قائلين: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾^(٣) كما أنَّ الكاتب أمعن النظر ووصل إلى الحق في قضية

١. صحيح البخاري: ٤/ ١٧١، باب ما ذكر عن بني اسرائيل من كتاب بدء الخلق.

٢. الأعراف: ٩٦.

٣. المائدة: ٦٤.

البداء، فالمرجو أن يمعن النظر فيما تقدمه إليه في هذا الكراس لكي يرى أن وجهات نظرنا معه في أكثر مواضع العقيدة والأحكام متقاربة.

٣٤. ويقول في حق زواج المتعة: «هو الزواج لمدة محدودة وكان الرسول ﷺ قد أباحه في بدء البعثة ثم حرمه تحريماً مؤبداً بعد ذلك وثبت ذلك عنه كما حرمه الإمام علي بن أبي طالب أيضاً وعمل الإمام حجة ملزمة عند الشيعة».

مناقشتنا:

إن الكاتب لا يملك المعرفة التامة حول زواج المتعة واكتفى بقوله «الزواج لمدة محدودة» وواقعه: عبارة عن تزويج المرأة الحرة الكاملة نفسها، إذا لم يكن بينها وبين الزوج مانع من نسب أو سبب أو رضاع أو احصان أو عدة أو غير ذلك من الموانع الشرعية بمهر مسمى إلى أجل مسمى بالموافقة والاتفاق. فإذا انتهى الأجل تبين الزوجة عنه من غير طلاق ويجب عليها مع الدخول بها - إذا لم تكن يائسة - أن تعتد عدة الطلاق إذا كانت ممن تحيض وإلا فبخمسة وأربعين يوماً، وولد المتعة ذكراً كان أو أنثى يلحق بهما ويرثهما كما يرثانه حسب ما أوصانا الله سبحانه به في كتابه العزيز وتشمله جميع العمومات الواردة في الآباء والأبناء والأمهات والإخوة والأخوات والأعمام والعمات.

وقد اتفق المسلمون على أن النبي ﷺ شرع زواج المتعة بعد الهجرة حتى أن معظم المفسرين قالوا بنزول قوله سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾^(١) في متعة النساء.

وإنّما اختلفوا في نسخه وعدمه. فالشيعة الإمامية قالوا ببقائه على حكمه، وأهل السنّة ذهبوا إلى كونه منسوخاً وهذه مسألة فقهية لا تمس إلى العقائد بصلّة، وإنّما أوردتها الكاتب للازدراء بالشيعة، لكنه غفل عن النكات التالية:

الف - أنّ تشريع المتعة دليل على كمال الدين وتمام النعمة على الأمة لأنّه حلٌّ شرعي لأزمة جنسية تهدد دين الشباب والفتيات بالخطر. فلنفترض أنّ طالباً يدرس في الغرب وله من الشبق الجنسي ما لا يتركه ليلاً ونهاراً والذي يطلب غايته فأمامه طرق أربعة:

١- أن يتزوج نكاحاً دائماً وأنّى له ذلك إذ ليس له من المال والامكانيات ما تفي بذلك مضافاً إلى أنّه ربّما لا يرغب الإقامة في ذلك البلد وإنّما يريد الرجوع إلى وطنه والتزوج هناك من بنات بلده.

٢- أن يكبح جماح الشهوة وهو وإن كان أمراً حسناً وآية للتقوى لكنه لا يقوم به إلّا الأمثل فالأمثل وليس كل طالب على تلك الدرجة من العفاف.

٣- أن يتردد إلى بيوت الدعارة وهذا ما تمنعه منه كرامته وعزة نفسه ودينه.

٤- أن يتزوج نكاحاً مؤقتاً على الشرائط المذكورة.

إذ ليس هناك طريق خامس حتى يكون حلاً للأزمة.

أو لسنا نقول إنّ التشريع الإسلامي أغنانا عن كل تشريع بشري، فعندئذ نسأل ما هو الحل الإسلامي لهذه المشكلة؟ ولا شك أنّ الحل منحصر بما قام به التشريع الإلهي في قرآنه وسنته.

ب - أنّ أهل السنّة وإن كانوا ينكرون حلّية المتعة بقاءً ولكنهم يقولون بها بصورة أخرى وقد أفتوا بصحة الزواج الدائم بنية الطلاق بعد مدّة وهذا نفس المتعة مادة ومعنى، وإن كان يختلف عنها صورة بل المتعة أفضل من هذا النوع من

الزواج. لأنّ فيه خداعاً وتزويراً لا يوجد في المتعة.

ج- والذي لا ينقضي منه عجيبي أنّ الكاتب يقول «وكان الرسول ﷺ قد أباحه في بدء البعثة»، مع أنّ أقوالهم تنفي ذلك. لأنهم يقولون:

أُبيحت ثم نهي عنها عام خبير.

ما أُحلّت إلّا في عمرة القضاء.

كانت مباحة ونهي عنها في عام الفتح.

أُبيحت عام أوطاس ثم نهي عنها.

ثم إنّ سورة النساء مدنية وحكم المتعة جاء في تلك السورة فكيف يصح القول بأنّ النبي ﷺ أحلّها في بدء البعثة؟ على أنّ في بدء البعثة لم يكن هناك أيّ تشريع مدني حتى تصل التوبة إلى زواج المتعة.

د- والعجب أيضاً أنّه يقول إنّ الإمام علياً عليه السلام حرّمه مع أنّ المنقول عن الإمام عليه السلام أنّه قال: «لولا أنّ عمر نهى عن المتعة ما زنى إلّا شقيّ» وقد أخرجه الطبري بأسانيده^(١).

نعم، أوّل من نهى عنه هو عمر بن الخطاب.

روى مسلم في صحيحه عن ابن أبي نضرة، قال: كان ابن عباس يأمر بالمتعة. وكان ابن الزبير ينهى عنها. فذكر ذلك لجابر فقال: على يدي دار الحديث، تمتعنا مع رسول الله ﷺ، فلما قام عمر، قال: إنّ الله كان يحلّ لرسوله ما شاء بما شاء، فاتموا الحجّ والعمرة وأبتوا نكاح هذه النساء فلأنّ أوتي برجل نكح امرأة إلى أجلٍ إلّا رجّمته بالحجارة^(٢).

١. تفسير الطبري: ٩/٥.

٢. صحيح مسلم: ٤/١٣٠، باب نكاح المتعة، الحديث ٨، ط: محمد علي صبيح؛ ومسنّد أحمد:

وهناك نصوص أخرى طوينا الكلام عن نقلها وكفاك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين. قال: «نزلت آية المتعة في كتاب الله ففعلناها مع رسول الله ﷺ ولم ينزل قرآن يجرمها ولم ينه عنها حتى مات. قال رجل برأيه ما شاء»^(١).

وقد تضافر النقل عن عمر، أنه قال: متعتان كانتا في زمن النبي حلالاً وأنا أحرمهما وأعاقب عليهما.

٣٥- يقول حول يوم عاشوراء: «يقوم عوام الشيعة بضرب ظهورهم بالسلاسل حتى يدموها، وضرب أجسادهم بالسيوف حتى يقطعوها حزناً على استشهاد الحسين، وفقده، وتطهراً من مسؤولية خذلانه».

مناقشتنا:

كان على الكاتب أن يشير إلى عظمة يوم عاشوراء وما كان عليه سيد أهل الإباء الذي علّم الناس الحميّة، والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنيا. وقد عُرض عليه الأمان، فأبى الذل واختار الموت على ذلك.

إن ثورة الحسين منذ تفجرها صارت أسوة وقدوة للمضطهدين على وجه البسيطة والمعذبين تحت نير الطغاة، وللمعانين من حكومات الجور والعسف في الأوساط الإسلامية وانحراف الدول والحكومات عن خط العدل والاقتصاد.

لقد لمس الشائرون أن ثورة الحسين كانت ثورة مبدئية إلهية، لأجل صيانة الدين عن التحريف والمجتمع عن الانحراف والاعتساف، فهذه الغاية دفعت

١. صحيح البخاري: ٢٧/٦، كتاب التفسير، تفسير قوله تعالى: ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج ...﴾ من سورة البقرة.

الإمام إلى الثورة والتضحية بشيخه وكهله وشابه وطفله الرضيع حتى يتبين عمقُ الثورة فلما كانت ثورة الحسين ثورة منهجية نابضة، فالشيعة بمواكبها ومظاهراتها يوم عاشوراء تريد أن يبقى المنهج حيّاً غَضّاً مثمراً عبر القرون.

نعم يجب أن تكون المواكب والمظاهرات موافقة للأصول والموازين الشرعية. وهذا ما أهاب به غير واحد من علمائنا.

ولكن يا للأسف أن بعض الجهلة، أعداء أئمة أهل البيت، حَمَلَة النزعة الأموية، شنوا هجوماً شنيعاً على المواكب الحسينية أسفر عنه قتل الأبرياء من محبي أئمة أهل البيت عليهم السلام وهؤلاء هم أعداء الرسول وآله وبما أنهم لا يتجرأون على إظهار العداوة والبغضاء لصاحب الرسالة وأهل بيته لذا يوجهون سهام حقدهم إلى شيعتهم ومحبّيهم. وهناك من يجد في نفسه الجرأة فيضيف إلى سب الشيعة وقتلهم، سب وقتل أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله من غير اكتراث وقد قتل بنوا أمية السبط الحسين عليه السلام تشفيماً لغليل قلوبهم من قتل آبائهم الكافرين في بدر وأحد وما هو يزيد الكافر يتشدد بهذه الأبيات ويقول:

ليت أشياخي بيدر شهدوا جزع الخرزج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

٣٦. يقول حول الخمس: «يرى الاثنا عشرية وجوب دفع الخمس من دخل كل اثني عشري في كل عام إلى مراجع المذهب ... وهم يرون ذلك بديلاً عن الزكاة، وفي بعض المجتمعات التي فرضت فيها الزكاة الشرعية بحكم القانون - كباكستان - رفض الاثنا عشرية دفعها للدولة بسبب دفعهم هذا الخمس إلى مراجعهم الدينية الخاصة».

مناقشتنا:

الشيعية تعتقد بأن الغنيمة الواردة في قوله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١). عامة لكل ما يفوز به الانسان سواء كان في ساحة الحرب أو غيرها.

قال الأزهرى: «الغنم، الفوز بالشيء والاعتنام، انتهاز الغنم»^(٢).

قال الراغب: الغنم معروف والغنم اصابته والظفر به، ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدي وغيرهم. قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾^(٣) المغنم: ما يغنم وجمعه مغنم. قال: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغْنَمٌ كَثِيرَةٌ﴾^(٤).

إلى غير ذلك من النصوص لأهل اللغة المعربة عن كون المادة موضوعة لأوسع مما يفوز به الانسان في ساحات الحروب، حتى أنه سبحانه يستعمله في المغنم الاخروية قال تعالى: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغْنَمٌ كَثِيرَةٌ﴾ وقد استعملت المادة في الحديث النبوي في المعنى الأعم.

روى ابن ماجة في سننه، أنه جاء عن رسول الله: «اللهم اجعلها (الزكاة) مغنماً ولا تجعلها مغرمًا»^(٥).

ونزول الآية في الغنائم الحربية لا يكون مخصصاً، ولأجل ذلك لا يختص الخمس عند أهل السنة بما يفوز به الانسان في الحروب.

٢. تهذيب اللغة، مادة غنم.

١. الأنفال: ٤١.

٤. النساء: ٩٤.

٣. الأنفال: ٦٩.

٥. سنن ابن ماجة، كتاب الزكاة، باب ما يقال عند اخراج الزكاة، الحديث ١٧٩٧.

ففي مسند أحمد وسنن ابن ماجه، واللفظ للأول عن ابن عباس، قال:
«قضى رسول الله ﷺ في الركاز الخمس»^(١).

وقد تضافر هذا الحديث في غير واحد من المجاميع الحديثية.

وأما أرباح المكاسب فقد ذهب الشيعة فيها إلى لزوم اخراج الخمس اقتداءً
بأئمة أهل البيت، وقد ورد اخراج الخمس فيها في روايات أهل السنة، وإليك
بعض ما ورد:

لما وفد عبد القيس إلى رسول الله ﷺ قالوا: إنّ بيننا وبينك المشركين وإنّا لا
نصل إليك إلّا في الأشهر الحرم فمرنا بجمل الأمر، ان عملنا به دخلنا الجنة وندعوا
إليه من ورائنا. فقال: «أمركم بأربع وأنهاكم عن أربع:

أمركم بالإيمان بالله وهل تدرون ما الإيمان؟ شهادة أن لا إله إلّا الله وأقام
الصلاة وايتاء الزكاة وتؤتوا الخمس من المغنم»^(٢).

ومن المعلوم أنّ النبي ﷺ لم يطلب من بني عبد القيس أن يدفعوا غنائم
الحرب كيف وهم لا يستطيعون الخروج من أحيائهم في غير الأشهر الحرم خوفاً
من المشركين فيكون المراد أن يدفعوا خمس ما يفوزون به ويربحونه.

وهناك روايات أخرى تدلّ على لزوم دفع خمس كل ما يفوز به الانسان تركنا
ذكرها للاختصار.

فمن أراد التوسع فليرجع إلى كتابنا «الاعتصام بالكتاب والسنة» ص ١٠٠

- ١٠٥.

فما ذنب الشيعة إذا عملت بروايات رواها اخوانهم أهل السنة، وتركهم.

١. مسند أحمد: ١/ ٣٠٤، سنن ابن ماجه: ٢/ ٨٣٩ ط: ١٣٧٣.

٢. صحيح البخاري: ٩/ ١٦٠، باب «والله خلقكم وما تعملون» من كتاب التوحيد.

العمل بها لا يكون مبرراً لترك غيرهم الذين قامت الحجة عندهم على لزوم دفع الخمس.

فما ذكره من أن الشيعة يرون الخمس بديلاً عن الزكاة فهو كذب وافتراء وهذه مئات الكتب الفقهية التي جاء فيها الخمس تالياً للزكاة.

وما نقله عن بعض المجتمعات - على فرض الصحة - لا يكون دليلاً على أن منعهم يمت إلى المذهب بصلة، وما علّلوا به من أنهم يدفعون الخمس إلى مراجعهم الدينية غطاءً وواجهة للمنع. والسبب الواقعي للمنع عبارة عن أن للزكاة مصارف معيّنة عند الشيعة وهم يعلمون أن الحكومات لا تصرفها في مصارفها الواقعية لعدم التزام أصحاب السلطة بالعمل بالواقع غالباً.

٣٧. يقول: «وقد أحدثت الاثنا عشرية في الصلاة أموراً منها «السجود على التربة الحسينية» ذلك لأنهم يقدسون تراب مدينة كربلاء (النجف) التي استشهد فيها الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما فلا يكاد يخلو بيت من بيوت الشيعة من تلك التربة. ومن مظاهر تقديسهم لها أنهم يقومون بالسجود عليها وتقبيلها والتبرك بها، بل وأكل قليل منها للشفاء على الرغم من أن الفقه الشيعي يحرم أكل التراب كما يصنعون من هذه التربة أشكالاً مختلفة يحملونها في سفرهم ويسجدون عليها في صلواتهم التماساً للقبول والبركة».

مناقشتنا:

أنه سبحانه هو المسجود له والأرض وما ينبت منها عند الشيعة هو المسجود عليه، فيشترط في فقه الشيعة أن يكون المسجود عليه هو مطلق الأرض أو ما أنبتت مما لا يؤكل ولا يلبس، ولا تشترط في صحة الصلاة، السجود على التربة الحسينية

أخذاً بالمتصافر عن النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(١).

وليس المراد من الأرض كل ما يداس حتى يعم الفرش والسجاد بل المراد هو التراب والحصى والحجر وما أشبهها وذلك لأجل قوله ﷺ «وطهوراً»، بمعنى مطهراً من الحدث ومن المعلوم أنه لا يجوز التيمم إلا على الصعيد الطيب. كما قال سبحانه: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾^(٢) وهو الأرض لا كل ما يُداس.

وهناك روايات تدل على أن السيرة في عصر الرسول ﷺ كانت جارية على السجود على التربة لا على الثياب ولا على الفرش.

روى جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كنت أصلي مع النبي ﷺ الظهر فأخذ قبضة من الحصى فأجعلها في كفي ثم أحولها إلى الكف الأخرى حتى تبرد ثم أضعها لجيبي حتى أسجد عليها من شدة الحر^(٣).

يقول البيهقي معلقاً على الحديث: قال الشيخ: ولو جاز السجود على ثوب متصل به لكان أسهل من تبريد الحصى بالكف ووضعها للسجود.

ونقول: لو جاز السجود على مطلق غير الأرض سواء أكان متصلاً أم منفصلاً كالمناديل لما وصلت النوبة إلى تبريد الحصى.

روى الحسن، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في شدة الحر فيأخذ أحدنا الحصاء في يده، فإذا برد، وضعه وسجد عليه^(٤).

وهناك روايات أخرى تدل على هذا الأمر.

فعن خالد الجهني قال رأى النبي ﷺ يسجد كأنه يتقي التراب، فقال

١. صحيح البخاري: ١/ ١٩١، كتاب التيمم، الحديث ٢.

٢. المائدة: ٦.

٣. سنن البيهقي: ١/ ٤٣٩، مسند أحمد: ٣/ ٣٢٧.

٤. سنن البيهقي: ٢/ ١٠٥، باب الكشف عن الجبهة.

له: تَرَبَّ وجهك يا صهيب^(١).

روت أم سلمة: رأى النبي غلاماً لنا يقال له أفلح ينفخ إذا سجد، فقال: يا أفلح، تَرَبَّ^(٢).

وهناك قسم ثالث من الروايات نرى النبي ﷺ فيها يحسر العمامة عن جبهة المصلي لكي لا يسجد عليها.

روى صالح بن حيوان السباعي أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسجد بجنبه وقد اعتم على جبهته. فحسر رسول الله ﷺ عن جبهته^(٣).

وما ذكرناه غيض من فيض.

إن الشيعة لا يلتزمون بكون التربة التي يسجد عليها لا بد أن تكون من تربة كربلاء، بل يسوغون السجود على التربة من أي مكان كانت.

نعم يستحب أن يكون المسجود عليه من تربة كربلاء وذلك لأن تلك التربة عجت بدم المجاهد الشهم أبي الشهداء الحسين بن علي عليه السلام الذي ضحى بنفسه ونفيسه من أجل كسر جبروت الطواغيت وحياء الإسلام.

وأما الالتزام باتخاذ تربة طاهرة طيبة في البيوت فسيبه عدم تمكن المصلي من السجود في جميع الأمكنة على الأرض الطيبة.

لأن البيوت والمساجد مفروشة غالباً فلا مناص من اتخاذ أفراس ترابية طاهرة يتمكن من السجود عليها.

وهذه القاعدة كانت ثابتة عند السلف الصالح وإن غفل التاريخ عن نقلها فقد روي: أن التابعي الفقيه مسروق بن الأجدع المتوفى عام ٦٢ كان

١. ٢. كثر العمال: ٧/ ٤٦٥ و ٤٥٩.

٣. سنن البيهقي: ٢/ ١٠٥.

يصحب في أسفاره لبنة من المدينة يسجد عليها. كما أخرجه ابن أبي شيبة في كتابه المصنّف، باب من كان حمل في السفينة شيئاً يسجد عليه. فأخرج باسنادين أنّ مسروقاً كان إذا سافر حمل معه في السفينة لبنة يسجد عليها^(١).

٣٨. ثم إنّ الكاتب ختم المقال بالنشاط السياسي الأخير للشيعة وانتهى كلامه إلى القول بولاية الفقيه بمفهومه السياسي ونقل عمن يزعم أنّ ولاية الفقيه ليست من مسلمات المذهب وأنّ الأقرب إلى موقف الأئمة هو تقديم وحدة الأمة على مسائل الإمامة ...

مناقشتنا:

أنّ من مفاخر الشيعة الإمامية أنّهم قاموا بتشكيل دولة إسلامية وسط أجواء سادها العداء السافر للدين وإعلان انتهاء عصر الحياة الدينية.

فأثبتوا بعملهم هذا أنّ الإسلام دين صالح للماضي كما هو صالح للحال والمستقبل وأنّه لم ينته عصر الدين وأنّ الجوهر الديني له جذور راسخة لا يقهر أمام تلك التيارات المادية.

وأما مسألة ولاية الفقيه فالبحت عنها لا يناسب هذا الكراس واجمال القول فيها: أنّ الحكومة الإسلامية حكومية إلهية منهجية لا يليق بإدارتها إلاّ الحاكم الإلهي العارف بالكتاب والسنة والواقف على حاجات الأمة والقادر على تطبيق الأحكام الشرعية على الساحة الاجتماعية وليس هو إلاّ المجتهد العارف بالإسلام، المعبر عنه بالفقيه ويعبر عن صلاحيته الشرعية لإدارة شؤون المجتمع، بولاية الفقيه، وليس ذلك بدعاً فإنّ هناك جماعة من أهل السنة يشترطون في الحاكم الاجتهاد والعرفان بالكتاب والسنة.

والعجب أن الكاتب زعم أن ولاية الفقيه تراحم وحدة الأمة مع أن ولاية الفقيه سلطة في يد الفقيه يمكنه استخدامها في سبيل تأليف الأمة وجمع كلمتهم ولمّ شملهم، فهذا نحن نرى أن قائد الجمهورية الإسلامية في إيران قام بتأسيس المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية. والذي قام بإصدار مجلة تحت عنوان: «رسالة التقريب».

فهل كانت ولاية الفقيه مضادة لوحدة الأمة يا ترى؟!

هذا غيض من فيض وقليل من كثير ذكرناه لإيقاف الكاتب على الهفوات والأخطاء الواضحة في كلامه وفيه عبرة لمن يأخذ بالقلم ويكتب عن الشيعة بلا مراجعة مصادرهم.

هذه التعاليق الموجزة ربما تثير حفاظ من لا يحب وحدة الكلمة واتفاق الأمة لكنها تقع موقع القبول ممن يحبّ تقريب الخطى وتقارب المسلمين في الوقت الذي يثن المسجد الأقصى أولى القبلتين ومسرى سيد الثقلين من وطأة الصهاينة. وفي نهاية المطاف نحن على استعداد لإرسال مقال حول الفرقة الاثني عشرية يتضمّن تاريخ نشوئها والأصول التي تتبناها، والفروع التي تدين بها، والخدمات التي قدّمتها إلى الأمة و تُبَيِّن مساهماتها في بناء الحضارة الإسلامية. والحمد لله على ما هدانا.

جعفر السبحاني

قم - مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١٠ صفر المظفر عام ١٤١٧

الرسالة الثالثة



الدفاع عن الحقيقة

الغاية من كتابة هذا المقال هو الدفاع عن حقيقة واضحة كتمها كاتب باسم جبرين في السعودية في جوابه على سؤال شخص سألته عن حلية ذبائح الشيعة وطعامهم، فأجاب بما تقرأونه في رسالته المختصرة.

ولما كانت الرسالة قاسية بمكان وبعيدة عن أدب الإسلام وروحه معربة عن جهله بأصول الإسلام وفروعه وما أطبق عليه أئمتّه في مجال الإسلام والإيمان، قمنا بتأليف هذه الرسالة، وبعثنا بها إلى السعودية، لننشر هناك كي يقف المسلمون على الخطط التي يخططها الاستعمار بغية زرع بذور التفرقة في أوساطهم.



لا يشك أيّ ذي مسكة إلى ضرورة توحيد الصفوف ورصّها للحفاظ على كيان الإسلام والمسلمين ومواجهة المؤامرات الخطيرة في الوقت الذي يتحالف فيه أعداء الإسلام، للقضاء على الصحوة الإسلامية الصاعدة ... من خلال إثارة النعرات الطائفية التي تهدف إلى شق العصا وتفريق الصفوف، والحيلولة دون تقارب طوائف المسلمين لتحقيق الوحدة المطلوبة التي يخشاها المستعمرون، ويرهبها أعداء الإسلام من الصهاينة والصليبيين الجدد.

نرى أن رجلاً يعد نفسه فقيهاً مفتياً يقوم بتكفير طائفة كبيرة من المسلمين. لهم جذور في التاريخ، وخدمات جليلة في الحضارة الإسلامية. ويجب على سؤال بعثه إليه رجلٌ مجهول الاسم والهوية، وإليك السؤال والجواب:

السؤال:

يوجد في بلدتنا شخص رافضي يعمل قصاب^(١)، ويحضره أهل السنة كي يذبح ذبائحهم. وكذلك هناك بعض المطاعم تتعامل مع هذا الشخص الرافضي وغيره من الرافضة الذين يعملون في نفس المهنة.. فما حكم التعامل مع هذا الرافضي وأمثاله؟ وما حكم ذبحه وهل ذبيحته حلال أم حرام؟ أفتونا مأجورين، والله ولي التوفيق.

الجواب:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وبعد فلا يحل ذبح الرافضي، ولا أكل ذبيحته فإنّ الرافضة غالباً مشركون، حيث يدعون علي بن أبي طالب دائماً في الشدة والرخاء، حتى في عرفات والطواف والسعي، ويدعون أبناءه وأئمتهم كما سمعناهم مراراً. وهذا شرك أكبر، وردة عن الإسلام يستحقّون القتل عليها كما هم يغالون في وصف علي - رضي الله عنه -، ويصفونه بأوصاف لا تصلح إلاّ لله، كما سمعناهم في عرفات، وهم بذلك مرتدّون حيث جعلوه ربّاً وخالقاً ومتصرّفاً في الكون ويعلم الغيب ويملك الضر والنفع، ونحو ذلك كما أنّهم يطعنون في القرآن الكريم، ويزعمون أنّ الصحابة حرّفوه، وحذفوا منه أشياء كثيرة متعلّق بأهل البيت وأعدائهم. فلا يقتدون به ولا يرونه دليلاً.

١. هكذا وردت في نص سؤال السائل والصحيح (قصاباً) لكونها حال.

كما أنهم يطعنون في أكبر الصحابة كالخلفاء الثلاثة وبقية العشرة وأمّهات المؤمنين. فمشاهير الصحابة كأنس وجابر وأبي هريرة ونحوهم فلا يقبلون أحاديثهم لأنهم كفّار في زعمهم، ولا يعملون بأحاديث الصحيحين إلا ما كان عن أهل البيت ويتعلّقون بأحاديث مكذوبة ولا دليل فيها على ما يقولون، ولكنهم مع ذلك يفتنون فيقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم.

ويخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك. ويقولون من لا تقية له فلا دين له فلا تقبل دعواهم في الآخرة و... الخ.

فالنفاق عقيدة عندهم كفى الله شرهم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

جبرين

١٤١٢/٢/٢٢

هذا هو نص السؤال والجواب وقبل أن نخوض في الإجابة على ما ساق من التهم على الشيعة. ننبه على أمور:

١ - السّنة الرّائجة في الإجابة على الأسئلة الفقهيّة هو الاقتصار على نفس الفتوى. وكان على المفتي أن يقتصر على تحريم الأكل من دون حاجة إلى التفصيل. وما جاء به يعرب عن أنّ هناك مؤامرة، وأنّ السؤال والجواب دبراً بليلاً. فالمقصود إيجاد القلق وإشاعة التهم ضد الشيعة سواء أصحّ السؤال أو لا، وهل كان هناك سائل أم لا؟.

٢ - إنّ الكلمة التي يستخدمها العوام في التعبير عن هذه الطائفة هو لفظ الشيعة، وأمّا الرافضي وهي كلمة يستخدمها أصحاب المقالات وكتّاب الملل

والنحل. فاستخدام كلمة الرافضي بدل كلمة الشيعة يرشدنا إلى أنّ السؤال كان مصطنعاً يَمَنّ لهم ممارسة في تكفير الفرق.

٣ - سواء أصبحت تلك التهم أم لا فقد أساءهم النبي ﷺ بشيعة علي بن أبي طالب وقال: إنّ هذا - علي عليه السلام - وشيعته لهم الفائزون، وهم اختاروا لأنفسهم تلك الكلمة. فاستخدام الرافضي في هذا المجال من قبيل التنازع بالألقاب، وهو أمر محرم على كل تقدير.

٤ - إنّ المجيب يقول: فإنّ الرافضة غالباً مشركون، وهذا يدل على أنّ فيهم موحدين، أو ليس من واجب المفتي أن يسأل السائل عن القصاب الذي يذبح ذبائحهم هل هو من الغالب أو من غيرهم، فلا يحكم على البريء بحكم المجرم. ومن أدراه أنّ الذي يذبح هو من المشركين؟!

كل ذلك يسوقنا إلى أنّ الهدف لم يكن إرشاد العوام ولا الإجابة على السؤال وإنّما كان الهدف إيجاد البلوى والشغب وضرب المسلمين بعضهم ببعض لتصفو المياه للمستعمرين.

إذا وقفت على ذلك فنرجع إلى الإجابة عن التهم الباطلة التي أُجيب عنها عشرات المرات. ونحن نعلم أنّ خلافاً دام قروناً لا يرتفع بهذه الرسالة وأمثالها. غير أنّنا نقوم بواجبنا الذي أدلى به الرسول ﷺ في كلامه المشرق: «إذا ظهرت البدع في أمتي فلْيُظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»^(١). وأي بدعة أفظع من تكفير أمة كبيرة تعد ربع المسلمين أو أكثر وليس لهم جريمة سوى حب أهل البيت الذين أمر الله سبحانه بمودتهم وسوى المشايعة للثقلين الذين أمر النبي ﷺ بالتمسك بهما!!؟

وحدة الأمة أمنية النبي ﷺ الكبرى :

إن وحدة الكلمة كانت أمنية النبي ﷺ العليا، فقد كان رسول الإسلام محمد ابن عبد الله ﷺ يهدف دائماً إلى توحيد المسلمين ويحافظ أبداً على وحدة صفوفهم، ويسعى إلى إطفاء أية نائرة أو نائرة تهدد هذه الوحدة.

فيوم دخل شاب يهودي مجتمع الأوس والخزرج الذين جمعهم الإسلام بعد طول نزاع وتشاجر وتقاتل، وأخذ يذكّرهم بما وقع بينهم في عهد الجاهلية، من قتال، فأحسّ فيهم الحميّة الجاهليّة حتّى استعدّوا للنزاع والجدال، وكادت نيران الفتنة تثور من جديد بينهم بعد أن أشعلها ذلك اليهودي المتآمر، وتواثب رجالان من القبيلتين وتقاولا، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتّى جاءهم، فقال:

«يا معشر المسلمين! الله الله أبدوّى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله بالإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألف بين قلوبكم»^(١).

فإذا كانت هذه هي أهمية الوحدة في الأمة الإسلامية فما جزاء من يرفع عقيرته يريد تفريق صفوف المسلمين بفتوى ظالمة مخالفة لنصوص الكتاب العزيز والسنة المحمدية الشريفة؟ وهو بذلك لا يخدم إلا القوى الاستعمارية الكافرة المعادية للإسلام والمسلمين إذ لا ينتفع من هذه الفتوى المفرقة، غيرهم.

ما جزاء هذا المتسمّي باسم أهل العلم المتصدّي لمقام الدعوة والإفتاء؟ ينبري في وقت أشد ما يكون فيه المسلمون إلى التآخي والتقارب ينتجس ويكفر طائفة كبرى من طوائف المسلمين. فيقول: «لا يحل ذبح الرافضي - ويقصد به

شيعه الإمام علي عليه السلام - ولا أكل ذبيحته، فإن الرافضة غالباً مشركون حيث يدعون علي بن أبي طالب دائماً في الشدة والرخاء حتى في عرفات والطواف والسعي ويدعون أبناءه وأئمتهم كما سمعناهم مراراً وهذا شرك أكبر وردة عن الإسلام يستحقون القتل عليها كما هم يغالون في وصف علي رضي الله عنه ويصفونه بأوصاف لا تصلح إلا لله كما سمعناهم في عرفات وهم بذلك مرتدون حيث جعلوه رباً وخالقاً ومتصرفاً في الكون!!

إن هذا الرجل يتناول على شيعه أهل البيت عليه السلام ويزلقهم بلسان حاد ويتهمهم بالشرك والارتداد بينما هو يسكت ويخرس في قضية سلمان رشدي الذي تجرأ على رسول الله وأئمة المؤمنين وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وتجاسر عليهم ومس كرامتهم، ونال من شرفهم، ولا يشير إلى ارتداد سلمان رشدي، وهو ينشر تلك الترهات والإساءات إلى المقدسات الإسلامية. وما هذا السكوت إلا لأن أسيادهم يرفضون تكفير رشدي، بينما يتكلمون خلق الشبهات الباطلة لإلصاقها بشيعه أهل البيت عليه السلام وتكفيرهم ويغمضون عيونهم عن الحقائق الناصعة التي تحكي إيمانهم الصادق بالله ورسوله وكتابه وأحكامه وإتهم صفوة الله ورسوله وأهل بيته في رفع شأن هذا الدين وحمل هموم المسلمين والدفاع عنهم والعمل على ترسيخ وحدتهم على مر العصور والأزمان.

كما أن الغاية من هذا التكفير هو التغطية على جريمة السماح باستيطان اليهود والنصارى في أرض مكة والمدينة المقدسة، وبهذا أثبتوا صلتهم بالأجانب المستعمرين.

أجل للتغطية على هذا العار وتحريفاً لأذهان ومشاعر الشعوب الإسلامية الجريحة بسبب تدنيس الأمريكان وحلفائهم أرض المقدسات مكة والمدينة، عمد المدعو عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين إلى تكفير الشيعه ورميهم بالشرك، ليخفي

الحقيقة عن المسلمين غافلاً عن أنّ الشعوب الإسلامية قد أصبحت اليوم واعية تميز بين الحق والباطل ولم تعد تخفى عليها حقيقة المدعو «جبرين» ونظرائه من مفرقي الصفوف الإسلامية، تحت غطاء الدفاع عن التوحيد.

وإلا فما ذنب الشيعة إلا كونهم مواليين لأئمة أهل البيت الذين «أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». كما فرض في الكتاب مودّتهم وجعلها أجراً للرسالة المحمدية؟!

ما ذنب الشيعة إلا كونهم أمة مقاومة للاستعمار البغيض رافضة لخططه الجهنمية، أمة مجاهدة امتزجت حياتهم بالجهاد والدفاع عن حياض الإسلام الحنيف ... والنبي وآله الكرام. وهو رمز معاداة الكفر لهم.

ما هو ميزان التوحيد والشرك ؟

لقد كان رسول الله ﷺ يكتفي في قبول الإسلام من الذين يريدون الانضواء تحت رايته بمجرد الشهادة بالوحدانية واستقبال القبلة والصلاة.

قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله واستقبل قبلتنا وصلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم، له ما للمسلم وعليه ما على المسلم»^(١). وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلّوا صلاتنا حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها»^(٢).

بهذا كان يكتفي رسول الله ﷺ لإطلاق وصف الإسلام على الأشخاص من

١. جامع الأصول: ١/ ١٥٨.

٢. جامع الأصول: ١/ ١٥٨-١٥٩.

دون أن ينبش في أعرافهم الاجتماعية وممارساتهم التقليدية، عند احترام شخصياتهم وتكريمهم. فما بال المدعو «جبرين» وأضرابه يكفرون بسهولة أمة كبيرة من الموحدين المؤمنين بالرسالة المحمدية، التابعين للعترة الطاهرة المجاهدين للكفار والمستعمرين؟ مع أنهم يشهدون بالوحدانية والرسالة والمعاد ويصلّون ويصومون ويحجّون ويزكّون.

وهل يحق لهم التكفير وقد نهاهم رسول الإسلام ﷺ عن ذلك في أكثر من حديث صحيح تنقله مصادر السنة والشيعة:

«كفّوا عن أهل لا إله إلا الله لا تكفّروهم بذنب، فمن كفر أهل لا إله إلا الله فهو إلى الكفر أقرب».

«من كذف مؤمناً بكفر فهو كقاتله، ومن قتل نفساً بشيء عذبه الله بما قتل».

«إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فهو كقتله، ولعن المؤمن كقتله»^(١).

هل دعاء الصالحين عبادة لهم وشرك؟

يقول صاحب هذه الفتوى الظالمة الباطلة: إن الرافضة مشركون حيث يدعون علي بن أبي طالب دائماً في الشدة والرخاء.

إنّه يتمسك بهذه الحجة (أي دعاء الأولياء الصالحين في الشدة والرخاء) لرمي الشيعة المسلمين المؤمنين بالكفر والشرك. وهو أكبر حججهم لتكفير عامة المسلمين وليس خصوص الشيعة وهو لا يدرك أن دعاء الأولياء يقع على وجهين: الأول: دعاء الوليّ وندائه بما أنّه عبد صالح تستجاب دعوته عند الله إذا طلب منه تعالى شيئاً، وهو شيء أباحه القرآن بل أمر به إذ قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ

١. راجع جامع الأصول: ١ و ١٠ و ١١، وكنز العمال للمتقي الهندي ١.

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا^(١).

عن يعقوب عليه السلام أنه لما طلب منه أبناؤه أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم قال:

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ وهو أمر جائز وجار في حياة النبي ﷺ وأهل بيته وحال مماته، إذ الموت لا يغير الموضوع كما أنه ليس دخيلاً في مفهوم التوحيد والشرك، ما دام الداعي يؤمن بالله الواحد ويعتبره الرب الخالق والمدبر المستقل دون سواه.

روى الطبراني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف: أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: إئت الميضاة فتوضأ ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنينا محمد ﷺ نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتقضي لي حاجتي، فتذكر حاجتك ورح حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان (رض) فجاء البوّاب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان (رض) فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها. ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلمته في. فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته ولكنني شهدت رسول الله ﷺ وقد أتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي

ﷺ: فتصبر، فقال: يا رسول الله ليس لي قائد، فقد شق عليّ، فقال النبي ﷺ: «إئت الميضاة فتوضاً ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات».

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرّ قط^(١).

إنّ هذه الرواية ونظائرها تكشف عن أنّ الصحابة كانوا يدعون رسول الله ﷺ ويتوسّلون به حتى بعد وفاته ﷺ من دون أن يعتبروا ذلك محرّماً بل ولا مكروهاً.

الثاني: لا شك أنّ دعاء النبي أو الصالح ونداءهما والتوسّل بهما باعتقاد أنّه إله أو ربّ أو خالق أو مستقلّ في التأثير أو ملك للشفاعة والمغفرة شرك وكفر، ولكنه لا يقوم به أيّ مسلم في أقطار الأرض، بل ولا يخطر ببال أحد وهو يقرأ آيات الكتاب العزيز أثناء الليل وأطراف النهار، ويتلو قوله سبحانه:

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾^(٢).

﴿أَأَلَهَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣).

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا...﴾^(٤).

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(٥).

إنّ المسلمين لا يعتقدون في النبي ﷺ وأهل بيته المطهرين: (فاطمة وعلي والحسن والحسين ؑ) إلّا كونهم عباداً صالحين مقرّبين عند الله مستجابة

١. الحافظ الطبراني: المعجم الكبير: ١٦/٩ و ١٧.

٢. فاطر: ٣.

٣. النمل: ٦٣.

٤. الأنعام: ١٦٤.

٥. يونس: ٤٩.

دعوتهم. ولا يعتقدون بغير ذلك من ربوبية أو إلهية أو مالكية للشفاعة والمغفرة أبداً.

ولكنّ القوم الذين عمدوا إلى تكفير الشيعة وغيرهم من المسلمين لم يفرّقوا بين الدّعاءين والنداءين، فرمواهما بسهم واحد.

ثم يقول المدعو جبرين: «حيث جعلوه - أي علياً عليه السلام - رباً وخالقاً ومتصرفاً في الكون» ويالها من كذبة وقحة، وفرية فاضحة، وتهمة للمسلمين الموحدين. فما الرب عند المسلمين شيعة وسنة، وما الخالق وما المتصرف الحقيقي في الكون إلا الله سبحانه دون سواه ... وهذه كتبهم ومصنفاتهم في العقائد والحديث والتفسير، فهي طافحة بالاعتراف والإقرار بوحداية الله تعالى في الذات والصفات والخالقية والتدبير والحاكمية والتشريع والطاعة، والعبودية والشفاعة والمغفرة.

وكيف ترى يحق لجبرين ونظرائه أن يكفّروا المسلمين شيعة وسنة الذين يوحدون الله، بشيء لم يعتقدوا به ولم يقولوا به؟

ولو صحّ أنّ دعاء أحد يستلزم القول بإلهيته أو ربوبيته ويعدّ هذا الدعاء والنداء شركاً وكفراً فكيف نادى ودعا إخوة يوسف، أخاهم يوسف وقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾^(١)؟ ولم يعتبر القرآن هذا شركاً.

فهل النبي الأكرم محمد ﷺ أقل شأنًا ودرجة من عزيز مصر يوسف الصديق عليه السلام؟!

وأما كون النبي محمد ﷺ يختلف عن العزيز بأنّه ميت فهو عذر تافه وكلام

باطل، إذ حياة النبي وأهل بيته الشهداء في سبيل الله في البرزخ أمر مسلم، كيف والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١) وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢).

مع العلم أن الشهداء يأتون في المرتبة الثالثة في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾^(٣).

لو كان رسول الله ﷺ ميتاً فما معنى قوله ﷺ: «ما من أحد يسلم عليّ إلا ردّ الله عز وجلّ عليّ رuchi حتى أرد عليه السلام»^(٤)؟ وقوله ﷺ: «صلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»^(٥).

إن النبي ﷺ، والأئمة الطاهرين من أهل بيته الذين يشاركونه في الطهر والقداسة لآية التطهير والمباهلة والمودة، والذين قُتلوا في سبيل الله ودفاعاً عن حياض الشريعة المحمدية المقدسة، متماثلون في الحياة بعد الموت، فكيف يكون نداؤهم ودعاؤهم دعاء للميت الذي لا يسمع؟

العلم بالغيب على نوعين:

ويقول جبرين في فتواه: «وجعلوه - يعني علياً - يعلم الغيب».

إن صاحب هذه الفتوى الباطلة جاهل حتى باللغة العربية

١. آل عمران: ١٦٩.

٢. البقرة: ١٥٤.

٣. النساء: ٦٩.

٤. سنن أبي داود: ٢/٢١٨، وكنز العمال: ١٠/٣٨١، وغيرهما من كتب الحديث.

٥. نفس المصدر.

والمصطلح الديني، فإن العلم بالغيب في الكتاب العزيز هو العلم النابع من الذات (أي من ذات العالم) غير المكتسب من آخر وهذا يختص بالله الواحد الأحد، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١)، وأما الإخبار بالغيب بتعليم من الله فالكتاب العزيز والسنة الشريفة مليئان منه.

فهذه سورة يوسف تخبرنا بأن يعقوب وابنه يوسف قد أخبرا عن حوادث مستقبلية كثيرة.. أي أخبرا بالغيب:

١ - لما أخبر يوسف والده بأنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له، قال يعقوب ﷺ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾^(٢) وبذلك أخبر ضمناً عن مستقبله المشرق الذي لو عرف به إخوته لثارت عليه حفاظهم.

٢ - لما أخبر صاحباً يوسف في السجن يوسف برؤياهما قال ﷺ لمن أخبره بأنه يعصر خمراً: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ وقال للثاني - الذي قال إنه رأى يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه -: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾^(٣).

٣ - لما فصلت العير قال أبوهم «يعقوب»: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾^(٤).

٤ - قال النبي عيسى ﷺ لقومه في معرض بيان معاجزه وبيّناته:

١. النمل: ٦٥.

٢. يوسف: ٥.

٣. يوسف: ٤١.

٤. يوسف: ٩٤.

﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(١).

أليست كل هذه إخبارات بالغيب، ومغيبات أنبأ بها الرسل؟

وإذا هي ثبتت لنبي جاز نسبتها إلى العترة الطاهرة لما لهم من المنزلة والمكانة العليا، وهل عليّ عليه السلام أقل شأنًا من هارون عليه السلام؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شأنه: «يا عليّ أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»؟^(٢) الذي يعني أنه له ما للرسول إلا أنه ليس نبياً، لختتم النبوة برسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

كيف لا، وعليّ عليه السلام وارث علم رسول الله بإجماع الأمة الإسلامية، وهل عليّ عليه السلام أقل من كعب الأخبار الذي أخبر الخليفة الثاني بأنّه سيموت بعد ثلاثة أيام وتحققت هذه النبوءة فعلاً^(٣).

وهلاً علم «جبرين» ما أخرجه قومه في أئمتهم من العلم بالغيب ففي مسند أحمد: أن عمر بن الخطاب أخبر بموته بسبب رؤيا رآها وكان بين رؤياه وبين يوم مصرعه اسبوع واحد^(٤)؟

الشيعية وصيانة القرآن عن التحريف :

ويقول جبرين في فتواه الجائرة على شيعة أهل البيت: «كما أنهم يطعنون في القرآن الكريم...».

إنّ الشيعة أيّما الشيخ لا يطعنون في القرآن ولا يقولون بوقوع التحريف فيه.

١. آل عمران: ٤٩.

٢. جامع الأصول: ٨/ ٦٥٠.

٣. الرياض النضرة: ٢/ ٧٥.

٤. مسند أحمد: ١/ ٤٨ و ٥١.

ولكن غيرهم قال بهذا، راجع تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: وكانت هذه السورة (أي سورة الأحزاب) تعدل سورة البقرة وكانت فيها آية الرجم (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم). ذكره أبو بكر الأنباري عن أبي بن كعب.

ثم قال: وقد حدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال: حدثنا أبو عبيد القاسم ابن سلام قال: حدثنا ابن أبي مريم عن أبي لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة، قالت: كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله ﷺ مائتي آية، فلما كُتِبَ المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي الآن^(١).

وروي أيضاً عن أبي بن كعب قوله: «فو الذي يحلف به أبي بن كعب إنها كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم: (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم).

وفي موطأ مالك قال عمر بن الخطاب: والذي نفسي بيده، لولا أن يقول الناس زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله تعالى لكتبتهما: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة فإننا قد قرأناها»^(٢).

إذن فأين ذهبت هذه الآية؟!

وجاء في صحيح البخاري ومسنده أحمد: قال عمر بن الخطاب: ... ثم إننا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: (أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو إن كفرأ بكم أن ترغبوا عن آبائكم)^(٣).

فهذا هو الخليفة يصرح بسقوط آية من القرآن الحكيم!

١. تفسير الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ١١٣.

٢. الموطأ، كتاب الحدود: ٧١٤، الحديث ٩.

٣. صحيح البخاري: ٨/ ١٦٩ باب رجم الحبل من الزنا من كتاب الفرائض، مسند أحمد: ١/ ٥٥.

أما ما يقوله الشيعة حول القرآن الكريم فإليك طائفة من أقوال أبرز شخصياتهم القدامى والمتأخرين نذكرها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - قال الشيخ الصدوق (المتوفى ٣٨١هـ) في رسالته التي وضعها لبيان معتقدات الشيعة الإمامية: اعتقادنا أنّ القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدفتين وهو ما بأيدي الناس ليس بأكثر من ذلك.

ثم قال: ومن نسب إلينا أننا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب^(١).

٢ - قال الشريف المرتضى (المتوفى عام ٤٣٦هـ): إنّ العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة، فإنّ العناية اشتدّت والدواعي توفّرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حدٍّ لم يبلغه فيما ذكرناه، لأنّ القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً ومنقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد؟^(٢)

٣ - وقال الشيخ الطوسي (المتوفى ٤٦٠هـ): وأما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق بهذا الكتاب المقصود منه العلم بمعاني القرآن، لأنّ الزيادة مجمع على بطلانها، والنقصان منه فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا^(٣).

٤ - قال العلامة الحلي (المتوفى ٧٢٦هـ) في أحد مؤلفاته: الحق أنّه لا تبديل ولا تأخير ولا تقديم فيه (أي القرآن) وأنّه لم يزد ولم ينقص ونعوذ بالله تعالى من أن

١. اعتقادات الإمامية المطبوعة مع شرح الباب الحادي عشر.

٢. مجمع البيان: ١/ ١٥٠.

٣. مقدّمة تفسير التبيان.

يعتقد مثل ذلك وأمثال ذلك، فإنه يوجب التطرق إلى معجزة الرسول ﷺ المنقولة بالتواتر^(١).

٥ - وقال السيد محسن الأمين العاملي (المتوفى عام ١٣٧١ هـ) : لا يقول أحد من الإمامية لا قديماً ولا حديثاً أنّ القرآن مزيد فيه قليل أو كثير فضلاً عن كلّهم، بل كلّهم متفقون على عدم الزيادة ومن يعتدّ بقوله من محققهم متفقون على أنّه لم ينقص منه، ومن نسب إليهم خلاف ذلك فهو كاذب مفتر مجترئ على الله ورسوله^(٢).

٦ - وقال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (المتوفى عام ١٣٧٣ هـ) : إنّ الكتاب الموجود في أيدي المسلمين هو الكتاب الذي أنزله الله إليه ﷺ للإعجاز والتحدي ولتعليم الأحكام ولتمييز الحلال والحرام، وأنه لا نقص فيه ولا تحريف ولا زيادة وعلى هذا إجماعهم (أي إجماع الشيعة الإمامية)^(٣).

٧ - وقال الإمام شرف الدين العاملي (المتوفى عام ١٣٧٧ هـ) : كل من نسب إليهم تحريف القرآن فإنه مفتر ظالم لهم، لأنّ قداسة القرآن الحكيم من ضروريات الدين الإسلامي ومذهبهم الإمامي - إلى أن قال : - وتلك كتبهم في الحديث والفقه والأصول صريحة بما نقول: والقرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنّما هو ما بين الدفتين وهو ما في أيدي الناس لا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً ولا تبديل لكلمة بكلمة ولا لحرف بحرف، وكل حرف من حروفه متواتر في كل جيل تواتراً قطعياً إلى عهد الوحي والنبوة^(٤).

١. أجوبة المسائل المهتاتية: ١٢١، المسألة ١٣.

٢. أعيان الشيعة: ٤١/١.

٣. أصل الشيعة وأصولها: ١٣٣.

٤. الفصول المهمة: ١٦٣.

٨ - وقال السيد الإمام الخميني رحمته الله: إن الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءة وكتابة يقف على بطلان تلك المزعمة. وماورد فيه من أخبار - حسبما تمسكوا - إما ضعيف لا يصلح للاستدلال به أو مجعول تلوح عليه امارات الجعل، أو غريب يقضي بالعجب، أما الصحيح منها فيرمي إلى مسألة التأويل والتفسير وأن التحريف إنما حصل في ذلك لا في لفظه وعباراته.

وتفصيل ذلك يحتاج إلى تأليف كتاب حافل ببيان تاريخ القرآن والمراحل التي قضاها طيلة قرون ويتلخص في أن الكتاب العزيز هو عين ما بين الدفتين لا زيادة فيه ولا نقصان، وأن الاختلاف في القراءات أمر حادث ناشئ عن اختلاف في الاجتهادات من غير أن يمس جانب الوحي الذي نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين ^(١).

٩ - وقال السيد الإمام الغلبيگاني رحمته الله: الصحيح من مذهبنا أن كتاب الله الكريم الذي بأيدينا بين الدفتين هو ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه من لدن عزيز حكيم، المجموع المرتب في زمانه (أي النبي صلى الله عليه وآله وعصره) بأمره بلا تحريف وتغيير وزيادة ونقصان والدليل على ذلك تواتره بين المسلمين، كلاً وبعضاً، ترتباً وقراءة... ^(٢)

١٠ - وللسيد الإمام الخوئي رحمته الله: بحث مفصل يؤكد فيه على خلو القرآن الكريم من أية زيادة أو نقصان في مقدمة تفسيره البيان ^(٣).

هذه هي نماذج صريحة تعكس عقيدة الشيعة الإمامية منذ القديم وإلى الآن حول القرآن الكريم، وكلها تؤكد على صيانة الكتاب العزيز من أية زيادة أو

١. تهذيب الأصول: ١٦٥/٢.

٢. البرهان للبروجردی: ١٥٦ - ١٥٨.

٣. ارتحل الإمام الخوئي (قدس سره) إلى بارئه في ٨ صفر ١٤١٣ هـ ق. لاحظ مقدمة تفسير البيان.

نقيصة وخلوه من كل تغيير أو تبديل، فكيف يتهم «جبرين» الشيعة الإمامية بأنهم يطعنون في القرآن؟!

وأما الروايات فهي مضافاً إلى كونها ضعيفة شاذة، أو مجعولة موضوعة لا يابها بها الشيعة الإمامية — لاتشكل عقيدة الشيعة الإمامية، إذ ليس كل ما في الروايات يعكس عقيدتهم، حتى يؤخذون عليها، حتى لو افترضت صحة بعضها سنداً — فكيف يؤخذون عليها والحال أنها — كما قلناه — ليست بصحيحة.

إن القرآن الكريم حسب عقيدة المسلمين سنة وشيعة الذي بأيدي الناس هو ما نزل على رسول الله ﷺ في جميع خصوصياته الحاضرة.

وكما لا يعبا أعلام السنة بروايات التحريف الواردة في مصادرهم، كذلك لا يابها علماء الشيعة أيضاً بما ورد في بعض مصادرهم لضعفها وشذوذها، وظهور آثار الاختلاق عليها.

الصحابة من منظار القرآن والحديث:

وأما قول «جبرين»: حول موقف الشيعة الإمامية من الصحابة ففيه مغالطة وتغطية للحق إذ لا تجد على أديم الأرض مسلماً يعتنق الإسلام ويحب النبي الأكرم، يبغض أصحاب النبي الأكرم بما أنهم أصحابه وأنصاره، بل الكل ينظر إليهم في هذا المجال بنظر التكريم والتبجيل، ومن أبغضهم أو سبهم بهذا المنظار، فهو كافر، أبغده الله. ولكن إذا صدر منهم فعل لا يوافق الكتاب والسنة فقام أحد بذكر فعله وتوصيف حاله حسب دلالة عمله وفعله عليه وقال: إنه صدرت منه المعصية، أو قتل نفساً بغير نفس، إلى غير ذلك من المحرمات والموبقات، فقد تبع القرآن الكريم والسنة والنبوية والسلف الصالح.

فحب الصحابي بها هو صحابي أمر، وتوصيف أعماله وأفعاله - إن خيراً فخير وإن شراً فشر - أمر آخر يهدف إلى الموضوعية في البحث، والقضاء والابتعاد عن العشوائية في الاعتقاد، «وجبرين» لا يفرّق بين الأمرين ويضرّهما بسهم واحد لغايات سياسية.

إنّ صحبة الصحابة لم تكن بأكثر ولا أقوى من صحبة امرأة نوح وامرأة لوط فما أغتتهما من الله شيئاً، قال سبحانه: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَةُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَاتَتَاهُمَا فَلَمَّ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ﴾^(١).

إنّ التشرف بصحبة النبي لم يكن أكثر امتيازاً وتأثيراً من التشرف بالزواج من النبي، وقد قال سبحانه في شأن أزواجه: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾^(٢).

وكما أنهم كانوا مختلفين في السن عند الانقياد للإسلام، كذلك كانوا مختلفين أيضاً في مقدار الصحبة، فبعضهم صحب النبي ﷺ من بدء البعثة إلى لحظة الرحلة، وبعضهم أسلم بعد البعثة وقبل الهجرة، وكثير منهم أسلموا بعد الهجرة وربما أدرّكوا من الصحبة سنة أو شهراً أو أياماً أو ساعات.

فهل يصح أن نقول: إنّ صحبة ما قلعت ما في نفوسهم جميعاً من جذور غير صالحة وملكات رديئة وكوّنت منهم شخصيات ممتازة أعلى وأجل من أن يقعوا في إطار التعديل والجرح؟

إن تأثير الصحبة عند من يعتقد بعدالة الصحابة كلّهم أشبه شيء بمادة كيميائية تستعمل في تحويل عنصر كالحاس إلى عنصر آخر كالذهب، فكان

١. التحريم: ١٠.

٢. الأحزاب: ٣٠.

الصحة قلبت كل مصاحب إلى إنسان مثالي يتحلّى بالعدالة، وهذا مما يردّه المنطق والبرهان السليم، وذلك لأنّ الرسول الأعظم ﷺ لم يقم بتربية الناس وتعليمهم عن طريق الإعجاز ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

بل قام بإرشاد الناس ودعوتهم إلى الحق وصبهم في بوتقة الكمال مستعيناً بالأساليب الطبيعية والإمكانات الموجودة كتلاوة القرآن الكريم، والنصيحة بكلماته النافذة، وسلوكه القويم وبعث رسله ودعاة دينه إلى الأقطار، ونحو ذلك. والدعوة القائمة على هذا الأساس، يختلف أثرها في النفوس حسب اختلاف استعدادها وقابليتها فلا يصح لنا أن نرمي الجميع بسهم واحد.

الصحابة في الذكر الحكيم:

نرى أنّ الذكر الحكيم يصنّف صحابة النبي ﷺ ويمدحهم ضمن أصناف تأتي ببعضها:

١- السابقون الأولون:

يصف الذكر الحكيم السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان بأنّ الله رضي عنهم وهم رضوا عنه.

قال عزّ من قائل: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

٢- المبايعون تحت الشجرة:

ويصف سبحانه الصحابة الذين بايعوا الرسول ﷺ تحت الشجرة بنزول

١. الأنعام: ١٤٩.

٢. التوبة: ١٠٠.

السكينة عليهم قائلاً في محكم كتابه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(١).

٣- المهاجرون:

وهؤلاء هم الذين وصفهم تعالى ذكره بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٢).

٤- أصحاب الفتح:

وهؤلاء هم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى في آخر سورة الفتح بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرْعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

٥- الأصناف الأخرى للصحابة:

فالناظر المخلص المتجرد عن كل رأي مسبق يجد في نفسه تكريباً هؤلاء الصحابة.

غير أن الرأي الحاسم في عامة الصحابة يستوجب النظر إلى كل الآيات

١. الفتح: ١٨.

٢. الحشر: ٨.

٣. الفتح: ٢٩.

القرآنية الواردة في حقهم، فعندئذ يتبين لنا أن هناك أصنافاً أخرى من الصحابة غير ما سبق ذكرها، تمنعنا من أن نضرب الكلّ بسهم واحد، ونصف الكلّ بالرضا والرضوان. وهذا الصنف من الآيات يدل بوضوح على وجود مجموعات من الصحابة تضاد الأصناف السابقة في الخلقيات والملكات والسلوك والعمل، وهم:

أ - المنافقون المعروفون:

المنافقون المعروفون بالنفاق الذين نزلت في حقهم سورة «المنافقون» قال

سبحانه:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ...﴾ إلى آخر السورة^(١).

فهذه الآيات تعرب بوضوح عن وجود كتلة قوية من المنافقين بين الصحابة آنذاك، وكان لهم شأنٌ ودورٌ في المجتمع الإسلامي فنزلت سورة قرآنية كاملة في حقهم.

ب - المنافقون المختفون:

تدل بعض الآيات على أنه كانت بين الأعراب القاطنين خارج المدينة ومن نفس أهل المدينة جماعة مردوا على النفاق وكان النبي الأعظم لا يعرف بعضهم ومن تلك الآيات قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ^(٢) لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾^(٣).

١. المنافقون: ١.

٢. مردوا على النفاق: تمزقوا عليه ومارسوه.

٣. التوبة: ١٠١.

لقد بذل القرآن الكريم عناية خاصة بعصبة المنافقين وأعرب عن نواياهم وندّد بهم في السور التالية: البقرة، آل عمران، المائدة، التوبة، العنكبوت، الأحزاب، محمد، الفتح، الحديد، المجادلة، الحشر، والمنافقون.

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنّ المنافقين كانوا جماعة هائلة في المجتمع الإسلامي بين معروف، عرف بسمة النفاق ووسمة الكذب، وغير معروف بذلك مقنّع بقناع التطاهر بالإيمان والحبّ للنبي ﷺ، فلو كان المنافقون جماعة قليلة غير مؤثرة لما رأيت هذه العناية البالغة في القرآن الكريم. وهناك ثلّة من المحقّقين كتبوا حول النفاق والمنافقين رسائل وكتابات وقد قام بعضهم بإحصاء ما يرجع إليهم فبلغ مقداراً يقرب من عشر القرآن الكريم^(١)، وهذا يدلّ على كثرة أصحاب النفاق وتأثيرهم يوم ذاك في المجتمع الإسلامي، وعلى ذلك لا يصحّ لنا الحكم بعدالة كل من صحب الرسول ﷺ مع غض النظر عن تلك العصاة، المتظاهرة بالنفاق والمختفية في أصحاب النبي ﷺ.

ج - مرضى القلوب:

وهذه المجموعة من الصحابة لم يكونوا من زمرة المنافقين بل كانوا يتلونهم في الروحانيات والملكات مع ضعف في الإيمان والثقة بالله ورسوله ﷺ، قال سبحانه بحقهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٢).

فأتى لنا أن نصف مرضى القلوب الذين ينسبون خلف الوعد إلى الله سبحانه وإلى الرسول ﷺ بالتقوى والعدالة؟

١. النفاق والمنافقون: تأليف الأستاذ: إبراهيم علي سالم المصري.

٢. الأحزاب: ١٢.

د- السّامعون:

تلك المجموعة كانت قلوبهم كالريشة في مهبّ الريح تميل إلى هؤلاء تارة وإلى أولئك أخرى، وذلك بسبب ضعف إيمانهم وقد حدّر الباري عزّ وجلّ المسلمين منهم حيث قال عزّ من قائل، واصفاً إياهم بالسّامعين لأهل الريب: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَنْغُوكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(١) وذيل الآية دليل على كون السّامعين من الظالمين لا من العدول.

هـ- خالطوا العمل الصالح بالسيّء:

وهؤلاء هم الذين يقومون بالصالح والفلاح تارة، والفساد والعبث أخرى، فلأجل ذلك خلطوا عملاً صالحاً بعمل سيّء، قال سبحانه: ﴿وَأَخْرَوْا غَيْرُكُمْ بِدُونِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾^(٢).

و- المشرفون على الارتداد:

إنّ بعض الآيات تدل على أنّ مجموعة من الصحابة كانت قد أشرفت على الارتداد يوم دارت عليهم الدوائر، وكانت الحرب بينهم وبين قريش طاحنة فأحسوا بالضعف، وقد أشرفوا على الارتداد وقد عرفهم الحق سبحانه بقوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا

١. التوبة: ٤٥ - ٤٧.

٢. التوبة: ١٠٢.

مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ
كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا^(١).

ز - الفاسق:

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَحُثُّ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَقَدِّمَتِهِمُ الصَّحَابَةَ، عَلَى التَّحَرُّزِ مِنْ
خَبَرِ الْفَاسِقِ حَتَّى يَتَحَقَّقَ التَّبَيَّنُ. فَمَنْ هَذَا الْفَاسِقُ الَّذِي أَمَرَ الْقُرْآنَ بِالتَّحَرُّزِ مِنْ
خَبَرِهِ؟ إقرأ أنت ماورد حول الآية من شأن النزول واحكم بما هو الحق، قال
سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ
فَتُضْضِعُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٢).

فإن من المجمع عليه بين أهل العلم أنه نزل في حق الوليد بن عقبة بن أبي
معيط وذكره المفسرون في تفسير الآية فلا نحتاج إلى ذكر المصادر.

كما نزل في حقه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
لَا يَسْتَوُونَ﴾^(٣).

نقل الطبري في تفسيره باسناده أنه كان بين الوليد وعليّ، كلام فقال الوليد:
أنا أسلط منك لساناً، وأحدُّ منك سناناً وأردُّ منك للكتيبة. فقال علي:
اسكت فانك فاسق، فأنزل الله فيهما: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
لَا يَسْتَوُونَ﴾^(٤).

وقد نظم الحديث حسان بن ثابت (شاعر عصر الرسالة) وقال:

١. آل عمران: ١٥٤.

٢. الحجرات: ٦.

٣. السجدة: ١٨.

٤. تفسير الطبري: ٦٠/٢١، وتفسير ابن كثير: ٤٦٢/٣.

أنزل الله والكتاب عزيز في علي وفي الوليد قرآنا
 فتبوا الوليد إذ ذاك فسقا وعلي مبروء إيانا
 سوف يدعى الوليد بعد قليل وعلي إلى الحساب عيانا
 فعلي يجزى بذاك جنانا ووليد يجزى بذاك هوانا^(١)

أفهل يمكن لباحث حر، التصديق بما ذكره ابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر، وفي مقدمتهم أبو زرعة الرازي الذي هاجم المتفحصين المحققين في أحوال الصحابة وآتهمهم بالزندقة؟

ح - المسلمون غير المؤمنين:

إن القرآن يعد جماعة من الأعراب الذين رأوا النبي ﷺ وشاهدوه وتكلموا معه، مسلمين غير مؤمنين وأتهم بعد لم يدخل الإيمان في قلوبهم، قال سبحانه: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

أفهل يصح عد عصابة غير مؤمنة من العدول الأتقياء؟!

ط - المؤلفة قلوبهم:

اتفق الفقهاء على أن المؤلفة قلوبهم ممن تصرف عليهم الصدقات، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

١. تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ١٥؛ كفاية الكنجي: ٥٥؛ مطالب السؤل لابن طليحة: ٢٠؛ شرح النهج، الطبعة القديمة: ١٠٣/٢؛ جهرة الخطب لأحمد زكي: ٢٢/٢؛ لاحظ الغدير: ٤٣/٢.

حَكِيم ﴿^(١)﴾.

و «المؤلفة قلوبهم»: هم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام، يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم. وهناك أقوال أخر فيهم متقاربة، والقصد بجميعها الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء ^(٢).

ي - المولون أمام الكفار:

إن التولي عن الجهاد والفرار منه، من الكبائر الموبقة التي ندد بها سبحانه

بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ * وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ^(٣).

إن التحذير من التولي والفرار من الزحف، والحث على الصمود أمام العدو، لم يصدر من القرآن إلا بعد فرار مجموعة كبيرة من صحابة النبي ﷺ في غزوة «أحد» و «حنين».

أما الأول: فيكيفك قول ابن هشام في تفسير الآيات النازلة في أحد، قال: «ثم أنبهم بالفرار عن نبيهم وهم يُدعون، لا يعطفون عليه لدعائه إياهم فقال: ﴿إِذْ تَضِعُّدُونَ وَلَا تَلُوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ﴾ ^(٤)».

وأما الثاني: فقد قال ابن هشام فيه أيضاً: فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من

١. التوبة: ٦٠.

٢. تفسير القرطبي: ٨/ ١٧٨، المغني لابن قدامة: ٢/ ٥٥٦.

٤. آل عمران: ١٥٣.

٣. الأنفال: ١٥ - ١٦.

الضغن فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وصرخ جبلة بن حنبل: ألا بطلَ السحرُ اليوم...^(١).

أبعد هذا يصح أن يعدّ جميع الصحابة، بحجة أنهم رأوا نور النبوة، عدولاً أتقياء؟

قال القرطبي في تفسيره: قد فرّ الناس يوم «أحد» وعفا الله عنهم وقال الله فيهم يوم حنين: ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ ثم ذكر فرار عدّة من أصحاب النبي من بعض السرايا^(٢).

هذه هي الأصناف العشرة من صحابة النبي ﷺ ممن لا يمكن توصيفهم بالعدالة والتقوى، أتينا بها في هذه العجالة .

ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى الآيات الواردة في أوائل سورة البقرة وسورة النساء وغيرها من الآيات القرآنية فيرى فيها أنّ الإيذان بعدالة الصحابة بأجمعهم خطأ في القول، وزلة في الرأي، يضاد نصوص الذكر الحكيم، ولم يكن الصحابة إلا كسائر الناس فيهم صالح تقي بلغ القمة في التقى والتزاهة، وفيهم طالح شقي سقط إلى هوة الشقاء والدناءة. ولكن الذي يميّز الصحابة عن غيرهم أنهم رأوا نور النبوة وتشرفوا بصحبة النبي ﷺ وشاهدوا معجزاته في حلبة المباراة بأم أعينهم، ولأجل ذلك تحمّلوا مسؤولية كبيرة أمام الله وأمام رسوله وأمام الأجيال المعاصرة لهم واللاحقة بهم، فإنّهم ليسوا كسائر الناس، فزيغهم وميلهم عن الحق أشد ولا يعادل زيغ أكثر الناس وانحرافهم. وقد قال سبحانه في حق أزواج النبي ﷺ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(٣) فإن انحرف هؤلاء فقد انحرفوا في حال شهدوا النور، ولمسوا الحقيقة، وشتان بينهم وبين غيرهم.

١. سيرة ابن هشام: ١١/٣ و ٤٤٤/٤، ولاحظ التفاسير.

٢. تفسير القرطبي: ٣٨٣/٧.

٣. الأحزاب: ٣٢.

الصحابة في السّنة النبوية :

ونذكر في المقام بعض ماورد في مصادر أهل السّنة أنفسهم حول بعض الصحابة .

ففي صحيح البخاري: في تفسير سورة المائدة بسنده عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ... إلى أن قال: - ويحاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يارب أصيحابي، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾^(١). فيقال إنّ هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم^(٢). ورواه الترمذي في تفسير سورة الأنبياء أيضاً .

وجاء في موطأ مالك: عن أبي النضر أنّه بلغه أنّ رسول الله ﷺ قال لشهداء أحد: هؤلاء أشهد عليهم، فقال أبو بكر: ألسنا يارسول الله إخوانهم، أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا؟

فقال رسول الله ﷺ: بلى ولكن لا أدري ما تحدثون بعدي.

فبكى أبو بكر ثم قال: أئنّا لكائنون بعدك؟^(٣).

وهل أتى الشيعة الإمامية بجديد إذا كانوا يفرّقون في الحب والمودة بين جماعة وأخرى، وقد أمر القرآن بذلك في أكثر من آية؟

ثم إنّ «جبرين» وأمثاله لماذا يغمضون عيونهم عن حقائق القرآن ولا يصارحون الناس بها فهم بدل اتّخاذ مواقف شريفة يملئها الحق والإنصاف يعمدون إلى تكفير طائفة كبرى من طوائف المسلمين وهم الشيعة الإمامية

٢. صحيح البخاري: ٥٥ / ٦، تفسير سورة المائدة .

١. المائدة: ١١٧ .

٣. الموطأ: ١ / ٣٠٧، كتاب الجهاد، الشهداء في سبيل الله.

ويروّنه مستحقّين للقتل والإبادة، ولا يوجّه مثل هذه الفتوى ضد الصهاينة في فلسطين، والأمريكان الذين يدنسون أرض المقدّسات؟

لماذا لا يحارب الفساد الأخلاقي والسياسي في مشرق الإسلام ومهجر الرسول، ولا يفكر في تسيّب الشباب هناك وتسرب اللاّدينية، والانحراف العقائدي إلى قلوبهم البريئة؟!

لماذا تصدر هذه الفتوى في هذا الظرف الذي انهارت فيه الشيوعية، واعترف «غورباتشوف» بأن السبب الرئيسي وراء هذا المصير الذي آل إليه الاتحاد السوفيتي هو نسيان الله وتجاهل الفطرة التي فطر الناس عليها كما قال في خطاب الاستقالة مؤخراً؟! وهو الأمر الذي ذكره به الإمام الراحل الخميني في رسالته التاريخية إليه.

لماذا في مثل هذا الظرف الهام الذي يتوجّه العالم إلى الإسلام ويتطلّع المستضعفون إلى المسلمين، وهو أمر يفرض العمل الجاد لتوحيد صفوف المسلمين وإظهارهم في مظهر الأمة الواحدة القوية على اختلاف مذاهبها ومساكنها التي تتمحور حول أصول الإيمان وتتفق فيها وإن اختلفت في بعض الاجتهادات الفرعية العلمية؟!

أقول: لماذا ينبري مجلس الإفتاء السعودي متمثلاً بالمدعو «جبرين» وبعض زملائه إلى شق عصا المسلمين وإثارة النعرات الطائفية، وعزل أكبر قطعة من جسم الأمة الإسلامية التي هي الآن صخرة صماء أمام تلاطم أمواج الكفر والاستكبار رافعة راية لا إله إلا الله، كلمة وعملاً وظهرها ومتكأها هو الباري صاحب الكلمة، فأين يا ترى موقفه أمام أعداء الإسلام اليوم وكيف سيواجه خالقه وقد أفرح بفعلة هذه قلوب المستكبرين والظلمة والمنافقين!!؟

وهل أذنّب الشيعة إذا هم اتّبعوا وأحبوا من أمر القرآن باتباعهم ومحبتهم

من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً والذين فرض محبتهم ومودتهم بقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١)؟

المطلوب مؤتمر للحوار العلمي الديني :

نحن ندعو علماء الوهابية إلى حوار علمي صريح وبنّاء يحضره علماء المسلمين لمناقشة ما يعتقدونه، أولاً، وما يرمون به المسلمين ويكفّرونهم بسببه ثانياً، إنهاء لهذه المواقف المضرة بالمسلمين وقطعاً لدابر الفتنة والاختلاف.

نحن نhib بمفكري الأمة الإسلامية وبالشباب في البلاد الإسلامية أن يضغطوا على مجلس الإفتاء السعودي بغية الدخول في مناظرة مع علماء الشيعة الإمامية بصورة خاصة، وعلماء الطوائف الإسلامية الأخرى بصورة عامة في حوار علمي جاد... لوضع حدٍ لمُسلّس التكفيرات والمذابح الناشئة عنها، ونحن نحمل المسلمين كلّ الجرائم التي ستنشأ من هذه التكفيرات التي تعكس أهداف الاستعمار الحاقد، لو سكتوا وتركوا الأمر.

وإنّا لنحذّر المسلمين بأنّ هذا الموقف الصادر من «الجبرين» ونظرائه الذين لا يهتمهم إلاّ تكفير المسلمين ورميهم بالشرك تاركين الصهانية والصليبيين يسرحون ويمرحون في بلاد الإسلام، لن يقتصر على الشيعة الإمامية بل سيشمل الطوائف الأخرى، لأنّ الوهابيين الذين يرفعون شعار التوحيد يكفّرون عامة المسلمين إلاّ أنفسهم، فهل من مدّكر؟!.

جعفر السبحاني

قم - مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

الرسالة الرابعة

المسلمون وتكفير أهل القبلة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه المنتجبين
إلى إخواننا المسلمين في اليابان وفقهم الله لمرضاته .
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وصلتنا بعض المنشورات التي تتبنّى إيجاد الفرقة بين المسلمين مكان الدعوة
إلى الاعتصام بحبل الله والتمسك بالكتاب والسنة، والعيش تحت ظلال الإيمان
بالله تبارك وتعالى، ورسالة نبيه ﷺ، اللذين يربطان عامّة المسلمين بعضهم
ببعض .

في العصر الذي تزرع فيه أولى القبلتين تحت وطأة الصهاينة، وأصبحت
بلاد الوحي والرسالة مركزاً لجيوش الغزو الغربي، وتجري في البوسنة والهرسك
مذابح عامة للمسلمين، نسايتهم وأطفالهم .

وفي هذا العصر الذي يهاجم فيه الغرب المسلمين ويقتل مفكرهم وشبابهم
ويفسد أخلاقهم ويدمر كيانهم قامت عدة من العملاء بفصل طائفة كبيرة من
المسلمين عن كيان الأمة الإسلامية وكأنّ الهجوم على أتباع أئمة أهل البيت
وتكفيرهم ورميهم بالابتداع هو الدواء الناجع .

إنّ المسلمين اليوم بحاجة ماسة إلى التماسك والوحدة ورصّ الصفوف أمام

الهجوم الثقافي والفكري، فمن دعا إلى الوحدة والاعتصام فقد اقتضى الذكر الحكيم، قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١) ومن دعا إلى الفرقة فقد ابتعد عما دعا إليه الكتاب واقتضى سنة المشركين قال سبحانه: ﴿... وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٢) ولكننا نمزج على كلماتهم وأعمالهم مرور الكرام ونركز على تحليل مسألتين في ضوء الكتاب والسنة حتى يتبين المبتدع من المتمسك بهما وهما:

١- الاحتفال بمولد النبي ﷺ.

٢- تكفير أهل القبلة.

فقد استعرض الأولى الشيخ صالح بن غانم السدلان وزميله الدكتور فهد السنيدي فتكريم النبي ﷺ يوم ميلاده وتعزيره عندهم بدعة وقد نشرت مجلة الشرق الأوسط ما أدليا به، وليس في كلاميهما شيء جديد سوى ما في كلام شيخهما ابن تيمية ومجدد مذهبه محمد بن عبد الوهاب وقد عاد المحاضران يجتران نفس ما ورثاه من إماميهما.

ومن العجب جداً أن إقامة الاحتفال لميلاد الملوك والرؤساء تكريماً لهم أمرٌ غير محظور ولكن تكريم ميلاد النبي الأكرم ﷺ أمرٌ مبتدع حرام وكأنتهم لم يسمعوا قوله سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾^(٣). فتعزيره غير نصره، وغير الإيمان به فكما أن الإيمان به لا يختص بوقت دون وقت فكذلك تكريمه وتعظيمه، فهذه الآية الداعية إلى تكريم النبي ﷺ مطلقة غير محددة بزمان خاص من حيث الدعوة وتخصيصه بيوم الميلاد من جهة ملابسات تُسهل للمسلمين تجسيد الآية في ذلك اليوم.

٢. الروم: ٣١-٣٢.

١. آل عمران: ١٠٣.

٣. الأعراف: ١٥٧.

إنّه سبحانه يصف النبي ﷺ ويقول: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾^(١) فالمحتفلون يوم ميلاده يجسدون ذلك الترفع.. أفيمكن أن يكون ترفيعه اتباعاً للذكر الحكيم حراماً؟!

وأما الثانية: فإنّ القائلين بتكفير بعض الطوائف الإسلامية هم الذين لا يرغبون في وحدة المسلمين، وهم لا يكفّرون الشيعة فحسب بل يكفّرون قاطبة المسلمين سوى أتباع محمد بن عبد الوهاب غير أنّهم كانوا يجهرون بتكفير جميع المسلمين في الأزمنة السابقة ويغزونهم ويقتلونهم وينهبون أموالهم ولكنهم اليوم يتقون ولا يبدون كل ما يضمرون غير تكفير الشيعة فهذا «موسى بايكي» أحد العملاء للوهابية أخذ يكفر الشيعة ويحرم ذبائحهم، فهل درس القرآن الكريم والسنة النبوية في تحديد الإيمان والكفر أو أنّه أخذ مقياساً من عند نفسه دعماً لمبدئه فصار يكفر شيعة آل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً؟ وما نحن ندرس في هذه الرسالة المتواضعة حدود الكفر والإيمان، حتى يقف القارئ على أنّ الطوائف الإسلامية المشهورة بين السنة والشيعة كلّهم مسلمون مؤمنون حسب الضابطة التي نص عليها النبي ﷺ وجرى عليها السلف الصالح طيلة القرون الماضية وإليك البيان:

الاحتفال بمولد النبي ﷺ

الاحتفال بمولد النبي ﷺ، من مظاهر حب النبي الأكرم الذي حبه وتكريمه وتعزيره أصل في الكتاب والسنة.

إنَّ لحب نبي الإسلام مظاهر ومجالي، إذ ليس الحب شيئاً يستقر في صقع النفس من دون أن يكون له انعكاس خارجي على أعمال الإنسان وتصرفاته، بل أنَّ من خصائص الحب أن يظهر أثره على جسم الإنسان وملاحظه، وعلى قوله وفعله، بصورة مشهورة وملموسة.

فحب الله ورسوله الكريم لا ينفك عن اتباع دينه، والاستئناس بسنته، والإتيان بأوامره والانتهاز عن نواهيه، ولا يعقل أبداً أن يكون المرء محباً لرسول الله ﷺ أشدَّ الحب، ومع ذلك يخالفه فيما يبغضه ولا يرضيه، فمن ادَّعى حباً في نفسه وخالفه في عمله فقد جمع بين شيئين متخالفين متضادين.

ولنعم ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في هذا الصدد موجهاً كلامه إلى مدَّعي الحب الإلهي كذباً:

تعصي الإله وأنتَ تظهر حبه هذا لعمرى في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إنَّ المحب لمن يحب مطيع^(١)

للحبِّ مظاهر وراء الاتِّباع:

نعم لا يقتصر أثر الحب على هذا، بل له آثار أخرى في حياة المحب، فهو يزور محبوبه ويكرمه ويعظمه ويزيل حاجته، ويدبّ عنه، ويدفع عنه كل كارثة ويهيئ له ما يريحه ويسره إذا كان حياً.

وإذا كان المحبوب ميتاً أو مفقوداً حزن عليه أشد الحزن، وأجرى له الدموع كما فعل النبي يعقوب عليه السلام عندما افتقد ولده الحبيب يوسف عليه السلام فبكاه حتى ابيضّت عيناه من الحزن، وبقي كظيماً حتى إذا هبّ عليه نسيم من جانب ولده الحبيب المفقود، هسّ له وبشّ، وهفا إليه شوقاً وحبّاً.

بل يتعدّى أثر الحب عند فقد الحبيب وموته هذا الحد، فنجد المحب يحفظ آثار محبوبه، وكل ما يتصل به، من لباسه وأشياءه كقلمه ودفتره وعصاه ونظارته. كما ويحترم أبناءه وأولاده، ويحترم جنازته ومثواه، ويحتفل كل عام بميلاده وذكرى موته، ويكرمه ويعظمه حباً به ومودة له.

إلى هنا ثبت، أنّ حب النبي وتكريمه أصل من أصول الإسلام لا يصح لأحد إنكاره، ومن المعلوم أنّ المطلوب ليس الحب الكامن في القلب من دون أن يُرى أثره على الحياة الواقعية، وعلى هذا يجوز للمسلم القيام بكل ما يعد مظهراً لحب النبي شريطة أن يكون عملاً حلالاً بالذات ولا يكون منكراً في الشريعة، نظراً:

١- تنظيم السنّة النبوية، وإعراب أحاديثها وطبعها ونشرها بالصور المختلفة، والأساليب الحديثة، وفعل مثل هذا بالنسبة إلى أقوال أهل البيت وأحاديثهم.

٢- نشر المقالات والكلمات، وتأليف الكتب المختصرة والمطولة حول حياة

النبي ﷺ وعترته، وإنشاء القصائد بشتى اللغات والألسن في حقهم، كما كان يفعل المسلمون الأوائل.

فالأدب العربي بعد ظهور الإسلام يكشف عن أن إنشاء القصائد في مدح رسول الله ﷺ كان مما يعبر به أصحابها عن حبهم لرسول الله ﷺ.

فهذا هو كعب بن زهير ينشئ قصيدة مطولة في مدح رسول الله ﷺ منطلقاً من إعجابه وحب له ﷺ فيقول في جملة ما يقول:

بانث سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يُفد مكبول
نُبئتُ أن رسول الله أوعدي والعفو عند رسول الله مأمول
ويقول:

مهلاً هداك الذي أعطاك نا فلة القرآن فيها مواعيط وتفصيل
إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول^(١)
وقد ألقى هذه القصيدة في مجلس رسول الله ﷺ وأصحابه، ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ.

وهذا هو حسان بن ثابت الأنصاري يرثي النبي ﷺ، ويذكر فيه مدائحه، ويقول:

بطيبة رسم للرسول ومعهده منير وقد تغفو الرسوم وتهمد
إلى أن قال:

يدل على الرحمان من يقتدي به وينقذ من هول الخزايا ويرشد
إمام لهم يهديهم الحق جاهداً معلّم صدقٍ إن يطيعوه يسعدوا^(٢)

وهذا هو عبد الله بن رواحة ينشئ أبياتاً في هذا السياق فيقول فيها:

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله خَلُّوا فكل الخير في رسوله
يا رب إنِّي مؤمن بقبيله أعرف حق الله في قبوله^(١)
هذه نماذج مما أنشأها الشعراء المعاصرون لعهد الرسالة في النبي ﷺ ونكتفي
بها لدلالاتها على ما ذكرنا.

ولو قام باحث بجمع ما قيل من الأشعار والقصائد في حق النبي ﷺ
لاحتاج في تأليفه إلى عشرات المجلدات.

إنَّ مدح النبي كان الشغل الشاغل للمخلصين والمؤمنين منذ أن لَبَّى
الرسول دعوة ربه، ولا أظن أن أحداً عاش في هذه البسيطة نال من المدح بمقدار
ما ناله الرسول ﷺ من المدح بمختلف الأساليب والنظم.

وهناك شعراء مخلصون أفرغوا فضائل النبي ومناقبه في قصائد رائعة وخالدة
مستلهمين ما جاء في الذكر الحكيم والسنة المطهرة في هذا المجال، فشكر الله
مساعدتهم الحميدة وجهودهم المخلصة.

٣- تقبيل كل ما يمت إلى النبي بصلة كباب داره، وضريحه وأستار قبره
انطلاقاً من مبدأ الحب الذي عرفت أدلته.

وهذا أمر طبعي وفطري فيما أنَّ الإنسان المؤمن لا يتمكن بعد رحلة النبي
ﷺ من تقبيل الرسول ﷺ^(٢) فيقبل ما يتصل به بنوع من الاتصال، وهو كما

١. ابن هشام: السيرة النبوية: ٣٧١/٢.

٢. دخل أبو بكر حجرة النبي ﷺ بعد رحيله وهو مسجى برّد حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه
فقبله ثم بكى فقال: بأبي أنت يا نبي الله لا يجمع الله عليك موتين، أما الموتة التي كتبت عليك
فقد مُتَّها. لاحظ صحيح البخاري: ١٧/٢ كتاب الجنائز.

أسلفنا، أمر طبعي في حياة البشر حيث يلثمون ما يرتبط بحبيبهم ويقصدون بذلك نفسه. فهذا هو المجنون العامري كان يقبل جدار بيت ليلي ويصرّح بأنّه لا يقبل الجدار، بل يقصد تقبيل صاحب الجدار، يقول:

أمرّ على الديار ديار ليلي أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
فما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

٤- إقامة الاحتفالات في مواليدهم وإلقاء الخطب والقصائد في مدحهم وذكر جهودهم ودرجاتهم في الكتاب والسنة، شريطة أن لا تقترن تلك الاحتفالات بالمنهيات والمحرمات.

ومن دعا إلى الاحتفال بمولد النبي في أيّ قرن من القرون، فقد انطلق من هذا المبدأ أي حب النبي الذي أمر به القرآن والسنة بهذا العمل.

هذا هو مؤلف تاريخ الخميس يقول في هذا الصدد: لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده، ويعملون الولائم، ويتصدّقون في ليليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات، ويعتنون بقراءة مولده الشريف، ويظهر عليهم من كراماته كل فضل عظيم^(١).

وقال أبو شامة المقدسي في كتابه: ومن أحسن ما يفعل في اليوم الموافق ليوم مولده ﷺ من الصدقات والمعروف بإظهار الزينة والسرور، فإنّ في ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء شعراً لمحبته^(٢).

وقال القسطلاني: ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ﷺ، ويعملون الولائم، ويتصدّقون في ليليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في

١. الديار بكري: تاريخ الخميس: ١/ ٣٢٣.

٢. الحلبي: السيرة: ١/ ٨٣-٨٤.

المبرات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عظيم ... فرحم الله امرأً اتخذ لبالي شهر مولده المبارك أعياداً، ليكون أشدّ علةً على من في قلبه مرض وأعياء^(١).

إذا عرفت ما ذكرناه فلا تظن أن يشك أحد في جواز الاحتفال بمولد النبي ﷺ، احتفالاً دينياً فيه رضى الله ورسوله، ولا تصح تسميته بدعة، إذ البدعة هي التي ليس لها أصل في الكتاب والسنة، وليس المراد من الأصل؛ الدليل الخاص، بل يكفي الدليل العام في ذلك.

ويرشدك إلى أنّ هذه الاحتفالات تجسّد لتكريم النبي؛ وجدانك الحر، فأنه يقضي - بلا مرية - على أنها إعلاء لمقام النبي وإشادة بكرامته وعظمته، بل يتلقاها كل من شاهدها عن كذب على أنّ المحتفلين يعزّزون نبيّهم ويكرمونه ويرفعون مقامه اقتداءً بقوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(٢).

السنة النبوية وكرامة يوم مولده ﷺ :

١- أخرج مسلم في صحيحه، عن أبي قتادة أنّ رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال: «فيه ولدت، وفيه أنزل عليّ»^(٣).

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي - عند الكلام في استحباب صيام الأيام التي تتجدّد فيها نعم الله على عباده - ما هذا لفظه: إنّ من أعظم نعم الله على هذه الأمة إظهار محمد ﷺ وبعثته وإرساله إليهم، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾^(٤) فصيام يوم تجددت فيه هذه النعمة

١. المواهب اللدنية: ١/ ١٤٨.

٢. الانشراح: ٤.

٣. مسلم: الصحيح: ٣/ ١٦٨ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر من كتاب الصيام.

٤. آل عمران: ١٦٤.

من الله سبحانه على عباده المؤمنين حسن جميل، وهو من باب مقابلة النعم في أوقات تجددتها بالشكر^(١).

٢- روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسئلوا عن ذلك، فقالوا: هو اليوم الذي أظفر الله موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصوم تعظيماً له، فقال رسول الله ﷺ: «نحن أولى بموسى» وأمر بصومه^(٢).

وقد استدل ابن حجر العسقلاني بهذا الحديث على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي على ما نقله الحافظ السيوطي، فقال: فيستفاد منه فعل الشكر لله تعالى على ما من به في يوم معين من إسداء نعمة، أو دفع نقمة ويعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة. والشكر لله يحصل بأنواع العبادة، كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة، وأي نعمة أعظم من نعمة بروز هذا النبي نبي الرحمة في ذلك اليوم^(٣).

٣- وللسيوطي أيضاً كلام آخر نأتي بنصه، يقول: وقد ظهر لي تخريج عمل المولد على أصل آخر، وهو ما أخرجه البيهقي عن أنس أن النبي ﷺ عَقَّ عن نفسه بعد النبوة مع أنه قد ورد أن جده عبد المطلب عَقَّ عنه في سابع ولادته، والعقيقة لا تعاد مرة ثانية، فيحمل ذلك على أن الذي فعله النبي ﷺ إظهار للشكر على إيجاد الله إياه رحمة للعالمين وتشريفاً لأُمته كما كان يصلي على نفسه، لذلك فيستحب لنا أيضاً إظهار الشكر بمولده بالاجتماع، وإطعام الطعام، ونحو ذلك من وجوه القربات وإظهار المسرات^(٤).

١. ابن رجب الحنبلي: لطائف المعارف: ٩٨.

٢. مسلم: الصحيح: ٣/ ١٥٠ باب صوم يوم عاشوراء من كتاب الصيام.

٣. السيوطي: الحاوي للفتاوي: ١/ ١٩٦.

٤. السيوطي: الحاوي للفتاوي: ١/ ١٩٦.

٤- أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب أنَّ رجلاً من اليهود، قال له: يا أمير المؤمنين! آية في كتابكم تقرؤها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. فقال: أي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة^(٢).

وأخرج الترمذي عن ابن عباس نحوه وقال: فيه نزلت في يوم عيد من يوم جمعة ويوم عرفة، وقال الترمذي: وهو صحيح^(٣).

وفي هذا الأثر موافقة عمر بن الخطاب على اتخاذ اليوم الذي حدثت فيه نعمة عظيمة، عيداً لأنَّ الزمان ظرف للحدث العظيم، فعند عود اليوم الذي وقعت فيه الحادثة كان موسماً لشكر تلك النعمة، وفرصة لإظهار الفرح والسرور^(٤).

نرى أنَّ المسيح عندما دعا ربه أن ينزل مائدة عليه وعلى حواريه قال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَأُزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٥).

فقد اتخذ يوم نزول النعمة المادية التي تشبع البطون عيداً، والرسول ﷺ نعمة عظيمة منَّ بها الله على المسلمين بميلاده، فلم لا نتخذ يوم فرح وسرور؟

١. المائدة: ٣.

٢ و ٣. البخاري: الصحيح: ١/ ١٤ باب زيادة الإيمان ونقصانه من كتاب الإيمان - ٦/ ٥٠ تفسير سورة المائدة، وكما أخرجه الترمذي في ٥/ ٢٥٠، وفي الروايات المتضافرة أنَّها نزلت في الثامن عشر من ذي الحجة في حجة الوداع.

٤. عيسى الحميري: بلوغ المأمول: ٢٩.

٥. المائدة: ١١٤.

إجماع المسلمين على تكريم مولده ﷺ :

ذكروا أنَّ أول من أقام المولد هو الملك المظفر صاحب اربل، وقد توفي عام ٦٣٠ هـ وربما يقال: أول من أحدثه بالقاهرة الخلفاء الفاطميون؛ أولهم المعز لدين الله، توجه من المغرب إلى مصر في شوال ٣٦١ هـ وقيل في ذلك غيره، وعلى أي تقدير فقد احتفل المسلمون حقاً وأعواماً من دون أن يعترض عليهم أي ابن أنثى، وعلى أي حال فقد تحقق الإجماع على جوازه وتسويغه واستحبابه قبل أن يولد باذر هذه الشكوك، فلماذا لم يكن هذا الإجماع حجة؟! مع أنَّ اتفاق الأمة بنفسه أحد الأدلة، وكانت السيرة قائمة على تبجيل مولد النبي ﷺ إلى أن جاء ابن تيمية، وعبد العزيز بن عبد السلام^(١)، والشاطبي فناقشوا فيه ووصفوه بالبدعة، مع أنَّ الإجماع فيه انعقد قبل هؤلاء بقرنين أو قرون، أو ليس انعقاد الإجماع في عصر من العصور حجة بنفسه؟

إلى هنا وقفت على أنَّ شرعية الاحتفال بمولد النبي ﷺ يثبتها القرآن الكريم والسنة النبوية واتفاق المسلمين ومن فارقهم فقد فارق الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٢).

وإليك الكلام في المسألة الثانية:

١. هو عبد العزيز بن عبد السلام السلمسي الدمشقي (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ): فقيه شافعي، له من الكتب «التفسير الكبير» و«مسائل الطريقة» وغيرها. انظر أعلام الزركلي: ٢١ / ٤.

٢. النساء: ١١٥.

تكفير أهل القبلة

لا يصح تكفير فرقة من الفرق الإسلامية ما دامت تعترف بالشهادتين ولا تنكر ما يعد من ضروريات الدين التي يعرفها كل من له أدنى إلمام بالشريعة وإن لم تكن له مخالطة كثيرة مع المسلمين. وعلى ذلك فالبلاء الذي حاق بالمسلمين في القرون الماضية وامتد إلى عصرنا الحاضر بلاء مبدّد لشمل المسلمين أولاً، ومحرم في نفس الكتاب والسنة وإجماع المسلمين ثانياً، ومن المؤسف أن التعصبات المذهبية الكلامية صارت أساساً لتكفير المعتزلة أصحاب الحديث والأشاعرة وبالعكس، وربما عمّ البلاء شيعة أئمة أهل البيت، فترى أن بعض المتعصبين أخذوا يكفّرون الشيعة بأمور لو ثبتت لا تكون سبباً للتكفير، فضلاً عن كون أكثرها تنهياً باطلاً كالقول بتحريف القرآن ونظيره وأنّ الثابت منها، مدعم بالكتاب والسنة، ولأجل أن يقف القارئ على مدى البلاء في العصور السابقة، نذكر ما يلي:

١ - قال ابن حزم عندما تكلم فيمن يُكفّر ولا يكفّر: وذَهَبَتْ طَائِفَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يُكْفَرُ وَلَا يُفْسَقُ مُسْلِمٌ بِقَوْلٍ قَالَ فِي اعْتِقَادٍ، أَوْ فِتْيَا، وَإِنَّ كُلَّ مَنْ اجْتَهَدَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَدَانَ بِمَا رَأَى أَنَّهُ الْحَقُّ فَإِنَّهُ مَاجُورٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ إِنْ أَصَابَ فَأَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَأَجْرٌ وَاحِدٌ.

قال وهذا قول ابن أبي ليلى وأبي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري وداود بن

علي، وهو قول كل من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة (رضي الله عنهم) لا نعلم منهم خلافاً في ذلك أصلاً^(١).

٢ - وقال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي: إن الإقدام على تكفير المؤمنين عسر جداً، وكل من كان في قلبه إيمان يستعظم القول بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فإن التكفير أمر هائل عظيم الخطر (إلى آخر كلامه وقد أطل في تعظيم التكفير وتعظيم خطره)^(٢).

٣ - وكان أحمد بن زاهر السرخسي الأشعري يقول: لما حضرت الشيخ أبا الحسن الأشعري الوفاة بداري في بغداد أمرني بجمع أصحابه فجمعتهم له، فقال: اشهدوا على أنني لا أكفر أحداً من أهل القبلة بذنوب، لأنّي رأيتهم كلّهم يشيرون إلى معبود واحد والإسلام يشملهم ويعتّمهم^(٣).

٤ - وقال القاضي الإيجي: جمهور المتكلمين والفقهاء على أنّه لا يكفر أحد من أهل القبلة واستدل على مختاره بقوله: إنّ المسائل التي اختلف فيها أهل القبلة من كون الله تعالى عالماً بعلم زائد على ذاته أو موجداً لفعل العبد، أو غير متحيز ولا في جهة ونحوها لم يبحث النبي عن اعتقاد من حكم بإسلامه فيها ولا الصحابة ولا التابعون، فعلم أنّ الخطأ فيها ليس قادحاً في حقيقة الإسلام.

ثم إنّ الإيجي ذكر الأسباب الستة التي بها كفرت الأشاعرة المعتزلة، ثم ناقش في جميع تلك الأسباب وأنها لا تكون دليلاً للكفر.

ثم ذكر الأسباب الأربعة التي بها كفرت المعتزلة الأشاعرة وناقش فيها وأنها لا تكون سبباً للتكفير.

ثم ذكر الأسباب الثلاثة التي بها تكفر شيعة أهل البيت وناقش فيها وأنها

١. ابن حزم: الفصل: ٢٤٧/٣.

٢ و ٣. الشعرائي: اليواقيت والجواهر: ٥٨.

لا تكون سبباً للكفر^(١).

والحقّ أنّ القاضي قد نظر إلى المسألة بعين التحقيق وأصاب الحقّ إلّا في بعض المسائل. فقد ناقش في أسباب تكفير المجسمة وهو في غير محله والتفصيل لا يناسب المقام.

٥ - وقال التفتازاني: إنّ مخالف الحق من أهل القبلة ليس بكافر مالم يخالف ما هو من ضروريات الدين كحدوث العالم وحشر الأجساد، واستدلّ بقوله: إنّ النبي ومن بعده لم يكونوا يفتشون عن العقائد وينبّهون على ما هو الحق. فإن قيل: فكذا في الأصول المتفق عليها.

قلنا: لاشتهارها وظهور أدلتها على ما يليق بأصحاب الجمل.

ثم أجاب بجواب آخر وقال:

قد يقال ترك البيان إنّما كان اكتفاءً بالتصديق الإجمالي إذ التفصيل إنّما يجب عند ملاحظة التفاصيل، وإلّا فكم مؤمن لا يعرف معنى القديم والحادث.

فقد ذهب الشيخ الأشعري إلى أنّ المخالف في غير ما ثبت كونه من ضروريات الدين ليس بكافر، وبه يشعر ما قاله الشافعي - رحمه الله -: لا أرد شهادة أهل الأهواء إلّا الخطابية لاستحلالهم الكذب.

وفي المنتقى عن أبي حنيفة أنّه لم يكفر واحداً من أهل القبلة وعليه أكثر الفقهاء، ثم ذكر بعض الأقوال من الأشاعرة والمعتزلة الذين كانوا يكفرون مخالفهم في المسألة^(٢).

قال ابن عابدين: نعم يقع في كلام أهل المذهب تكفير كثير، لكن ليس من

١. الإيجي: المواقف: ٣٩٢ - ٣٩٤.

٢. التفتازاني، شرح المقاصد: ٥ / ٢٢٧ - ٢٢٨.

كلام الفقهاء الذين هم المجتهدون، بل من غيرهم ولا عبرة بغير الفقهاء، والمنقول عن المجتهدين ما ذكرنا^(١).

ولعل بعض البسطاء يتصور أنّ العاطفة والمرونة الخارجة عن إطار الإسلام هي التي صارت مصدراً لهذه الفتيا، ولكنه سرعان ما يرجع عن قضائه إذا وقف على الأحاديث المتوفرة الواردة في المقام الناهية عن تكفير أهل القبلة، وإليك سردها:

السنة النبوية وتكفير المسلم :

قد وردت أحاديث كثيرة تنهى عن تكفير المسلم الذي أقرّ بالشهادتين فضلاً عمّن يارس الفرائض الدينية، وإليك طائفة من هذه الأحاديث:

١- «بُني الإسلام على خصال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، والجهاد ماضٍ منذ بعث رسله إلى آخر عصابة تكون من المسلمين ... فلا تكفروهم بذنوب ولا تشهدوا عليهم بشرك».

٢- «لا تكفروا أهل ملّتكم وإن عملوا الكبائر»^(٢).

٣- «لا تكفروا أحداً من أهل القبلة بذنوب وإن عملوا الكبائر».

٤- «بُني الإسلام على ثلاث: ... أهل لا إله إلا الله لا تكفروهم بذنوب ولا تشهدوا لهم بشرك».

٥- عن أبي ذر: أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يرمي رجل رجلاً بالفسق أو بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك».

١. ابن عابدين: رد المختار: ٤/ ٢٣٧.

٢. نعم الكبائر توجب العقاب لا الكفر.

٦- عن ابن عمر: إن رسول الله ﷺ قال: «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما».

٧- «من قذف مؤمناً بكفر فهو كقاتله، ومن قتل نفساً بشيء عذبه الله بها قتل».

٨- «من كفر أخاه فقد باء بها أحدهما».

٩- «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فهو كقاتله، ولعن المؤمن كقاتله».

١٠- «أتيا رجل مسلم كفر رجلاً مسلماً فإن كان كافراً وإلا كان هو الكافر».

١١- «كفوا عن أهل لا إله إلا الله لا تكفروهم بذنب، فمن كفر أهل لا إله إلا الله فهو إلى الكفر أقرب».

١٢- «أتيا امرئ قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه».

١٣- «ما أكفر رجل رجلاً قط إلا باء بها أحدهما».

١٤- «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما إن كان الذي قيل له كافراً فهو كافر، وإلا رجع إلى من قال».

١٥- «ما شهد رجل على رجل بكفر إلا باء بها أحدهما، إن كان كافراً فهو كما قال، وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه».

١٦- عن علي عليه السلام: في الرجل يقول للرجل: يا كافر يا خبيث يا فاسق يا حمار؟ قال: «ليس عليه حد معلوم، يعزر الوالي بما رأى»^(١).

١. هذه الأحاديث مبسوطة في جامع الأصول: ١، و ١٠، ١١ كما أنها مجموعة بأسرها في كنز العمال للمفتي الهندي: ج ١.

١٧- حدثنا أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ سرية إلى الحُرقات، فنذروا بنا فهربوا فأدركنا رجلاً فلما غشينا قال: لا إله إلا الله، فضربناه حتى قتلناه فعرض في نفسي من ذلك شيء فذكرته لرسول الله ﷺ فقال: «مَنْ لَكَ بِلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: قلت: يارسول الله، إننا قالها مخافة السلاح والقتل، فقال: «ألا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك أم لا؟ مَنْ لَكَ بِلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: فما زال يقول ذلك حتى وددت أني لم أسلم إلا يومئذ^(١).

١٨- لما خاطب ذو الخويصرة الرسول الأعظم ﷺ بقوله اعدل، ثارت ثائرة من كان في المجلس ومنهم خالد بن الوليد قال: يارسول الله! ألا أضرب عنقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «فلعله يكون يصلّي»، فقال: إنّه ربّ مصلٍّ يقول بلسانه مالميس في قلبه، فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم»^(٢).

ما هو المقوم للإسلام:

إن دخول الإنسان في حظيرة الإسلام رهن الإقرار بالشهادتين والتصديق بالتوحيد والرسالة وفي بعض الروايات يضاف إليهما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان ، وإليك الصنفين:

١. صحيح مسلم: ٦٧/١، باب تحريم قتل الكافر من كتاب الإيمان؛ سنن أبي داود: ٤٥/٣ برقم ٢٦٤٣؛ مسند أحمد: ٥/٢٠٧؛ سنن ابن ماجه: ١٢٩٦/٢ برقم ٣٩٣٠.
٢. صحيح مسلم: ١١١/٣ باب ذكر الخوارج وصفاتهم من كتاب الزكاة مسند أحمد: ٤/٣.

الصنف الأول، وهو ما اقتصر على إظهار الشهادتين:

١ - أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب أن علياً صرخ: «يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟» قال ﷺ: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»^(١).

٢ - ما أخرجه الإمام الشافعي عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»^(٢).

٣ - روى التميمي عن الإمام الرضا ﷺ عن آبائه عن علي، قال: «قال النبي: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا حرمت علي دماؤهم وأموالهم»^(٣).

٤ - روى البرقي مسنداً عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: «الإسلام يحقن به الدم، وتؤدي به الأمانة، ويستحل به الفرج، والثواب على الإيمان»^(٤).

٥ - وقال الإمام الصادق ﷺ: «الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله، به حقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواثيق»^(٥).

٦ - قال الإمام الشافعي: فأعلم رسول الله أنه سبحانه فرض أن يقاتلهم

١. البخاري: الصحيح: ١/١٠، باب «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة» من كتاب الإيمان؛ وصحيح مسلم: ١٢١/٧، باب فضائل علي بن أبي طالب ﷺ.

٢. الشافعي: الأم: ٦/١٥٧، ١٥٨.

٣. المجلسي: البحار: ٦٨/٢٤٢.

٤ و ٥. المجلسي: البحار: ٦٨/٢٤٣ ح ٣ و ٢٤٨ ح ٨.

حتى يُظهروا أنَّ لا إله إلا الله، فإذا فعلوا منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها^(١).

٧ - قال القاضي عياض: اختصاص عصم النفس والمال بمن قال: لا إله إلا الله، تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، أو أنَّ المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحد، وهم كانوا أول من دُعي إلى الإسلام وقتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفي في عصمته بقوله لا إله إلا الله إذا كان يقوها في كفره وهي من اعتقاده، ولذلك جاء في الحديث الآخر: وأني رسول الله، وقيم الصلاة ويؤتي الزكاة^(٢).

وأما الصنف الثاني فنأتي ببعض نصوصه:

٨ - ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم شهر رمضان»^(٣).

٩ - ما تضافر عن رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا وصلَّى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، له ما للمسلم وعليه ما على المسلم»^(٤).

١٠ - روى أنس بن مالك عن رسول الله قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، فإذا شهدوا ألا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلَّوا صلاتنا، حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها»^(٥).

١. الشافعي: الأم: ٢٩٦/٧ - ٢٩٧. ٢. المجلسي: البحار: ٦٨/ ٢٤٣.

٣. البخاري: الصحيح: ١/ ١٦، باب أداء الخمس، من كتاب الإيمان.

٤ و ٥. ابن الأثير: جامع الأصول: ١/ ١٥٨ - ١٥٩.

وهذه النصوص - وما أكثرها - تُصرِّح بأنَّ ما تُحقِّق به الدماء وتُصان به الأعراض ويدخل به الإنسان في عداد المسلمين ويتخيَّم بخيمة الإسلام، هو الاعتقاد بتوحيده سبحانه ورسالة الرسول ﷺ، وهذا ما نعبر عنه ببساطة العقيدة وسهولة التكليف الإسلامية.

إذا عرفت هذين الصنفين من الروايات فاعلم أنَّ الجميع يهدف إلى أمر واحد وهو أنَّ الدخول في الإسلام والدخول تحت مظلته ليس بأمر عسير بل سهل جداً، وليس في الإسلام ما هو معقَّد في المعارف، ولا معسور في الأحكام، وشتان بين بساطة العقيدة فيه، والتعقيد الموجود في المسيحية من القول بالثالوث وفي الوقت نفسه الاعتقاد بكونه سبحانه إلهاً واحداً.

وعلى ضوء هذا البحث فالمسلمون في أقطار العالم إخوة بكل طوائفهم تربطهم شهادة التوحيد والرسالة فتحرم دماؤهم ونواميسهم وأموالهم وتحل ذبائحتهم، وبالجملة فالكل مسلمون مؤمنون لهم من الأحكام ما للمسلم والمؤمن. فهذه المنشورات التي تهدف إلى فصل طائفة من المسلمين بآثامهم بالشرك أوراق ضالة مضلة يُضرب بها عرض الجدار ولا يقام لها في سوق الدين قيمة. اللهمَّ إنَّا نرغب إليك في دولةٍ كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذلّ بها النفاق وأهله.

جعفر السبحاني

قم المشرفة

تحريراً في ٤ جمادى الأولى

عام ١٤١٦ هـ

الرسالة الخامسة

موقف الشيعة الإمامية

من حديث الإفك

إنَّ السيدة عائشة من زوجات النبي وأمّهات المؤمنين لها من الشرف والكرامة ما لسائر نساءه ﷺ غير خديجة - رضي الله عنها - فقد رأت النور في بيتها، وعاشت معه فترة طويلة، ولم يشك أحد من المسلمين القدامى والجُدُد في براءتها من الإفك الذي صنّعه يد النفاق، ونشره عميد المنافقين وأذنبه «عبد الله بن أبي سلول» في عصر النبي ﷺ وحَدَّث عنه القرآن في آيات، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

وكفى في براءتها أنّه سبحانه سمّى النسبة إفكاً وبهتاناً عظيماً وأوعد من

تولّى كبره بعذاب أليم.

ولأجل إيقاف إخواننا أهل السنة على موقف الشيعة من هذه المسألة نأتي بنص أحد أقطاب التفسير من علماء الإمامية في القرن السادس، أعني: الشيخ الطبرسي (٤٧١ - ٥٤٨ هـ) مؤلف «مجمع البيان في علوم القرآن»، الذي طبق اسمه وكتابه أقطار العالم الإسلامي، يعرفه كل من له صلة بالتفسير وعلومه.

يقول رحمه الله بعد نقل آيات من سورة النور فيما لها صلة بالموضوع:

«روى الزهري، عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وغيرهما، عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهاً خرج سهمها خرج بها، فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وذلك بعد ما أنزل الحجاب، فخرجت مع رسول الله ﷺ حتى فرغ من غزوه وقفل.

وروي أنها كانت غزوة بني المصطلق من خزاعة قالت: ودنونا من المدينة، فقامت حين أذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرجل، فلمست صدري فإذا عقد من جَزَع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فحملوا هودجي على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه، وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلهن اللحم ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العُلقة من الطعام، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي، وجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فسموت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينما أنا جالسة إذ غلبتني عيناى فنمت، وكان صفوان، المعطل السلمي قد عرس من وراء الجيش فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رأي، فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما كلمني بكلمة حتى أناخ راحلته، فركبتها، فانطلق يقود الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في حر الظهيرة فهلك من هلك فيّ.

وكان الذي تولّى كبره منهم عبد الله بن أبي سلول، فقدّمنا المدينة، فاشتكت حين قدمتها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك وهو يرثيني في وجعي، غير أنني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى من حين اشتكي إنّها يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكّم؟ فذلك يحزنني ولا أشعر بالسّر - إلى أن قالت: - استأذنت رسول الله ﷺ إلى بيت أبي فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي وقلت لأُمّي: يا أُمّاه ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: أي بنية هوني عليك، فوالله لقلّ ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قلت: سبحان الله أوقد يحدث الناس بهذا؟ قالت: نعم، فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم.

ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب ﷺ حين استلبت الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي علم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلاّ خيراً، فأما علي بن أبي طالب - عليه أفضل الصلوات - فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثيرة، وإن تسأل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: يا بريرة! هل رأيت شيئاً يريبك من عائشة؟ قالت بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها امرأة قط أغمضه عليها أكثر من أنّها جارية حديثة السن تنام عن عمجين أهلها.

قالت: وأنا والله أعلم أنّي بريئة، وما كنت أظن أن ينزل في شأنّي وحي يتلى، ولكنّي كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها، فأنزل الله تعالى على نبيه وأخذه ما كان يأخذه من برحاء الوحي حتّى أنّه لينحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الثاني من ثقل القول الذي أنزل عليه، فلما سري عن رسول الله ﷺ قال: أبشري يا عائشة أما الله فقد برّأك، فقالت لي أُمّي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم

إليه ولا أحد إلا الله، فهو الذي أنزل براءتي فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ الآيات العشر^(١).

هذه مقالة الشيعة ولو كان لهم ولغيرهم من سائر الطوائف الإسلامية كلام في حق السيدة فإنما يرجع إلى وقعة الجمل وهي ذي شجون ولأعلام المسلمين ومحققى التاريخ كلمات حولها ومن أراد فليرجع إليها.

اللهم ارزق المسلمين توحيد الكلمة، كما رزقتهم كلمة التوحيد

جعفر السبحاني

قم المقدسة

٨ جمادى الآخرة عام ١٤١٥ هـ

الرسالة السادسة

مبدأ حي وتعاليم قيّمة

كانت مجلة «مكتب إسلام»^(١) قد نشرت في عددها الخاص^(٢) مقالاً إضافياً حول مذهب الشيعة باللغات العالمية الحية: العربية والانكليزية والفارسية. ولما كان المقال على منهج جديد، تجاوب مع شعور كثير من القراء والمفكرين في العالم الإسلامي وقد ألحوا علينا أن نفرد المقال بالطبع والنشر. ومما لا يشكّ أي ذي مسكة فيه، أنّ السلطات الجائرة في غابر الزمان والدعايات المسمومة من جانب أعداء الإسلام أوجدت ستاراً وألقت أسدالاً على وجه الحقيقة، حالت دون وقوف المسلمين على مذهب الشيعة. فلأجل هذا وذاك قامت الهيئة التحريرية للمجلة بتلبية نداء هذا الصنف من القراء بإفراء المقال بالطبع وتوزيعه في مختلف الأقطار على نطاق واسع بعد إعادة النظر فيه. فها نحن نقدم للأمة الإسلامية وسائر الأمم أمّهات عقائد الشيعة ولباب أصولها بغية تقريب الخطى، وحفظاً للوحدة والوئام بين الأمة جمعاء.

قم: ايران - مجلة «مكتب اسلام»

١. مجلة شهرية، علمية، دينية، ثقافية، تصدر عن الجامعة الإسلامية بقم المقدسة تهدف إلى بث روح الإيمان والعمل ومعالجة المضكلات الخلقية والاجتماعية، أُسست عام ١٣٧٨ هـ. ق وما زال عطاؤها العلمي مستمراً إلى ستننا هذه ١٤١٩ هـ. ق.

٢. العدد السابع سنة ١٣٨٦ هـ. ق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ليس الغرض من وضع هذا المقال سرد عقائد الشيعة وما لها من أصول ومبادئ وأفكار، لأن ذلك يدفعنا إلى تأليف كتاب مفرد، وإنما الهدف إيقاف القارئ على مبادئ التشيع وأساسه على وجه الإجمال بأوضح العبارات وأخصرها كي يرجع إليه من ليس له إلمام صحيح ومعرفة وافية بأصول تلك الطائفة ولا يكون من الذين أخذوا مبادئ التشيع عن كُتّاب مغرضين .

ولمّا كان هذا المقال يصدر عن معهد علمي له تاريخه الحافل بين معاهد الشيعة الكبيرة، فسيجده القارئ كافياً في اإزاحة الستار عن كثير من المختلقات والمبهمات التي حامت حول مذهب الشيعة وفيه أجوبة لكثير من الأسئلة التي قد تتبادر إلى الأذهان.

وإليك الإشارة إلى العناوين المطروحة في المقال:

- * الشيعة في الوقت الحاضر
 - * الجامعات العلمية للشيعة
 - * نشوء مذهب الشيعة
 - * مكانة القرآن الكريم عند الشيعة
 - * الشيعة وسائر الفرق الإسلامية
 - * عقائد الشيعة
 - * مميزات الشيعة
 - * المصادر الدينية للشيعة
 - * نماذج من الوظائف الأخلاقية والاجتماعية عند الشيعة
- وذلك ضمن فصول:

الشيعية في الماضي و الحاضر

تدلّنا الإحصاءات الدقيقة على أنّ التشيع في الوقت الحاضر يدين به أكثر من مائتين وخمسين مليون نسمة وهم متفرّقون في أقطار العالم وأرجاء الدنيا يقطنون غالباً في إيران والعراق وباكستان والهند واندونيسيا وسوريا ولبنان و المملكة السعودية و أفغانستان وتركيا والقفقاس ومصر وأمارات الخليج وإفريقية الشرقية والمركزية والأمريكتين والصين، إلى غيرها من البلاد، وتشكّل الشيعة رُبع فرق المسلمين .

ولهذه الطائفة مساهمة فعالة في تأسيس الحضارة الإسلامية، فانّهم حازوا قصب السبق على غيرهم في حفظ التراث الإسلامي .

ومع الأسف الشديد لم تُعرف الشيعة حقّ المعرفة حتّى أنّ إخواننا أهل السنّة على الرغم من تعايشهم مع الشيعة لا يعرفون عن مذهب الشيعة إلّا النزر اليسير.

وليس ذلك جديداً فإنّ المستعمرين وأذئابهم وجدوا أهدافهم وتحقّق مآربهم في فصل السنّة عن الشيعة وتأجيج نار الشحناء والبغضاء بينهما، ولم يقتصروا على ذلك فحسب بل استعانوا بتشويه الحقائق وتحويرها بغية ترسيخ ذلك التعصّب البغيض.

وقد خلّفت تلك العوامل مضاعفات سيّئة ، أعقبها حروب طاحنة بين الفئتين غير أنّ تلك القلاقل والفتن لم تُنتج سوى وهن الإسلام وضرب المسلم أخاه المسلم.

لكن الله أبطل سعيهم وأفسد كيدهم بيقظة المسلمين بعد طول سبات، وتقدّمهم في معترك الحياة فتعارفوا بعد ما تناكروا وتآلفوا بعدما تباغضوا.

وقد قام عدد كبير من أساتذة جامعة الأزهر بمعاوضة بعض مفكري الشيعة بتأسيس دار للتقريب بين المذاهب الإسلامية والهدف الاسمى لتلك الجمعية الثقافية كما ينبئ عنه عنوان «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» هو التقريب بين فرق المسلمين والقيام على جمع كلمة الطوائف الإسلامية الذين فرّقهم آراء لا تتصل بالعقائد التي يجب الإيمان بها وقد تألفت الجمعية من أعلام السنة والشيعة، والسكرتير العام للجماعة هو شيعي إيراني.

كما قامت الجمعية بإصدار مجلّة علميّة سمّتها «رسالة الإسلام» لنشر دعوتها ورسالتها، وهي صحيفة حافلة بالمواضيع العلميّة الحيّة التي تلائم روح دعوتها ويساهم في كتابتها عدّة من كتاب علماء السنة والشيعة وقد قطعت في ذلك المضمار شوطاً كبيراً.

ومن نتائج دعوتها الفتوى التاريخية التي أصدرها فضيلة الأستاذ الأكبر الفقيه الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر فقال:

إنّ مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنة فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك وأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحق.^(١)

ولم يكن شيخ الأزهر الفقيه وحيداً في فتواه فقد سبقه إلى هذا الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم، شيخ الأزهر في وقته وإن لم يكن مجاهراً مثله. وقد كان لتلك الفتوى التاريخية صدى واسع في المجتمع الإسلامي حيث أحكمت أواصر الأخوة وكرست روح التفاهم بين الطائفتين وتلقاها أعلام السنة والشيعة بصدور رحبة.

الجامعات العلمية للشيعة

للشيعة الإمامية جامعات علمية مكتظة بالأساتذة ورؤاد العلم والتحقيق وأخص بالذكر جامعتين كبيرتين لهما منزلة ومكانة عظيمة:

١. جامعة النجف الأشرف ذلك المركز العلمي العريق الذي أسس منذ قرابة ألف عام عند مرقد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

٢. جامعة قم وهي جامعة كبيرة لها الأثر الكبير في نشر المذهب الشيعي إضافة إلى جامعة مشهد التي تأسست عند مرقد الإمام الطاهر علي بن موسى الرضا عليه السلام وتضم الجامعات المذكورة أكابر مراجع الشيعة وأعظم زعمائها الدينيين وقادتها الروحيين ومهمتهم تحمّل أعباء الزعامة والمرجعية الروحية العامة مع بذل جهدهم في صيانة الجامعة وتربية طلابها بإلقاء الدروس في أندية البحث والتدريس وراء ما يقومون به من مهمة الإفتاء.

وقد اكتظت الجامعات منذ تأسيسها بآلاف من رؤاد العلم والمعرفة في كافة الاختصاصات، كل حسب استعداده وكفاءته إلى أن يقضي وطره وينال من التحصيل بغيته فتحوّله المرجعية الدينية مهمة من المهمات إما بالتخصص في الوعظ والارشاد، وإما بتمثيل الزعيم الديني في بلد أو قطر، وإما بإقامة الجماعة في مسجد، أو بالتدريس في نفس الجامعة إلى غير ذلك من الصلاحيات.

ومن مفاخر الشيعة أنهم حازوا قصب السبق في تأسيس فنون الإسلام وتدوينها يقف على ذلك كل من سبر تاريخ العلوم الإسلامية وأمعن النظر في نشوئها وتكاملها ففي طيات التاريخ والمعاجم دلائل واضحة على أن جُل العلوم الإسلامية أُسست بيد الفطاحل من الشيعة والأعلام من أقدميهم.^(١)

وللشيعة منهج خاص في تربية الخطيب والمبلّغ فترى الخطيب واقفاً أمام حشد عظيم يلقي خطابة حماسية أو كلمة اجتماعية ارتجالاً بأحسن العبارات وأفصحها.

كان الزعيم الديني الأكبر الإمام البروجردي قدّس الله سرّه (١٢٩٢- ١٣٨٠ هـ.ق) باذلاً تمام جهده في تعريف الشيعة على وجهها الصحيح ساعياً في هذا الطريق بكل ما أوتي من حول وقوة، لإيمانه بأن التشيع قائم على أسس منطقية وأنه الملجأ الوحيد لحلّ المشاكل الاجتماعية والأخلاقية التي حاقت بالغرب.

كان الإمام المغفور له على إيمان بأنه لو وقف العالم الغربي والشيبة المترية في أحضانهِ على مبادئ التشيع وأصوله ومعتقداته للجزؤوا إليه بخاطر ربح وصدر منشرح.

وقد نجح ﷺ بعض النجاح في أهدافه فقام بإزاحة العقبات والعراقيل التي وضعت امامه ببعث رجال العلم إلى البلاد النائية مثل «واشنطن» و«هامبورغ» في أمريكا و ألمانيا، فقاموا بأعباء التبليغ والإشادة بمذهب الشيعة وتشكيل أندية الوعظ والإرشاد، وإقامة المؤتمرات حتّى وفق لبناء مسجد عامر في ساحل بحيرة «الستر» في هامبورغ، وقد قام البناء على مزيج من الفنون المعمارية الشرقية

١. تجد تلك الدلائل والشواهد في كتاب «تأسيس الشيعة لفنون الإسلام» تأليف المرجع الديني الأكبر السيد حسن الصدر.

الإسلاميّة والغربيّة على أرض تربو مساحتها على أربعة آلاف متر تقام فيه الصلاة وتعتقد فيه المؤتمرات والندوات يحضرها العديد من الجامعيين والتجار ومن أسلم من الغربيّين من غير فرق بين الشيعيّ والسنيّ والأبيض والأسود بل الجميع يقفون في صفّ واحد.

وللشيعة مكتبات عامرة ذات عظمة وشأن وفي طليعتها مكتبات النجف الأشرف وقم ومشهد وطهران تحفظ فيها النفائس والمخطوطات والآثار الإسلاميّة.

ومّا هو جدير بالذكر أنّ جامعتي الأزهر والقرويين في القاهرة والمغرب من أقدم الجامعات التي أُسّست بيد الشيعة، فقد قام المعزّ لدين الله أحد الخلفاء الفاطميّين المجاهرين بالتشيع بتأسيس الأزهر الشريف في أواسط القرن الرابع كما أنّ جامعة القرويين من آثار «الأدارسة» الحسنيين ملوك مراكش.

نشوء مذهب الشيعة

لقد فسح المجال لذوي الأقلام المستأجرة لتشويه سمعة الشيعة ورمي التشيع بأنّه فكرة خاصّة لطائفة انطوت على نفسها لامتتّ إلى المسلمين والإسلام بصلة، وإن اتّسمت بطابع الإسلام مع أنّها هي الإسلام نفسه.

إذ ليس التشيع مبدأ خاصاً وراء الإسلام، ولا الإسلام مبدأ يغيّر التشيع، إنّما التشيع هو نفس الإسلام الذي جاء به نبيّنا الأعظم ﷺ، والشيعة تدّعي أنّ أحسن الطرق وأبعدها عن الريب إلى معرفة الإسلام وما فيه من تعاليم إنّما هو أوصياؤه وأهل بيته الذين تربّوا في مهبط الوحي فصاروا أقرب الناس إلى رسول الله من غيرهم، فالإسلام والتشيع حقيقة واحدة حدثا وتكوّنا في آن واحد.

مكانة القرآن الكريم عند الشيعة

إنّ القرآن الكريم هو المصدر الأوّل لدى الشيعة كما هو عند المسلمين كافة ولم يتطرّق إليه تحريف أو تشويه، وهو عندهم المقياس الوحيد لتمييز الموضوع من الصحيح في الأحاديث الإسلاميّة، وأنّ كلّ حديث خالف كتاب الله فهو زخرف يضرب به عرض الحائط.

الشيعة وسائر الفرق الإسلاميّة

لعلّك تقول: لماذا افرقت السنّة عن الشيعة؟ وما هي أسباب ذلك؟ فنقول: إنّ الفارق الأساسيّ إنّما هو موضوع الإمامة، فإنّ الخلافة الإسلاميّة عند الشيعة منصب إلهيّ خطير لا يقوم به إلّا الأئمة فالأئمة من الأئمة، وليس تشخيص ذلك إلّا الله ولرسوله من بعده، فلأجله ذهبت الشيعة إلى أنّ الإمامة كالنبوة لا تنعقد إلّا بتنصيب وتعيين من الله.

اتفقت الشيعة على أنّ الأئمة الاثني عشر خلفاء الرسول ﷺ وأنّهم منصوبون من الله لقيادة الأئمة وزعامتها وقد نصّ الرسول على عددهم وأسمائهم ونصّ كلّ خليفة سابق منهم على الخليفة من بعده، ودونك أسماءهم:

الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ابن عمّ الرسول وصهره تربى في حجره ولم يزل يقفو أثره طول حياته، وهو أوّل الناس إسلاماً، وأشدّهم استقامة في مصالح الدين الإسلامي وتفانياً في تثبيتته وتركيزه، بلغ في علمه وتقواه رتبة تقاصر عنها الأقران وتراجع عنها الأكفاء.

نصّ النبيّ الأعظم ﷺ في حشد عظيم على خلافته وولايته، عند منصرفه من مكة عام حجة الوداع في موضع يقال له «غدير خم» ولم تكن أوّل مرّة شاد

فيها الرسول بمقام وصيته فقد كان طول حياته ينوّه بوصايته وخلافته، من بدء إظهار الدعوة إلى مرضه الذي توفي فيه.

كان الإمام أفضل الناس وأمثلهم بعد رسول الله ﷺ لا يبلغ شأوه أحد من الصحابة، ولم يكن يوم ذاك رجل أليق بزعامة الأمة وقيادتها منه.

غير أنّ قريشاً قد تمألأت على تداول الخلافة في قبائلها، واشترأت إلى ذلك أطماعها فتصافق الأغلب منهم على تناسي النصّ، وأجمعوا على صرف الخلافة من أول أيامها عن وليّها المنصوص عليه.

نعم تصافقت مع عليّ عليه السلام ثلة جليلة من الشخصيات البارزة من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان فبقوا على منهاج نبيّهم ولم يرضوا إلاّ بولايته وخلافته التي صدع بها نبيّهم ﷺ في حياته، ولم يبايعوا غيره ونصروا إمامهم بتضحية نفوسهم وبذل أموالهم وقد حفظ التاريخ أسماءهم وما لهم من مواقف، غير أنّ شيعة عليّ تحفظاً للوحدة والوئام خطوا خطوة إمامهم من ترك التعرّض لتقمصي الخلافة، والمماشاة معهم في مهامّ الأمور ومصالح الدين والمسلمين.

ولم ير الإمام بدءاً لحفظ مصالح الدين من تسليم الأمر إلى المجليين على الخلافة فلزم عقر داره مدّة تربو على خمسة وعشرين عاماً إلى أن رجعت إليه الخلافة، فتصافقت على قيادته وزعامته جبهة الأنصار والمهاجرين وألقوا إليه مقاليد الخلافة، فأحيا الإمام عليه السلام سنّة النبيّ الأعظم ﷺ في عدله وإنصافه ومساواته بين الناس ولم يكن لأحد فيه مطمع، ولا عنده هواده، ولم يكن يُقيم وزناً لغير الحق، ولم يحكم بين الأمة إلاّ بالحق والعدالة، وهذه الحكومة الإلهية وإن لم تطل أيامها ولم تتجاوز خمسة أعوام، وانتهت باغتياله عليه السلام إلاّ أنّها كانت مثلاً نموذجياً لحكومة الحق والعدالة والمثل الراقية، وهذه خطبه ورسائله توقفنا على أصالة رأيه وسداد منطقته وعدله.

والإمام مفخرة من مفاخر المسلمين على الإطلاق، لا بل الإنسانية جمعاء، وليست الشيعة إلا من تابع الإمام وشايعة في أقواله وأفعاله، وما أُطلق لفظ الشيعة على هذه الفئة إلا لمشايعتهم الإمام فيما كان يأخذ ويذر.

فالإمام عليّ أول الأئمة الاثني عشر، ويليه الحسن بن عليّ، فالحسين بن عليّ، فعلي بن الحسين، فمحمد بن عليّ، فجعفر بن محمد، فموسى بن جعفر، فعلي بن موسى، فمحمد بن عليّ، فعلي بن محمد، فالحسن بن عليّ، فمحمد بن الحسن عليه السلام هؤلاء أئمة الشيعة وقادتهم، نفتبس من أنوارهم، ونهتدي بهداهم، وقد حُفِظَت تواريتهم وآثارهم ودوّنت أحاديثهم وما روي عنهم.

اتفقت الشيعة على أنّ الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة، إمّا ظاهراً مشهوراً أو غائباً مستوراً يسلك بالمجتمع طريق المكارم، ويرفع لهم أعلام الهداية، ويربّيهم ويرشدهم إلى صراط الحقّ، وتلكم الحجج في عامّة الأدوار تمثّل إمّا في نبيّ أو وصيّ نبيّ، هذا منهج الشيعة تسير عليه في أبحاثها الكلامية، وتبرهن عليه بالوجوه العقلية والنصوص المتضافرة، كما وتعتقد أنّ الإمام الثاني عشر عليه السلام آخر الأئمة حيّ يرزق، منحه الله من العمر أطوله، وليس ذلك في عقيدة الشيعة بجديد، فقد قالت جمهرة المسلمين بأنّ المسيح حيّ يرزق بعد مرور عشرين قرناً على ميلاده لحدّ الساعة هذه، وليس على الله بعسير فهو القادر على كلّ شيء فله أن يمنح عبداً من عباده أيّ قدر شاء من العمر، فلا قُدرة الله متناهية ولا طول العمر محال في نفسه، ولا الأصول المحرّرة في علم الحياة تعانده وما جاء العلم لحياة البشر بحدّ لا يتجاوزه.

وقد أدّخره الله ليوم يتظاهر فيه الزمان بالجور والعدوان، ويشاع فيه القتل وسفك الدماء والفساد ويحيق بالمجتمع ألوان العذاب والبلاء حتّى تضيق بهم الحياة.

غير أنّ هذه المصائب والمكاريه تهيئ المجتمع وتدفعه إلى ثورة عارمة ضدّ الظلم والعدوان تقلع وتقطع جذور الجبابرة عن أديم الأرض إلى أن ترفرف أعلام العدل والسلام في شرق الأرض وغربها وهذه الثورة الإلهية الموعودة التي تغير الزمان وأهله ستتحقق بإذن الله بقيادة آخر الخلفاء من أئمة الشيعة فيملاً الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

وعقيدة الشيعة في الإسلام أنّه ليس دين رهبانية وتزمت ولا ديناً يصب اهتمامه على النفعيّة والانتهازيّة والعمل غير المشروع وإنّما هو دين انطلاق مع المثل الراقية وأصول الحياة. ودونك بيان عصارة عقائد الشيعة تحت أصول ثلاثة:

عقايد الشيعة

الأصل الأول: التوحيد

أقامت الشيعة براهين قيّمة على أنّه تعالى واحد لا شريك له ولا نظير ولا شبيه له لم يلد ولم يولد وهي تكافح كلّ لون من ألوان الشرك وأيّ انحراف عن صراط التوحيد.

أجمعت الشيعة على أنّ العالم مخلوق لله ومصنوع له لم يشاركه فيه أحد من خلقه، ولم ينازعه أحد في ملكه ولا خالق إلاّ الله. وهذا الأصل هو الذي أرشدهم إلى القول بأنّ كلّ ما في الكون من حقير وخطير ليس فيه إلاّ الخير والصلاح وأنّ كلّ انحراف وفساد فهو من فعل الإنسان .

اتّفقت الشيعة على تنزيه الله تبارك وتعالى عن الجسم ولوازم الجسمانيّات وأنّه تعالى فوق المادّة والمادّيات، فليس هو في حيّز ولا يحيط به شيء، وعلمه قد أحاط بكلّ شيء، وهو أقرب إلى عبده من جبل الوريد، بصير سميع لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهو محيط بكلّ الأزمنة والأمكنة، فالماضي والمستقبل والعالي والداني عنده سواء، والموجودات بهويّاتها وحقائقها الخارجيّة حاضرة لديه منكشفة له أتمّ الانكشاف، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

الشيعة توحد الله أتمّ التوحيد، فالله جلّ وعلا عندهم بسيط لا جزء له؛

حتى أنّ صفاته الجماليّة كعلمه وقدرته عين ذاته لا زائدة عليها، فليست هاهنا ذات وراء الصفات حتى تكون معروضة لها كما في غيره من الممكنات، وهذا لا يعني خلوّ ذاته سبحانه عن العلم والقدرة كما عليه بعض الفرق الإسلامية، بل يعني أنّ الذات بلغ في الكمال بمكان صار نفس العلم والقدرة. كما أنّه لا حدّ لوجوده فهو أزليٌّ أبديٌّ غير متناه من جميع الجهات.

وهو جلّ وعلا لا يجانس أحداً من مخلوقاته في صفاته وأوصافه، إذ لا سنخية بينه وبين مصنوعاته ولا تشابه بين المتناهي وغير المتناهي. اتفقت الشيعة على أنّ الله هو الغافر لذنوب عباده وزلات خلائقه دون غيره، ولا يشاركه في ذلك أحد، ولا يشفع أحد من أنبيائه وأوليائه إلّا بإذنه.

الأصل الثاني: النبوة وبعثة الرسل

اتفقت الشيعة على أنّ الله تعالى بعث رسله وأنبياءه إلى عباده وهم خيار خلائقه ليهدوهم إلى صراطه ويخرجوهم من ظلام الجهل إلى نور العلم والإيمان، لأنّه لم يخلقهم إلّا للفوز بالسعادة، وقد جبلهم على مؤهلات في أنفسهم تحبّب إليهم الخير والسعادة وتبعثهم إلى الابتعاد عن الظلم والانحراف وما شابه ذلك من مساوي الأخلاق.

ثمّ إنّ تعالى عزّز الفطرة وكمّلها يبعث رسله وقادة هداها، وأمرهم بإبلاغ أحكامه ونصح خلائقه حتى يتسنّى لهم الارتقاء إلى قمة الكمال الممكن، وهذا يعني أنّ الشرائع السماويّة لا تفارق الفطرة قط بل تماشيها، وكلّ ما يطرق سمعك ممّا هو منسوب للدين و تتجاف عنه الفطرة فاعلم أنّه ليس من الدين وأنّه مختلق مصنوع.

أجمعت الشيعة على أنّ ما تحمّلت الرسل من المحن والمكاره وما أصابهم في

جنب الله من الأذى لم يكن لفداء أمتهم وتأمين أتباعهم مما اقترفوا من ذنب وارتكبوا من خطيئة، بل كان لمرضاة الله وخدمة المجتمع، وقد نوه القرآن على ذلك غير مرة.

تعتقد الشيعة أنّ الأنبياء والرسل صفوة الناس وخيرتهم وأفضلهم وأنه يجب على كل إنسان تكريمهم، غير أنّ أيدي السوء عبثت بالكتب السماوية ما سوى القرآن، فحرّفت منها ما كان حقاً لا شائبة فيه، وثبتت فيها خرافات هي أشبه بقصص القصاصين لا تنسجم مع المنطق السليم.

والعصمة عند الشيعة أصل مبرهن عليه، والأنبياء عندهم معصومون من الذنوب نزيهون عن الخطأ والنسيان.

أجمعت الأمة الإسلامية على أنّ نبيّ الإسلام أعظم الأنبياء منزلة، وهو خاتمهم، ودينه خاتمة الشرائع.

الأصل الثالث: المعاد

وهو أصل إسلامي خطير، وقد اتّفقت السنّة والشيعة على أنّ الله يحيي الناس يوم القيامة ويضع الموازين القسط فلا يُظلم أحد مثقال ذرة، ووفيت كلّ نفس ما عملت، فإمّا إلى النعيم الدائم وإمّا إلى العذاب المقيم.

مميزات الشيعة

هذه الأصول الثلاثة تشترك فيها عمّامة فرق المسلمين غير أنّ للشيعة أصولاً اختصّت وانفردت بها عن سائر الفرق وهي:

١. الإمامة والخلافة: الإمامة كما قلنا منصب إلهي يمنحه الله لخاصّة عباده وهم الأئمة الاثنا عشر خلفاء الله وخلفاء نبيه ﷺ.

٢. العدل: اتفقت الشيعة على عدله تعالى فلا يظلم عباده مثقال ذرة لأن الظلم ينشأ إما عن الجهل بقبحه وإما عن الحاجة إليه وكلاهما آية النقص وهو تعالى منزّه عن كلّ ذلك لكمالهِ المطلق وعلى هذا الأساس قالت الشيعة ببطلان الجبر في أفعال العباد وأنّ المكلفين غير مجبورين في أفعالهم وأقوالهم، خلقهم الله مختارين في ما يفعلون ويتركون غير مضطّرين في طاعة أو معصية، وجعل الإنسان تامّ التصرف في ما يسعد به ويشقى، وأنه ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(١) و ﴿أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٢) و ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٣).

لكن إخواننا أبناء السنة لما لم يعترفوا بالحسن والقبح العقليّين ولم يعتقدوا بأنّ النفس تدرك حسن العدل وقبح الظلم، قالوا بأنّ ما حسّنه الشرع فهو حسن، حتّى لو أمر بالظلم والعدوان، وكلّ ما قبحه الشرع فهو قبيح حتّى لو نهى عن العدل والإحسان، وآلت النتيجة أنّه لا مفهوم للحسن والقبح ولا للعدل والظلم بالنسبة إليه تعالى.

المصادر الدينية للشيعة

الشيعة كسائر الفرق الإسلامية تعتمد على كتاب الله العزيز، الذي هو مقياس يوزن به الحقّ والباطل، وتعتمد على السنة المأثورة عن النبي ﷺ عن طريق الثقات وعلى ما اتفق عليه المسلمون في الأجيال السالفة والحاضرة، وعلى الأحاديث المأثورة عن الأئمة الاثني عشر الذين هم أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وعنه أخذوا علومهم ومعارفهم بلا واسطة أو بواسطة آبائهم.

والمصدر الأخير عند الشيعة من أهمّ مصادر التشريع تعتمد عليه في غالب شؤونها، وهم يتمسكون في حجّة هذا المصدر بقول الرسول الأعظم -: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليّ»

الحوض» فجعل أئمة الشيعة أعدل الكتاب وقرناءه، والشيعة تتمسك بأهداب ولائهم ويروون أقوالهم وأفعالهم كقول نبيهم ﷺ وفعله وتقريره.

والشيعة تعتمد على ما يحكم به العقل حكماً باتاً وهذه المصادر الأربعة: (كتاب الله، وسنة رسوله، وما أجمع عليه المسلمون وما حكم به العقل) هي مدارك الشيعة ومصادر أحكامها ولا تعتمد على الأقيسة والاستحسانات وغيرها من الوجوه الظنية.

كما يجب على من تصدّى للإفتاء والقضاء استنفاد وسعه في استنباط الحكم الشرعي من الأدلة المذكورة، ولا يجوز له أن يرتحل الأحكام ارتجالاً خارجاً عن المصادر المذكورة.

إنّ باب الاجتهاد عند الشيعة مفتوح على مصراعيه إلى يوم القيامة، ولا يختص بفرد دون فرد أو جمع دون جمع، والشيعة لا تسلب العقول المستنيرة حرّيتها ولا تلزمها بالرجوع إلى مجتهد خاص، ومن بلغ رتبة الاجتهاد عندهم حرّم عليه العمل بالتقليد ولزمه العمل وفق رأيه سواء وافق سائر المذاهب أم خالفها، والشيعة في هذا الجانب تخالف السنّة في انسداد باب الاجتهاد بعد الأئمة الأربعة.

بيد أنّ السنّة والشيعة وإن اختلفوا فيما تقدّم من الأمور فأنهم لا يختلفون في أصول الأحكام الإسلامية وأمّاتها وهذه الفوارق لا تخرجهما عن كونها أمة واحدة وذات دين واحد.

الإسلام عند الشيعة شريعة سهلة سمحة تحقق سعادة الإنسان في جميع نواحيه وفي كافة أدوار حياته وفيه مرونة تماشي جميع الأزمنة والأجيال.

دوّنت الشيعة أصول الإسلام وفروعه وما يرجع إلى المسؤوليات الفردية والاجتماعية وتحملوا في سبيل ذلك جهوداً مضنية وقد اضطروا في هذا المضمار (الاجتهاد في الأحكام الفرعية) إلى تأسيس علوم تعدّد مبادئ له حيث لا يتمّ

الاجتهاد إلّا بها.

وها نحن نشير إلى قليل من كثير من الفروع التي تعدُّ أسساً وأركاناً للإسلام:

١. الصَّلَاة: وهو ركن عظيم إسلامي، فيجب على كلِّ مسلم أن يقيم الصلوات اليومية في أوقاتها الخاصة إلى الجهة (القبلة) التي نصَّ عليها القرآن وأطبق المسلمون عليها.

٢. الصوم: يجب على كلِّ مسلم أن يصوم شهر رمضان كلّه بادئاً برؤية الهلال وخاتماً بهلال شوال.

٣. الحجّ: يجب على كلِّ مسلم مستطيع أن يحجَّ بيت الله الحرام ويجتمع مع سائر إخوانه في ذلك المشهد العظيم الذي ينعقد كلّ سنة مرّة واحدة.

٤. الزكاة: وهي عند الشيعة ركن اجتماعي بارز، لها صلة وثيقة بسياسة المال في الإسلام، وهي حقُّ الجماعة في عنق الفرد وضريبة إسلامية على عاتق المكلفين - وقد حدّد لها الإسلام نصاباً وجعل لها شرائط، وأوضح مواضع صرفها، التي منها الفقراء والمساكين وفي «سبيل الله» وهو مصرف عامٌ تحدّده الظروف، ومنها تجهيز المجاهدين وعلاج المرضى وكلّ ما يمتّ لصالح الإسلام والمسلمين بصلة.

٥. الخمس: وهو ضريبة إسلامية أخرى تتعلّق بأموال المسلمين وله شرائط وحدود محرّرة في مواضعها.

٦. الجهاد: وهو ركن من أركان الإسلام، فيجب على كلّ مسلم جهاد العدو وطرده إذا حاول القضاء على الإسلام بتضحية النفوس والأموال.

٧ و ٨. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هما لدى الشيعة من أفضل القربات أساسهما الدعوة إلى الحقّ ونبذ الباطل ومكافحة الفساد بألوانه المختلفة الفردية والاجتماعية على ضوء العلم والمنطق الصحيح وهو وظيفة الشعب المسلم كلّه ولا يختصّ بطائفة دون أخرى.

نماذج من الوظائف الأخلاقية والاجتماعية عند الشيعة

المسلم من يكون متذكراً لخالقه، صادقاً في أقواله، أميناً في أفعاله، محباً لإخوانه، مستطلعاً عن أحوالهم، معيناً لهم بما في وسعه بنفسه وماله، معتقداً بأن المسلم أخو المسلم وأن لكل أخ على أخيه حقوقاً متقابلة متساوية والأخوة من أوثق الوشائج بين أفراد الإنسان، ولذلك أسماهم كتاب الله إخوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١).

الإنسان عند الشيعة يرجع بجميع ألوانه وأنسابه إلى أصل واحد لا فضل لفرد على آخر بلون أو نسب أو جنس إلا بالتقوى والإيمان، وأن الناس جميعاً كأسنان المشط سواسية في ما لهم وما عليهم.

وقد أفرد غير واحد من علماء الشيعة كتباً فيما يرجع إلى الوظائف الفردية والاجتماعية وبحثوا في دقائق الحقوق صغيرها وكبيرها، وقد توسعوا في التحقيق، فلم يدعوا في القوس منزعاً حتى حرّروا حقوق الحيوان على مقتنيه، حين لم يكن لهذه البحوث في الجوامع الغربية وزن ولا قيمة، وقد احتذوا في ذلك حذو صاحب الرسالة ﷺ وأهل بيته ﷺ.

يجب على كلّ مسلم عند الشيعة أن يعوّل نفسه و عياله، ويسعى لتأمين قوته ولا يجوز له ترك السعي، نعم يجب عليه في سعيه مراعاة أصول الفضيلة والأخلاق ولا يجوز له الاسعاف والركض إلى كلّ مظنة ولو كانت ساقطة، فإنّ شرف النفس فوق شرف الترفّه في المعاش.

اتفقت الشيعة على أنّ المسكرات ولحم الخنزير والميسر والربا وكلّ ما يمسّ بكرامة الإنسان حرام إلّا أنّ المحرّمات غير منحصرة فيما مرّ.



المواسات والتعاون من أهمّ الأصول الاجتماعية لدى الشيعة، إذ بالتعاون يقوم صرح الاجتماع، وقد ندب إليه الإسلام لما قال ﷺ: «من أصبح ولم يهتمّ بأمر المسلمين فليس بمسلم».

إنّ الشيعة كسائر الفرق الإسلامية يجعلون للإنسان و كلّ ما يمت إليه وزناً وقيمة وبالأخصّ لدمه، فمن قتل نفساً أو سفك دماً أو جرح إنساناً، فقد جعل الله لوليّه سلطاناً إمّا أن يقتصّ منه أو يأخذ الدية المقرّرة.

ويهتم المذهب الشيعيّ بفرض نظم خاصّة بالنسبة إلى الأدب البيتي والعائليّ فقد فرض على الرجل المسلم القيام بتربية أولاده وتهذيبهم وأوصى المسلمين بمواصلة الأقارب و الأرحام سواء القريب منهم أو البعيد، وعدّ تجافي القريب عن قريبه من قطع الرحم والانحراف عن الجادة المنشودة للإسلام، كما ركّز على حقوق الجار وآداب الجوار وتوثيق الصلة بين أفراد المجتمع بالدعوة للألفة والوئام.

اتفقت الشيعة والسنة على أنّ الإسلام نهى عن الاسترسال في الشهوات، غير أنّه أباح لكلّ مسلم أن يتزوّج بأكثر من واحدة ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ لكن

مشروطاً بشروط كثيرة لا يتسنى لكل إنسان تحمّلها.

وتتصوّر الدواعي الدافعة للإنسان إلى تعدّد الزوجات في عدة أمور، فربّما يكون الرجل شبقاً فلا تقوم الزوجة الواحدة بحاجته، أو تكون الزوجة خادمة الشهوة، أو تكون ناحلة الجسم، أو تكون عقيماً، إلى غير ذلك من العوامل الدافعة إلى تعدّد الزوجات.

ولا نزال نلمس من الغربيين روح استنكار للشرقيين في تزوّجهم لأكثر من زوجة واحدة ظناً منهم أنّ ذلك إرخاص لحقوق المرأة في حين أنّ الواقع خلافه .

فالمسلم لثقته بنفسه في إقامة العدل والمساواة يقدم على التزوُّج بأكثر من واحدة، على أنّ الروابط المشروعة لا تقاس بالسفاح ومطاردة النساء كما تلوح على الجبل المائع في عصرنا الحاضر.

اتّفقت الشيعة على أنّه يلزم على كلّ مسلم أن يساهم مع سائر الأمة في المسائل الاجتماعية والسياسية فإنّ الإسلام ليس دين رهبانية.

الرسالة السابعة

الشيعة وعلم الكلام عبر القرون السبعة

إنّ الذي أكّد عزمي على الكتابة في هذا الموضوع، ما وقفْتُ عليه في كلام المستشرق «آدم متز» مؤلف كتاب «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع»^(١)، وقد خصّ الفصل الخامس من كتابه بالشيعة، ولم يكن عنده من كتبهم إلّا مخطوط علل الشرائع للصدوق (٣٠٦-٣٨١هـ) وقد عثر عليه في مكتبة برلين، ولم يذكر في هذا الفصل شيئاً مهماً عن هذه الطائفة سوى المعارضاتِ والفتنِ التي دارت بين السنّة والشيعة في القرن الثالث والرابع في عاصمة الخلافة «بغداد» وغيرها، وقد جمع تلك المعارضات بجد وحماس، وكأنّه يريد أن يلخّص الشيعة في إثارة الفتنة والفساد، كأنّهم لم يلعبوا دوراً كبيراً في الدين والأدب، ولم يشاركوا المسلمين في بناء الحضارة الإسلامية، وإن أشار في ثنايا كتابه إلى بعض الشخصيات اللامعة منهم كنصير الدين الطوسي، وليته يقتنع في ترسيم تلك الطائفة بما ذكر، ولم يتهمهم بكونهم تبعاً للمعتزلة في الأصول والآراء، وأنّه لم يكن لهم في القرن الرابع مذهب كلامي مدوّن، وإليك نصّ كلامه:

١. نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريّدة، وله طبعات، منها الطبعة الثالثة التي ننقل منها، وحاول المؤلف أن يستجّل حضارة الإسلام في القرنين الثالث والرابع مع العناية الخاصة بالقرن الرابع ليكون كتابه مقابلاً ومشابهاً لما كتب عن حضارة عصر النهضة في أوروبا، (لاحظ مقدمة المترجم، ص ١).

«إن الشيعة هم ورثة المعتزلة، ولا بدّ أن تكون قلة اعتداد المعتزلة بالأخبار الماثورة مما لائم أغراض الشيعة، ولم يكن للشيعة في القرن الرابع (٣٠٠-٤٠٠) مذهب كلامي خاص بهم، فتجد مثلاً أنّ عضد الدولة (المتوفى ٣٧٢هـ) وهو من الأمراء المتشيعين يعمل على حسب مذهب المعتزلة، ولم يكن هناك مذهب شيعي للفاطميين، ويصرّح المقدسي بأنهم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول، وعلى العكس من هذا نجد الشيعة الزيدية يرتقون بسند مذهب المعتزلة حتى ينتهي إلى علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»، ويقولون: إنّ واصلاً أخذ عن محمد بن علي ابن أبي طالب، وأنّ محمداً أخذ عن أبيه، و الزيدية، يوافقون المعتزلة في أصولهم إلّا في مسألة الإمامة، ويدلّ على العلاقة الوثيقة بين المعتزلة والشيعة أنّ الخليفة القادر جمع بينهما حينما نهى في عام (٤٠٨) عن الكلام و المناظرة في الاعتزال والرفض (مذهب الشيعة)، والمقالات المخالفة للإسلام. ثم إنّ الطريقة التي سار عليها ابن بابويه القمي أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع الهجري في كتابه المسمّى بكتاب «العلل» تذكرنا بطريقة علماء المعتزلة الذين يبحثون عن علل كلّ شيء.^(١)

إنّ في كلام الأستاذ موارد للتأمل والنقاش:

١. اتّهام الشيعة بقلّة الاعتداد بالأخبار الماثورة كقلّة اعتداد المعتزلة بها.

يلاحظ عليه: أنّ الشيعة أوّل من اهتمّ بتدوين الحديث ودراسته ونقله حينما كانت كتابة الحديث ممنوعة ونقلها أمراً مكروهاً يعرف ذلك من درس تاريخ الحديث عند الشيعة، ولهم في كلّ قرن من القرون الأربعة - التي يكتب هو عن القرن الأخير منها - محدّثون كبار، منهم: الشيخ الصدوق الذي وقف على كتابه

«علل الشرائع»، فقد ألفت عشرات الكتب والرسائل في الحديث^(١)، وقد ألفت الشيعة في عصر الإمام علي عليه السلام إلى عصر الإمام العسكري عليه السلام (المتوفى ٢٦٠هـ) في حقل الحديث ما يتجاوز الألوف يقف عليها من سبر الكتب الرجالية^(٢)، وبما أنّ الموضوع واضح جداً لا نطيل الكلام فيه.

٢. إنّ عضد الدولة وهو من الأمراء المتشيعين يعمل على حسب مذهب المعتزلة.

يلاحظ عليه: أنّه لم يكن للمعتزلة آنذاك مذهب فقهي حتى يعمل على وفقه أمير الشيعة في عصره، والاعتزال مذهب كلامي لا مذهب فقهي. فلا صلة له بالعمل، وتفسيره بالاعتقاد بمذهب المعتزلة يناقض كونه من المتشيعين، لأنّ الطائفتين تفرقان في مسألة الإمامة افتراقاً واضحاً، وتخصيصه بالاعتقاد بسائر الأصول غير الإمامة كما ترى.

٣. إنّ الزيدية يرتقون بسند مذهب المعتزلة إلى علي بن أبي طالب، ويقولون: إنّ واصلاً أخذ عن محمد بن الحنفية.

يلاحظ عليه: أنّ واصلاً ولد عام ٨٠هـ - أو بعده بقليل - و توفّي محمد بن الحنفية ذلك العام أو بعده بسنة، فكيف يصحّ له أن يأخذ عنه واصل بن عطاء؟! والصحيح أن يقول: إنّ واصلاً أخذ عن أبي هاشم: عبد الله بن محمد ابن الحنفية وهو عن أبيه محمد، عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام^(٣).

١. رجال النجاشي: ٢/ ٣٢٥ برقم ١٠٦٦. ٢. راجع الوسائل: ٤٩/ ٢، الفائدة الرابعة.

٣. لاحظ ذكر المعتزلة للبلخي ٦٨، طبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار: ٢٣٤، وطبقات المعتزلة لابن المرتضى في ما نقله عن الحاكم، وأمّا ما ذكره هو نفسه أولاً فقد تحبّط فيه كتخبّط ذلك المستشرق، قال الحاكم: إنّ واصلاً وعمرو بن عبيد أخذوا عن عبد الله بن محمد، وعبد الله أخذه عن أبيه محمد ابن علي ابن الحنفية، ومحمد أخذه عن أبيه علي عليه السلام وعلي أخذ عنه عليه السلام.

٤. إنّ الخليفة القادر منع الطائفتين عن الكلام عام ٤٠٨ هـ.

يلاحظ عليه: أنّ الشيعة والمعتزلة يتوافقان في التمسك بالعقل وتحليل العقائد عن طريق الدليل العلمي، ويخالفون الحنابلة والأشاعرة بالجمود على ظواهر النصوص، وكانوا يناظرون القشريين، ولأجل ذلك منعها الخليفة عن الكلام والجدل، وهذا لا يكون دليلاً على اتّفاقهما في جميع الأصول سوى الإمامة، بل الجامع بينهما هو التعويل على العقل في مجال العقيدة.

٥. إنّ الطريقة التي سار عليها ابن بابويه القمي في كتابه «العلل» تذكّرنا بطريقة علماء المعتزلة.

يلاحظ عليه: أنّ المؤلف وقف على كتاب الصدوق وقوفاً عابراً. فإنّ الصدوق جمع فيه الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وآله حول علل الأحكام ومصالحها الواردة عن طريق الشرع، وأين ذلك من صنّع المعتزلة الذين قاموا بتحليل الأصول الاعتقادية عن طريق العقل وحكموه فيما لا مجال فيه؟ ولأجل ذلك عادوا إلى تأويل كثير من ظواهر الكتاب والسنة التي لا تلائم عقائدهم وأصولهم.

وعلى أية حال، فلنعد إلى كلامه الذي لأجله عقدنا هذا المقال وهو: «إنّ الشيعة ورثة المعتزلة وإنّه لم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهب كلامي خاص بهم».

وقد اغترّ بكلامه هذا بعض من تأخّر عنه من الكتاب، كأحمد أمين المصري في «فجر الإسلام» وغيره وهو الذي وقف على كتاب «الحضارة الإسلامية» باللغة الألمانية، واختار هذا الكتاب للترجمة وشجّع محمد عبد الهادي أبو ريّدة على ترجمته.^(١)

ففي هذا المقال نعالج المواضيع التالية:

١. المنهج الصحيح في تفسير المعارف القرآنية.
 ٢. علم الكلام وعوامل نشأته الداخلية والخارجية.
 ٣. بدايات المسائل الكلامية في القرنين الأول والثاني.
 ٤. الدفاع عن العقيدة والشريعة، وفهرس أسماء متكلمي الشيعة في القرون الأربعة.
 ٥. الجدل المستمر بين الشيعة والمعتزلة.
 ٦. الفوارق الفكرية بين الشيعة والمعتزلة.
- فيقع الكلام في فصول ستة:

الفصل الأول:

المنهج الصحيح

في تفسير المعارف القرآنية

يتميّز الإنسان عن كلّ ذي روح وشعور، بقوة التفكير والتعقل، والجوهرة الفريدة التي بها يهتدي في ظلمات الحياة. فتنظيم المقدمات البديهيّة لغاية الاهتداء إلى حلّ المجاهيل من خصائصه وميزاته، فلو كرّمه ربّه، وحمله في البر والبحر وفصله على كثير ممّن خلق^(١)، فإنّما هو بفضل تلك القوّة التي لها الرئاسة التامة على سائر القوى الجزئية الكامنة فيه.

إنّ الإنسان مهما أسفّ إلى الأمور الدنيّة، فلا يستطيع إخلاء نفسه عن التعقل والاستدلال حتى أنّ الطغمة المنكرة للبرهنة، والداعية إلى الاقتصار على الحسّ والتجربة، تراهم يبرهنون على ذلك بالدليل وبالتالي يطلبون الاستدلال بالاستدلال. وهذا يعرب عن أنّ التفكير وحلّ المجهولات في ظلّ المعلومات من الأمور الفطرية التي لا تنفكّ عن الإنسان في حياته أبداً وإنّ تظاهر برفض القيم العقلية، والاقتصار في الحياة العلمية على مجال الحواس.

١. اقتباس من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء/ ٧٠).

جاء القرآن يدعو الإنسان إلى التفكير والاستدلال المنطقي، ويصدّه عن تقليد الآباء ويحرّر عقله عن الأغلال التي خلفتها له الأجيال الغابرة حتى يكون على بصيرة في حياته وأمر دينه وأخراه، ونسمع هتافه وصراخه ودويّه في آيات كثيرة نقصر منها على ما يلي:

قال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١).

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢)، فإذا كان الشكر هو صرف النعمة في موضعها، فشكر السمع والبصر هو إدراك المسموعات والمبصرات بهما. وشكر الفؤاد، درك المعقولات غير المشهودة الخارجة عن إطار الحسّ به، فمن فتح عينه على الكون الفسيح وتدبّر أسرارهِ ودقائقه فقد شكره، ومن أقفل عقله وفؤاده، فقد كفر بنعمته. فلوح نفس كلّ إنسان يوم خلقت، خالٍ عن كلّ علم وإدراك، ثمّ تنتقش فيها الأشياء والمعلومات شيئاً فشيئاً عن طريق الحسّ والعقل.

وقال سبحانه حاكياً عن المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ * قُلْ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٣).

وهذا ديدنه في غير واحد من الآيات، اكتفينا بها ذكر، روماً للاختصار.

١. النحل: ١٢٥.

٢. النحل: ٧٨.

٣. الزخرف: ٢٣-٢٤.

إِنَّ الْقُرْآنَ يَخَاطِبُ الْعَقْلَ وَيَدْعُوهُ إِلَى التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ، وَيَخَاطِبُ الْقَلْبَ وَالضَّمِيرَ وَيَدْعُوهُ إِلَى التَّدَبُّرِ فِي مَا حَوْلَهُ مِنَ الْأَدْلَةِ النَّاطِقَةِ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ تَرَى أَنَّ يَسْتَعْمَلُ مَادَّةَ الْعَقْلِ بِصُورٍ مُخْتَلِفَةٍ «٤٧» مَرَّةً، وَالتَّفَكُّرَ كَذَلِكَ «١٨» مَرَّةً، وَاللَّبَّ «١٦» مَرَّةً، وَالتَّدَبُّرَ «٨» مَرَّاتٍ، وَالنَّهْيَ مَرَّتَيْنِ، وَبِذَلِكَ يَرْفَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَضِيضِ الْجَهْلِ إِلَى أَوْجِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ.

إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى التَّفَكُّرِ وَالْبَرْهَنَةِ بَلْ طَبَّقَهَا فِي غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْعَقِيدَةِ وَالتَّشْرِيعِ، فَأَثْبَتَ مَقَاصِدَهُ بِنَاصِعِ بَيَانِهِ، وَسَاطِعِ بَرْهَانِهِ نَآتِي بِنُمُودَجَيْنِ مِنْهَا.

الأول: قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * ءَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّازِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * ١١﴾.

فالله سبحانه يذكر في هذه الآيات شواهد ربوبيته، وأنه هو الخالق والمدبر، ولا خالق ولا مدبر سواه، وأن من يزعم أن هناك خالقاً أو مدبراً غيره، فقد قصر فهمه أو قصر في تفكيره.

فما أروع بيانه وأتقن برهانه، يذكر فيها أمر الخلق والزرع والماء والنار ويذكر دور الإنسان فيها، فأمره في الأول، لا يزيد على أن يودع الرجل ما يمني، رحم امرأة ثم ينقطع عمله وعملها، فالعقل يحكم بأن هناك قدرة غيبية تأخذ في

العمل، تعمل في هذا الماء المهين، في تنميته وبناء هيكله ونفخ الروح فيه. وأمره في الثاني لا يزيد على الحرث وإلقاء الحب والبذر الذي هو من صنعه سبحانه ثم ينتهي دوره فلا يحصى عن وجود قدرة تحميه تحت التراب والطين وتجعله سنبلاً أو سنابل فيها حبات كثيرة.

وأما الماء فليس للإنسان فيه أي دور لكنه أصل الحياة وعنصرها، لا تقوم إلا به، فمن الذي خلقه وأنزله من المزن وأسكنه في الأرض، ومثله النار فليس له فيها شأن سوى أنه يوقدها، ولكن من الذي خلق وقودها وأنشأ شجرها الذي توقد.

فقد عرض الذكر الحكيم هذه الأمور لغاية الاهتداء بها إلى الحقيقة التي تنتهي إليها كافة الحقائق والتي ينحصر بها التأثير في هذه الظواهر الكونية ولأجل ذلك ختم الآيات بقوله:

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

فكأن عالم الكون عُملة لها وجهان: صورة حسيّة لامعة تخدع البسطاء الذين يقفون عليها ولا يتجاوزون عنها إلى غيرها، وصورة غيبية التي هي روحها وبها قوامها، وهي التي خلقها واتقنها، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

الثاني: قال سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ* أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾^(٢) فلو فسرنا «الشيء» في الآية بالسبب والعلّة فالجزء الأوّل من الآية يشير إلى برهان الإمكان الذي يقوم على لزوم سبب موجب

١. النمل: ٨٨.

٢. الطور: ٣٥-٣٦.

لخروج الشيء من العدم إلى الوجود، والجزء الثاني منها يشير إلى بطلان كونهم خالقين أنفسهم، الذي يستقلّ العقل ببطلانه قبل أن يستقلّ ببطلان الدور اللازم عليه.

ومن سبر هذه الآيات وتدبر فيها يقف على مدى صحة قوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.^(١)

فيتخلص لنا من عرض هذه الآيات، أن القرآن، يحثّ على المعرفة من طريق الحسّ والعقل، ويدعو إلى استغلالهما في مجاليهما، فالاعتصار على الحسّ، بخس وخسران، كما أنّ الاكتفاء بالعقل وإلغاء الحسّ، مغالاة في حقّ العقل. فاليمين والشمال مضلّة، والطريق الوسطى هي الجادة^(٢). فيستهدى إلى ما في القرآن من العلوم والمعارف القرآنية الباحثة عن ذاته سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله، بالحسّ والعقل، فهما جناحا الإنسان في سماء العلم والمعرفة ومجال التدبّر والتفكير قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.^(٣)

المعارف القرآنية بين التعطيل والتشبيه

إنّ هناك من حبسوا أنفسهم في اطار المادة والماديات وجدران الزمان والمكان فتجدهم لا يأنسون بالمعارف العقلية إلّا عن طريق التشبيه والمحاكات، فصعب عليهم فهم المعارف القرآنية، وعسر عليهم تصوّر أنّ في صحيفة الوجود

١. فصلت: ٥٣.

٢. لاحظ نهج البلاغة: الخطبة ١٦.

٣. ص: ٢٩.

موجوداً ليس له جسم ولا جهة ولا مكان، ولا يحويه زمان ولا مكان، ولا يوصف بالكيف والكم، وما هذا إلا لأنهم أساءوا المادة والجسمانية، فوقعوا فريسة لمخالبة التجسيم، وتورطوا في مخاطر التشبيه، فصاروا من المشبهة والمجسمة لا يتورعون عن وصفه سبحانه بكل ما توحى إليهم القوة الخيالية الأسيرة لعالم الحس والمادة، فأثبتوا لله سبحانه يداً ورجلاً وعيناً وغير ذلك مما جاء في الذكر الحكيم، وفسروها بالمعاني الفردانية الملزمة للتجسيم، وكأنهم لم يسمعو قول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، أو لم يسمعو قول الله سبحانه: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢).

وفي مقابل هؤلاء، المعطلة^(٣)، وهم وإن تورعوا عن التجسيم والتشبيه ولكنهم عطّلوا العقول عن المعارف بحجة أن البشر أعطي العقل لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية، فمن شغل ما أعطي لإقامة العبودية بإدراك الربوبية فاتته العبودية ولم يدرك الربوبية.^(٤)

وكأن القائل يفسر العبودية بالقيام والقعود، والإمساك والصيام التي هي من واجبات الأعضاء، وغفل عن أن لها ركناً آخر يرجع إلى العقل واللب، فتعطيل العقول عن معرفة المعبود، بالمقدار المستطاع تعطيل لإقامة العبودية أو لجزئها، فلو اقتصر الإنسان في إقامة العبودية على الجزء الأول من دون إدراك ما للمعبود من صفات الجمال والجلال، لكانت عبوديته كعبودية الحيوان والنبات والجماد، بل تكون أنزل منها. قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا

١. الشورى: ١١.

٢. الحج: ٧٤.

٣. المعطلة في مصطلح الأشاعرة هم المعتزلة لتعطيلهم الذات عن التوصيف بالصفات. و المقصود في المقام غير هؤلاء بل الذين عطّلوا العقول عن المعرفة على النحو الذي جاء في المتن.

٤. رضا نعتان: علاقة الإثبات والتفويض: ٣٣، نقلاً عن الحجة في بيان المحجة.

لَمَا يَسْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾.

فالحجر يستشعر بعظمته سبحانه حسب قابليته، ولكن الإنسان تُفرض عليه تلاوة كتاب الله سبحانه ثم السكوت عليه.

قد ورد في الذكر الحكيم مسائل، لا يحيط بها الحس، ولا تقع في إطار الطبيعة، وليست الغاية من طرحها، هو التلاوة و السكوت حتى تصبح تلاوة الآيات لقلقة لسان، لا تخرج عن تراقي القارئ بدل أن تتسرب إلى صميم الذهن وأعماق الروح.

وإن كنت في ريب من وجودها، فلاحظ الآيات التالية:

١. ﴿فَإِنَّمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾. (٢)

٢. ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. (٣)

٣. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾. (٤)

٤. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. (٥)

٥. ﴿مَا أَتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾. (٦)

١. البقرة: ٧٤.

٢. البقرة: ١١٥.

٣. الحديد: ٣.

٤. الحديد: ٤.

٥. الحشر: ٢٣.

٦. المؤمنون: ٩١.

٦. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١).

إلى غير ذلك من الآيات الواردة حول ذاته وصفاته وأفعاله، التي هي من أمّهات المعارف القرآنية.

فلرواد العلم و المعرفة التدبّر والتفكّر فيها من خلال الاستعانة بالقضايا البديهية والنظرية المعتمدة والتدبّر في الآيات الواردة في هذا الشأن، وبما أنّ المقدمات بديهية الصدق أو قطعية لدى العقل، والآيات الواردة حول موضوع واحد خالية عن التناقض والاختلاف، تكون النتيجة أمراً قطعياً وحجة بين الإنسان وربّه.

إنّ تعطيل العقول عن التدبّر فيها إسدال الستار على المعارف القرآنية، وخسارة عظمى للعلم وأهله، وعدم خوض السلف من الصحابة والتابعين، لا يكون دليلاً على حرمة الخوض، وليس السلف قدوة في التروك لو سلّمنا كونهم قدوة في الأفعال، كما ليس الخلف بأقلّ منهم في صحّة الاقتداء.

القول الحاسم في المقام

إنّ هؤلاء أي الذين يحرمون الخوض في المعارف العقلية، ويقولون: إنّ واجبنا هو الإيمان والإقرار أو التلاوة والسكوت، خلطوا مرحلة الإيمان القلبي المطلوب من جميع الناس، بمرحلة الفهم والنظر العقلي الذي لا يقوم به إلّا الأمثال من الناس، وصاحب المواهب والمؤهلات الفكرية الخاصة، وما ذكره راجع إلى المرحلة الأولى فإنّ الإيمان المنقذ من الضلال والعذاب، هو الاعتقاد بصحّة ما جاء في الكتاب العزيز حول أسمائه وصفاته وأفعاله، حتى في مجالات

الصفات الخبرية من اليد والوجه والعين والاستواء على العرش، وبما أنّ الأثرية الساحقة لا يستطيعون فهم ما فيها من الدقائق والمعارف وربما يكون الخوض منتهياً إلى ما لا يحمد، كفى لهم الإيوان والإقرار والإمرار والسكوت، وما نقل عن الإمام مالك (المتوفى ١٧٩ هـ): (إياكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله ما البدع؟ قال: أصحاب البدع هم الذين يتكلمون في أسماؤه وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان^(١)). لعلّه ناظر إلى هذه الطائفة الذين لو خاضوا فيها، فسدوا وأفسدوا، ولم يأتوا بشيء.

وأما إذا انتقل إلى المرحلة الثانية أي مرحلة الفهم والدراسة والبحث والنظر وصياغة العقائد في ضوء الكتاب والسنة والعقل، فلا يصحّ له الاكتفاء بالإقرار والإمرار، فإنّ الاستطلاع أمر طبيعي للبشر، وهو أحد الأبعاد الأربعة الروحية له، فلا يمكن كبح جماح فهمه ونظره بحجة أنّ الصحابة والتابعين سكتوا عنه، وكأنّ السلف هم القدوة دون الذكر الحكيم، ودون النبي ﷺ وعترته الذين تكلموا فيها، وأضاءوا الطريق لسالكه، وكأنّ قوة التفكير والنظر والمواهب العقلية المودعة في الإنسان خلقت سدى وبلا غاية.

وهل يمكن أن يفرض على عمالقة الفكر وأصحاب المواهب العقلية أن يقفوا دون هذه المعارف ويطفئوا نور عقولهم وفي التالي يكونوا كأجلاف البيداء لا همّ لهم سوى الأكل والشرب والسير طلباً للماء والعشب؟!!

وعلى هذا فيجب تصنيف الناس على صنفين؛ قابل وغير قابل، مستعدّ وغير مستعدّ، فلو صحّ الحرمان فإنّها للسوقة من الناس دون من أوتي تفكيراً قوياً واستعداداً وقادراً.

١. الدكتور أحمد محمود صبحي، في علم الكلام: ١/ ٢١ نقلاً عن تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، لمصطفى عبد الرزاق: ١٥٥، طبعة ١٩٤٤ م.

ثمّ إنّ كما يجب تصنيف الناس يجب تصنيف المسائل بين ما يمكن للإنسان الخوض فيه والرجوع بفكر صحيح، وما لا يمكن للإنسان دركه وفهمه، فإنّ البحث عن ذاته سبحانه أمر غير ممكن إذ ليس كمثله شيء حتى يعرف الذات به، ولأجل ذلك ورد النهي الأكيد عن البحث والجدال في ذاته، ومثله البحث عن حقيقة الوحي والنبوة، أو عن حقيقة الجنة والنار، إلى غير ذلك من الأمور الغيبية التي لا يلمسها ولا يدركها إلّا نبي يوحى إليه أو إنسان خرج من الدنيا ودخل الآخرة والواجب فيها الإيمان فقط، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(١). فإنّ الإنسان المحبوس في سجن المادة، لا يمكن له درك حقيقتها، وإن كان له البحث عن آثار الوحي والنبوة وخصائصها.

ثمّ إنّ لا محيص للمانعين عن الخوض في المعارف القرآنية بل العقلية على الإطلاق، عن سلوك أحد طريقتين:

١. التلاوة والسكوت والإمرار والإقرار وتفويض معانيها إلى منزلها.

٢. الأخذ بظواهر الآيات الحرفية وتفسيرها بظواهرها الحرفية.

أمّا الأوّل فينتهي إلى تعطيل العقول عن المعارف وبالتالي يتنزّل الإنسان إلى حدّ الحيوان ويكون وظيفة الحكيم العارف المقتدر على درك دقائق التوحيد ورقائقتها نفس وظيفة الجاهل البائل على عقبه، في مجال العقيدة والتفكير، وهو كما ترى.

وأما الثاني فهو ينتهي إلى التشبيه والتجسيم، وأقصى ما عند هؤلاء الذين يأخذون بالظواهر الحرفية هو ضمّ كلمة «بلا كيف ولا تمثيل» إلى مفاد هذه الآيات، فيقولون: إنّ لله يداً ورجلاً وعيناً واستواءً على العرش بنفس المعنى اللغوي، ولكن بلا كيف ولا تمثيل.

يلاحظ عليه أولاً: أنه لم ترد تلك الجملة في نص قرآني ولا سنة نبوية، فمن أين لهم هذه الجملة وتفسير الآيات على ضوءها، أليس الواجب هو تعطيل الفهم، والجمود على ما ورد في النصوص؟ والمفروض أنه لم يرد فيها هذه الجملة.

وثانياً: أن اليد وأضرابها موضوعة حسب اللغة للأعضاء المحسوسة، التي لها هيئات ومواصفات وهي مقوماتها، فإجراؤها على الله سبحانه مع حفظ المقومات، يستلزم التشبيه والتمثيل، ومع عدمها، يستلزم التأويل، فاليد في ﴿يُدْأُ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(١) إمّا مستعملة في اليد المحسوسة فهو مثار التشبيه، وإمّا في غيرها فهو مثار التأويل الذي يفرون منه فرار المزكوم من المسك.

وهذه المضاعفات ناشئة عن الجمود على الظواهر الحرفية والأخذ بالظهور التصوري، دون الظهور التصديقي الذي لا يخالف العقل قيد شعرة في آية من الآيات.

إنّ الدعوة السلفية التي أحدثت ضجة هذه الأيام قد طرحت الصفات الخبرية على صعيد البحث في الآونة الأخيرة، وتصرّ على الأخذ بمعانيها الحرفية، وقد عرفت أنّها تنتهي إلى التجسيم أو التأويل.

ومن المؤسف جداً إنّ أكثر السلفيين كانوا يصرون على الأخذ بحرفية الصفات، وإليك بعض نصوصهم:

١. قيل لعبد الله بن مبارك: كيف يعرف ربّنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة وعلى العرش بائن من خلقه.

٢. وقال الأوزاعي: إنّ الله على عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته.

٣. وقال الدارمي في مقدمة كتابه «الردّ على الجهمية» استوى على عرشه فبان من خلقه.

٤. وقال القرطبي في تفسير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾^(١) وقد كان السلف لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم، والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنّه استوى على عرشه حقيقة.^(٢)

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَىٰ﴾.^(٣)

شبهات عقيمة

إنّ للمانعين عن الخوض في المسائل العقلية شبهات طرحوها أمام السالكين، نذكرها مع التحليل:

١. إذا كان الإنسان قادراً على فهم المسائل، فما معنى قوله سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤). وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زِينٌ فَيَسْتَبِيعُونَ مَا تُشَابَهُ مِنْهُ﴾.^(٥)

٢. إنّ البحث والحوار في المسائل الغيبية يورث الشقاق والتخاصم بين

١. الأعراف: ٥٤.

٢. لاحظ في الوقوف على مصادر هذه الأقوال كتاب «علاقة الإثبات والتفويض»: ٤٨، ٤١، ٦٨،

١١٥.

٣. النجم: ٣٠.

٤. الإسراء: ٨٥.

٥. آل عمران: ٧.

المسلمين، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^(١).

والإجابة عن هذه الشبه واضحة، أما الآية الأولى فَإِنَّ الإنسان مهما بلغ من العلم فعلمه بالنسبة إلى الأسرار الكامنة في صحيفة الكون والوجود، ضئيل جداً، فأين عقله المحدود من العالم اللا محدود؟ فَإِنَّ نسبة ما يعلمه إلى ما لا يعلمه كنسبة الذرة إلى المجرة، فهو لم يعرج من سلم العلم و المعرفة إلا درجات معدودة لا يعتد بها.

وأما الآية الناهية عن اتباع المتشابه: فهي على عكس المقصود أدل، فَإِنَّ الأخذ بحرفية الظواهر فيما يرجع إلى الله سبحانه وصفاته وأفعاله اتباع للمتشابه وإن لم يكن ابتغاء للفتنة، بخلاف ما إذا قلنا بجواز الخوض فَإِنَّ الواجب عندئذ هو إرجاع التشابهات إلى المحكمات وتفسيرها بها، لأنها أم الكتاب كما قال سبحانه: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

وأما الدليل الثاني؛ أعني كون البحث عن المعارف القرآنية مورثاً للشقاق فهو تجاهل بقيمة ذلك العلم، فَإِنَّ الذي يورث الشقاق هي العوامل النفسية الكامنة في ذات المجادل التي تصده عن اتباع الحق فيلقي أشواكاً في طريق الحقيقة. ولو سَلَمَتْ نفسه عن الأهواء لحسم الخلاف وانعدم الشقاق.

إِنَّ الجدل إذا انتهى إلى المراء في الدين، يحرم بلا إشكال، ولكن إذا كانت المجادلة على أساس علمي، ودافع موضوعي، وقصد منها كشف المجاهيل في ظل تلاقي الأفكار، فليس بحرام قطعاً، وعليها بنيت الحضارة العلمية فَإِنَّه من قبيل دراسة العلم ومذاكرته التي أمر بها الإسلام.

إِنَّ الله سبحانه، أمر نبيه بالمجادلة بالتي هي أحسن، وقال: ﴿وَجَادِلْهُمْ

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١﴾.

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. (٢)

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. (٣)

وقد نقل سبحانه احتجاج إبراهيم على عبدة الأجرام السماوية والأصنام الأرضية وقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ﴿- إلى أن قال: -﴾ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. (٤) وقد تضمنت تلك الآيات أروع البراهين وأتقن الأدلة في إبطال ربوبية الأجرام والأصنام وحصرها في الله سبحانه. إلى غير ذلك من الحجج والحوار الوارد في الذكر الحكيم.

إن «أهل السنة» نسبوا إلى النبي ﷺ، النهي عن الخوض في موضوعات عالم الغيب، ولكنه يعارض سيرة النبي ﷺ وجداله مع الوثنيين والأخبار والرهبان بوحى من الله سبحانه، ويكفي في ذلك دراسة الآيات الواردة في ذلك المجال، وقد جمعنا احتجاجات النبي ﷺ وحواره مع المشركين وأهل الكتاب في موسوعتنا «مفاهيم القرآن» (٥) وهي مبثوثة في السور القرآنية.

١. النحل: ١٢٥.

٢. العنكبوت: ٤٦.

٣. البقرة: ٢٥٨.

٤. الأنعام/ ٧٥-٨٣.

٥. جعفر السبحاني، مفاهيم القرآن: الجزء السابع.

وحصيلة البحث؛ أنّ النهي عن الخوض في المعارف الإلهية التي للعقل فيها مجال النظر، تجميد للعلم والمعرفة، وإيقاف للركب الحضاري عن المسير في طريق التكامل الفكري، وإنّ الصراع العلمي إذا كان بدافع كشف الحقيقة فهو من أدوات المعرفة، وعليه جرت سيرة العلماء المحققين.

وإذا أردت أن تلمس ذلك بوضوح قارن بين ما يدرسه السلفيون في مجال العقائد في عصرنا هذا، مع ما كتبه الشيخ الرئيس في الشفاء، أو المحقق الطوسي في التجريد ترى البساطة والسذاجة في الأول، والعمق والتحقيق في الآخرين.

إنّ كتب العقائد عند السلفية لا تتجاوز عن نقول عن ذلك الصحابي، وهذا التابعي، بلا تحليل و مثل هذه لا تفيد إلّا للطبقة الساذجة المثقفون الجامعيون الذين يريدون تحليل العقائد وتبيينها على أسس منطقية فلا تفيدهم تلك الكتب أصلاً لو لم نقل أنّها تنفّهم عن الإسلام.

ولو كان ما ذكره صحيحاً، لعمّ البلاء جميع الشرائع السماوية، فإنّ نزول شريعة تلو الأخرى، أورث ذلك الخلاف والجدل.

زلة لا تستقال

إلى هنا تبين أنّ الخوض في المسائل العقلية لمن له أهلية أمر معقول وكما للنفس وعمل بالقرآن.

ثمّ إنّ بعض رواد التفكير الحنبلي والسلفي زعم صحّة نهي الرسول والصحابة عن الخوض في موضوعات عالم الغيب وقال: وكان أخرى بالمتكلمين أن ينتهجوا نفس النهج إلّا أنّ الحقّ أن يقال: ما كان ذلك منهم عن زيغ في القلوب أو ابتغاء فتنة وإنّما أكرهوا على ذلك إكراهاً واضطروا إلى ذلك اضطراراً

أحلّ المحظور.^(١)

يلاحظ عليه: أنّ الكتاب العزيز هو الذي فتح باب التفكير في المعارف الإلهية، فكيف يمكن للنبي ﷺ النهي عنه، وأين هذا النهي، ومن نقله وأين يوجد؟ وأمّا الصحابة والتابعون لهم بإحسان كانوا على صنفين: فعليّ ﷺ وعترته وشيعته، فقد فتحوا أبواب المعارف في وجوه المسلمين، ومن سبر خطب الإمام عليّ ﷺ ورسائله وكلمه القصار، أو رجع إلى أدعية الإمام زين العابدين والأحاديث المروية عن الصادقين يجد فيها كمية هائلة من البحوث القيّمة حول المبدأ والمعاد، وأفعال العباد، وأمّا غيرهم فكانوا يَمرون على المعارف ويرون أنّ الفريضة تلاوتها وقراءتها لا الخوض في معانيها وحقائقها، وعند ذلك فالاستدلال بسكوت قسم من السلف وإسدال الستار على تكلم الآخرين خروج عن طور الانصاف.

ثمّ إذا كان خوض السابقين في هاتيك المسائل من باب الاضطرار والضرورة المبيحة للمحظور، فقد ارتفع المسوّغ في هذه الأيام بعد تأليف مئات الكتب في الكلام والعقائد، فما هو المسوّغ لارتكاب المؤلف للمحظور، ومخالفة النهي الصريح عن النبي ﷺ ؟!!! و التمرّد على سيرة السلف الصالح، بوضع كتاب في علم الكلام في عدّة أجزاء.

١. الدكتور أحمد محمود صبحي: في علم الكلام: ٢٩٨.

الفصل الثاني

علم الكلام وعوامل نشأته

إنّ علم الكلام كسائر العلوم الإنسانية، ظاهرة علمية نشأت بين المسلمين في ظلّ أسباب سيوافيك بيانها، ولا يقتصر هذا العلم على المسلمين فحسب بل كانت للأمم السابقة مذاهب كلامية ومدارس دينية يُبحث فيها عن اللاهوت والناسوت، وقد ألّف غير واحد من علماء اليهود والنصارى كتباً كلامية يرجع تاريخها إلى القرنين الخامس والسادس. وأمّا عوامل نشأته بين المسلمين فتتلخّص في عامل داخلي وآخر خارجي، وإليك البيان:

١. القرآن هو المنطلق الأوّل لنشوء علم الكلام:

إنّ القرآن المجيد هو المنطلق الأوّل لنشوء علم الكلام ونضجه وارتقائه عند المسلمين، وإليه يرجع كل متكلّم إسلاميّ باحث عن المبدأ وأسمائه وصفاته وأفعاله، وقد تضمّن القرآن إشارات فلسفية وعقلية قامت على أسس منطقية مذكورة في نفس الآيات أو معلومة من القرائن. فمن سبر القرآن الكريم فيما يرجع إلى التوحيد بأنواعه يجد الحجج الملمزة، والبيّنات المسلّمة التي لا تدع لباحث الشك فيها. كما أنّه أرفق الدعوة إلى المعاد والحياة الأخروية بالبراهين المشرقة، والدلائل الواضحة التي لا تقبل الخدش.

إن القصص الواردة في القرآن الكريم تتضمن احتجاجات الأنبياء وصراعهم الفكري مع الوثنيين والمعاندين من أهل اللجاج، فهي مما يستند إليها المتكلم في آرائه الكلامية. كما تتضمن بحوثاً في الإنسان وأفعاله ومسيره ومصيره، وغير ذلك مما جعل القرآن الكريم المنطلق الأول لنشأة علم الكلام في الإسلام.

٢. السنة هي المنطلق الثاني:

إن النبي ﷺ ناظر المشركين وأهل الكتاب بمرأى ومسمع من المسلمين، وهذه احتجاجاته مع نصارى نجران في العام العاشر من الهجرة، حتى أنه ﷺ بعدما أفحمهم دعاهم إلى المباحلة، وقد حفل التاريخ وكتب السير والتفسير بما دار بين الرسول وبطارقة نجران وقساوستهم، وقد استدّلوا على ألوهية المسيح بقولهم: هل رأيت ولدأ من غير ذكر؟ فأفحمهم رسول الله ﷺ بإيحاء من الله: إن مثل عيسى في عالم الخلقة كمثل آدم، وقد خلّق من غير أب ولا أم، فليس هو أبداع ولا أعجب منه^(١).

إن النهي عن كتابة الحديث نجم عنه خسارة فادحة أدت إلى ضياع الكثير من احتجاجات النبي ﷺ ومناظراته مع المشركين وأهل الكتاب، فقد ذهبت كذهاب سائر خطبه، ولكن الشيعة اقتداءً بالعترة احتفظت بكثير من هذه المناظرات في كتبهم الحديثية، فمن سبرها يرى فيها بحوثاً ومناظرات تصلح لأن تكون هي المنطلق في الصدر الأول لأهل الكلام من الشيعة وغيرهم^(٢).

١. لاحظ تفسير قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران/ ٥٩).

٢. لاحظ احتجاجات النبي في كتاب الاحتجاج للشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بالطبرسي المتوفى حدود عام (٥٥٠ هـ).

٣. خطب الإمام علي عليه السلام هي المنطلق الثالث:

إنّ خطب الإمام ورسائله وكلمه القصار، التي حفظها التاريخ عن العصف والضياع لأوضح دليل على أنّ الإمام كان هو المؤسس للأصول الكلامية خصوصاً فيما يرجع إلى التوحيد والعدل، وبين يديك نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي ممّا وصل إليه من خطبه، تجد فيه من الأصول الكلامية ما لا تجده في غيره، وإلى ذلك يشير السيد المرتضى في أماليه فيقول: «اعلم أنّ أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - وخطبه، فإنّها تتضمّن من ذلك ما لا زيادة عليه ولا غاية وراءه. ومن تأمل المأثور في ذلك من كلامه، علم أنّ جميع ما أسهب المتكلّمون من بعد في تصنيفه وجمعه إنّما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأصول، وروي عن الأئمة من أبنائه عليه السلام في ذلك ما لا يكاد يحاط به كثرة، ومن أحبّ الوقوف عليه فطلبه من مظانّه أصاب منه الكثير الغزير الذي في بعضه شفاء للصدور السقيمة ولقاح للعقول العقيمة»^(١).

وقال ابن أبي الحديد: «إنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهي، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف الموجودات، فكان هو أشرف، ومن كلامه عليه السلام اقتبس، وعنه نقل، ومنه ابتدئ وإليه انتهى، فإنّ المعتزلة - الذين هم أصل التوحيد والعدل وأرباب النظر ومنهم من تعلّم الناس هذا الفن - تلاذته وأصحابه، لأنّ كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمّد بن الحنفية وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذه، وأمّا الأشعرية فإنّهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وأبو

علي أحد مشايخ المعتزلة فالأشعرية ينتهون بالآخرة ^(١) إلى أستاذ المعتزلة ومعلمهم، وهو علي بن أبي طالب ^(٢).

٤. العترة الطاهرة ودورهم في نشوء هذا العلم:

إنّ العترة الطاهرة وإن أقصيت عن القيادة الإسلامية، إلّا أنّه أتيحت لهم الفرصة في آخر عهد الأمويين وأوائل حكومة العباسيين، في شرح المعارف وتوضيح الحقائق وتربية رواد الفكر، وإرشاد الحكيم إلى دلائل وبراهين لا يقف عليها إلّا الأوحدي من الناس والتلميح إلى نكات عرفانية، لا يدركها إلّا العارف المتألّه. ففي أدعية الإمام زين العابدين إشارات كلامية وتلميحات عرفانية، كما أنّ في الأحاديث المروية عن الصادقين والكاظمين كميّة هائلة من البحوث الكلامية، والمناظرات العلمية التي أدّت إلى نضوج علم الكلام الإسلامي بوجه واضح، وها نحن نذكر احتجاجين قصيرين للإمامين الصادق والرضا عليهما السلام ليكونا نموذجين لما لم نذكره:

مناظرة الإمام الصادق عليه السلام مع أحد القدرية:

روى العياشي: أنّه طلب عبد الملك بن مروان من عامله بالمدينة أن يوجه إليه محمد بن علي بن الحسين (الباقر) عليه السلام حتى يناظر رجلاً من القدرية وقد أعيأ الجميع، فبعث أبو جعفر ولده مكانه، فقدم الشام وتسامع الناس بقدمه لمخاصمة القدرية، فقال عبد الملك لأبي عبد الله: إنّّه قد أعيانا أمر هذا القدرية،

١. والصحيح أن يقول: أخيراً، وقد تسرّب هذا اللحن إلى الكتب العربية حتى استعمله سعد الدين التفتازاني في مطوّله.

٢. شرح ابن أبي الحديد: ١/ ١٧.

فقال الإمام: «إنَّ الله يكفيناه» فلما اجتمعوا، قال القدري لأبي عبد الله عليه السلام: سل عما شئت؟ فقال له: «اقرأ سورة الحمد». قال: فقرأها، فلما بلغ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فقال جعفر: «قف! من تستعين؟ وما حاجتك إلى المؤونة أن الأمر إليك»، فبهت الرجل ^(١).

إنَّ القدريّة هم أسلاف المعتزلة، وقد تبنت فكرة استغناء الممكن في فعله (لا في ذاته) في عصر خلافة عبد الملك (٦٥ - ٨٦ هـ) وكان لها دويّ في عصره، وقد أخذتها المعتزلة عنهم وصقلتها وجعلتها من توابع القول بالعدل وغفلت عن أن القول بالحرية إلى حدّ الاستغناء عن الواجب ينسجم مع التنزيه لكنه يهدم التوحيد الذاتي، فيكون الممكن مثل الواجب في الاستغناء عن غيره في مقام الإيجاد، ولأجل ذلك تضافرت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: «لا جبر ولا تفويض ولكن أمرٌ بين أمرين» ^(٢).

احتجاج الإمام الرضا عليه السلام مع أبي قرّة:

قال أبو قرّة للإمام الرضا عليه السلام: إنا رويّا أنّ الله عزّ وجلّ قسّم الرؤية والكلام بين اثنين، فقسّم لموسى عليه السلام الكلام، ولمحمد عليه السلام الرؤية. فقال أبو الحسن عليه السلام: «فمن المبلّغ عن الله عزّ وجلّ إلى الثقلين: الجن والإنس ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ ^(٣) و ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عَلَمًا﴾ ^(٤) و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ^(٥) أليس محمداً عليه السلام؟! قال: بلى. قال: «فكيف يجي رجل إلى الخلق

١. المجلسي: البحار: ٥٥/٥ - ٥٦.

٢. الصدوق: التوحيد: ٣٦٢.

٣. الأنعام: ١٠٣.

٤. طه: ١١٠.

٥. الشورى: ١١.

جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند الله، وأنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله، ويقول: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ و ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ثم يقول: أنا رأيته بعيني وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر! أما تستحيون، ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا: أن يكون يأتي عن الله بشيء، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر^(١).

ومن وقف على كتب أهل الحديث والأشاعرة، يقف على أنّ لهم في إثبات الرؤية، إصراراً عجيباً، وترى أنّ الإمام كيف قطع الطريق على أبي قرة الذي اغترّ بأحاديث مدسوسة اختلقتها اليهود وأنصارهم وبثوها بين المسلمين، ولولا ضيق المجال لنقلت قسماً وافراً من خطبهم ومناظراتهم عليه السلام في مجال العقائد حتى تقف على أنّ حديثهم هو المنطلق الرابع لنشوء علم الكلام ونضوجه وتكامله.

فمن المؤسف جداً أن يتّهم شيعة العترة الطاهرة بما في كلام المستشرق (آدم متز) فقد وصفهم بأنّه لم يكن للشيعة مذهب كلامي إلى القرن الرابع، مع أنّ فيهم أئمة المسلمين وقادة الأمة الذين يصدق فيهم قول الشاعر:

من تلق منهم، تلق كهلاً أو فتى علم الهدى بحر الندى المورودا

إلى هنا، تبين أنّ أحد الأسباب لنشوء علم الكلام هو العامل الداخلي الذي لا يتجاوز عن إطار القرآن والسنة النبوية وكلمات العترة الطاهرة، وهناك عامل خارجي صار سبباً لنمو الأفكار الكلامية المأخوذة عن الأصول الموجودة في الكتاب والسنة وهو وجود الصراع الفكري بين المسلمين وغيرهم، وإليك بيانه:

الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري:

إذا كان الكتاب والسنة وحديث العترة الطاهرة هو المنطلق لنشوء علم الكلام وظهوره بين المسلمين، فقد كان للاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري دور خاص في ذلك المجال، وهو أنه دفع عجلة علم الكلام إلى الأمام، وصار سبباً لنموه ونضوجه بين المسلمين، ولولا هذا الصراع الفكري لما نمت تلك البذور الطيبة الكامنة في الكتاب والسنة، وما استوت على سوقها، وهذان العاملان (الداخلي والخارجي) وإن صارا سبباً لنشوء هذا العلم وتكامله إلا أن دور الأول، يخالف دور الثاني، فالأول يعد مصادر علم الكلام ومنابعه ومناشئه، وأما الثاني، فهو الذي أيقظ المفكرين من المسلمين حتى ينموا ما تعلموه في مدرسة الدين من الأصول والعقائد، وإليك بيان ذلك العامل الخارجي.

بعث النبي ﷺ بدين عالمي، ونبوة خاتمة، وكتاب خاتم للكتب، والمهيمن عليها، وبث شريعته الغراء في ربوع الجزيرة العربية في بضع سنين، إلى أن مضى إلى جوار ربه، وراية الإسلام خفاقة عالية، تدين أهلها بالتوحيد، وتكافح الثنوية، وتؤمن بالحياة الأخروية وتعمل بسنن الإسلام وطقوسه.

وقد أحس المسلمون بواجبهم - بعد رحلته - وهو نشر الإسلام وبسطه في العالم كله ودعوة جميع البشر على مختلف قومياتهم إلى الانصواء تحت راية الإسلام، بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم كسر الأصنام والأوثان بالجهاد المتواصل، وبذل النفس والنفيس في سبيله، حتى تُصْبح الأجواء صافية، والظروف حرة، وترتفع العوائق والموانع بغية دخول الناس في دين الله زرافات ووحداناً عن طوع ورغبة، بلا خوف ولا رهبة من طواغيت العصر.

قام المسلمون بواجبهم ففتحوا البلاد، ونشروا الثقافة الإسلامية بين الأمم المتحضرة والتي كانت تتمتع - وراء الآداب والفنون والعلوم والصناعات -

بمناهج فلسفية، وآراء كلامية لا يذعن بها الإسلام .

وقد كان في ذلك الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري تأثير بالغ عاد على الإسلام والمسلمين بالخير الكثير إلا أن هذا الاحتكاك لا يخلو عن مضاعفات، وهي انتقال تلك الآراء والأفكار إلى الأوساط الإسلامية وهم غير متدرّعين تجاه تلك الشبهات والمشاكل.

وأعان على ذلك أمر ثان وهو انتقال عدة من الأسرى إلى العواصم الإسلامية فانقلبوا إليها بأرائهم وأفكارهم وعقائدهم المضادة للإسلام وأُسيه، وكان بين المسلمين من لم يتورّع في أخذ هاتيك العقائد الفاسدة، نظراء: عبد الكريم ابن أبي العوجاء، وحماة بن عجرد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن اياس، وعبد الله بن المقفّع إلى غير ذلك بين غير متدرّع أو غير متورّع، فأوجد ذلك بلبلة في الأفكار والعقائد بين المسلمين.

أضف إلى ذلك أمراً ثالثاً كان له التأثير الحاسم في بسط الإلحاد والزندقة وهو نقل الكتب الرومانية واليونانية والفارسية إلى اللغة العربية من دون نظارة ورقابة وجعلها في متناول أيدي الناس، وقد ذكر ابن النديم تاريخ ترجمة تلك الكتب فقال:

«كان خالد بن يزيد بن معاوية محباً للعلوم، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية إلى العربية في أيام الحجاج، وكان أمر الترجمة يتقدم ببطء، إلى أن ظهر المأمون في ساحة الخلافة، فراسل ملك الروم يسأله الأذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة، المدخرة في بلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فبعث المأمون جماعة، منهم: الحجاج بن مطر، وابن

بطريق، ومحمد بن أحمد و الحسين بنو شاكر المنجم، فجاءوا بطرائف الكتب، وغرائب المصنّفات في الفلسفة والهندسة وغيرهما، ثم ذكر ابن النديم أسماء النقلة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، وجاء بأسماء كمّية هائلة^(١) فأخذوا يصبون ما وجدوه من غث وسمين في كتب الوثنيين والمسيحيين على رؤوس المسلمين، وهم غير متدرّعين وغير واقفين على جذور هذه الشبه، مع أنّها كانت تزعزع أركان الإسلام.

فقد أثار انتقال هذه الشبه والعقائد والآراء إلى أوساط المسلمين ضجة كبرى بينهم، فافترقوا إلى فرقتين:

فرقة اقتصرت في الذب عن حياض الإسلام بتضليلهم وتكفيرهم وتوصيفهم بالزندقة وتحذير المسلمين من الالتقاء بهم وقراءة كتبهم والاستماع إلى كلامهم، إلى غير ذلك مما كان يعدّ مكافحة سلبية والتي لا تصمد أمام ذلك السيل الجارف.

وفرقة قد أحسّوا بخطورة الموقف وأنّ المكافحة السلبية لها أثرها المؤقت، وإنّ ذلك الداء لو لم يعالج بالدواء الناجع سوف يعمّ المجتمع كلّه أو أكثره، فقاموا بمكافحة إيجابية أي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال الذي يستحسنه الإسلام، فأزالوا شبهاتهم، ونقدوا أفكارهم في ضوء العقل والبرهان، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً، وهؤلاء هم الشيعة خريجو مدرسة أهل البيت أولاً، والمعتزلة أتباع واصل بن عطاء ثانياً الذين أخذوا أصول مذهبهم عن علي بن أبي طالب بواسطتين:

١. أبي هاشم ابن محمد بن الحنفية.

٢. محمد ابن الحنفية ابن علي بن أبي طالب.

١. ابن النديم: الفهرست: ٣٥٢، ٣٥٦.

ففي تلك الأجواء المشحونة بالبحث والجدل استفحل أمر الكلام، أي العلم الباحث عن المبدأ وأسماؤه وصفاته وأفعاله لغاية الذب عن الإسلام، فكان علم الكلام وليد الحاجة، ورهن الصراع الفكري مع التيارات الإلحادية المتحدية للإسلام والمسلمين، وفي هذه الظروف العصيبة قام أهل البيت عليهم السلام بتربية جموع غفيرة من أصحاب المواهب للذب عن الإسلام وأصوله أولاً، وحريم الولاية ثانياً، في ضوء العقل والبرهان، فصاروا يناظرون كل فرقة ونحلة بأمتن البراهين وأسلمها، وقد حفظ التاريخ أسماء لفيف من الرافلين في حلل الفضائل والمعارف، وسوف يوافيك أسماؤهم لاحقاً.

الفصل الثالث

بدايات المسائل الكلامية في القرنين الأولين

قد عرفت أنّ القرآن والسنة، وأحاديث العترة الطاهرة هي المنطلق الحقيقي لنشوء علم الكلام وأنّ المسلمين بطوائفهم المختلفة كانوا يصدرون عنها، نعم كان للقاء الحضاري والاحتكاك الثقافي دور هام في تكامل علم الكلام وكثرة مسائله، فالكتاب والسنة كانا مرجعين للاعتداء إلى موقف الإسلام فيها، واللقاء الحضاري كان سبباً لطرح المسائل في الأوساط، وانتقال الأذهان إليها، وعلى كل حال أصبح الأمران سبباً لنشوء علم الكلام ونضوجه بين المسلمين على نزعاتهم المختلفة.

إنّ كتاب الملل والنحل يصرّون على أنّ الاختلاف في الإمامة كان أول اختلاف ديني وأعظم خلاف بين الأمة.

يقول الإمام أبو الحسن الأشعري: أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد وفاة نبيهم اختلافهم في الإمامة^(١).

ويقول الشهرستاني: إنّ الاختلاف في الإمامة أعظم خلاف بين الأمة، إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كل زمان^(٢).

١. مقالات الاسلاميين واختلاف المصلّين: ١/ ٣٤، نشر محيي الدين عبد الحميد.

٢. الملل والنحل: ١/ ٢٤.

يلاحظ عليه: أنّ الاختلاف في الإمامة بعد أيام الخلفاء وإن أصبح اختلافاً كلامياً، فذهبت الشيعة إلى أنها تنصيصية والسنة إلى غيرها، لكن الاختلاف يوم ارتحل الرسول لم يكن اختلافاً في قاعدة دينية، وجدالاً في مسألة كلامية بل كان جدالاً سياسياً محضاً، لم يكن مبنياً على قاعدة دينية، إذ كان علي عليه السلام وأهل بيت النبي وليف من شيعة الإمام بعيدين عن السقيفة وما جرى فيها، مشغولين بتجهيز النبي ﷺ، وأمّا الأنصار فكانوا يرون أنفسهم أولى بإدارة الأمور لأنهم آووا النبي ونصروه، وكان المهاجرون يرون أنفسهم أولى بها لأنهم أصل النبي ﷺ وعشيرته، من دون أن يبحث أحد من الفئتين عن القاعدة الدينية في مجال الإمامة، وأنها هل هي التنصيص، أو الشورى أو غيرهما، وما هو الملاك فيها؟ بل كانت هذه الأمور مغفولاً عنها يوم ذاك، وكان الهدف هو تسلم منصّة الخلافة وتداول كرتها بين أبنائهم وعشيرتهم، حتى لو لم تكن حكومة الرسول حكومة دينية وكان الرسول قائداً بشرياً مات عنها، لقام المهاجرون والأنصار بنفس ذلك الجدال، وكلٌّ سعى إلى جرّ النار إلى قرصه.

فما في أكثر الكتب الكلامية من تصوير الاختلاف في مسألة الإمامة، اختلافاً كلامياً ناشئ عن النظر إليها فيما بعد السقيفة، وأمّا إذا نظرنا إليها من منظار المهاجرين والأنصار، فالاختلاف بينهم لم يكن نزاعاً كلامياً ودينياً بل سياسياً بحثاً، مبنياً على تناسي النص، وتصوير الخلافة الإسلامية كخلافة موروثية من القائد لأئمة، وإلا فلو كان النزاع على أساس ديني، لما كان للاختلاف مجال، وكفتهم هتافات الرسول في بدء الدعوة، ويوم ترك المدينة لغزوة تبوك، ويوم الغدير وغيرها.

وإليك نماذج من بدايات المسائل الكلامية في القرنين الأولين:

١ . مسألة التحكيم:

إنَّ أوَّل خلاف ظهر بين المسلمين، وصيَّره فرقتين، هو مسألة التحكيم في وقعة صفين، والمسألة يوم ذاك وإن اصطبغت بصبغة سياسية لكن كان لها أساس ديني، وهو أنَّ الخوارج خالفوا علياً عليه السلام وانعزلوا عن جنده بحجة أنَّ حكم الله في الباغي، هو مواصلة الحرب والجهاد حتى يفيَّ إلى حكم الله لا التصالح وإيقاف الحرب، وحجَّتْهم وإن كانت مردودة لأجل أنَّ التحكيم إنَّما فُرض على الإمام، لا أنَّه قبله عن اختيار وحرية، والخوارج هم الذين فرضوه عليه، ولم يكتفوا بذلك حتى فرضوا عليه صيغة التحكيم ووثيقته، وحتى المُحكَّم الذي يشارك فيه مع مندوب معاوية، إلَّا أنَّ هذا الاعوجاج الفكري صار سبباً لتشكُّل فرقتين متخاصمتين إلى عهد وقرن.

وبذلك يفترق اختلافهم مع اختلاف أمثال طلحة والزبير ومعاوية إذ لم يكن اختلافهم حول المبادئ وإنَّما طمعوا أن يكونوا خلفاء و... ولذلك لم يثيروا إلَّا مشاكل سياسية دموية، بخلاف اختلاف الخوارج فإنَّ اختلافهم كان حول المبادئ وكانوا يردِّدون كلمة «لا حكم إلَّا لله» وكان علي عليه السلام وحواريه ابن عباس يحتجَّان عليهم بالقرآن والسنة.

وبظهور الخوارج على الصعيد الإسلامي، ورفضهم التحكيم، طرحت مسائل أخرى بين المسلمين شكَّلت مسائل كلامية عبر القرون، وهي:

٢ . حكم مرتكب الكبيرة:

إنَّ الخوارج كانوا يحبِّسون الشيخين ويغضون الصهرين، بمعنى أنَّهم كانوا يوافقون عثمان في سني خلافته إلى ست سنين، ولمَّا ظهر منه التطرُّف والجنوح إلى

النزعة الأموية، واستئثار الأموال أبغضوه، وأمّا علي عليه السلام فقد كانوا مصدّقيه إلى قضية التحكيم، فلما فُرض عليه التحكيم وقبل هو ذلك المخطط عن ضرورة واضطرار، خالفوه ووصفوه باقتراف الكبيرة، - فعند ذاك - نجمت مسألة كلامية وهي ما هو حكم مرتكب الكبيرة؟ وقد استفحل أمرها أيام محاربة الخوارج مع الأمويين الذين كانوا معروفين بالفسق والفجور، وسفك الدماء وغصب الأموال، فكان الخوارج يحاربونهم بحجة أنهم كفرة لا حرمة لدمائهم ولا أعراضهم ولا نفوسهم لاقترافهم الكبائر .

وعلى أي تقدير ففي المسألة أقوال:

ألف . مرتكب الكبيرة كافر.

ب . مرتكب الكبيرة فاسق منافق.

ج . مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق.

د. مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا فاسق بل منزلة بين المنزلتين.

فالأول خيرة الخوارج، والثاني مختار الحسن البصري، والثالث مختار الإمامية والأشاعرة، والرابع نظرية المعتزلة.

٣. تحديد مفهوم الإيمان:

وقد انبثق من هذا النزاع، نزاع كلامي آخر وهو: تحديد مفهوم الإيمان، وإنّ العمل داخل في حقيقة الإيمان أو لا ؟ فعلى قول الخوارج والمعتزلة، فالعمل مقوم للإيمان، بخلافه على القول الآخر، وقد صارت تلك المسألة ذات أهميّة في الأوساط الإسلامية وانتهت إلى مسألة أخرى، وهي زيادة الإيمان ونقصه بصالح الأعمال وعدمها.

٤ . الإرجاء والمرجئة:

إن فكرة إرجاء حكم مرتكب الكبيرة إلى الله سبحانه تعالى، أو إرجاء حكم الصهرين إلى الله سبحانه، حتى لا ينبس فيهما المسلم بينت شفة، أخذت تنمو حتى تحولت إلى الإباحية التي تنزع التقوى من المسلم وتفتح أمامه أبواب المعاصي، وهو تقديم الإيمان وتأخير العمل، وإنّ المهم هو الاعتقاد القلبي والعمل ليس شيئاً يعتد به، وإنّ التعذيب إنّما يكون على الكفر، وإما التعذيب على اقتراف المعاصي فغير معلوم، وقد اشتهر عنهم قولهم: لا تضرّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

٥ . مسألة القضاء والقدر:

إنّ مسألة القضاء والقدر وإن كان لها جذور قبل بزوغ نجم الإسلام وبعده، لكنّها أخذت لنفسها أهمية خاصة في عصر الأمويين حيث كانوا يبرّرون استئثارهم وأعمالهم الإجرامية بالقضاء والقدر، فصار ذلك سبباً، لوقوع المسألة مثاراً للبحث والنقاش بين المفكرين المسلمين.

فالمسألة وإن كانت مطروحة بين المسلمين قبل الأمويين لكنها لم تشكل تياراً فكرياً ولا مذهباً كلامياً.

روى الواقدي في مغازيه عن أمّ الحارث الأنصارية وهي تحدّث عن فرار المسلمين يوم حنين قالت: مرّ بي عمر بن الخطاب (منهزماً) فقلت: ما هذا؟ فقال عمر: أمر الله^(١).

١ . الواقدي: المغازي: ٣ / ٩٠٤.

وقد كانت تلك الفكرة سائدة حتى بعد رحلة النبي ﷺ روى عبد الله بن عمر أنه جاء رجل إلى أبي بكر فقال: أرايت الزنا بقدر؟ قال: نعم. قال: الله قدّره عليّ ثم يعذبني؟ قال: نعم يابن اللخناء، أما والله لو كان عندي انسان أمرته أن يحيا أنفك^(١).

استغلال الأمويين للقدر:

لقد اتخذ الأمويون مسألة القدر أداة تبريرية لأعمالهم السيئة وكانوا ينسبون وضعهم الراهن بما فيه من شتى ضروب العيث والفساد إلى القدر. قال أبو هلال العسكري: إنّ معاوية أول من زعم أنّ الله يريد أفعال العباد كلّها^(٢).

ولأجل ذلك لما سألت أم المؤمنين عائشة، معاوية عن سبب تنصيب ولده يزيد للخلافة والإمامة أجابها: أنّ أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم^(٣).

وهذا أيضاً أجاب معاوية عبد الله بن عمر عندما استفسر معاوية عن تنصيبه يزيد فقال: إني أحذرك أن تشقّ عصا المسلمين وتسعى في تفريق ملتهم وأن تسفك دماءهم وأنّ أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم^(٤).

وقد كانت الحكومة الأموية الجائرة متحمّسة إلى تثبيت هذه الفكرة في المجتمع الإسلامي وكانت تواجه المخالف بالشتم والضرب والإبعاد.

١. السيوطي: تاريخ الخلفاء: ٩٥.

٢. الأوائل: ١٢٥/٢٢.

٣. الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٦٧/١.

٤. الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٧١/١، طبعة مصر.

قال الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه «نظرية الإمامة»: إن معاوية لم يكن يدعم ملكه بالقوة فحسب، ولكن بايديولوجية تمس العقيدة في الصميم، فلقد كان يعلن في الناس أن الخلافة بينه وبين علي عليه السلام قد احتكما فيها إلى الله، وقضى الله له على علي، وكذلك حين أراد أن يطلب البيعة لابنه يزيد من أهل الحجاز أعلن أن اختيار يزيد للخلافة كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة في أمرهم، وهكذا كاد يستقر في أذهان المسلمين، أن كل ما يأمر به الخليفة حتى لو كانت طاعة الله في خلافه (فهو) قضاء من الله قد قدر على العباد^(١).

وقد سرت هذه الفكرة إلى غير الأمويين من الذين كانوا في خدمة خلفائهم وأمرائهم فهذا عمر بن سعد بن أبي وقاص قاتل الإمام الشهيد الحسين عليه السلام لما اعترض عليه عبد الله بن مطيع العدوي، بقوله: اخترت همدان والري على قتل ابن عمك، فقال عمر: كانت أمور قضيت من السماء، وقد اعذرت إلى ابن عمي قبل الواقعة فأبى إلا ما أبى^(٢).

ويظهر أيضاً مما رواه الخطيب عن أبي قتادة عندما ذكر قصة الخوارج في النهروان لعائشة، فقالت عائشة: ما يمنعي ما بيني وبين علي أن أقول الحق سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «تفترق أمتي على فرقتين ترق بينهما فرقة مخلعون رؤوسهم، يحفون شواربهم، أزرهم إلى أنصاف سوقهم يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، يقتلهم أحبهم إلي، وأحبهم إلى الله». قال فقلت: يا أم المؤمنين فأنت تعلمين هذا، فلم كان الذي منك؟! قالت: يا أبا قتادة وكان أمر الله قدراً مقدوراً وللقدر أسباب^(٣).

١. نظرية الإمامة: ٣٣٤.

٢. طبقات ابن سعد: ١٤٨/٥، طبع بيروت.

٣. تاريخ بغداد: ١/١٦٠.

وقد كان حماس الأمويين في هذه المسألة إلى حدّ قد كبح ألسن الخطباء عن الإصحاح بالحقيقة، فهذا الحسن البصري الذي كان من مشاهير الخطباء ووجوه التابعين وكان يسكت أمام أعمالهم الإجرامية، ولكن كان يخالفهم في القول بالقدر بالمعنى الذي كانت تعتمد عليه السلطة آنذاك. فلما خوّفه بعض أصدقائه من السلطان، فوعد أن لا يعود، روى ابن سعد في طبقاته عن أيوب قال: نازلت الحسن في القدر غير مرّة حتى خوّفته من السلطان، فقال: لا أعود بعد اليوم^(١).

كيف وقد جلد محمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية المعروفة في مخالفته في القدر قال ابن حجر في تهذيب التهذيب: إنّ محمد بن إسحاق أتهم بالقدر، وقال الزبير عن الدراوردي: وجلد ابن إسحاق يعني في القدر^(٢).

إذا كانت العوامل الداخلية سبباً لإثارة المسائل السابقة، فقد أثار العامل الخارجي أي الاحتكاك والصراع الفكري بين المسلمين وأهل الكتاب مسائل أخرى نشير إلى أهمّها:

٦. مسألة التشبيه والتنزيه:

تلتقي اليهودية مع الإسلام في التوحيد والنبوة، لكنها تفارقها في أوصاف الربّ، فالتوراة تصف الإله بصورة بشر وله صورة، ويقول: خلق الله آدم على صورته^(٣)، وإذا عمل يتعب فيحتاج إلى الاستراحة، يقول: وفرغ الله في اليوم السادس في عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع^(٤) وأنه يمشي بين رياض الجنة وله نداء^(٥) إلى غير ذلك ممّا ورد في العهد القديم من التشبيه والتجسيم

١. طبقات ابن سعد: ١٦٧/٧، طبع بيروت.

٢. تهذيب التهذيب: ٣٨/٩ - ٤٦.

٣ و ٤ و ٥. العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الأول.

والتمثيل، وقد دسّت الأخبار كثيراً من البدع بين الأحاديث لاعتماد الرواة على أناس نظراء: كعقب الأخبار، ووهب بن منبه، وتميم الداري وغيرهم.

فأصبحت مسألة التشبيه وحديث الصفات الخيرية الواردة ذات أهمية كبرى فرقت المسلمين إلى طوائف واستفحل أمرها بوجود روايات التشبيه والتجسيم في الصحاح والمسانيد التي عكف على روايتها المحدثون السُّدَج، غير العارفين بدسائس اليهود ومكرهم. فحسبوها حقائق راهنة، والخلاف في تفسير الصفات الخيرية بعدُ باقٍ إلى يومنا هذا.

٧. النسخ في الشريعة:

إنّ مسألة إمكان النسخ في مجال التشريع اكتسبت لنفسها مكانة بين المسائل الكلامية، وبما أنّ طائفة اليهود كانت منكرة لنبوة المسيح والنبي الخاتم ﷺ، عادت إلى انكار إمكان النسخ متمسكة بما جاء في التوراة: «إنّ هذه الشريعة مؤبدة عليكم ولازمة لكم ما دامت السموات لا نسخ لها ولا تبديل» ومستدلة بأنّ النسخ مستلزم للبداة أي الظهور بعد الخفاء.

فصارت تلك الفكرة سبباً لطرحها في المحافل الإسلامية، فأخذ المتكلمون بالبحث والنقد وأنّ النص في التوراة إمّا منحول أو مؤوّل، وإنّ النسخ لا يستلزم البداة المستحيل وإنّما هو إظهار بعد إخفاء، وإنّه من قبيل الدفع لا الرفع.

٨. عصمة الأنبياء:

إنّ أبرز ما يفترق فيه القرآن عن العهدين هو مسألة حياة رجال الوحي والهداية الذين وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿وإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ

الأخبار^(١) وقد ذكر من قصصهم الشيء الكثير فلا تجد فيه شيئاً يمس كرامتهم أو يحطّ من مقامهم وأما التوراة والإنجيل (المحرّفتان) فقد جاءا بإساطير خيالية تمسّ كرامة الله أولاً، وكرامة أنبيائه ثانياً، فالأنبياء فيها يشربون الخمر^(٢) يمكرون^(٣) ويقترون الزنا^(٤) إلى غير ذلك ممّا يخجل القلم عن بيانه.

فصار ذلك سبباً لطرح مسألة العصمة بين المسلمين، فهم بين مثبت وناف ومفصل، وإن كان النافي بينهم أقل.

٩. حدوث القرآن وقدمه:

كان أهل الحديث ملتزمين بعدم اتخاذ موقف خاص فيما لم يرد فيه نص عن رسول الله ﷺ أو عهد من الصحابة إلّا أنّهم خالفوا منهجهم في هذه المسألة وقد كانت تلعب وراءها يد الأجانب، فقد طرحها يوحنا الدمشقي في كتابه فعلم أتباعه المسيحيين أن يسألوا المسلمين عن السيد المسيح فإذا أجابوهم بنصّ قرآنهم: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^(٥) فيقولوا هل كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فإن قالوا مخلوقة، فالزموهم بأنّ معناه أنّ الله كان ولم تكن له كلمة ولا روح وإن قالوا قديمة يثبت قدم المسيح، وكونه ابن الله وأحد الثلاثة^(٦).

وقد كان للتخطيط المسيحي أثره الخاص فأوجدت تلك المسألة ضجّة

١. ص: ٤٧.

٢. العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح التاسع، الجملات ٢٠-٢٥.

٣. العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح التاسع والعشرون ١٨-٣٨.

٤. العهد القديم، صموئيل الثاني، الاصحاح الحادي عشر ٤٩٧.

٥. النساء: ١٧١.

٦. تاريخ المذاهب الإسلامية: ٣٩٤/٢.

كبرى بين المسلمين، فالمحدثون على عدم كونه مخلوقاً والمتفكرون كالشيعة والمعتزلة على الحدوث.

فهذه المسائل الأربع، دخلت أوساط المسلمين وتناولها المفكرون بالبحث والنقاش، لدافع خارجي، كما عرفت.

هذه نماذج من المسائل الكلامية التي طرحت في القرن الأول والثاني، ولم تنزل المسائل تطرح واحدة بعد الأخرى حسب امتداد الصراع الفكري بين المسلمين وسائر الشعوب من مسيحية ويهودية ومجوسية وبوذية، فقد دفع هذا الاحتكاك الثقافي عجلة علم الكلام إلى الأمام، فأصبح المتكلمون يبحثون عن مسائل أخرى ربّما تقع ذريعة للردّ على الإسلام، إلى أن صار علم الكلام، علماً متكامل الأركان متشعب الفنون ناضج الثمار داني القطوف.

الفصل الرابع

متكلمو الشيعة عبر القرون

قد تعرفت على رؤوس المسائل الكلامية التي شغلت بال المفكرين المسلمين عبر القرنين: الأول والثاني، ومن حسن الحظ أن أئمة أهل البيت عليهم السلام، أخذوها بالبحث والتحليل في خطبهم ورسائلهم وقصار كلمهم، وإن أقصوا عن سدة الحكم والخلافة لكن الأئمة عكفت على بابهم فيما يتعلق بالعقيدة والشرعية، واعترفت بمرجعيتهم فيها حتى المتقاصين للخلافة.

ولو أنك سبرت ما أثر عن أمير المؤمنين عليه السلام وولديه السبطين، وما ورد في أدعية السجاد عليه السلام لوجدت في كلامهم إشارات لتلك المسائل، نذكر بعض النماذج منها.

كان لمسألة القضاء والقدر دوي في العقد الثالث والرابع من الهجرة وكان القدر بمعنى السالب عن الاختيار متفشياً بين المسلمين، وقد سأل الإمام علياً عليه السلام أحد أصحابه عند منصرفه من صفين - وكان انطباعه عن التقدير أنه لا دور للإنسان في محاسن أفعاله ومساوئها - وقال:

أخبرنا عن خروجنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «أجل يا شيخ، فوالله ما علوتم تلة ولا هبطتم بطن وإلا بقضاء

من الله وقدر». فقال الشيخ: عند الله أحسب عنائي^(١) يا أمير المؤمنين، فقال: «مهلاً يا شيخ: لعلك تظن قضاءً حتماً وقدرًا لازماً، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والزجر، ولسقط معنى الوعيد والوعد، ولم يكن على مسيء لائمة ولا لمحسن محمّدة، ولكان المحسن أولى باللائمة من المذنب، والمذنب أولى بالإحسان من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان، وخصماء الرحمن وقدرية هذه الأئمة ومجوسها، يا شيخ إن الله عز وجل كلف تحييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾^(٢)».

قال: فنهض الشيخ وهو يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم النجاة من الرحمن غفرانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك عنا فيه إحساناً^(٣)

وفي كلام آخر له ينهى فيه البسطاء عن الخوض في القدر فقال عليه السلام: «طريق مظلم فلا تسلكوه، وبحر عميق فلا تلجوه، وسر الله فلا تتكلفوه»^(٤).

إن خطب الإمام أو رسائله وقصار كلمه، مملوءة بالمعارف الالهية، والأجوبة

١. أي إن كان خروجنا وجهادنا بقضائه تعالى وقدره لم نستحق أجراً، فرجائي أن يكون عنائي عند الله محسوباً في عداد أعمال من يتفضل عليهم بفضل يوم القيامة.

٢. سورة ص: ٢٧.

٣. الصدوق: التوحيد: ٣٨٠؛ الرضي: نهج البلاغة: قسم الحكم برقم ٧٨، وقد حذف الرضي سؤال السائل ولخص الجواب، ونقله غيره من المحدثين على وجه التفصيل، ونقلناه عن تحف العقول للحرّاني: ١٦٦.

٤. الرضي: نهج البلاغة: قسم الحكم برقم ٢٨٧.

على هذه المسائل وأشباهها، وقد عرفت كلام الشارح الحديدي أَنَّ المتكلمين أخذوا أصولهم عن خطبه.

استشهد الإمام بسيف الجور والظلم، وجاء دور السبط الأكبر، فقد قام بنفس الدور، وكان مرجعاً للمسائل والأحكام، نذكر نموذجاً مما أثر عنه.

رسالة الحسن البصري إلى السبط الأكبر :

كان الحسن البصري خطيب القوم ومتكلمهم، وكان يشار إليه بالبنان خصوصاً في أواخر القرن الأول، ووقع كثير من أهل الحديث في ورطة الجبر زعماً منهم أَنَّ القول بالقضاء والقدر، يسلب الحرية عن الإنسان، ويجعله مكتوف الأيدي في الحياة؛ هذا، ومن جانب آخر، فإنَّ تلك الفكرة تضادّ الفطرة الإنسانية وتجعل جهود الأنبياء والأولياء وعلماء التريية تذهب سدى.

فكتب الحسن البصري إلى السبط يسأله عن تلك المعضلة، وإليك السؤال والجواب:

أما بعد: فانكم معشر بني هاشم، الفلك الجارية في اللَّجج الغامرة، والأعلام النيرة الشاهرة، أو كسفينة نوح ﷺ التي نزلها المؤمنون، ونجا فيها المسلمون، كتبت إليك يا ابن رسول الله عند اختلافنا في القدر وحيرتنا في الاستطاعة، فأخبرنا بالذي عليه رأيك ورأي آبائك ﷺ، فإنَّ من عَلم الله علمكم، وأنتم شهداء على الناس والله الشاهد عليكم ﴿ذَرِيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

فأجابه الحسن ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصل إليّ كتابك، ولولا ما

ذكرته من حيرتك وحيرة من مضى قبلك إذا ما أخبرتك، أما بعد: فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره وإن الله يعلمه فقد كفر، ومن أحال المعاصي على الله فقد فجر، إن الله لم يُطع مكرهاً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يهمل العباد سدى من المملكة، بل هو المالك لما ملكهم والقادر على ما عليه أقدرهم، بل أمرهم تخيراً، ونهاهم تحذيراً، فإن ائتمروا بالطاعة لم يجدوا عنها صاداً، وإن انتهوا إلى معصية فشاء أن يمن عليهم بأن يحول بينهم وبينها، فعل، وإن لم يفعل فليس هو الذي حملهم عليها جبراً، ولا ألزموها كرهاً، بل من عليهم بأن بصّروهم وعرفهم وحذّروهم وأمرهم ونهاهم، لا جبلاً لهم على ما أمرهم به فيكونوا كالملائكة، ولا جبراً لهم على ما نهاهم عنه، والله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين، والسلام على من اتبع الهدى»^(١).

مكافحة السبطين للتشبيه:

قد كان للأخبار والرهبان دور مهم في بثّ أحاديث التجسيم بين المسلمين، فكان القول به متفشياً بين أهل الحديث ولكن السبطين كافحاه بخطبهم وكلامهم.

وقد خطب الحسن بن علي عليه السلام وقال: «الحمد لله الذي لم يكن فيه أول معلوم، ولا آخر متناه، ولا قبل مدرك، ولا بعد محدود، فلا تدرك العقول أوهاماً، ولا الفكر وخطراتها، ولا الأبواب وأذهانها صفته فتقول: متى ولا بدئ ممّا، ولا ظاهر على ما، ولا باطن فيما»^(٢).

١. ابن شعبة الحرّاني: تحف العقول: ٢٣٢؛ المجلسي: بحار الأنوار: ٥/ ٤٠ ح ٦٣؛ الكراچكي: كنز

الفوائد: ١١٧، ط ١.

٢. نور الثقلين: ٥/ ٢٣٦.

سؤال نافع بن الأزرق عن الإله الذي يُعبد:

كان نافع بن الأزرق من رؤوس الخوارج ومتطرفيهم، وكان يتعلم من ابن عباس ما يحمله من مفاهيم القرآن، نقل عكرمة عن ابن عباس أنه بينما كان يحدث الناس إذ قام إليه نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس فتني الناس في النملة والقملة، صف لي إلهك الذي تعبد؟! فأطرق ابن عباس إعظاماً لقوله، وكان الحسين بن علي جالساً ناحية فقال: «إني يا ابن الأزرق»، قال ابن الأزرق: لست إياك أسأل. قال ابن عباس: يا ابن الأزرق، إنه من أهل بيت النبوة وهم ورثة العلم، فأقبل نافع نحو الحسين عليه السلام، فقال له الحسين عليه السلام: «يا نافع إن من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر في الالتباس، سائلاً ناكباً عن المنهاج، ظاعناً بالاعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل.

يا ابن الأزرق أصف إلهي بما وصف به نفسه، وأعرّفه بما عرّف به نفسه: لا يُدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب غير ملتصق، وبعيد غير منقص، يوحد ولا يتبعّض، معروف بالآيات، موصوف بالعلامات، لا إله إلا هو الكبير المتعال».

فبكى ابن الأزرق، وقال: يا حسين ما أحسن كلامك! قال له الحسين عليه السلام: «بلغني أنك تشهد على أبي وعلى أخي بالكفر وعلي؟» قال ابن الأزرق: أما والله يا حسين لئن كان ذلك لقد كنت منار الإسلام ونجوم الأحكام، فقال له الحسين عليه السلام: «إني سائلك عن مسألة»، قال: أسأل، فسأله عن هذه الآية: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ^(١).

يا ابن الأزرق من حفظ في الغلامين؟» قال ابن الأزرق: أبوهما. قال

الحسين: «فأبوهما خيرٌ أم رسول الله ﷺ؟» قال ابن الأزرقي: قد أنبأنا الله تعالى أنكم قوم خصمون^(١).

دور الإمام السجاد في الدفاع عن العقيدة:

قام الإمام السجاد بنفس الأمر الذي قام به جدّه وأبوه وعمّه، فقال لما سئل عن التوحيد: إنّ الله عزّ وجلّ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾ والآيات الست من أوّل سورة الحديد وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿سَبَّحَ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْاَوَّلُ وَالْاٰخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ ثُمَّ اَسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْاَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ اَبْنٌ مَا كُنْتُمْ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْاُمُورُ * يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢).

روى الشيخ المفيد أنّ عليّ بن الحسين عليه السلام كان في مسجد رسول الله ذات يوم إذ سمع قوماً يشبهون الله بخلقه، ففزع لذلك وارتاع له، ونهض حتى أتى قبر رسول الله ﷺ فوقف عنده، ورفع صوته يناجي ربّه، فقال في مناجاته له:

«إلهي بدت قدرتك، ولم تبدّ هيئة جلالك، فجهلوك، وقدروك بالتقدير على غير ما أنت به، شبهوك وأنا بريء يا إلهي من الذين بالتشبيه طلبوك، ليس كمثلك

١. ابن عساکر: تاریخ مدینة دمشق، قسم حياة الإمام الحسين: ١٥٨، تحقیق محمد باقر المحمودي؛ والمجلسي: بحار الأنوار: ٢٩٧/٤ (وذیل الحديث يحتاج إلى توضیح).

٢. نور الثقلين: ٢٣١/٥.

شيء إلهي ولم يُدركوك، وظاهر ما بهم من نعمة دليلهم عليك لو عرفوك، وفي خلقك يا إلهي مندوحة عن أن يناولوك، بل سوّوك بخلقك، فمن ثم لم يعرفوك واتخذوا بعض آياتك ربّاً، فبذلك وصفوك، فتعاليت يا إلهي عمّا به المشبهون نعتوك»^(١).

وقد ضاق المجال على الإمام، وكانت السلطة لا تسمح له بالكلام والخطابة، فتفرّغ إلى العبادة ومناجاة ربّه، وخلف أدعية ضمّت في طيّاتها، بحراً من المعرفة ودقائق العرفان.

هذا دور أئمة الشيعة الأربعة في القرن الأوّل وقد تربّى في مدرستهم رجال ذبّوا عن حياض العقيدة، بكلّ ما يملكون من حول وقوة، وإليك أسماء بعضهم:

١. سلمان الفارسي:

وله مشاهد ومواقف جليّة لا سيما بعد انتزاع الخلافة من أهل بيت النبي الأكرم، وقد خطب بعد رحلة النبي ﷺ خطبة مطوّلة قال فيها:

ألا إنّ لكم منايا تتبعها بلايا، فإنّ عند عليّ علم المنايا وعلم الوصايا وفصل الخطاب على منهاج هارون بن عمران، قال رسول الله ﷺ: «أنت وصيّ وخليفتي في أهلي بمنزلة هارون من موسى»، ولكنكم أصبتم سنّة الأولين، وأخطأتم سبيلكم، والذي نفس سلمان بيده لتركبن طبقاً عن طبق سنّة بني إسرائيل، القذّة بالقذّة، أما والله لو وليتموهما عليّاً لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم فابشروا بالبلاء، واقنطروا من الرخاء، ونابذتكم على سواء وانقطعت العصمة فيما بيني وبينكم من الولاء ...^(٢).

١. المفيد: الإرشاد: ٢٦٠، طبعة النجف.

٢. المامقاني: تنقيح المقال: ٤٧/٢ رقم ٥٠٥٩.

٢. أبو ذر الغفاري جندب بن جنادة:

جندب بن جنادة ذلك الصحابي الجليل الذي كانت له مواقف مشهودة بعد رحلة النبي ﷺ وأيام خلافة عثمان، حتى لفظ نفسه في صحراء لا ماء فيها ولا كلاء لأجل تلك المواقف، وقد قال في حقّه النبي ﷺ: «ما أضلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر»، وهو الذي أخذ بحلقة باب الكعبة ونادى بأعلى صوته: «أنا جندب بن جنادة لمن عرفني، وأبو ذر لمن لم يعرفني، إني سمعت رسول الله يقول: «إنّ مثل أهل بيتي في هذه الأُمة مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق»، ألا هل بلغت؟»^(١).

وله مواقف حاسمة مع كعب الأحمار في مجلس الخليفة في تفسير آية الكنز وغيرها، وقد حفظتها كتب التاريخ والتفسير .

٣. عبد الله بن عباس:

حبر الأُمة وعالم الشريعة، تلميذ الوصي المعروف بحجابه ومناظراته مع الخوارج وغيرهم، وقد حفلت كتب التفسير بآرائه وأفكاره في العقائد والتفسير، وقد ذكر السيوطي في إتقانه مناظرة الخوارج معه في لغات قرآنية^(٢).

٤. حجر بن عدي الكندي:

من أصحاب عليّ ؓ ويصفه الإمام أبو عبد الله الحسين بن علي ؓ بقوله مندداً بعمل معاوية حيث قتله بشهادة مزورة حاكها زياد بن أبيه، «ألسن القاتل

١. المامقاني: تنقيح المقال: ١/ ٢٣٥ رقم ١٩٠٠.

٢. السيوطي: الاتقان: ١/ ٣٨٣ - ٤١٦، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، ولو صحّ النقل يدل

على سعة اطلاع ابن عباس على ديوان العرب.

حجراً أخا كندة، والمصلين الذين كانوا ينكرون الظلم ويستعظمون البدع، ولا يخافون في الله لومة لائم، قتلهم ظلماً وعدواناً من بعد ما كنت أعطيتهم الأيمان المغلظة والمواثيق المؤكدة»^(١) وقد استشهد في مرج عذراء عام ٥١ هـ.

قال ابن الأثير في أسد الغابة بعد عده من الصحابة: هو المعروف بحجر الخير، شهد القادسية وكان من فضلاء الصحابة، وكان على كندة بصفين، وعلى المسيرة يوم النهروان، وشهد الجمل أيضاً مع علي عليه السلام وكان من أعيان صحابته^(٢).

٥. كميل بن زياد النخعي:

الذي يعرفه ابن حجر وغيره بقوله: كميل بن زياد بن نهيك بن الهيثم النخعي، حدث عن علي وغيره، شهد صفين مع علي، وكان شريفاً مطاعاً، ثقة عابداً على تشيعه، قليل الحديث قتله الحجاج ووثقه ابن سعد وابن معن^(٣).

أقول: كان كميل من خيار الشيعة وخاصة أمير المؤمنين، طلبه الحجاج فهرب منه، فحرم قومه عطاءهم، فلمّا رأى كميل ذلك قال: أنا شيخ كبير وقد نفذ عمري، ولا ينبغي أن أكون سبياً في حرمان قومي، فاستسلم للحجاج، فلما رآه قال له: كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً، فقال له كميل: لا تبرق ولا ترعد!، فوالله ما بقي من عمري إلّا مثل الغبار، فاقض فإنّ الموعد الله عزّ وجلّ، وبعد القتل الحساب، ولقد أخبرني أمير المؤمنين أنّك قاتلي، فقال الحجاج: الحجّة عليك إذّا!، فقال: ذلك إن كان القضاء لك، قال: اضربوا عنقه^(٤).

١. ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٤ - ١٦٥، ط مصر.

٢. ابن الأثير: أسد الغابة: ١/ ٣٨٥.

٣. الذهبي: ميزان الاعتدال: ٣/ ٤١٥؛ ابن حجر: تهذيب التهذيب: ٨/ ٤٤٧ برقم ٨١١.

٤. الخوئي: معجم رجال الحديث: ١٤/ ١٢٨ برقم ٩٧٥٣.

كفى في وعيه ومعرفته وعرفانه أنَّ الإمام علّمه دعاءه المعروف باسمه، وفيه من النكات البديعة والإشارات اللطيفة التي لا يتحمّلها إلاّ الأوحدي.

٦. الأصبغ بن نباتة:

التميمي الحنظلي المجاشعي الكوفي من خاصّة أمير المؤمنين وعمّر بعده. روى عنه عليه السلام عهد الأشر ووصيته إلى ابنه، قال المفيد: كان رحمه الله من خواص أصحابه عليه السلام، وكثير الحبّ له، وكان رجلاً فاضلاً، كثير الرواية، متفقاً في حديثه من كبار التابعين، وكان أكثر رواياته عن أمير المؤمنين عليه السلام وله روايات كثيرة في فنون العلم، وأبواب الفقه والتفسير والحكم وغيرها^(١).

٧. زيد بن صوحان العبدي:

عدّه الشيخ الطوسي من أصحاب أمير المؤمنين قاتلاً: كان من الأبدال، قتل يوم الجمل، وقيل استرجعت عائشة حين سمعت أنّه قتل^(٢) ولما صرع يوم الجمل جلس عليّ عند رأسه فقال: «رحمك الله يا زيد، لقد كنت خفيف المؤنة، عظيم المعونة»، فرفع زيد رأسه ثم قال: وأنت فجزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ... والله ما قاتلت معك على جهالة، ولكن سمعت أمّ سلمة زوج رسول الله تقول: سمعت رسول الله يقول: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله»، فكرهت أن أخذلك فيخذلني الله.

١. النجاشي: الرجال: ١/ ٦٠ برقم ٥، وابن سعد في الطبقات الكبرى: ٦/ ٢٥٥، والمفيد في الاختصاص: ٦٥، والكشي في الرجال برقم ٤٢.
٢. الطوسي: الرجال: ٦٤ برقم ٥٦٦، أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام.

وكتبت عائشة من البصرة إلى زيد بن صوحان: من عائشة زوج النبي إلى ابنها زيد بن صوحان أما بعد: فإذا أتاك كتابي هذا فاجلس في بيتك وخذّل الناس عن علي بن أبي طالب، حتى يأتيك أمري، فلما قرأ كتابها قال: أُمِرْتُ بأمر وأُمِرْنَا بغيره، فركبت ما أُمِرْنَا به، وأُمِرْنَا أَنْ نركب ما أُمِرْتُ به، أُمِرْتُ أَنْ تقرّ في بيتك وأُمِرْنَا أَنْ نقاتل حتى لا تكون فتنة^(١).

٨. صعصعة بن صوحان:

صعصعة بن صوحان العبدي روى عهد مالك بن الحارث الأشتر^(٢). وقال ابن عبد البر: أسلم في عهد رسول الله ولم يره^(٣).

وقال ابن الأثير: إنّ صعصعة كان من سادات قومه «عبد القيس» وكان فصيحاً خطيباً ديناً فاضلاً يعدّ في أصحاب عليّ وشهد معه حروبه، وهو القائل لعمر بن الخطاب حتى قسّم المال الذي بعث إليه أبو موسى وكان ألف ألف درهم وفضلت فضلة فاختلفوا أين يضعها، فخطب عمر الناس وقال: أيّها الناس قد بقيت لكم فضلة بعد حقوق الناس، فقام صعصعة وهو غلام شاب وقال: إنّما نشاور الناس فيما لم ينزل فيه قرآن، فأما ما نزل به القرآن فضعه في مواضعه التي وضعها الله عزّ وجلّ فيها، فقال: صدقت أنت مني وأنا منك، فقسّمه بين المسلمين، وهو من سيّره عثمان إلى الشام وتوفى أيام معاوية وكان ثقة، جليل الحديث، أخرجه الثلاثة^(٤).

١. الكشي: الرجال: ٦٣ - ٦٤.

٢. النجاشي: ٤٤٨/١ برقم ٥٤٠.

٣. الاستيعاب: ١٨٥/٢.

٤. ابن الأثير: أسد الغابة: ٢٠/٣.

٩. سعيد بن جبير:

التابعي المعروف بالعقّة والزهد والعبادة، وكان يصلّي خلف الإمام زين العابدين. وذكر أنّه لما دخل على الحجاج قال له: أنت شقيّ بن كسير، فقال: أمّي أعرف باسمي منك، ثم بعد ردّ وبدل أمر الحجاج بقتله، فقال سعيد: ﴿وَجْهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)، فقال الحجاج: شدّوه إلى غير القبلة، فقال: ﴿فَأَيْنَ مَا تَوَلَّوْا فَنَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٢) فقال: كبّوه على وجهه، قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(٣)، ثم ضربت عنقه^(٤).

١٠. قنبر مولى أمير المؤمنين:

صاحب سرّه ومستودع علمه. قال الحجاج لبعض جلاوزته: أحبّ أن أصيب رجلاً من أصحاب أبي تراب، فقال: ما نعلم أحداً كان أطول صحبة له من مولاة قنبر، فبعث في طلبه فقال: أنت قنبر؟ قال: نعم. قال له: إبرأ من دين عليّ. فقال له: هل تدلّني على دين أفضل من دينه؟ قال: إنّني قاتلك فاختر أيّ قتلة أحبّ إليك؟ قال: أخبرني أمير المؤمنين: أن ميتتي تكون ذبيحاً بغير حق، فأمر به فذبح كما تذبح الشاة^(٥).

١. الأنعام: ٧٩.

٢. البقرة: ١١٥.

٣. طه: ٥٥.

٤. الكشي: الرجال: ١١٠، برقم ٥٥؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب: ١٢/٤.

٥. الكشي: الرجال: ٦٧ - ٧٠ برقم ٢١.

١١. ميثم التمار:

هو صاحب أمير المؤمنين وأمره في الجلالة، ورفع المنزلة وعلو الشأن مستغن عن البيان، كان عبداً لامرأة فاشترته عليّ فأعتقه، قال: «ما اسمك؟» قال: له سالم. قال: «حدّثني رسول الله أنّ اسمك الذي سمّاك أبوك في العجم: ميثم؟» قال: صدق الله ورسوله فرجع إلى ميثم واكتنّ بأبي سالم، وقد أخبره عليّ بأنّه يصلب على باب عمرو بن حريث عاشر عشرة هو أقصرهم خشبة، وأراه النخلة التي يصلب على جذعها، وكان ميثم يأتي ويصلّي عندها.

وقال لابن عباس: سلني عمّا شئت من تفسير القرآن فإنّي قرأت تنزيهه عند أمير المؤمنين وعلمني تأويله، فقال: يا جارية هات الدواة والقلم، فأقبل يكتب^(١).

١٢. مالك بن الحارث الأشتر النخعي:

عدّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الإمام أمير المؤمنين وقائد قوّاته في حرب الجمل وصفين، أمره في الجلالة والوثاقة والشجاعة والمناظرة أظهر من أن يبين، ولمّا بلغ عليّاً عليه السلام موته، قال: «رحم الله مالكا، لو كان صخراً لكان صلداً، ولو كان جبلاً لكان فندا».

لم يزل يكافح النزعات الأموية، من عصر الخليفة عثمان إلى أن استشهد في مصر بيد أحد عملاء معاوية^(٢).

ومن نماذج كلامه ما ذكره عند تجهيز أبي ذر، حيث خرج مع رهط إلى الحج

١. الكشي: الرجال: ٤٧، برقم ٢٤.

٢. المامقاني: تنقيح المقال: ٣/ ٢٦٢ برقم ١٢٣٤٤.

فإذا امرأة على قارعة الطريق تقول: يا عباد الله، هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ قد هلك غريباً ليس لي أحد يعينني عليه، فتزل ونزل الرهط، فلما جهّزوه، وصلى عليه الأشر قام على قبره وقال: اللهم هذا أبو ذر صاحب رسول الله عبدك في العابدين، وجاهد فيك المشركين، لم يغير ولم يبدل، لكنه رأى منكراً فغيره بلسانه وقلبه، حتى جُفِيَ ونُفِيَ وجُرم واحتُقر ثم مات وحيداً، اللهم فاقصم من حرّمه ونفاه من حرم رسولك. فقال الناس: آمين^(١).



هؤلاء اثنا عشر رجلاً من رجال الدعوة والإصلاح والذب والدفاع عن حريم العقيدة، المعروفون بنفسيّاتهم الكريمة، وملكاتهم الفاضلة، وسعيهم وراء الدعوة إلى الحق، ومع ذلك نراهم ما بين قتيل وشريد وسجين، إلى غير ذلك من ألوان العذاب التي عمّت هؤلاء الذابّين عن حريم العقيدة. وما نقموا منهم، سوى الاصحار بالحقيقة، والإجهار بالولاية، والسعي وراء العقيدة الحقّة.

فبعض هؤلاء إن لم يكونوا متكلمين بالمعنى المصطلح، لكن كانوا ذابّين عن حريم العقيدة بالكتاب والسنة، والبعض الآخر كان من أكبر متكلمي عصرهم لا يشقّ غبارهم ولا يدرك شأوهم.

متكلمو الشيعة في القرن الثاني:

١. وزارة بن أعين بن سنسن:

مولى (بني عبد الله بن عمرو السمين بن أسعد بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان)، أبو الحسن، شيخ أصحابنا في زمانه، ومتقدّمهم، وكان قارئاً فقيهاً متكلماً شاعراً، أديباً، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، صادقاً في ما يرويه.

قال أبو جعفر محمد بن عليّ بن الحسين بن بابويه: رأيت له كتاباً في الاستطاعة والجبر^(١). وقال ابن النديم: وزارة أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفةً بالكلام والتشيع^(٢). وهو من الشخصيات البارزة للشيعة التي اجتمعت العصابة على تصديقهم، هو غني عن التعريف والتوصيف.

٢. محمد بن علي بن النعمان بن أبي طريفة البجلي:

يُعرفه النجاشي بقوله: مولى، الأحوال «أبو جعفر» كوفي، صيرفي، يلقب مؤمن الطاق و «صاحب الطاق» ويلقبه المخالفون «شيطان الطاق» ... وكان دكانه في طاق المحامل بالكوفة، فيرجع إليه في النقد فيردّ فيخرج كما يقول فيقال «شيطان الطاق»، فأما منزلته في العلم وحسن الخاطر، فأشهر، وقد نسب إليه أشياء لم تثبت عندنا وله كتاب «افعل لا تفعل» رأيت عند أحمد بن الحسين بن عبيد الله رحمه الله، كتاب حسن كبير وقد أدخل فيه بعض المتأخرين أحاديث تدلّ على فساد، ويذكر تباين أقاويل الصحابة، وله كتاب «الاحتجاج في إمامة أمير

١. النجاشي: الرجال ١/ ٣٩٧ برقم ٤٦١؛ الطوسي: الفهرست: برقم ٣١٤؛ الكشي: الرجال: برقم

٦٢؛ الذهبي: ميزان الاعتدال: ٢/ برقم ٢٨٥٣.

٢. ابن النديم: الفهرست: ٣٢٣.

المؤمنين (عليه السلام)، وكتاب كلامه على الخوارج، وكتاب مجالسه مع أبي حنيفة والمرجئة...^(١)، وقد توفي الإمام الصادق (عليه السلام) عام ١٤٨، وأبو حنيفة عام ١٥٠، فالرجل من متكلمي القرن الثاني.

وقال ابن النديم: وكان متكلماً حاذقاً، وله من الكتب كتاب الإمامة، كتاب المعرفة، كتاب الردّ على المعتزلة في إمامة المفضول، كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة^(٢).

٣. هشام بن الحكم:

قال ابن النديم: هو من متكلمي الشيعة الإمامية وبطانتهم، وممن دعا له الصادق (عليه السلام)، فقال: «أقول لك ما قال رسول الله لحسان: لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك»، وهو الذي فتق الكلام في الإمامة، وهذب المذهب، وسهل طريق الحجاج فيه، وكان حاذقاً بصناعة الكلام، حاضر الجواب^(٣).

يقول الشهرستاني: وهذا هشام بن الحكم، صاحب غور في الأصول لا ينبغي أن يغفل عن إزماته على المعتزلة، فإنّ الرجل وراء ما يلزم به على الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه وذلك أنّه ألزم العلاف...^(٤).

وقال النجاشي: هشام بن الحكم، أبو محمد مولى كندة، وكان ينزل بني شيان بالكوفة، انتقل إلى بغداد سنة ١٩٩، ويقال أنّ في هذه السنة مات، له كتاب يرويه جماعة. ثم ذكر أسماء كتبه على النحو التالي:

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٠٣ برقم ٨٧٨؛ الطوسي: الرجال: أصحاب الكاظم برقم ١٨؛ الفهرست

للطوسي: برقم ٥٩٤؛ الكشي: الرجال: برقم ٧٧.

٢. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٤، وأيضاً ص ٢٥٨.

٣. ابن النديم: الفهرست: ٢٥٧.

٤. الشهرستاني: الملل والنحل: ١/ ١٨٥.

١. علل التحريم ٢. الإمامة ٣. الدلالة على حدوث الأجسام ٤. الرد على الزنادقة ٥. الرد على أصحاب الاثنين ٦. الرد على هشام الجواليقي ٧. الرد على أصحاب الطبائع ٨. الشيخ والغلام في التوحيد ٩. التدبير في الإمامة ١٠. الميزان ١١. إمامة المفصول ١٢. الوصيّة والردّ على منكرها ١٣. الميدان ١٤. اختلاف الناس في الإمامة ١٥. الجبر والقدر ١٦. الحكمين ١٧. الردّ على المعتزلة وطلحة والزبير ١٨. القدر ١٩. الألفاظ ٢٠. الاستطاعة ٢١. المعرفة ٢٢. الثمانية أبواب ٢٣. الأخبار ٢٤. الردّ على المعتزلة ٢٥. الردّ على ارسطاطاليس في التوحيد ٢٦. المجالس في التوحيد ٢٧. المجالس في الإمامة^(١).

يقول أحمد أمين: أكبر شخصية شيعية في الكلام، وكان جدلاً قويّ الحجّة، ناظر المعتزلة وناظروه، ونقلت له في كتب الأدب مناظرات كثيرة متفرقة تدلّ على حضور بديته وقوّة حجته^(٢).

ثم إنّه كان في بداية أمره من تلاميذ أبي شاعر الديصاني، صاحب النزعة الإلحادية في الإسلام، ثم تبع الجهم بن صفوان، الجبري المتطرّف المقتول بترمذ، عام ١٢٨ هـ ثمّ لحق بالإمام الصادق عليه السلام ودان بمذهب الإمامية، وما تنقل منه من الآراء التي لا توافق أصول الإمامية، فإنّها هي راجعة إلى العصرين اللذين كان فيهما على النزعة الإلحادية أو الجهمية، وأمّا بعدما لحق بالإمام الصادق عليه السلام، فقد انطبعت عقلية بمعارف أهل البيت إلى حدّ كبير، حتى صار أحد المدافعين عن عقائد الشيعة الإمامية^(٣).

١. النجاشي: الرجال: ٣٩٧/٢ برقم ١١٦٥.

٢. عبد الله نعمة: هشام بن الحكم: ٧٥.

٣. إنّ للعلامة الحجة الشيخ عبد الله نعمة كتاباً في حياة هشام بن الحكم، فقد أغرق نزاعاً في التحقيق وأغنانا عن كل بحث وتنقيب.

٤. قيس بن الماصر:

أحد أعلام المتكلمين، تعلّم الكلام من عليّ بن الحسين عليه السلام، روى الكليني أنّه أتى شامي إلى أبي عبد الله الصادق ليناظر أصحابه، فقال عليه السلام: ليونس بن يعقوب: انظر من ترى بالباب من المتكلمين ... إلى أن قال ليونس: فأدخلت زرارة بن أعين وكان يحسن الكلام، وأدخلت الأحوال وكان يحسن الكلام، وأدخلت هشام بن الحكم وهو يحسن الكلام، وأدخلت قيس بن الماصر، وكان عندي أحسنهم كلاماً وقد تعلّم الكلام من عليّ بن الحسين عليه السلام ^(١).

٥. عيسى بن روضة حاجب المنصور:

كان متكلماً، جيّد الكلام، وله كتاب في الإمامة وقد وصفه أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد، وذكر أنّه رأى الكتاب وقال بعض أصحابنا رحمهم الله: إنّهُ رأى هذا الكتاب، وقرأت في بعض الكتب: أنّ المنصور لما كان بالحيرة، تسمع على عيسى بن روضة، وكان مولاه وهو يتكلّم في الإمامة، فأعجب به واستجاد كلامه ^(٢) وبها أنّ المنصور توفي عام ١٥٨، فالرجل من متكلمي القرن الثاني.

٦. الضحّاك، أبو مالك الحضرمي:

كوفي، عربيّ، أدرك أبا عبد الله عليه السلام، وقال قوم من أصحابنا: روى عنه، وقال آخرون: لم يرو عنه، روى عن أبي الحسن، وكان متكلماً، ثقة ثقة في الحديث، وله كتاب في التوحيد رواه عنه علي بن الحسين الطاطري ^(٣)، فالرجل من متكلمي

١. الكليني: الكافي: ١/ ١٧١.

٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ١٤٥ برقم ٧٩٤.

٣. النجاشي: الرجال: ١/ ٤٥١ برقم ٥٤٤.

القرن الثاني، وقال ابن النديم: من متكلمي الشيعة، وله مع أبي علي الجبائي مجلس في الإمامة وتثبيتها بحضرة أبي محمد القاسم بن محمد الكرخي، وله من الكتب: كتاب الإمامة، نقض الإمامة على أبي علي ولم يتمه^(١).

٧. علي بن الحسن بن محمد الطائي:

المعروف بـ «الطاطري» كان فقيهاً، ثقة في حديثه، له كتب، منها: التوحيد، الإمامة، الفطرة، المعرفة، الولاية^(٢) وغيرها. وعده ابن النديم من متكلمي الإمامية وقال: «ومن القدماء: الطاطري وكان شيعياً واسمه ... وتنقل في التشيع وله من الكتب كتاب الإمامة حسن.^(٣) وبما أنه من أصحاب الإمام الكاظم فهو من متكلمي القرن الثاني.

٨. الحسن بن علي بن يقطين بن موسى:

مولى بني هاشم، وقيل مولى بني أسد، كان فقيهاً متكلياً روى عن أبي الحسن والرضا عليه السلام، وله كتاب مسائل أبي الحسن موسى عليه السلام^(٤) وبما أن أبا الحسن الأول توفي عام ١٨٣، والثاني توفي عام ٢٠٣، فالرجل من متكلمي القرن الثاني وأوائل القرن الثالث؛ وذكره الشيخ في رجاله في أصحاب الرضا^(٥) وهو الذي سأل الإمام الرضا عليه السلام بأنه لا يقدر على لقائه في كل وقت فعمّن يأخذ معالم دينه؟ فأجاب الإمام عليه السلام: «خذ عن يونس بن عبد الرحمن»^(٦).

١. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٦.

٢. النجاشي: الرجال: ٧٧/٢ برقم ٦٦٥.

٣. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٦.

٤. النجاشي: الرجال: ١٤٨/١ برقم ٩.

٥. الشيخ الطوسي: الرجال: برقم ٧.

٦. النجاشي: ٤٢١/٢ برقم ١٢٠٩.

٩. حديد بن حكيم:

أبو علي الأزدي المدائني، ثقة، وجه، متكلم، روى عن أبي عبد الله، وأبي الحسن عليهما السلام، له كتاب يرويه محمد بن خالد ^(١). وبما أنه من تلاميذ الصادق والكاظم عليهما السلام فالرجل من متكلمي الشيعة في القرن الثاني.

١٠. فضال بن الحسن بن فضال:

وهو من متكلمي عصر الصادق عليه السلام، وذكر الطبرسي في احتجاجه مناظرته مع أبي حنيفة، فلاحظ ^(٢). وما ذكرناه نماذج من مشاهير المتكلمين في عصر الصادقين والكاظم عليهما السلام، وهناك من لم نذكرهم ولهم مناظرات واحتجاجات احتفلت بها الكتب التاريخية والكلامية، كحمران بن أعين الشيباني، وهشام بن سالم الجواليقي، والسيد الحميري، والكميت الأسدي ^(٣).

متكلمو الشيعة في القرن الثالث:

١. الفضل بن شاذان بن الخليل أبو محمد الأزدي النيشابوري:

كان أبوه من أصحاب يونس، وروى عن أبي جعفر الثاني وقيل الرضا عليهما السلام، وكان ثقة، أحد أصحابنا الفقهاء، والمتكلمين، وله جلالة في هذه الطائفة، وهو في

١. النجاشي: الرجال: ٣٧٧/١ برقم ٣٨٣، وذكره الخطيب في تاريخه: ج ٨ برقم ٤٣٧٧.

٢. النستري: قاموس الرجال: ٤/٣١٣.

٣. لاحظ أعيان الشيعة: ١/١٣٤ - ١٣٥.

قدره أشهر من أن نصفه، وذكر الكنجي أنه صنف مائة وثمانين كتاباً.

وذكره الشيخ في رجاله في أصحاب الإمام الهادي والعسكري عليه السلام، وقد توفي عام ٢٦٠ هـ، فهو من متكلمي القرن الثالث، وقد ذكر النجاشي فهرس كتبه نقبس منه ما يلي:

النقض على الاسكافي في تقوية الجسم، الوعيد، الرد على أهل التعطيل، الاستطاعة، مسائل في العلم، الاعراض والجواهر، العلل، الإيمان، الرد على الثنوية، إثبات الرجعة، الرد على الغالية المحمدية، تبيان أصل الضلالة، الرد على محمد بن كرام، التوحيد في كتب الله، الرد على أحمد بن الحسين، الرد على الأصم، كتاب في الوعد والوعيد آخر، الرد على بيان (يمان) بن رباب (الخارجي)، الرد على الفلاسفة، محنة الإسلام، أربع مسائل في الإمامة، الرد على المتأنية، الرد على المرجئة، الرد على القرامطة، الرد على البائسة، اللطيف، القائم عليه السلام، كتاب الإمامة الكبير، كتاب حذو النعل بالنعل، فضل أمير المؤمنين عليه السلام، معرفة الهدى والضلالة، التعري والحاصل، الخصال في الإمامة، المعيار والموازنة، الرد على الحشوية، الرد على الحسن البصري في التفضيل، النسبة بين الجبرية والبترية^(١).

٢. حكم بن هشام بن الحكم:

أبو محمد، مولى كندة، سكن البصرة، وكان مشهوراً بالكلام، كَلَّمَ الناس، وحكي عنه مجالس كثيرة، ذكر بعض أصحابنا أنه رأى له كتاباً في الإمامة^(٢)، وقد توفي والده ٢٠٠ أو ١٩٩، فهو من متكلمي أواخر القرن الثاني، وأوائل القرن الثالث.

١. النجاشي: الرجال: ١٦٨/٢ برقم ٨٣٨، والطوسي: الرجال: برقم ١ و ٢ في أصحاب الهادي والعسكري، والكشي: الرجال: برقم ٤١٦.

٢. النجاشي: الرجال: ٣٢٨/٢ برقم ٣٤٩.

٣. داود بن أسد بن أعفر:

أبو الأحوص البصري (رحمه الله) شيخ جليل، فقيه متكلم، من أصحاب الحديث، ثقة ثقة، وأبوه من شيوخ أصحاب الحديث الثقات، له كتب، منها: كتاب في الإمامة على سائر من خالفه من الأمم، والآخر مجرد الدلائل والبراهين، وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست في باب الكنى، وقال: إنه من جملة متكلمي الإمامية، لقيه الحسن بن موسى النوبختي، وأخذ عنه، واجتمع معه في الحائر على ساكنه السلام، وكان ورد للزيارة فيما أنه من مشايخ الحسن بن موسى النوبختي المعاصر للجبائي (المتوفى ٣٠٣ هـ) فهو من متكلمي القرن الثالث^(١).

٤. محمد بن عبد الله بن مملك الاصبهاني:

أصله من جرجان، وسكن اصبهان، جليل في أصحابنا، عظيم القدر والمنزلة كان معتزلياً ورجع على يد عبد الرحمن بن أحمد بن جبرويه (رحمه الله)، له كتب منها: كتاب الجامع في سائر أبواب الكلام كبير، وكتاب المسائل والجوابات في الإمامة، كتاب مواليد الأئمة عليهم السلام، كتاب مجالسه مع أبي علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣ هـ)^(٢).

٥. ثبيت بن محمد، أبو محمد العسكري:

صاحب أبي عيسى الوراق (محمد بن هارون) متكلم حاذق، من أصحابنا العسكريين، وكان أيضاً له اطلاع بالحديث والرواية، والفقه، له كتب:

١. النجاشي: الرجال: ١/ ٣٦٤، وفهرست الشيخ: ٢٢١.

٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٩٧ برقم ١٠٣٤.

١. كتاب توليدات بني أمية في الحديث، وذكر الأحاديث الموضوعة.

٢. الكتاب الذي يعزى إلى أبي عيسى الوراق في نقض العثمانية له.

٣. كتاب الأسفار.

٤. دلائل الأئمة عليهم السلام ^(١).

وبما أنه من أصحاب أبي عيسى الوراق، وقد توفي هو في ٢٤٧، فالرجل من متكلمي القرن الثالث.

٦. إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن هلال المخزومي:

أبو محمد، أحد أصحابنا، ثقة فيما يرويه، قدم العراق، وسمع أصحابنا منه، مثل أيوب بن نوح، والحسن بن معاوية، ومحمد بن الحسين، وعلي بن حسن بن فضال، له كتاب التوحيد، كتاب المعرفة، كتاب الإمامة.

وبما أن الراوي عنه كعلي بن حسن بن فضال من أصحاب الهادي والعسكري عليهما السلام، وقد توفي الإمام العسكري عام ٢٦٠، فهو في رتبة حسن بن علي ابن فضال، الذي هو من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام فيكون من متكلمي القرن الثالث ^(٢).

٧. محمد بن هارون:

أبو عيسى الوراق: له كتاب الإمامة، وكتاب السقيفة، وكتاب الحكم على سورة لم يكن، وكتاب اختلاف الشيعة والمقاتلات. وقال ابن حجر: له تصانيف

١. النجاشي: الرجال: ٢٩٣/١ برقم ٢٩٨، وثبت على وزان زبير.

٢. النجاشي: الرجال: ١٢٠/١ برقم ٦٦.

على مذهب المعتزلة. وقال المسعودي: له مصنفات حسان في الإمامة وغيرها وكانت وفاته سنة ٢٤٧^(١).

٨. إبراهيم بن سليمان بن أبي داحة المزني، مولى آل طلحة بن عبيد الله: أبو إسحاق، وكان وجه أصحابنا البصريين في الفقه والكلام والأدب والشعر، والجاحظ يحكي عنه، وقال الجاحظ (في البيان والتبيين): حدّثني إبراهيم ابن داحة عن محمد بن أبي عمير^(٢).

وبما أنّ استاذَه ابن أبي عمير توفي عام ٢١٧، والجاحظ، الراوي عنه توفي عام ٢٥٥، فهو من متكلمي القرن الثالث.

٩. الشَّكَّال:

قال ابن النديم: صاحب هشام بن الحكم وخالفه في أشياء إلّا في أصل الإمامة، وله من الكتب: كتاب المعرفة، كتاب في الاستطاعة، كتاب الإمامة، كتاب على من أبى وجوب الإمامة بالنص^(٣)، وبما أنّ هشاماً توفي عام ١٩٩، فالرجل من متكلمي أوائل القرن الثالث.

١٠. الحسين بن اشكيب:

شيخ لنا، خراساني ثقة مقدّم، ذكره أبو عمرو في كتاب الرجال في أصحاب

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٨٠ برقم ١٠١٧، ابن حجر: لسان الميزان: ج ٥ برقم ١٣٦٠، المحقق الداماد: الرواشح السّاوية: ٥٥ ومَرَّ ذكره في ترجمة ثبيت، وما في كلام ابن حجر من عدّه من المعتزلة، ناش عن الخلط بين المعتزلة والإمامية.

٢. النجاشي: الرجال: ١/ ٨٧ برقم ١٣؛ و٢/ ٢٠٥ برقم ٨٨٨؛ البيان والتبيين: ١/ ٦١.

٣. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٤.

أبي الحسن، صاحب العسكر عليه السلام، وصفه بأنه عالم متكلم مؤلف للكتب، المقيم بسمرقند وكش، وله من الكتب: كتاب الردّ على من زعم أن النبي كان على دين قومه، والردّ على الزيدية، وبما أنه من أصحاب أبي الحسن المتوفى عام ٢٦٠، فهو من متكلمي القرن الثالث^(١).

وعده الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام الهادي عليه السلام^(٢).

١١. عبد الرحمن بن أحمد بن جبرويه، أبو محمّد العسكري:

متكلم من أصحابنا، حسن التصنيف، جيد الكلام، وعلى يده رجع محمد ابن عبد الله بن مملك الاصبهاني عن مذهب المعتزلة، وقد كَلَّمَ عباد بن سليمان ومن كان في طبقة، وقع إلينا من كتبه: كتاب الكامل في الإمامة، كتاب حسن^(٣). وبما أن محمد بن عبد الله معاصر للجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣ هـ) وله مجالس معه^(٤)، فالرجل من متكلمي القرن الثالث، ولعله أدرك أوائل القرن الرابع.

١٢. علي بن منصور:

أبو الحسن، كوفي سكن بغداد، متكلم من أصحاب هشام، له كتب، منها: كتاب التدبير في التوحيد والإمامة^(٥)، وقال النجاشي في ترجمة هشام بن الحكم، كتاب التدبير في الإمامة، وهو جمع علي بن منصور من كلامه^(٦)، وبما أن هشام توفي عام ١٩٩، فالرجل من متكلمي القرن الثاني، وأوائل القرن الثالث.

١. النجاشي: الرجال: ١/ ١٤٦ برقم ٨٧.

٢. الشيخ الطوسي: الرجال: برقم ١٨.

٣. النجاشي: الرجال: ٢/ ٤٧ برقم ٦٢٣.

٤. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٩٧ برقم ١٠٣٤.

٥. النجاشي: الرجال: ٢/ ٧١ برقم ٦٥٦.

٦. النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٩٧ برقم ١١٦٥.

١٣. علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمار:

أبو الحسن، مولى بني أسد، كوفي، سكن البصرة، وكان من وجوه المتكلمين من أصحابنا، كَلَّمَ أبا الهذيل (١٣٥ - ٢٣٥ هـ) والنظام (١٦٠ - ٢٣١ هـ) له مجالس وكتب، منها: كتاب الإمامة، كتاب مجالس هشام بن الحكم، وكتاب المتعة. ^(١) وعده الشيخ في رجاله من أصحاب الرضا برقم ٥٢، فهو من متكلمي القرن الثالث.

وقال ابن النديم: أول من تكلم في مذهب الإمامة علي بن إسماعيل بن ميثم التمار، وميثم (جده) من جلة أصحاب علي رضي الله عنه، ولعلي من الكتب: كتاب الإمامة، كتاب الاستحقاق ^(٢).

متكلمو الشيعة في القرن الرابع:

١. الحسن بن علي بن أبي عقيل:

أبو محمد العماني، الحذاء، فقيه متكلم ثقة، له كتب في الفقه والكلام منها: كتاب «التمسك بحبل آل الرسول»، قال النجاشي: وقرأت كتابه المسمى: الكر والفر، على شيخنا أبي عبد الله المفيد (رحمه الله)، وهو كتاب في الإمامة، مليح الوضع.

وذكره الشيخ في الفهرست والرجال ^(٣)، وبما أنه من مشايخ أبي القاسم جعفر بن محمد المتوفى عام ٣٦٨ هـ، فالرجل من أعيان القرن الرابع، المعاصر للكليني، المتوفى عام ٣٢٩ هـ.

١. النجاشي: الرجال: ٧٢/٢ برقم ٦٥٩.

٢. الفهرست لابن النديم: ٢٦٣.

٣. النجاشي: الرجال: ١٥٣/١ برقم ٩٩، ولاحظ فهرست الشيخ: رقم ٢٠٤، ورجاله في باب من لم

يرو عنهم عليه السلام برقم ٥٣.

٢. إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت:

كان شيخ المتكلمين من أصحابنا وغيرهم، له جلالة في الدنيا والدين، يجري مجرى الوزراء في جلالة الكتاب، صنف كتباً كثيرة، منها: كتاب الاستيفاء في الإمامة، التنبيه في الإمامة - قال النجاشي: قرأته على شيخنا أبي عبد الله المفيد (رحمه الله) - كتاب الجمل في الإمامة، كتاب الردّ على محمد بن الأزهر في الإمامة، كتاب الردّ على اليهود، كتاب في الصفات للردّ على أبي العتاهية (١٣٠ - ٢١١هـ) في التوحيد في شعره، كتاب الخصوص والعموم والأسماء والأحكام، كتاب الإنسان والردّ على ابن الراوندي، كتاب التوحيد، كتاب الأرجاء، كتاب النفي والإثبات، مجالسه مع أبي علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣هـ) بالأهواز، كتاب في استحالة رؤية القديم، كتاب الردّ على المجبرة في المخلوق، مجالس ثابت بن أبي قرّة (٢٢١ - ٢٨٨هـ)، كتاب النقض على عيسى بن أبان في الاجتهاد، نقض مسألة أبي عيسى السراق في قدم الأجسام، كتاب الاحتجاج لنبوة النبي ﷺ، كتاب حدوث العالم^(١).

وقال ابن النديم: أبو سهل إسماعيل بن علي بن نوبخت من كبار الشيعة وكان أبو الحسن الناشئ يقول: إنّه أستاذه وكان فاضلاً، عالماً، متكلماً، وله مجالس بحضرة جماعة من المتكلمين ... وذكر فهرس كتبه^(٢).

٣. الحسين بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه:

أخو الصدوق القمي أبو عبد الله، ثقة روى عن أبيه إجازة، وله كتب، منها: كتاب التوحيد ونفي التشبيه، وكتاب عمله للصاحب أبي القاسم بن عباد (٣٢٦هـ).

١. النجاشي: الرجال: ١/ ١٢١ برقم ٦٧ (وهو خال الحسن بن موسى مؤلف فرق الشيعة).

٢. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٥.

٣٨٥هـ) وقد توفي أخوه عام ٣٨١هـ، فهو من أعيان القرن الرابع، وهو وأخوه ولدا بدعوة صاحب الأمر، ترجمه ابن حجر في لسان الميزان^(١).

٤. محمّد بن بشر الحمدوني «أبو الحسن السوسنجردي»:

متكلّم جيّد الكلام، صحيح الاعتقاد، كان يقول بالوعيد، له كتب منها: كتاب المقنع في الإمامة، كتاب المنقذ في الإمامة^(٢).

وقال ابن النديم: السوسنجردي من غلمان أبي سهل النوبختي، يكنّى أبا الحسن، ويعرف بالحمدوني منسوباً إلى آل حمدون، وله من الكتب: كتاب الإنقاذ في الإمامة^(٣).

وقال ابن حجر: كان زاهداً ورعاً متكلّماً، على مذهب الإمامية، وله مصنفات في نصرته مذهبه^(٤).

٥. يحيى أبو محمّد العلويّ من بني زيارة:

علويّ، سيّد، متكلّم، فقيه، من أهل نيشابور، قال الشيخ الطوسي: جليل القدر، عظيم الرياسة، متكلّم، حاذق، زاهد، ورع، لقيت جماعة ممّن لقوه وقرأوا عليه، له كتاب إبطال القياس، وكتاب في التوحيد^(٥)، وعلى هذا فالرجل في درجة شيخ مشايخ الطوسي، فهو من متكلّمي القرن الرابع.

١. النجاشي: الرجال: ١/ ١٨٩ برقم ١٦١، ابن حجر: لسان الميزان: ٢/ ٣٠٦ برقم ١٢٦٠.

٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٩٧ برقم ١٠٣٧.

٣. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٦.

٤. ابن حجر: لسان الميزان: ٥/ ٩٣ برقم ٣٠٤.

٥. النجاشي: الرجال: ٢/ ٤١٣ برقم ١١٩٢، وقد جاءت ترجمته أيضاً برقم ١١٩٥؛ الشيخ الطوسي:

الفهرست: برقم ٨٠٣.

٦. محمد بن القاسم، أبو بكر:

بغداديّ، متكلم، عاصر ابن همام، له كتاب في الغيبة، كلام^(١) وابن همام هو محمد بن أبي بكر بن سهيل الكاتب الاسكافي الذي ترجم له النجاشي في رجاله برقم ١٠٣٣.

وذكره الخطيب في تاريخه (٣/ ٣٦٥)، وقال: أحد شيوخ الشيعة، ولد عام ٢٥٨ هـ، وتوفي عام ٣٣٨. وعلى هذا فالترجم من متكلمي أوائل القرن الرابع.

٧. محمد بن عبد الملك بن محمد التبان:

يكنى أبا عبد الله، كان معتزلياً، ثم أظهر الانتقال، ولم يكن ساكناً له كتاب في تكليف من علم الله أنه يكفر، وله كتاب في المعدوم، ومات لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ٤١٩ هـ^(٢). وعلى هذا فهو من متكلمي القرن الرابع وأوائل الخامس.

٨. محمد بن عبد الرحمن بن قبة الرازي أبو جعفر:

متكلم، عظم القدرة، حسن العقيدة، قوي في الكلام، كان قديماً من المعتزلة، وتبصر وانتقل، له كتب في الكلام، وقد سمع الحديث، وأخذ عنه ابن بطّة وذكره في فهرسته الذي يذكر فيه من سمع منه فقال: وسمعت من محمد بن عبد الرحمن بن قبة.

له كتاب الانصاف في الإمامة، وكتاب المستثبت نقض كتاب أبي القاسم البلخي (المتوفى ٣١٩ هـ)، وكتاب الرد على الزيدية، وكتاب الرد على أبي علي الجبائي، المسألة المفردة في الإمامة.

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٩٨ برقم ١٠٣٦.

٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٣٣ برقم ١٠٧٠.

قال النجاشي: سمعت أبا الحسين السوسنجردي (رحمه الله) وكان من عيون أصحابنا وصالحهم المتكلمين، وله كتاب في الإمامة معروف به، وقد كان حجّ على قدميه خمسين حجة، يقول: مضيت إلى أبي القاسم البلخي إلى بلخ بعد زيارتي الرضا عليه السلام بطوس فسلمت عليه وكان عارفاً بي ومعني كتاب أبي جعفر بن قبة في الإمامة المعروف بالانصاف، فوقف ونقضه بالمسترشد في الإمامة فعدت إلى الريّ، فدفعت الكتاب إلى ابن قبة فنقضه بالمستثبت في الإمامة، فحملته إلى أبي القاسم فنقضه بنقض المستثبت، فعدت إلى الريّ فوجدت أبا جعفر قد مات رحمه الله^(١).

وقال ابن النديم: أبو جعفر بن محمد بن قبة من متكلمي الشيعة وحذاقهم، وله من الكتب: كتاب الانصاف في الإمامة، كتاب الإمامة^(٢).

وقال العلامة: وكان حاذقاً شيخ الإمامية في عصره^(٣).

٩. عليّ بن وصيف، أبو الحسن الناشئ (٢٧١-٣٦٥ هـ):

الشاعر المتكلم، ذكر شيخنا (رضي الله عنه) أنّ له كتاباً في الإمامة^(٤).

قال الطوسي: كان متكلماً شاعراً مجوّداً، وله كتب ...^(٥).

قال ابن خلكان: من الشعراء المحيّن، وله في أهل البيت قصائد كثيرة، وكان متكلماً بارعاً، أخذ علم الكلام عن أبي سهل إسماعيل بن عليّ بن نوبخت

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٨٨ برقم ١٠٢٤.

٢. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٢.

٣. العلامة: الخلاصة: ١٦٣، القسم الأوّل.

٤. النجاشي: الرجال: ٢/ ١٠٥ برقم ٧٠٧.

٥. الطوسي: الفهرست: ١١٥، ط النجف.

المتكلم، وكان من كبار الشيعة، وله تصانيف كثيرة، وقال ابن كثير: إنه كان متكلماً، بارعاً، من كبار الشيعة، فهو من متكلمي القرن الرابع^(١).

١٠. الحسن بن موسى، أبو محمد النوبختي:

شيخنا المبرز على نظرائه في زمانه قبل الثلاثمائة وبعدها، له على الأوائل كتب كثيرة، منها: ١. كتاب الآراء والديانات، يقول النجاشي: كتاب كبير حسن يحتوي على علوم كثيرة قرأت هذا الكتاب على شيخنا أبي عبد الله المفيد - رحمه الله - ٢. كتاب فرق الشيعة ٣. كتاب الرد على فرق الشيعة ما خلا الإمامية ٤. كتاب الجامع في الإمامة ٥. كتاب الموضح في حروب أمير المؤمنين ٦. كتاب التوحيد الكبير ٧. كتاب التوحيد الصغير ٨. كتاب الخصوص والعموم ٩. كتاب الأرزاق والأجال والأسعار ١٠. كتاب كبير في الجبر ١١. مختصر الكلام في الجبر ١٢. كتاب الرد على المنجمين ١٣. كتاب الرد على أبي علي الجبائي في رده على المنجمين ١٤. كتاب النكت على ابن الراوندي ١٥. كتاب الرد على من أكثر المنازلة ١٦. كتاب الرد على أبي الهذيل العلاف في أن نعيم أهل الجنة منقطع ١٧. كتاب الانسان غير هذه الجملة ١٨. كتاب الرد على الواقفة ١٩. كتاب الرد على أهل المنطق ٢٠. كتاب الرد على ثابت بن قرة ٢١. الرد على يحيى بن أصفح في الإمامة ٢٢. جواباته لأبي جعفر بن قبة ٢٣. جوابات أخر لأبي جعفر ٢٤. شرح مجالسه مع أبي عبد الله بن مملك ٢٥. حجج طيعية مستخرجة من كتب ارسطاطاليس في الرد على من زعم أن الفلك حي ناطق ٢٦. كتاب في المرايا وجهة الرؤية فيها ٢٧. كتاب في خبر الواحد والعمل به ٢٨. كتاب في الاستطاعة على مذهب هشام وكان يقول به

٢٩. كتاب في الردّ على من قال بالرؤية للباري عزّ وجلّ ٣٠. كتاب الاعتبار والتميز والانتصار ٣١. كتاب النقض على أبي الهذيل في المعرفة ٣٢. كتاب الردّ على أهل التعجيز، وهو نقض كتاب أبي عيسى الوراق ٣٣. كتاب الحجج في الإمامة ٣٤. كتاب النقض على جعفر بن حرب (١٧٧-٢٣٦ هـ) في الإمامة ٣٥. مجالسه مع أبي القاسم البلخي (المتوفى ٣١٩ هـ) ٣٦. كتاب التنزيه وذكر متشابه القرآن ٣٧. الردّ على أصحاب المنزلة بين المنزلتين في الوعيد ٣٨. الردّ على أصحاب التناسخ ٣٩. الردّ على المجسّمة ٤٠. الردّ على الغلاة ٤١. مسائله للجبائي في مسائل شتى^(١).

والرجل من أكابر متكلمي الشيعة، عاصر الجبائي (المتوفى ٣٠٣)، والبلخي (المتوفى ٣١٩)، وأبا جعفر بن قبة المتوفى قبل البلخي، فهو من أعيان متكلمي الشيعة في أواخر القرن الثالث، وأوائل القرن الرابع.

وقال ابن النديم: أبو محمد الحسن بن موسى ابن أخت بن سهل بن نوبخت، متكلم، فيلسوف كان يجتمع إليه جماعة من النقلة لكتب الفلسفة، مثل: أبي عثمان الدمشقي، وإسحاق، وثابت وغيرهم وكانت المعتزلة تدعيه، والشيعة تدعيه، ولكنه إلى حيّز الشيعة ما هو (كذا) لأنّ آل نوبخت معروفون بولاية عليّ وولده عليه السلام في الظاهر، فلذلك ذكرناه في هذا الموضع... وله مصنّفات وتأليفات في الكلام والفلسفة وغيرها، ثم ذكر فهرس كتبه ولم يذكر إلّا القليل من الكثير^(٢). إنّ بيت «نوبخت» من أرفع البيوتات الشيعية خرج منه فلاسفة كبار، ومتكلمون عظام، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب المؤلفة في هذا الصدد.

١. النجاشي: الرجال: ١/ ١٧٩ برقم ١٤٦، ترجمه ابن حجر في لسان الميزان: ٢/ ٢٥٨ برقم ١٠٧٥، وترجمه هبة الدين الشهرستاني في مقدمة فرق الشيعة.

٢. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٥-٢٦٦: الفن الثاني من المقالة الخامسة.

متكلمو الشيعة في القرن الخامس:

بلغ علم الكلام في أوائل القرن الخامس إلى ذروة الكمال، وظهر في الأوساط الشيعية رواد كبار، نشير إلى ثلثة منهم:

١. الشيخ المفيد (٣٣٦-٤١٣ هـ)

الشيخ المفيد من الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي، الذي احتفلت بذكره وذكر آثاره كتب التاريخ والتراجم والذي لا يضمن بمثله الدهر إلا في فترات يسيرة، فهو في حقل الكلام متكلم بارع له آراء ونظريات جعلته صاحب منهج فيه، وفي حقل الفقه سيد الفقهاء وأستاذهم والذي هذب وأشاد بنيانه ورفع قواعده بكتبه ورسائله الفقهية التي من أبرزها كتاب المقنعة، وفي مجال الحديث والتاريخ أستاذ بلا منازع، إلى غير ذلك من صلاحيات مما تعرب أنه من أصحاب المواهب الكبيرة والمؤهلات العظيمة التي منحها الله له في مجال العلم والكمال.

وقد سارت بذكره الركبان في حياته من قبل معاصريه فعمدوا كتبهم بذكره الجميل وسطرت أقلامهم له أنصع الصفحات.

١. هذا هو ابن النديم معاصره يعرفه في الفهرست بقوله: «ابن المعلم، أبو عبد الله، في عصرنا انتهت رئاسة متكلمي الشيعة إليه، مقدّم في صناعة الكلام على مذهب أصحابه، دقيق الفطنة، ماضي الخاطرة شاهدته، فرأيتُه بارعاً...»^(١).

والمعروف أنّ ابن النديم ألف الفهرست عام ٣٧٧ هـ، وعلى ضوء هذا فالمفيد انتهت إليه رئاسة متكلمي الشيعة وله من العمر ما لا يجاوز الخمسين.

٢. وقال الحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي (المتوفى ٤٦٣ هـ):

«أبو عبد الله المعروف بابن المعلم، شيخ الرافضة، والمتعلّم على مذهبهم،

١. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٦، في فصل أخبار متكلمي الشيعة.

صنّف كتباً كثيرة»^(١).

٣. وقال عبد الرحمن ابن الجوزي (المتوفى ٥٩٧ هـ):

«شيخ الإمامية وعالمها، صنّف على مذهبه، ومن أصحابه المرتضى، كان لابن المعلّم مجلس نظر بداره، بدرب رياح، يحضره كافة العلماء، له منزلة عند أمراء الأطراف، ليلهم إلى مذهبهم»^(٢).

٤. وقال أبو السعادات عبد الله بن أسعد اليافعي (المتوفى ٧٦٨ هـ):

«وفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة توفي عالم الشيعة، وإمام الرافضة صاحب التصانيف الكثيرة، شيخهم المعروف بالمفيد، وابن المعلّم أيضاً، البارع في الكلام والجدل والفقّه، وكان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية، قال ابن أبي طي: وكان كثير الصدقات، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، خشن اللباس، وقال غيره: كان عضد الدولة ربّما زار الشيخ المفيد، وكان شيخاً ربعة نحيفاً أسمر، عاش ستاً وسبعين سنة وله أكثر من مائتي مصنّف وكانت جنازته مشهودة وشيّعه ثمانون ألفاً من الرافضة والشيعة»^(٣).

٥. ووصفه أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (المتوفى ٧٧٤ هـ)

بقوله:

«شيخ الإمامية الروافض، والمصنّف لهم، والمحامي عن حوزتهم، وكان يحضر مجلسه خلق كثير من العلماء وسائر الطوائف»^(٤).

٦. وقال الذهبي (المتوفى ٧٤٨ هـ):

«محمد بن محمد بن النعمان، الشيخ المفيد، عالم الرافضة، أبو عبد الله ابن

١. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: ٣/ ٣٣١ برقم ١٧٩٩.

٢. ابن الجوزي: المنتظم: ١٥/ ١٥٧. ٣. اليافعي: مرآة الجنان: ٣/ ٢٨، طبع الهند.

٤. ابن كثير: البداية والنهاية: ١١/ ١٥.

المعلّم، صاحب التصانيف، وهي مائتا مصنف^(١). ويعرّفه في كتاب آخر بقوله: عالم الشيعة، وإمام الرافضة وصاحب التصانيف الكثيرة، قال ابن أبي طي في تاريخه (تاريخ الإمامية): هو شيخ مشايخ الطائفة، ولسان الإمامية، ورئيس الكلام والفقه والجدل، وكان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية^(٢).

٧. وقال ابن حجر (المتوفى ٨٥٢ هـ) - بعد نقل ما ذكره الذهبي: «كان كثير التعقيب والتخشع والاكباب على العلم، تخرّج به جماعة، وبرع في المقالة الإمامية حتى يقال: له على كل إمام منّة، وكان أبوه معلماً بواسط، وما كان المفيد ينام من الليل إلّا هجعة، ثم يقوم يصلي أو يطالع أو يدرس أو يتلو القرآن»^(٣).

٨. وقال ابن العماد الحنبلي (المتوفى ١٠٨٩ هـ) في حوادث سنة ٤١٣ هـ: «وفيها (توفي) المفيد، ابن المعلّم، عالم الشيعة، إمام الرافضة، وصاحب التصانيف الكثيرة، قال ابن أبي طي في تاريخ الإمامية: هو شيخ مشايخ الطائفة ولسان الإمامية، رئيس في الكلام، والفقه والجدل، وكان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية»^(٤).

هذا ما قاله علماء السنّة، وأمّا الشيعة فنقتصر على كلام تلميذه: الطوسي والنجاشي، ونترك الباقي لمرجي حياته:

١. يقول الشيخ الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) في الفهرست: «المفيد يكنى أبا عبد الله، المعروف بابن المعلّم، من أجلة متكلمي الإمامية،

١. الذهبي: ميزان الاعتدال: ٤/ ٣٠ برقم ٨١٤٣. ٢. الذهبي: العبر: ٢/ ٢٢٥.

٣. ابن حجر: لسان الميزان: ٥/ ٣٦٨ برقم ١١٩٦.

٤. عماد الدين الحنبلي: شذرات الذهب: ٣/ ١٩٩، وفي مكان الطائفة الصوفية وهو لحن. وقد نقل ما ذكره في كتابه مما ذكره الذهبي حرفياً.

انتهت إليه رئاسة الإمامية في وقته في العلم، وكان مقدّماً في صناعة الكلام، وكان فقيهاً متقدماً فيه، حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب، وله قريب من مائتي مصنف كبار وصغار، وفهرست كتبه معروف ولد سنة ٣٣٨، وتوفي لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة ٤١٣ هـ، وكان يوم وفاته يوماً لم ير أعظم منه من كثرة الناس للصلاة عليه وكثرة البكاء من المخالف والموالف»^(١).

٢. ويقول تلميذه الآخر النجاشي (٣٧٢ - ٤٥٠ هـ):

«شيخنا واستاذنا (رضي الله عنه) فضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية والوثاقة والعلم» ثم ذكر تصانيفه^(٢).

وهذه الكلمات توقفنا على حقيقة الحال، وأنه لم يكن يومذاك للشيعنة متكلم أكبر منه، وكفى في ذلك أنه تخرج على يديه لفيف من متكلمي الشيعة نظير السيد المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ)، والشيخ الطوسي، وهما كوكبان في سماء الكلام، وحاميان عظيمان عن حياض التشيع، بالبيان والبيان.

٢. علي بن الحسين الشريف المرتضى (٣٥٥-٤٣٦ هـ)

تلميذ الشيخ المفيد، عرفه تلميذه النجاشي بقوله: حاز من العلوم ما لم يدانه فيه أحد في زمانه، وسمع من الحديث فأكثر، وكان متكلماً شاعراً، أدبياً، عظيم المنزلة في العلم والدين والدنيا، ومن كتبه الكلامية: «الشافى» في نقض المغني للقاضي عبد الجبار في قسم الإمامة، وكتاب «تنزيه الأنبياء والأئمة» و«الذخيرة» في علم الكلام، وغيرها من الرسائل^(٣) وشرح جمل العلم والعمل.

١. الشيخ الطوسي: الفهرست: برقم ٧١٠.

٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٢٧ برقم ١٠٦٨.

٣. النجاشي: الرجال، برقم ٧٠٦.

٣. أبو الصلاح التقي بن الحلبي (٣٧٤-٤٤٧هـ)

مؤلف «تقريب المعارف» في الكلام مطبوع.

٤. وأخبرهم لا آخرهم محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ)

يعرفه زميله النجاشي بقوله: جليل من أصحابنا، ثقة، عين، من تلاميذ شيخنا أبي عبد الله.

ويعرفه العلامة بقوله: شيخ الإمامية ورئيس الطائفة، جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة، عين، صدوق، عارف بالأخبار والرجال و الفقه و الأصول، و الكلام والأدب، وجميع الفضائل تنتسب إليه، وله في الكلام كتب كثيرة منها: الجمل والعقود، تلخيص الشافي في الإمامة، ومقدمة في المدخل إلى علم الكلام^(١)، والاقتصاد، والرسائل العشر.

متكلمو الشيعة في القرن السادس

ما إن أطل القرن السادس إلّا وقد أفل نجم المعتزلة حيث وُضع فيهم السيف من قبل الخلافة العباسية، وكان غيابهم عن المسرح الفكري خسارة جسيمة للمنهج العقلي، وقد بلغ التعصب بمكان أنّه أحرقت كتبهم، وقتل اعلامهم، وشرّد لفيف منهم، والحديث ذو شجون.^(٢)

ومع إطلالة هذا القرن بدأت تلوح علامات الضغط والكبت على الشيعة، وقد وضع صلاح الدين الأيوبي السيف على عنق الشيعة في حلب وغيرها، وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر في هذا القرن أفذاذ في علم الكلام، نذكر منهم على سبيل المثال:

١. النجاشي: الرجال، برقم ١٠٦٩، والخلاصة: ١٤٨.

٢. لاحظ الجزء الثالث من كتابنا بحوث في الملل والنحل.

١. محمد بن أحمد بن علي الفتال النيسابوري (المتوفى ٥١٣هـ)

المعروف بابن الفارسي، عرّفه ابن داود في رجاله بقوله : متكلم جليل القدر، فقيه، عالم، زاهد، ورع، قتله أبو المحاسن عبد الرزاق رئيس نيشابور الملقب بشهاب الإسلام.^(١)

اشتهر في أيام شبابه و ارتفع شأنه فاستفتي، و سئل عن مسائل في الكلام، و صنّف كتاب «التنوير في معاني التفسير» و كتاب «روضة الواعظين وبصيرة المتعظين» في علم الكلام و الأخلاق والآداب، وهو كتاب قيّم، طبع أكثر من مرّة. استشهد في أيام وزارة أبي المحاسن عبد الرزاق بن عبد الله بن أخي نظام الملك سنة ٥١٣ أو ٥١٥هـ.

٢. قطب الدين المقرئ النيسابوري

من مشايخ السيد ضياء الدين أبي الرضا فضل الله الراوندي (المتوفى حدود ٥٤٧هـ) مؤلف كتاب الحدود (المعجم الموضوعي للمصطلحات الكلامية) وقد طبع، وله كتاب كلامي قيم مخطوط عسى أن نقوم بنشره بإذن الله سبحانه.

٣. الفضل بن الحسن الطبرسي

مؤلف مجمع البيان (المتوفى ٥٤٨هـ) و له في تفسيره بحوث كلامية مهمة.

١. رجال أبي داود، ص ٢٩٥ برقم ١٢٧٤.

٤. الحسين بن علي بن محمد بن أحمد (المتوفى ٥٥٢هـ)
المعروف بـ «أبي الفتح الرازي» وكتابه المعروف بـ «روض الجنان» مشحون
بالبحوث الكلامية.

٥. قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي (المتوفى ٥٧٣هـ)
مؤلف كتاب «تهافت الفلاسفة» و جواهر الكلام في شرح مقدمة الكلام.

٦. سديد الدين الشيخ محمود الحمصي (المتوفى في أواخر القرن السادس)
مؤلف «المنقذ من التقليد» مطبوع.

٧. أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي
صاحب «الاحتجاج» توفي في أواسط القرن السادس.

٨. السيد حمزة بن علي بن زهرة الحلبي (٥١١-٥٨٥هـ)
له كتاب «غنية النزوع في علمي الأصول والفروع» يقع في جزءين، والكتاب
يشتمل على علوم ثلاثة: الكلام والفقه وأصوله، وقد طبع الكتاب أخيراً
بتحقيق الشيخ إبراهيم البهادري شكر الله مساعيه، و ترجمنا المؤلف في الجزء
الأول ترجمة وافية.

٩. محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (المتوفى ٥٨٨هـ)
أخذ عن المتكلم أبي سعيد عبد الجليل بن أبي الفتح الرازي .
قال الصفدي: أحد شيوخ الشيعة، حفظ القرآن وله ثمان سنين، وبلغ
النهاية في أصول الشيعة، كان يرحل إليه في البلاد، توفي عام ٥٨٨هـ.^(١)

متكلمو الشيعة في القرن السابع:

لقد تزامن طلوع القرن السابع مع اضطراب الأوضاع السياسيّة الحاكمة على معظم الأمصار الإسلامية لا سيما الحروب الصليبية التي تركت مضاعفات خطيرة في الحواضر الإسلامية، وقد تزامن هذا الوضع مع هجوم شرس من قبل الوثنيين من المشرق الذين جرّوا السويل و الدمار على المسلمين في المشرق الإسلامي، وامتدّ سلطانهم إلى بغداد وأعقبها انقراض الدولة العباسية. وعلى الرغم من تلك الأوضاع العصيبة، كان للعلوم العقلية نشاط ملموس في الأوساط الشيعيّة، نذكر من متكلميهم ما يلي:

١. سديد الدين بن عزيزة الحلبي (المتوفى حوالي ٦٣٠هـ)

سالم بن محفوظ بن عزيزة بن وشاح، شيخ المتكلمين، سديد الدين السورايي الحلبي، و يقال له: سالم بن عزيزة.

كان من كبار متكلمي الشيعة، صنف كتاب «التبصرة» وكتاب «المنهاج» في علم الكلام، وأخذ عنه المحقق جعفر بن الحسن الحلبي (المتوفى ٦٧٦هـ) علم الكلام و شيئاً من الفلسفة وقرأ عليه المنهاج.

٢. الشيخ كمال الدين علي بن سليمان البحراني (المتوفى حوالي ٦٥٦هـ)

أستاذ الشيخ ميثم البحراني، له كتاب الإشارات في الكلام والحكمة.

وصفه السيد الصدر بقوله: كان وحيد عصره، و فريد دهره في العلوم العقلية و النقلية، صنّف الإشارات في الكلام، وشرحها تلميذه المحقق ميثم البحراني، وله رسالة العلم التي شرحها المحقق نصير الدين الطوسي^(١) (المتوفى عام ٦٧٢هـ).

١. الذريعة: ٩٦/٢ وتأسيس الشيعة، ص ٣٩٥.

٣. نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي (٥٩٧-٦٧٢هـ)

وهو شخصية فذة يعجز القلم عن وصفه، فقد كان علامة عصره في الكلام والحكمة والعلوم الرياضية والفلكية.

له «شرح الإشارات» الذي فرغ منه عام ٦٤٤هـ وهو شرح لإشارات الشيخ الرئيس ابن سينا، وقد فند فيها أكثر ما أورده الرازي من الشكوك التي أثرت حول آراء الشيخ.

ويعد كتاب شرح الإشارات من أفضل الكتب الدراسية في الحكمة إلى يومنا هذا، ويكفي في حق مترجما ما قاله العلامة في هذا المضمار.

قال: كان هذا الشيخ أفضل أهل عصره في العلوم العقلية والنقلية، وله مصنفات كثيرة في العلوم الحكيمة والأحكام الشرعية على مذهب الإمامية، وكان أشرف من شاهدناه في الأخلاق - نضر الله مضجعه - قرأت عليه إلهيات الشفاء لأبي علي بن سينا، وبعض التذكرة في الهيئة.

٤. كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني

المعروف بالعالم الرباني المبرز في جميع الفنون الإسلامية لا سيما في الحكمة والكلام والأسرار العرفانية، اتفقت كلمة الجميع على إمامته ولد عام ٦٣٦هـ وتوفي عام ٦٩٦هـ له كتاب «قواعد المرام في علم الكلام» المطبوع وله «شرح نهج البلاغة» الذي صنّفه للصاحب خواجه عطاء الملك الجويني، وهو شرح مشحون بالمباحث الكلامية والحكيمة والعرفانية، فرغ منه عام ٦٧٦هـ.

٥. الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الأسدي (٦٤٨-٧٢٦هـ)

شيخ الإسلام، المجتهد الأكبر، المتكلم الفذ، الباحث الكبير، جمال الدين

أبو منصور المعروف بالعلامة الحلي، وبآية الله على الإطلاق، و بابت المطهر، ولد في شهر رمضان سنة ٦٤٨ هـ و أخذ عن والده الفقيه المتكلم البارع سديد الدين يوسف، و عن خاله شيخ الإمامية المحقق الحلي الذي كان له بمنزلة الأب الشفيق، فحظا باهتمامه ورعايته، ولزم الفيلسوف الكبير نصير الدين الطوسي مدة و اشتغل عليه في العلوم العقلية وبرع فيها وهو لا يزال في مقتبل عمره.

يعرفه معاصره أبو داود الحلي، بقوله: شيخ الطائفة، وعلامة وقته، وصاحب التحقيق و التدقيق، كثير التصانيف، انتهت رئاسة الإمامية إليه في المعقول والمنقول.^(١)

وقال الصفدي: الإمام العلامة ذو الفنون، عالم الشيعة وفقههم، صاحب التصانيف التي اشتهرت في حياته... و كان يصنف و هو راكب... و كان ريف الأءلاق، مشتهر الذكر... و كان إماماً في الكلام والمعقولات.^(٢)

وقال ابن حجر في لسان الميزان: عالم الشيعة وإمامهم ومصنفهم، وكان آية في الذكاء... و كان مشتهر الذكر، حسن الأءلاق.^(٣)

إن شخصية كل إنسان زهن الآثار التي خلفها على الصعيد التربوي والعلمي.

أما الجانب الأول فكفى أنه ربى جيلاً كبيراً من رواد العلم في المنقول والمقول، و يشهد على ذلك كثرة المتخرجين على يديه في كلا الحقلين.

ففي حقل الفقه و الأصول تخرج عليه: ولده فخر المحققين، وزوج أخته مجد الدين أبو الفوارس محمد بن علي بن الأعرج الحسيني، وولدا أبي الفوارس:

١. رجال أبي داود: ١١٩ برقم ٤٦١.

٢. الوافي بالوفيات: ١٣ / ٨٥ برقم ٧٩.

٣. لسان الميزان: ٢ / ٣١٧.

عميد الدين عبد المطلب وأخوه ضياء الدين، و مهتأ بن سنان بن عبد الوهاب الحسيني المدني، وقد ألّف كتاب باسمه أسماه «المسائل المهنائية»، وتاج الدين محمد بن القاسم بن معية الحسيني، وركن الدين محمد بن علي بن محمد الجرجاني، والحسين بن إبراهيم بن يحيى الاسترابادي، والحسين بن علي بن إبراهيم بن زهرة الحسيني الحلبي، وأبو المحاسن يونس بن ناصر الحسيني الغروي المشهدي، وعلي ابن محمد بن رشيد الآوي.

وفي حقل المعقول ربّي جيلاً كثيراً في طليعتهم: محمد بن محمد قطب الدين أبو عبد الله الرازي (٦٩٤-٧٦٦هـ) مصنف كتاب «تحرير القواعد المنطقية في شرح الشمسية» و «لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار»، «تحقيق معنى التصور والتصديق» و «المحاكمات بين الإمام والنصير»، كلّها مطبوعة.

هذا كلّه في الجانب التربوي، وأمّا الجانب العلمي فالآثار والمصنّفات التي خلفها وبقيت خالدة على جبين الدهر كثيرة يضيّق المجال عن ذكر جميعها.

ولا نبالغ لو قلنا بأنّ آثاره تعد موسوعة كبيرة في جل العلوم الإسلامية، فقد ألّف في الفقه عدة دورات كـ «تبصرة المتعلمين» و «إرشاد الأذهان»، و«تحرير الأحكام الشرعية» و«قواعد الأحكام»، و«تذكرة الفقهاء»، و «منتهى المطلب» فالكتب الأربعة الأولى تعد دورة فقهية كاملة، ولكنّه ﷺ لم يثم الكتابين الأخيرين.

وأما في حقل المعقول والكلام فكفى في حقّه أنّه ألف قرابة عشرين كتاباً ورسالة في ذلك المضمار، وبما أنّا بصدد التقديم لموسوعته الكلامية المسماة «نهاية المرام» نشير إلى أسماء كتبه التي ألّفها في حقل الكلام والعقائد وإليك بيانها.

الثروة العلمية الكلامية للعلامة الحلّي

قد وقفت على مكانة العلامة الحلّي في علم الكلام، وإنّه أحد الرواد الأفاضل في ذلك المضمار فقد خلّف تراثاً كلامياً ضخماً أثري المكتبة الإسلامية حيث ألف كتباً كلامية على مستويات مختلفة، بين موجز اقتصر فيه على بيان رؤوس المسائل، ومتوسط أردف المسائل الكلامية بنوع من البرهان، ومسهب بسط الكلام في نقل الآراء ونقدها والبرهنة على مذهبه ومختاره.

وهانحن نستعرض أسماء كتبه الكلامية:

١. الأبحاث المفيدة في تحصيل العقيدة

رسالة موجزة أورد فيها المباحث الكلامية في ثمانية فصول، وقد عبّر عنها بنفس ذلك الاسم في رجاله^(١) وفي الوقت نفسه عبّر عنها في أجوبة المسائل المهنائية بـ«الأبحاث المفيدة في تحقيق العقيدة» وشرحها الشيخ ناصر بن إبراهيم البويهي الإحسائي (المتوفى ٨٥٣هـ) والحكيم السبزواري (المتوفى ١٢٨٩هـ) وتوجد النسختان مع الشرح في المكتبة الرضوية^(٢) وقمنا بنشر هذه الرسالة بتحقيق العلامة الشيخ يعقوب الجعفري على صفحات مجلة علم الكلام^(٣).

٢. استقصاء النظر في البحث عن القضاء والقدر

رسالة موجزة أورد فيها مباحث القضاء والقدر، وطرح فيها المذاهب

١. الخلاصة للعلامة الحلّي: ٤٥.

٢. لاحظ فهرس المكتبة الرضوية في مشهد: ٣٢٠.

٣. مجلة علم الكلام، السنة الأولى، العدد الثالث، مجلة فصلية تصدرها مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام للبحوث والدراسات العليا وهي في سنتها السابعة.

المختلفة في أفعال العباد، ثم أقام البراهين العقلية على مذهب العدلية، كما أردف براهينه بما ورد في الكتاب العزيز.

وقد طبعت الرسالة عام ١٣٥٤هـ بتحقيق الشيخ علي الخاقاني في النجف الأشرف، ووقفنا على نسخة خطية في مكتبة مدرسة الطالبية بتهريز، فقبولت النسختان المطبوعة والمخطوطة، وطبعت بتحقيق شيخنا يعقوب الجعفري على صفحات مجلة الكلام الإسلامي السنة الثانية، العدد الثاني.

٣. الألفين الفارق بين الصدق والمين

وقد ألفه لولده محمد المعروف بفخر المحققين (المتوفى ٧٧٢هـ)، ذكر في مقدمته أنّ الكتاب يشتمل على ألف دليل على إمامة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وألف دليل على إبطال شبهات الطاعنين.

وقد طبع غير مرة وطبع أخيراً ببيروت بطبعة منقحة رشيقة والنسخة الخطية متوفرة، بيد أنّ المطبوع منه طبع تحت عنوان الألفين في إمامة أمير المؤمنين، ولكن العلامة الحليّ عبّر عنه في فهرس مصنفاته ومقدمة الكتاب بما ذكرنا.

٤. أنوار الملكوت في شرح الياقوت

أما الياقوت فهو تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن نوبخت (المتوفى ٣١٠هـ) كما ذكره العلامة في مقدمة الكتاب^(١) و الشرح للعلامة الحليّ، وقد طبع بتحقيق محمد النجدي الزنجاني عام ١٣٧٨هـ ولا يخلو المطبوع من هن وهنات، لا سيما و أنّه حذف الفصل الأخير من الكتاب ممّا يرجع إلى أحكام المخالفين

١. وقيل أنّه تأليف إسماعيل بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت كما عليه التهريزي في رياض العلماء: ٣٨/٦.

والبغاة.

ولما كان الكتاب المطبوع مبتوراً حاول الشيخ يعقوب الجعفري نشر الفصل الأخير منه في مجلة الكلام الإسلامي^(١) في ضمن عدددين. وقد أوعز العلامة في كتابه هذا، إلى كتاب «مناهج اليقين» وكتاب «معارج الفهم» و«نهاية المرام» والجميع من تأليفه.

٥. الباب الحادي عشر

وهو رسالة مختصرة في العقائد الإمامية كتبه حينما اختصر «مصباح المتجهّد» للشيخ الطوسي التي ألفها في الأدعية والعبادات، اختصره العلامة في أبواب عشرة وأضاف إليها «الباب الحادي عشر» في العقائد. وأسمى الجميع «مناهج الصلاح في مختصر المصباح»، وهذه الرسالة لم تنزل مطمحاً للأُنظار فكتب عليها شروح وتعليقات، أشهرها ما كتبه الفاضل المقداد الذي أسماه بـ«النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر» وهي رسالة دراسية في الحوزات الشيعية إلى يومنا هذا.

وقد قام الفاضل المقداد (المتوفى ٨٢٨هـ) بشرحها في سبعة فصول.

٦. تسليك النفس إلى حظيرة القدس

وهذا الكتاب كما حكاه المحقق الطهراني (المتوفى ١٣٨٩هـ) يحتوي على نكات في علم الكلام، وهي في مراصد، والمرصد الأوّل في الأمور العامة، وتوجد نسخة منه في الخزانة الغروية بخط تلميذ العلامة الشيخ حسن بن علي المزيدي استنسخه عام (٧٠٧هـ) وعلى النسخة خط العلامة الحلي، كما شرحها نظام الدين

١. مجلة الكلام الإسلامي، السنة الثانية، العدد الثاني و الثالث.

الأعرجي ابن أخت العلامة (المتوفى ٧٤٥هـ) أسماه «إيضاح اللبس في شرح تسليك النفس».^(١)

٧. الرسالة السعدية

وهي رسالة بين الإيجاز والإطناب، ألفها العلامة الحلي لسعد الحق والملة والدين المعروف بـ «المستوفي الساوجي» الذي كان وزيراً لـ «غازان خان» وقد ساهم في عهد «أولجايتو» مع رشيد الدين فضل الله في إدارة أمور البلد إلى أن قتل عام ٧١١هـ.^(٢)

والرسالة تحتوي على مقدمة وفصول، وقد استوفى فيها حق مسائل ثلاث:

أ. استحالة رؤية الله سبحانه.

ب. كلامه سبحانه حادث.

ج. صفاته عين ذاته.

وقد طبعت الرسالة عام ١٣١٥هـ ضمن مجموعة باسم «كلمات المحققين»، و«الرسالة السعدية» هي الرسالة العاشرة.

٨. كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد

الكتاب شرح لكتاب قواعد العقائد للمحقق الطوسي، شرحه نزولاً عند رغبة ولده فخر المحققين وقد طبع عام ١٣٠٥هـ، كما طبع أخيراً بتحقيق المحقق الشيخ حسن مكي العاملي عام ١٤١٣هـ نشرته دار الصفوة في بيروت، والكتاب مع اختصاره مشتمل على مجموع المسائل الكلامية، نظير الكتاب الآتي.

١. الذريعة: ٤ / ١٨٠.

٢. انظر تاريخ أدبيات إيران: ٣ / ١٥٠، للدكتور ذبيح الله صفاء.

٩. كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد

وهذا الكتاب شرح لكتاب تجريد الاعتقاد للمحقق نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٢هـ) وهو من أوجز المتون الكلامية وفق العقائد الإمامية ويكفي في رفعة منزلته، قول شارحه علاء الدين القوشجي الأشعري حيث وصفه، بقوله: «تصنيف مخزون بالعجائب، وتأليف مشحون بالغرائب، فهو وإن كان صغير الحجم، وجيز النظم، لكنه كثير العلم، عظيم الاسم، جليل البيان، رفيع المكان، حسن النظام، مقبول الأئمة العظام، لم يظفر بمثله علماء الأعصار، ولم يأت بمثله الفضلاء في القرون والأدوار، مشتمل على إشارات إلى مطالب هي الأمهات، مشحون بتنبهات على مباحث هي المهمات، مملوء بجواهر كلها كالفصوص، ومحتو على كلمات يجري أكثرها مجرى النصوص، متضمن لبيانات معجزة، في عبارات موجزة» إلى آخر ما ذكره.^(١)

وقد شرحه جمع غفير من المحققين منذ تأليفه إلى يومنا هذا، وأول من شرحه: تلميذه المشهور بالعلامة الحلي (٦٤٨-٧٢٦هـ) الذي أسماه «كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد»، ثم توالى الشروح بعده، فشرحه ثانياً: شمس الدين محمد الاسفرائيني البيهقي وأسماه «تعريد الاعتماد في شرح تجريد الاعتقاد» وثالثاً: الشيخ شمس الدين محمود بن عبد الرحمان بن أحمد الإصفهاني (المتوفى ٧٤٦هـ) وأسماه «تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد» ورابعاً: علاء الدين علي بن محمد المعروف بالفاضل القوشجي (المتوفى ٨٧٩هـ) ألّفه للسلطان أبي سعيد كوركان.

ويسمى الشرح الثالث بالشرح القديم، والرابع بالشرح الجديد، وقد كتب على الشرحين تعاليق وحواش كثيرة، يقف عليها من تتبع المعاجم.

ثم توالى الشروح بعد هذه الشروح الأربعة إلى عصرنا هذا.

إنّ كتاب كشف المراد تبعاً لمتنه يدور على محاور ثلاثة:

الأول: في الأمور العامة التي تطلق عليها الإلهيات بالمعنى الأعم، ويبحث فيه عن الوجود والعدم وأحكام الماهيات، والمواد الثلاث: الوجود والإمكان والامتناع، والقدم والحدوث، والعلة والمعلول، وغيرها من المسائل التي تبحث عن أحكام الوجود بها هو هو.

الثاني: في الجواهر والأعراض التي يطلق عليها الطبيعيات، ويبحث فيه عن الأجسام الفلكية والعنصرية والأعراض التسعة، على وجه التفصيل.

الثالث: في الإلهيات بالمعنى الأخص، ويبحث فيه عن الأصول الخمسة.

وبما أنّ المحور الأوّل هو المقصد الأهم للحكماء من المشائين والإشراقيين، وقد بحثوا عنه في الأمور العامة على وجه التفصيل والاستيعاب، حتى خصّص صدر المتألهين ثلاثة أجزاء من كتابه «الأسفار» بمباحث هذا المحور - لأجل ذلك - استغنى الطلاب عن دراسة هذا المقصد من كتاب كشف المراد.

وبما أنّ العلوم الجديدة الباحثة عن الطبيعة وأحكامها قد قطعت أشواطاً كبيرة، وأبطلت كثيراً من الفروض العلمية في الفلكيات والأكوان، فأصبح ما يبحث في الكتب الكلامية والفلسفية في هذا القسم تاريخاً للعلم الطبيعي لا نفسه، ولأجل ذلك تركت دراسة المحور الثاني في الكتب الكلامية والفلسفية في أعصارنا.

فلم يبق إلاّ المحور الثالث الموسوم بالإلهيات بالمعنى الأخص الذي يبحث فيه عن ذاته سبحانه وصفاته وأفعاله، ولأجل ذلك عكف المحصلون على دراسة هذا المحور الذي يتضمن البحث عن إثبات الصانع وصفاته وأفعاله، ويدخل في

البحث عن صفاته: البحث عن عدله، كما يدخل في البحث عن أفعاله: البحث عن النبوة والإمامة والمعاد.

وقد طبع الكتاب غير مرة أحسنها طبعة مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في قم المقدسة، ولنا تعليقات على قسم الإلهيات أفرزناها من سائر المباحث، وطبع الكتاب على حدة، وصار مادة دراسية في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام للبحوث والدراسات العليا.

١٠. معارج الفهم في شرح النظم

وهي رسالة معدة لبيان أصول الدين وقد صرح به في كتابه «خلاصة الأقوال» وفي أجوبة المسائل المهنية ونسخته الخطية متوفرة في المكتبة الرضوية ومكتبة السيد المرعشي وغيرهما.

١١. مقصد الواصلين في أصول الدين

واسمه حاك عن معناه، ولكن لم نقف على نسخة منه، وجاء اسمه في «خلاصة الأقوال» وأجوبة المسائل المهنية وعبر عنه في إجازات البحار بمعتقد الواصلين.

١٢. منهاج الكرامة في معرفة الإمامة

هذا الكتاب كتاب كلامي يشير إلى جميع المسائل الكلامية لاسيما مسائل الإمامة التي استأثرت باهتمام واسع، ويثبت فيه بأدلة رصينة إمامة الأئمة الاثني عشر ألفه للسلطان محمد خدا بنده اولجايتو الذي تشيع على يد العلامة، وقد أثار الكتاب حفيظة أهل السنة كابن تيمية، فكتب عليه رداً أسماه «منهاج السنة

في ردّ منهاج الكرامة».

وأيمن الله! الاسم لا يوافق مسماه، فلو قام أحد بجمع شتائه وسبابه لعاد برسالة في ذلك المجال.

وأما أكاذيبه و إنكاره المسائل المسلّمة، فحدث عنه ولا حرج، ولذلك ردّ عليه غير واحد من علماء الشيعة، كسراج الدين بن عيسى الحلبي ألف كتاباً باسم «إكمال الملة» والسيد مهدي الكاظمي حيث رد على ابن تيمية بكتاب أسماه «منهاج الشريعة» ولشيخنا المحقّق الأميني بحث مسهب حول الكتاب وأكاذيبه، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى الغدير الجزء الثالث.

١٣. منهاج اليقين

وهو أبسط كتاب في علم الكلام بعد نهاية المرام، وقد أوعز إليه في كتاب كشف المراد، والكتاب إلى الآن لم ير النور عسى الله أن يشحذ همم بعض الباحثين لنشره، وتوجد منه نسخة في المكتبة الرضوية ومكتبة المسجد الأعظم في قم المقدسة.

١٤. نظم البراهين في أصول الدين

رسالة موجزة في أصول الدين، وقد شرحها العلامة بنفسه وأسماها «معارج الفهم»، وقد جاء اسمها في كتاب خلاصة الأقوال وأجوبة المسائل المهنية.

١٥. نهج الحق وكشف الصدق

رسالة كلامية و في الوقت نفسه تشتمل على رؤوس المسائل الأصولية

والفقهية ألّفها للسلطان «محمد خدا بنده».

والرسالة تركز على المسائل الكلامية، لا سيما المسائل الخلافية وقد أثار الكتاب حفيظة الآخرين وقد ردّ عليه الفضل بن روزبهان وأسماء «إبطال الباطل وإهمال كشف العاطل».

وقد ردّ على ردّه ثلّة من علماء الشيعة منهم:

١. القاضي نور الله التستري (المتوفى ١٠١٩ هـ) في كتاب أسماه «إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل» فقد ذكر أولاً كلام العلامة في نهج الحقّ، ثمّ أردفه بما ذكره ابن روزبهان في ردّه، ثمّ ذكر ما جاد به ذهنه في إحقاق الحقّ والمحكمة بين الطرفين.

وهذا الكتاب يضم في الحقيقة ثلاثة كتب وطبع مرّات عديدة.

٢. الشيخ محمد حسن المظفر (١٣٠١-١٣٧٥ هـ) في كتاب أسماه «دلائل الصدق» وهو يذكر كلام العلامة أولاً ثمّ يتبعه بنقل كلام ابن روزبهان بعينه، ثمّ يتحاكم بينهما. وقد استفاد في رده هذا من كتاب «إحقاق الحقّ» المتقدم ذكره، وقد ألع إليه في مقدمة الكتاب.

وطبع الكتاب في طهران والنجف والقاهرة وبما أنّ كتاب «نهج الحقّ وكشف الصدق» من الكتب المفيدة، فقد قام بتحقيقه الشيخ عین الله الحسيني الأرموي فطبعه مستقلاً بتقديم الأستاذ آية الله السيد رضا الصدر رحمته في بيروت.

١٦. نهج المسترشدين في أصول الدين

ألّفه العلامة باستدعاء ولده فخر المحقّقين، وحرر فيه القواعد الكلامية وقد شرحه الفاضل المقداد (المتوفى ٨٢٨ هـ) وقد طبع الكتاب أيضاً بتحقيق السيد أحمد الحسيني والشيخ هادي اليوسفي، وعرفه الفاضل المقداد بقوله:

إنّ الكتاب الموسوم بـ «نهج المسترشدين في أصول الدين» من تصانيف شيخنا وإمامنا الإمام الأعظم علامة العلماء في العالم، وارث الأنبياء وخليفة الأوصياء، بل آية الله في العالمين، جمال الملة والحق والدين، أبي منصور الحسن ابن المطهر (طهر الله رمسه وقدس وكرم، وشرف نفسه وبجل وعظم) قد احتوى من المباحث الكلامية على أشرفها وأبهائها، وجمع من الفوائد الحكمية أحسنها وأسناها، حتى شغف بالاشتغال به معظم الطلاب وعول على تقرير مباحثه جماعة الأصحاب.

وكنّت ممن جدّ في تحرير مباحثه بالتحصيل، وإن لم أحصل منه إلّا على القليل، حتّى جمعت من مباحث المشايخ وفوائدهم ممّا يتعلق به نبذة، بحيث صار منها بين الطلبة ممّا يعد على نعمة.^(١)

١٧. واجب الاعتقاد على جميع العباد

وقد بيّن العلامة فيه ما يجب معرفته على العباد من العقائد الدينية، والمسائل الفرعية ما عدا المعاد فلم يذكره وانتهى في الفروع إلى آخر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول في أوّله: بيّنت في هذه المقالة واجب الاعتقاد على جميع العباد ولخصت فيه ما يجب معرفته من المسائل الأصولية على جميع الأعيان وألحقت به بيان الواجب في أصول العبادات.

والرسالة لم تر النور ولكن توجد منها نسخة خطية في المكتبة الرضوية وفي مكتبة جامعة طهران.

وشرحه الفاضل المقداد وأسماه «الاعتماد في شرح واجب الاعتقاد» طبع

١. إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين، ص ٤.

ضمن كلمات المحققين.

وعلى ذلك فقد طبع الكتاب في ضمن شرح الفاضل المقداد.

وما ذكرناه من الكتب هي التي ثبتت نسبتها إلى العلامة الحلي، وقد عزي إليه كتب أخرى لم تثبت نسبتها ولذا ضربنا عنها صفحاً، ونأتي بذكر كتاب آخر له ينبغي أن يحتفل به تاريخ علم الكلام ومتكلميه وهو بيت القصيد لكتب العلامة الكلامية المتوفرة.

١٨. نهاية المرام في علم الكلام

وهذا الكتاب هو الذي يرفقه الطبع إلى القراء الكرام بعد تحقيقه وتقويم نصه وتبيين إشاراته ضمن جهد متواصل.

وهو أبسط وأعمق كتاب ظهر للكلام الشيعي في القرن الثامن إلى يومنا هذا، وهو رحمه الله يعرف الكتاب في مقدمته بقوله:

وقد أجمع رأينا في هذا الكتاب الموسوم بـ «نهاية المرام في علم الكلام» على جمع تلك الفوائد التي استنبطناها، والنكت التي استخرجناها، مع زيادات نستخرجها في هذا الكتاب لطيفة، ومعان حسنة شريفة لم يسبقنا إليها المتقدمون ولا سطرها المصنفون.

ثم نذكر على الاستقصاء ما بلغنا من كلام القدماء، ونحكم بالانصاف بين المتكلمين والحكماء، وجمعت فيه بين القوانين الكلامية والقواعد الحكمية المشتملة عليها المباحث والنهاية. فكان في هذا الفن قد بلغ الغاية، لأجل أعز الناس عليّ وأحبهم إليّ وهو الولد العزيز محمد، رزقه الله تعالى الوصول إلى أقصى نهايات الكمال، والارتقاء إلى أعلى ذرى الجلال، وأيده بالعنايات الأزلية، وأمدّه بالسعادات الأبدية، وأحياء الله تعالى في عيش رغيد وعمر مديد بمحمد وآله

الطاهرين.

وقد رتبت هذا الكتاب على مقدمة وقواعد مستعينة بالله لا غير، فأنّه الموفق لكل خير ودافع كل شر.^(١)

ويظهر من إرجاعات المؤلف إلى هذا الكتاب في غير واحد من تأليفه أنّه أكمل الكتاب حيث نرى إرجاعات كثيرة في كشف المراد إلى ذلك الكتاب نذكر منها ما يلي:

١. قال في مبحث الألم ووجه حسنه: «ويمكن الجواب هنا لأبي علي بما ذكرناه في كتاب نهاية المرام».^(٢)

٢. قال عند البحث في الأصلح: «ذكرناها في كتاب نهاية المرام على الاستقصاء».^(٣)

٣. وقال في مبحث النبوة الخاصة: «وقد أوردنا معجزات أخرى منقولة في كتاب نهاية المرام».^(٤)

٤. كما يقول في مبحث تفضيل النبي ﷺ على الملائكة: «وها هنا وجوه أخرى من الطرفين ذكرناها في كتاب نهاية المرام».

كما أنّه أحال إلى ذلك الكتاب في كشف الفوائد، وقال عند البحث في كونه تعالى عالماً: «ولنا على هذا البرهان إيرادات ذكرناها في كتاب النهاية».^(٥) كما ألمح إليه أيضاً عند البحث في صفات الإمام علي عليه السلام، قال: والأدلة كثيرة ذكرناها في

١. نهاية المرام في علم الكلام: ١/ ٦٥.

٢. كشف المراد، المسألة الثالثة عشرة في الألم ووجه حسنه، ص ٣٣٠.

٣. كشف المراد، المسألة الثامنة عشرة في الأصلح، ص ٣٤٤.

٤. كشف المراد، المسألة السابعة في نبوة نبينا، ص ٣٥٧.

٥. كشف الفوائد، ص ١٦٨، طبعة بيروت، تحقيق حسن مكّي العاملي.

كتاب النهاية. ^(١)

كما أنه يشير إليه في كتابه نهج المسترشدين في غير مورد :

١. قال في مبحث الإدراك: «والحق ما اخترناه نحن في "نهاية المرام"». ^(٢)
٢. وقال في البحث الثاني، في أنه قادر خلافاً للفلاسفة: «وقد أوضحنا هذا الكلام في كتاب النهاية». ^(٣)
٣. وقال في البحث الرابع، في أنه تعالى حي: «وقد بينّا ضعف هذا القول في كتاب نهاية المرام». ^(٤)
٤. وقال في البحث الخامس، في أنه تعالى مريد: «وقد بينّا توجيه الكلامين والاعتراض عليها في كتاب النهاية». ^(٥)
٥. قال في البحث الثاني، في نفي المعاني والأحوال: «وقد أشبعنا القول في هذه المسألة في كتاب نهاية المرام في علم الكلام وكتاب المناهج». ^(٦)
٦. قال في الفصل الحادي عشر في الإمامة: «...وهو كثير لا يعد ولا يحصى، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في كتاب نهاية المرام». ^(٧)
٧. وقال في الفصل الثالث عشر في المعاد (البحث الأول في حقيقة الإنسان): «...وقد بينّا أكثر حججهم في كتاب المناهج، واستقصينا ما بلغ من أقاويل العلماء في ذلك في كتاب النهاية». ^(٨)

١. كشف الفوائد، ص ٣٠٨.

٢. نهج المسترشدين في أصول الدين، ص ٣٠.

٣. المصدر السابق، ص ٣٨.

٤. المصدر السابق، ص ٤٠.

٥. المصدر السابق، ص ٤١.

٦. المصدر السابق، ص ٤٣.

٧. المصدر السابق، ص ٧٠.

٨. المصدر السابق، ص ٧٤.

٨. وقد ذكر في آخر الكتاب الذي انتهى فيه إلى البحث في الإيمان والكفر، ما هذا لفظه: «ومن أراد التطويل فعليه بكتابنا الكبير المسمى بـ «نهاية المرام في علم الكلام» ومن أراد التوسط فعليه بكتابنا «منتهى الوصول» و «المناهج» وغيرهما من كتبنا.^(١)

كل ذلك يعرب عن أنّ المصنف أتم الكتاب إلى نهايته.

ولكن الموجود فيما بأيدينا أقل من ذلك، فقد انتهى الجزء الثالث وهو بعد في الطبيعيات وآخر مسألة جاءت فيه قوله «المسألة السابعة في الآن أي الزمان وختمها بقوله: «قال الشيخ:»، فأين الباقي؟ فالله سبحانه وحده أعلم، ويظهر من هذه العبارة أنه ﷺ كتب مقالة الشيخ وما بعدها ولكنّها ما وصلت إلى النسخ. والذي يدل على أنه أكمل الكتاب ولو إكمالاً نسبياً أزيد مما بأيدينا الأمران التاليان:

أ. أنه فرغ من الجزء الأول كتابة وتصنيفاً في الرابع عشر من شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة وسبعمائة بالسلطانية.^(٢)
كما فرغ من الجزء الثاني في سلخ شهر ربيع الآخر من سنة اثنتي عشرة وسبعمائة بالسلطانية.^(٣)

وهذا يعرب أنه ألف الجزء الثاني في مدة شهر ونصف، وليس هو ببعيد عن العلامة الحلي لإحاطته بالمسائل الكلامية واجتماع ثلثة من الأفاضل حوله في السلطانية ربما يستعين ببعضهم في نقل المطالب.

وقد عاش بعد الفراغ من الجزء الثاني ١٤ سنة ومن البعيد أن يترك هذا

١. المصدر السابق، ص ٨٥.

٢. لاحظ الجزء الأول من كتاب نهاية المرام في علم الكلام، ص ٢٢٩.

٣. لاحظ الجزء الثاني من كتاب نهاية المرام، ص ٦٠٧.

الكتاب في بوتقة الإهمال.

ب. أنّ الجزء الثالث الذي بأيدينا مبتور غير مؤرخ، ولكنه ﷺ صرح في إجازته للسيد مهنا بن سنان المدني: خرج منه أربع مجلدات. ^(١)

وقد كتب الاجازة عام ٧٢١هـ، ومن البعيد أن لا يهتم باكمال الموسوعة، وأبعد منه أن يسمي الأجزاء الثلاثة الموجودة أربعة أجزاء.

إلى هنا تبين أنّ ما خرج من قلمه أزيد مما بأيدينا قطعاً، ولا يبعد أنّه أتم الكتاب وفرغ من تأليفه.

ولعلّه سبحانه يوفق رواد العلم للعثور على الأجزاء الباقية.

مشكلة الإرجاعات

ثم إنّ هنا مشكلة أخرى وهي أنّ العلامة الحليّ فرغ من الجزء الأول من نهاية المرام في سلطانية زنجان عام ٧١٢هـ، ولكنه أحال إلى ذلك الكتاب في كشف المراد الذي فرغ من تأليفه في الخامس عشر من ربيع الأول عام ٦٩٦هـ. ^(٢)

فكيف أحال في كتاب ألفه قبل نهاية المرام بـ ١٦ عاماً، كما أنّه أحال في «كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد» إلى هذا الكتاب في مواضع وقد فرغ منه نهار الأربعاء في ثالث ذي الحجة عام ٧٠٣هـ، فكيف أحال إلى ذلك الكتاب في كتاب ألفه قبل ذلك بتسع سنين؟!

هناك فروض لحلّ هذه المشكلة أوضحها، أنّه أدخل هذه الإرجاعات في هذه الكتب، بعد الفراغ عن تأليفها، وليس ببعيد عن دأب المؤلفين الذين كانت

١. أجوبة المسائل المهنية: ١٥٦.

٢. الذريعة: ١٨ / ٦٠ برقم ٦٦٨.

كتبهم تستنسخ عاماً بعد عام، في الأزمنة السابقة، أو تطبع، طبعة بعد طبعة، على ما عليه الحال فيقوم المؤلف بإكمال الكتاب، بإضافة أمور لم يخطر بباله حين التأليف.

وعلى ذلك يحمل ذكر «النهاية في خلاصة الرجال» الذي ألفه سنة ٦٩٣هـ.^(١)

مواصفات هذا الكتاب

يتميز هذا الكتاب عن سائر الكتب بميزات مهمة:

١. تفصيل المباحث والاستقصاء لآراء المذاهب والفِرَق المختلفة مروراً بآراء الثنوية، و المجوس، والصابئة، واليهود، والنصارى، وانتهاءً بآراء كبار متكلمي الإسلام من الأشاعرة، والمعتزلة، والشيعة (العدلية)، وكبار فلاسفة الإسلام كالفارابي، وابن سينا وغيرهم.

فيقوم باستعراض الآراء بأفضل صورة ممكنة، ثم يبدأ بطرح رأيه و نقض تلك الآراء و تفنيدها بمجموعة كبيرة من الأدلة، تربو في بعض الأحيان على عشرين دليلاً.

ولا نبالغ إن قلنا: إنَّ هذا الكتاب يعد أوسع كتاب كلامي للشيعة في هذا المضمار، فلا يضاهيه في السعة والشمول أيّ كتاب كلامي آخر.

٢. بذل العلامة في كتبه لا سيما في هذا الكتاب جهده لنقل آراء الآخرين، حيث يعرض الآراء بأمانة وصدق دون أي تصرف، بل يحاول أحياناً كثيرة أن يجد وسيلة لتبرير رأي باطل يخرج منه من مدحرة البطلان.

٣. يتسم الكتاب بطابع المقارنة، وهونوع من النشاط العلمي الذي خبرته

ضروب المعرفة الإنسانية في حقول التربية، والنفس، والاجتماع، والاقتصاد.

وهذه المقارنة تُسهم مساهمة فعّالة في بلورة المفهوم الذي يستهدفه الباحث وتعميقه، يقول العلامة في معرض الإشارة إلى تلك الحقيقة: «ثم نذكر على الاستقصاء ما بلغنا من كلام القدماء، ونحكم بالانصاف بين المتكلمين والحكماء وجمعت فيه بين القوانين الكلامية والقواعد الحكمية».

٤. انّ منهجه المقارن يتسم بسمّة أخرى، وهي أنّه يفترض إشكالاً ونقضاً من قبل مخالفيه، حيث يتكهن المؤلف أن يردّ مخالفوه على ردوده بذلك، ومن الواضح أنّ هذه الخطوة لها أثر ملموس في تطور الكلام الإسلامي الإمامي من حيث السعة والإحاطة والشمول والمقارنة وتطور مناهج البحث العلمي. كما أنّها تعد من الخطوات المهمة بالنسبة إلى متطلبات المنهج المقارن، نظراً لإمكانية إيراد إشكالات أخرى على ردوده.

ويعتبر عن هذه الخطوة بعبارة «لا يقال» وعبارة «لو قيل» وما شاكل ذلك ويجيب على هذه الردود و الإشكالات الافتراضية تارة، ويقربها أخرى على أنّها أمور افتراضية فحسب، وهذا في الحقيقة أسلوب آخر في الردّ على الفرضية، نلاحظ هذا من خلال استخدامه عبارة «سلمنا» حيث تناسب هذه العبارة طبيعة «الفرضية» التي لم يقتنع بها.

وأهمية هذا الأسلوب (فرضية الإشكال والنقض) تتمثل في شمولية الممارسة لكلّ الاحتمالات التي يمكن أن يتقدم بها المخالف، حتى تصبح «المقارنة» مستكملة لجميع شروطها.

ولقد امتاز الكتاب بهذا الأسلوب الرائع وهذا ما يمكن ملاحظته من بداية الكتاب إلى نهايته.

٥. نقل العلامة في هذا الكتاب أسئلة فلسفية وكلامية، سأها العلامة

أُستاذهُ المحقق الطوسي وأجاب عليها الأستاذ شفهياً، وقد جرى طرح كثير من تلك الأسئلة في الطريق، وفي سفر العلامة من الحلة إلى بغداد وهو في ركاب الأستاذ. (١)

٦. يحتوى الكتاب على نظريات الإمامية وآرائهم النهائية حول المسائل الكلامية والحكمية تفصيلاً والتي قلما توجد في كتبه الأخرى، إمّا لأنها شروح لم يتعرض فيها لرأيه الخاص إلّا ما قلّ ونذر، وإمّا لأنها مختصرة ولا مجال فيها لطرح آرائه التي لها شجون وتفصيل.

٧. يتسم الكتاب بالموضوعية والابتعاد عن العصبية ورعاية الأصول الدقيقة للبحث العلمي والانفراج على سائر الآراء والفرق.

فتارة يوافق رأي المتكلمين وأخرى يخالفهم ويختار رأي الفلاسفة ولا يلتزم بمنهج واحد كما يستعرض ردود المحقق الطوسي على الرازي وربما يدافع عن الثاني.

فالحقّ هو بغيته سواء أكان في جانب أستاذهُ أو في جانب خصومه.

٨. الكتاب مشحون بالاستنتاجات العقلية والاستدلال بالقضايا البرهانية، كما أنّه ربما يستدل بالقضايا المشهورة (الجدل) إلى غير ذلك من أنواع الاستدلال كالاستدلال بالتمثيل والاستقراء والتجربة.

وقد استفاد من الأخير في قسم الطبيعيات بشكل واضح.

الفصل الخامس:

المنازلة المستمرة بين الشيعة والمعتزلة

لا شك أنّ الشيعة والمعتزلة يلتقون في كثير من الأصول، كما يفترون في كثير منها أيضاً؛ نظير الأشاعرة وأهل الحديث من الحنابلة، فهم يلتقون في كثير من الأصول كما يفترون في قسم منها.

ووجه ذلك أنّ الطائفتين الأولتين يقولون: بأمرين تنفرّ عليهما مسائل كثيرة:

الف. التحسين والتقبيح العقليان.

ب. حجّة العقل في مجال العقائد.

ويترتب على الأصل الأوّل ثمرات نشير إليها:

١. وجوب معرفة الله عقلاً قبل وجوبها شرعاً.

٢. وجوب تنزيه فعله سبحانه عن العبث.

٣. لزوم تكليف العباد وإيصالهم إلى الغاية التي خلّقوا لها.

٤. لزوم بعث الأنبياء هداية للإنسان.

٥. لزوم النظر في برهان مدّعي النبوة.

٦. الإعجاز دليل قطعي على صدق صاحبه لقبح إعطاء البيّنة للكاذب.

٧. لزوم استمرار أصول أحكام الإسلام إلى يوم القيامة.
 ٨. ثبات الأصول الأخلاقية وعدم تغيرها.
 ٩. كون البلايا والمصائب غير خالية من الحكمة والغاية.
 ١٠. سيادة عدله سبحانه في التشريع والتكوين، فلا يجوز التكليف بغير المقدور. إلى غير ذلك من الأصول المستنتجة من القول بالتحسين والتقبيح العقليين.
- كما أنه تترتب على القول بحجّة العقل في مجال العقائد المسائل التالية:
١. صفاته سبحانه عين ذاته، لاستلزام الزيادة التركيب الملازم للإمكان.
 ٢. أنّ القرآن حادث غير قديم، لامتناع تعدّد القديم المستلزم لتعدّد الواجب.
 ٣. امتناع رؤيته سبحانه بالبصر في الدنيا والآخرة، لأنّ الرؤية إمّا تقع على كلّه أو على جزئه، فعلى الأوّل يلزم أن يكون محاطاً، وعلى الثاني يلزم أن يكون مركّباً.
 ٤. امتناع الوساطة بين الوجود والعدم، فالحال الذي تعتقده المعتزلة غير معقول.
- إلى غير ذلك من الأصول التي يستثمرها العقل من المقدمات الواضحة.
- كما أنّ رفض الحنابلة والأشاعرة، استطاعة العقل على التحسين والتقبيح، أو عدم حجّيته في مجال العقائد بحجّة أنّها موضوعات غيبية لا سبيل للعقل إليها، جعلها في صفّ مخالف للمعتزلة والشيعة فيما مضى من المسائل.
- فعلى ضوء ذلك فلا يصحّ لنا أن نعتبر طائفة فرعاً لطائفة أخرى أو مشتقة منها، إلّا إذا دلّ الدليل على ذلك. نعم إنّ بعض المتكلّمين وبعض أصحاب

المقالات يبخسون الشيعة ويصوّرونهم فرعاً للمعتزلة، بحجّة التقائهم معهم في الأصول المتقدّمة، حتى أنّ أحمد أمين يقول: وقد قرأت كتاب الياقوت لأبي إسحاق إبراهيم من قدماء متكلمي الشيعة الإمامية، فكنت كأني أقرأ كتاباً من كتب أصول المعتزلة، إلّا في مسائل معدودة كالفصل الأخير من الإمامة، وإمامة عليّ وإمامة الأحد عشر بعده، ولكن أيّهما أخذ من الآخر؟

أمّا بعض الشيعة فيزعم أنّ المعتزلة أخذوا عنهم، وأنّ واصل بن عطاء تتلمذ لجعفر الصادق، وأنا أرجح أنّ الشيعة هم الذين أخذوا من المعتزلة تعاليمهم، ونشوء مذهب الاعتزال يدلّ على ذلك، وزيد بن عليّ زعيم الفرقة الشيعية الزيدية تتلمذ لواصل، وكان جعفر الصادق يتّصل بعلمه زيد، ويقول أبو الفرج في مقاتل الطالبين: كان جعفر بن محمد يمسك لزيد بن علي بالركاب ويسوّي ثيابه على السرج، فإذا صحّ ما ذكره الشهرستاني وغيره من تتلمذ زيد لواصل فلا يعقل كثيراً أنّ يتلمذ واصل لجعفر، وكثير من المعتزلة يتشيع، فالظاهر أنّه عن طريق هؤلاء تسرّبت أصول المعتزلة إلى الشيعة.^(١)

يلاحظ عليه: بأنّ في هذا الكلام ما لا يدعمه العقل ولا النقل:

١. نفترض صحّة ما ذكره أبو الفرج من أنّ الإمام الصادق كان يمسك لزيد ابن علي بالركاب، لكنّه لا يصحّ أن يكون دليلاً على أنّ الإمام تتلمذ لعلمه زيد، وبما أنّ زيدا ولد عام (٧٩هـ) و عليّ الأصح عام (٦٧هـ) وولد الإمام الصادق عليه السلام (٨٣) وكان عمّاً له أكبر منه بأربع سنين أو أكثر كان الإمام يكرمه عملاً بما نقل: «وقرّوا كباركم».

٢. إنّ ما ذكره أنّ زيد بن عليّ تتلمذ لواصل من غرائب الأمور، فإنّ واصل ولد بالمدينة عام (٨٠) وقد عرفت أنّ زيد بن عليّ ولد بسنة أو سنين قبله، وقد

تتلمذ واصل لأبي هاشم: عبد الله بن محمد بن علي بن الحنفية وغادر المدينة متوجهاً إلى البصرة أوائل القرن الثاني، فكيف يصح أن يتلمذ زيد لواصل وهو أكبر منه سناً وقد تربى في نفس البيت الذي تتلمذ واصل فيه لأبي هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية، ولو صح لنا الرجم بالغيب يجب أن نقول إن كليهما تتلمذا لأبي هاشم، لا أن زيدا تتلمذ لواصل، ومن هو واصل؟! وهو في العقد الثاني من عمره، وما علمه بالعقائد والمعارف وهو في ذلك السن المبكر؟! حتى يتلمذ عليه زيد بن علي ولأجله لم يذكره مشاهير الزيدية.

إن زيد بن علي ولد في بيت رفيع، وأبوه زين العابدين إمام الأمة وعالمها الذي عكف على أخذ العلم منه الموافق والمخالف، فهل يصح له ترك أبيه والعكوف على شاب لم يرتق في سلم العلم شيئاً؟!

٣. إن اشتراك المعتزلة والشيعة في مسائل كثيرة، لا يدل على أن إحدى الطائفتين عيال على الأخرى، بل هناك احتمال ثالث وهو أن كلتا الطائفتين أخذتا عن مصدر واحد، وصدرتا عن منبع فارد، وقد تقدم أن المعتزلة أخذت أصول مذهبهم في التوحيد والعدل عن الإمام أمير المؤمنين، والشيعة عن بكرة أبيهم أخذوا أصولهم وفروعهم عن أئمة أهل البيت وفي طليعتهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وإنما ذهب أحمد أمين إلى ما ذهب بدافع من هواه المعروف عنه، فإنه يريد أن يسلب كل فضل وفضيلة عن أئمة أهل البيت وشيعتهم، لكن بصورة دراسة علمية حتى لا يُتهم بالتعصب. وآية تعصبه أنه في نفس الوقت ينكر انتساب علم النحو إلى علي بن أبي طالب مع أن انتسابه إليه كالنار على المنار.^(١)

١. لاحظ ابن النديم: الفهرست وغيره.

وقد تأثر المصريون الجدد بأفكار أحمد أمين، فنرى أنّ الأستاذ عبد الرحمان الشرفاوي يقول: «إنّ الشيعة التقطوا كثيراً من أفكار المعتزلة».^(١)

الجدل المستمر بين الشيعة والمعتزلة

إنّ من تتبّع تاريخ علم الكلام وتاريخ كلام الشيعة يقف على أنّ المناظرة بين الطائفتين كانت مستمرة ومحتدمة من عصر الإمام الصادق عليه السلام إلى عصر المفيد وتلامذته، كالسيد المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) والشيخ الكراجكي (٤٤٩هـ) مؤلّف كنز الفوائد، والشيخ الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ) إلى غير ذلك من أكابر الشيعة فكيف يمكن عدّ إحدى الطائفتين تبعاً للأخرى؟

إنّ الشيعة والمعتزلة كانا يتصاولان تصاول الفحلين في غير موضع من المجالس وقد حفظ التاريخ قسماً من تلك المناظرات بنصّها، نذكر منها ما يلي:

مناظرات الشيعة مع المعتزلة:

١. إنّ علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم من وجوه متكلمي الشيعة، وكان معاصراً لأبي الهذيل (١٣٥-٢٣٥هـ)، والنظام (١٦٠-٢٣١هـ) وعدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الرضا وقد مضت ترجمته، فقد ناظر أبا الهذيل العلاف مرّات عديدة، وضراراً غير مرّة.^(٢)

٢. إنّ هشام بن الحكم من شيوخ الشيعة في الكلام ناظر ضراراً وغيره.^(٣)

١. مجلة الغد: العدد الثاني سنة ١٩٥٣ م.

٢. المرتضى، العيون والمحاسن: ٥-٩.

٣. المصدر نفسه: ٩.

٣. إنَّ الشيخ المفيد وهو من أعظم متكلمي الشيعة ناظر مشايخ المعتزلة، فقد ذكر تلميذه الشريف المرتضى مناظراته مع الشيخ عزالة^(١) وأبي عمر الشطوي^(٢) و أبي الحسن الخياط^(٣) في تفسير الشفاعة، كما أنَّه نقد مقالة أبي القاسم الكعبي في مسألة الاجتهاد، ونقل الشريف قسماً من مناظراته مع بعض المعتزلة ولم يسمَّ أسماء المناظرين.^(٤)

وهذا تلميذه محمد الكراجكي، فقد أورد في كتابه كنز الفوائد مناظرته مع بعض المعتزلة في مسألة البداء^(٥) و اتهامهم للشيعة بالقول بالإرجاء^(٦)، وأدرج رسائله الخاصة في أغلاط المعتزلة في نفس الكتاب وهي رسالة ممتعة^(٧)، وقال في تلك الرسالة: واعلم أنَّ المعتزلة لها من الأغلاط القبيحة والزلات الفضيحة ما يكثر تعداده. وقد صنَّف ابن الراوندي كتاباً في فضائحهم، فأورد فيه جملاً من اعتقاداتهم وآراء شيوخهم مما ينافر العقول ويضادَّ شريعة الرسول ﷺ، وقد وردت الأخبار بدمهم من أهل البيت، ولعنهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بقوله: «لعن الله المعتزلة أرادت أن توحد فألحدت، ورامت أن ترفع التشبيه فأثبتت» فمن أقبح ما تعتقده المعتزلة، وتضاهي فيه قول الملاحدة، قولهم: إنَّ الأشياء كلّها كانت قبل حدوثها أشياء ثم لم يقنعهم ذلك حتى قالوا: إنَّ الجواهر في حال عدمها جواهر، وأنَّ الأعراض قبل أن توجد كانت أعراضاً، حتى أنَّ السواد عندهم قد كان في عدمه سواداً. وكذلك الحركة قد كانت قبل وجودها حركة، وسائر الأعراض يقولون فيها هذا المقال... الخ.^(٨)

١ و٢ و٣. المصدر نفسه: ٧ و٨ و٤٥.

٤. لاحظ الصفحات ٤٩، ٧٠، ٧٨، ٨٨، ٩٤، ١٠٣، من المصدر نفسه ط. النجف.

٥ و٦ و٧. الكراجكي: كنز الفوائد: ٢٢٧، ١٢٤، ١٣٢.

٨. الكراجكي، كنز الفوائد: ١/ ١٢٥-١٢٧.

الردود والنقوض المتبادلة

إذا كان الشيعي في كلامه تبعاً للمعتزلة فيما سوى الإمامة ، فما معنى هذه الردود و النقوض التي لم تزل تتبادل بين الطائفتين في الإمامة وغيرها وربما وضع عالم واحد، سبعة كتب في ردّ مقالات المعتزلة، وإليك نماذج منها. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الفهارس.

١. محمد بن علي بن النعمان مؤمن الطاق من متكلمي القرن الثاني، يقول ابن النديم: «وكان متكلماً حاذقاً، وله من الكتب: كتاب الردّ على المعتزلة، في إمامة المفضول، كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة^(١) ولعلّ الثاني أيضاً ردّ عليهم.

٢. هشام بن الحكم ألف كتباً منها الردّ على المعتزلة.^(٢)

٣. الضحّاك أبو مالك من متكلمي القرن الثاني ناظر أبا علي الجبائي ونقض كتاب الإمامة له.^(٣)

٤. الفضل بن شاذان (المتوفى ٢٦٠هـ) له كتاب النقض على الاسكافي في تقوية الجسم، له كتاب الردّ على الأصم، كتاب في الوعد والوعيد.^(٤)

٥. محمد بن عبد الله بن مملك الاصفهاني من متكلمي القرن الثالث، له كتاب مجالسه مع أبي علي الجبائي، والنقض على ابن عباد في الإمامة.^(٥)

٦. ثبيت بن محمد، أبو محمد العسكري (نقض العثمانية لأبي عيسى الوراق

١. ابن النديم: الفهرست: ٢٦، وأيضاً ص ٢٥٨.

٢. النجاشي: الرجال: ٣٩٧/٢ برقم ١١٦٥.

٣. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٦.

٤. النجاشي: الرجال: ١٦٨/٢ برقم ٨٣٨.

٥. النجاشي: الرجال: ٢٩٧/٢ برقم ١٠٣٤.

- محمد بن هارون) « المتوفى ٢٤٧هـ » الذي كان معتزلياً في برهة من عمره.^(١)
٧. عبد الرحمان بن أحمد بن جبرويه كلّم عباد بن سليمان وغيره.^(٢)
٨. إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت من متكلمي الشيعة في القرن الرابع له كتاب: مجالسه مع أبي علي الجبائي بالأهواز.^(٣)
٩. محمد بن عبد الرحمان بن قبة، له كتاب « المستثبت نقض كتاب أبي القاسم البلخي »، والردّ على أبي علي الجبائي.^(٤)
١٠. الحسن بن موسى أبو محمد النوبختي ألف ردوداً سبعة على المعتزلة، منها: ١. كتاب الردّ على أبي علي الجبائي؛ ٢. كتاب الردّ على أبي الهذيل العلاف القائل بأنّ نعيم الجنة منقطع؛ ٣. كتاب النقض على أبي الهذيل العلاف في المعرفة؛ ٤. مجالسه مع أبي جعفر البلخي؛ ٥. كتاب الردّ على أصحاب المنزلة بين المنزلتين، في الوعيد؛ ٦. مسائل للجبائي في مسائل شتى؛ ٧. النقض على كتاب جعفر بن حرب (١٧٧-٢٣٦هـ) من شيوخ المعتزلة و من تلاميذ أبي الهذيل العلاف.^(٥)

١١. أبو الجيش المظفر البلخي المتكلّم (المتوفى ٣٦٧هـ) ردّ على الجاحظ في كتابه العثمانية وأسماء نقض العثمانية.^(٦)
١٢. وضع الشيخ المفيد كتباً ردّية، نقض بها كتب المعتزلة، نذكر منها ما

١. النجاشي: الرجال: ١/٢٩٣ برقم ٢٩٨؛ الذريعة: ١٠/٢٨٨.

٢. النجاشي: الرجال: ٢/٤٧ برقم ٦٢٣.

٣. النجاشي: الرجال: ١/١٢١ برقم ٦٧.

٤. النجاشي: الرجال: ٢/٢٨٨ برقم ١٠٢٤.

٥. النجاشي: الرجال: ١/١٧٩ برقم ١٤٦.

٦. الطهراني: الذريعة: ج ٢٤ برقم ١٤٨٩.

يلي: ١. الردّ على الجاحظ العثمانية؛ ٢. نقض فضيلة المعتزلة؛ ٣. النقض على علي ابن عيسى الرماني (المتوفى ٣٨٥هـ)؛ ٤. النقض على أبي عبد الله البصري؛ ٥. نقض الخمس عشرة مسألة على البلخي؛ ٦. نقض الإمامة على جعفر بن حرب؛ ٧. الكلام على الجبائي في المعلوم؛ ٨. جوابات مقاتل بن عبد الرحمان عمّا استخرجه من كتب الجاحظ؛ ٩. نقض كتاب الأصب في الإمامة؛ ١٠. الردّ على أبي علي الجبائي في التفسير؛ ١١. عمد مختصرة على المعتزلة في الوعيد. إلى غير ذلك من الردود والنقوض الوافرة في تأليفه.^(١)

والشيخ المفيد هو النجم اللامع في سماء علم الكلام في القرن الرابع، وهو ومن سبقه من أعلام الإمامية ردّوا على المعتزلة بجدّ وحماس، ومعه كيف يصحّ عدّهم تبعاً لهم؟!

و نقض المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) الجزء العشرين لكتاب المغني تأليف القاضي عبد الجبار، وأسماه «الشافي» وهو مطبوع ببيروت في أربعة أجزاء.

كما ردّ الشيخ الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ) على المعتزلة في تفسيره الكبير «التبيان»، في مواضع كثيرة، ومثله تلميذه الآخر الكراجكي (المتوفى ٤٤٩هـ) وأدرج الردود في كتاب «كنز الفوائد».

ولما نقض أبو الحسن البصري كتاب الشافي للسيد المرتضى كتب سلار بن عبد العزيز الديلمي صاحب المراسم، ردّاً عليه بأمر السيد الشريف.^(٢)

١. النجاشي، الرجال: ٢/٣٢٩ برقم ١٠٦٨.

٢. الطهراني، الذريعة: ١٠/١٧٩.

الفصل السادس

الفوارق الفكرية بين الشيعة والمعتزلة

إنّ بين المنهجين الكلاميين مشتركات و مفترقات، وقد تعرّفت على قسم من المشتركات، فها نحن نلّمح إلى الفوارق بينهما، التي جعلتهما منهجين كلاميين مختلفين لكلّ ميزة وخصوصيّة، وإليك رؤوسها على وجه الإجمال:

١. عينيّة الصفات مع الذات

اتّفقت الطائفتان على أنّ صفاته الذاتية ليست زائدة على الذات، بمعنى أن يكون هناك ذات وصفة وراءها، كما في الممكنات فإنّ الإنسان له ذات وله علم و قدرة، هذا ممّا اتّفقا عليه، ولكنّها اختلفا في تفسير ذلك، فالشيعة الإمامية ذهبوا إلى أنّ الوجود في مقام الواجب بالغ من الكمال على حدّ يحدّ نفس العلم والقدرة، وكون الصفة في الموجودات الإمكانية زائداً على الذات لا يكون دليلاً على الضابطة الكلية حتى في مقام الواجب بل الوجود هناك لأجل الكمال المفرط نفس الصفة، ولا مانع في كون العلم في درجة قائماً بالذات، وفي أخرى نفس الذات، وما هذا إلّا لأنّ زيادة الوصف على الذات توجب حاجتها إلى شيء وراءها، وهو يتأني وجوب الوجود والغنى المطلق. هذه هي نظرية الشيعة مقرونة بالدليل الإجمالي، وقد اقتفوا في ذلك ما رسمه عليّ عليه السلام فقال: «وكمال الاخلاص

له نفي الصفات (الزائدة) عنه، لشهادة كل صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله (بوصف زائد على ذاته) فقد قرنه (قرن ذاته بشيء غيرها) و من قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله^(١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لم يزل الله جلّ وعزّ ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، القدرة ذاته ولا مقدور»^(٢).

هذا ما لدى الشيعة، وأمّا المعتزلة فقد اضطرب كلامهم في المقام، فالقول المشهور عندهم هي نظرية نيابة الذات عن الصفات، من دون أن تكون هناك صفة، وذلك لأنهم رأوا أنّ الأمر في أوصافه سبحانه يدور بين محذورين:

١. إنّ القول بأنّ له سبحانه صفات كالعلم، يوجب الاعتراف بالتعدّد والاثنيّة، لأنّ واقع الصفات هو مغايرة للموصوف.

٢. إنّ نفي العلم والقدرة وسائر الصفات الكمالية يستلزم النقص في ذاته أولاً ويكذبه إتيان آثاره وأفعاله ثانياً.

فالمخلص والمفر من هذين المحذورين يتلخّص في انتخاب نظرية النيابة، وهي القول بأنّ الذات نائبة مناب الصفات، وإن لم تكن هناك واقعية للصفات وراء الذات، فما يترتب من الذات المقرونة بالصفة، يترتب على تلك الذات النائية مقامها، هذا هو المشهور عن المعتزلة، وإليك نصّ كلام عبّاد بن سليمان في ذلك المجال قال: هو عالمٌ قادرٌ حيٌّ، ولا أثبت له علماً، ولا قدرة، ولا حياة، ولا أثبت سمعاً، ولا أثبت بصرأ، وأقول هو عالم لا بعلم، قادر لا بقدرة، حي لا بحياة،

١. نهج البلاغة: الخطبة ١.

٢. الصدوق: التوحيد: ١٣٩.

وسميع لا بسمع، وكذلك سائر ما يسمّى من الأسماء التي يسمّى بها.^(١)

يلاحظ عليه: أنّ نظرية النيابة المشهورة عن المعتزلة، مبنية على تخيل كون الشيء وصفاً، ملازم للزيادة دائماً، فوقعوا بين المحذورين وتخلصوا بالنيابة، ومن المعلوم أنّ مرجع النيابة إلى خلق الذات عن الكمال أولاً، وكون الذات الفاقدة للعلم، نائبة عن الذات المقرونة بها، أشبه باللغز.

نعم بعض المعتزلة كأبي هذيل العلاف (١٣٥-٢٣٥هـ) ذهب إلى نفس ما ذهب الشيعة إليه، وقد ذكرنا كلامهم في موسوعتنا بحوث في الملل والنحل.^(٢)

٢. إحباط الأعمال الصالحة بالطالحة

الإحباط في عرف المتكلمين عبارة عن بطلان الحسنة، وعدم ترتّب ما يتوقع منها عليها، ويقابله التكفير وهو إسقاط السيئة بعدم جريان مقتضاها عليها فهو في المعصية نقيض الإحباط في الطاعة، والمعروف عن الإمامية والأشاعرة هو أنّه لا تحابط بين المعاصي والطاعات والثواب والعقاب، والمعروف من المعتزلة هو التحابط^(٣)، ثمّ إنهم اختلفوا في كيفيته، فمنهم من قال: إنّ الإساءة الكثيرة تُسقط الحسنات القليلة وتمحوها بالكلية من دون أن يكون لها تأثير في تقليل الإساءة وهو المحكيّ عن أبي علي الجبائي.

ومنهم من قال: إنّ الإحسان القليل يسقط بالإساءة الكثيرة ولكنه يقلل في تأثير الإساءة فينقص الإحسان من الإساءة فيُجزى العبد بالمقدار الباقي بعد

١. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١/ ٢٢٥.

٢. لاحظ بحوث في الملل والنحل: ٢/ ٨٤، نقلاً عن شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار:

١٨٣، ومقالات الإسلاميين: ٢٢٥.

٣. المفيد: أوائل المقالات: ٥٧.

التنقيص، وهو المنسوب إلى أبي هاشم.

ومنهم من قال: إنّ الإساءة المتأخرة تحبط جميع الطاعات وإن كانت الإساءة أقلّ منها، حتى قيل: إنّ الجمهور من المعتزلة ذهبوا إلى أنّ الكبيرة الواحدة، تحبط ثواب جميع العبادات.^(١)

هذا على قول المعتزلة وأما على قول نفاة الإحباط فالمطيع والعاصي يستحقّ الثواب والعقاب معاً فيعاقب مدّة ثم يخرج من النار فيثاب بالجنة.

نعم ثبت الإحباط في موارد نادرة، كالارتداد بعد الإسلام، والشرك المقارن للعمل، والصدّ عن سبيل الله، ومجادلة الرسول ومشاقته، وقتل الأنبياء، وقتل الأمرين بالقسط، وإساءة الأدب مع النبي ﷺ، والنفاق وغير ذلك ممّا شرحناه في الإلهيات.^(٢)

٣. خلود مرتكب الكبيرة في النار

اتّفقت الإمامية على أنّ الوعيد بالخلود في النار متوجّه إلى الكفّار خاصة دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى والإقرار بفرائضه من أهل الصلاة ووافقهم على هذا القول كافة المرجئة سوى محمد بن شبيب وأصحاب الحديث قاطبة، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك، وزعموا أنّ الوعيد بالخلود في النار عامٌّ في الكفّار وجميع فساق أهل الصلاة.

ويظهر من العلامة الحليّ أنّ الخلود ليس هو مذهب جميع المعتزلة حيث قال: أجمع المسلمون كافة على أنّ عذاب الكافر مؤبّد لا ينقطع، وأمّا أصحاب الكبائر من المسلمين، فالوعيدية على أنّه كذلك. وذهبت الإمامية وطائفة كثيرة

١. الفتاواني: شرح المقاصد: ٢/ ٢٣٢، والقاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٦٢٥.

٢. حسن مكّي العاملي، الإلهيات: ١/ ٨٧٠ - ٨٧٤.

من المعتزلة والأشاعرة إلى أن عذابه منقطع.^(١)

والظاهر من القاضي عبد الجبار هو الخلود، واستدل بقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾.^(٢) فالله تعالى أخبر أن العصاة يعذبون بالنار ويخلّدون فيها، والعاصي اسم يتناول الفاسق والكافر جميعاً، فيجب حمله عليهما، لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبيّنه، فلما لم يبيّنه دلّ على ما ذكرناه.

فإن قيل: إنّما أراد الله تعالى بالآية الكافر دون الفاسق، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ وذلك لا يتصوّر إلّا في الكفرة وإلّا فالفاسق لا يتعدّد حدود الله تعالى أجمع، ثم أجاب عنه فلاحظ كلامه.^(٣)

٤. لزوم العمل بالوعد وعدمه

المشهور عن المعتزلة أنهم لا يجوزون العفو عن المسيء لاستلزامه الخلف، وأنّه يجب العمل بالوعد كالعمل بالوعد، والظاهر من القاضي أنّها نظرية البغداديين من المعتزلة، قال: اعلم أنّ البغدادية من أصحابنا أوجبت على الله أن يفعل بالعصاة ما يستحقّونه لا محالة، وقالت: لا يجوز أن يعفو عنهم، فصار العقاب عندهم أعلى حالاً في الوجوب من الثواب، فإنّ الثواب عندهم لا يجب إلّا من حيث الجود، وليس هذا قولهم في العقاب فإنّه يجب فعله بكلّ حال.^(٤)

وذهبت الإمامية إلى جواز العفو عن المسيء إذا مات بلا توبة، واستدل

١. كشف المراد: ٢٦١.

٢. النساء: ١٤.

٣. القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٦٥٧.

٤. القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٦٤٤.

الشریف المرتضى بقوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١). وقال: في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة، لأنه سبحانه دللنا على أنه يغفر لهم مع كونهم ظالمين، لأن قوله: ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ جملة حالية إشارة إلى الحال التي يكونون عليها ظالمين، ويجري ذلك مجرى قول القائل: «أنا أود فلاناً على غدره» و«أصله على هجره»^(٢).

وقد أوضحنا الحال في دلالة الآية وأجبنا عن إشكال القاضي على دلالتها في الإلهيات^(٣).

٥. الشفاعة حظّ الذنوب أو ترفيع الدرجة

لما ذهبت المعتزلة إلى خلود مرتكب الكبيرة في النار، وإلى لزوم العمل بالوعيد، ورأت أن آيات الشفاعة، تضادّ تلك الفكرة، التجأت إلى تفسيرها بغير ما هو المعروف والمتبادر منها، فقالوا: إنّ شفاعة الفساق الذين ماتوا على الفسوق ولم يتوبوا تنزل منزلة الشفاعة لمن قتل ولد الغير وترصد لآخر حتى يقتله، فكما أنّ ذلك يقبح فكذلك هاهنا^(٤).

فالشفاعة عندهم عبارة عن ترفيع الدرجة، فخصّوها بالتائبين من المؤمنين وصار أثرها عندهم ترفيع المقام لا الانقاذ من العذاب أو الخروج منه، قال القاضي: إنّ فائدة الشفاعة رفع مرتبة الشفيع والدلالة على منزلة من المشفوع^(٥).

١. الرعد: ٦.

٢. الطبرسي: مجمع البيان: ٣/ ٢٧٨.

٣. حسن مكّي العاملي: الإلهيات: ١/ ٩١٠.

٤. القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٦٨٨.

٥. القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٦٨٩.

وأما عند الشيعة الإمامية فهو عبارة عن إسقاط العذاب، قال الشيخ المفيد: اتفقت الإمامية على أن رسول الله ﷺ يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمته، وأن أمير المؤمنين عليه السلام يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته وأن أئمة آل محمد ﷺ يشفعون كذلك وينجي الله بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين، ووافقهم على شفاعته الرسول ﷺ المرجئة سوى ابن شبيب وجماعة من أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك وزعمت أن شفاعته رسول الله ﷺ للمطيعين دون العصاة، وأنه لا يشفع في مستحقّي العقاب من الخلق أجمعين.^(١)

٦. مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر

إن مقترب الكبيرة عند الشيعة والأشاعرة مؤمن فاسق خرج عن طاعة الله. وهو عند الخوارج، كافر كفر الملة عند جميع فرقهم إلا الأباضية فهو عندهم كافر كفر النعمة، وأما المعتزلة فهو عندهم في منزلة بين المنزلتين قال القاضي: إن صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين، وحكم بين الحكمين لا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسمه اسم المؤمن فلا يكون حكمه، حكم الكافر ولا حكم المؤمن بل يفرد له حكم ثالث، وهذا الحكم الذي ذكرناه هو سبب تلقيب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين، قال: صاحب الكبيرة له منزلة تتجاوزها هاتان المنزلتان.^(٢)

وهذا أحد الأصول الخمسة التي عليها يدور رحي الاعتزال ومن أنكر واحداً منها فليس بمعتزلي.^(٣)

١. المفيد: أوائل المقالات: ١٤-١٥.

٢. القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٦٩٧.

٣. الخياط: الانتصار: ١٢٦، و مروج الذهب: ٣/ ٢٢٢.

٧. النسخ جائز، والبداء ممتنع أو لا ؟

اتَّفَق المسلمون على جواز النسخ خلافاً لليهود، و اختلفوا في البداء، ذهبت الشيعة إلى إمكانه ووقوعه، خلافاً لغيرهم فقالوا بالامتناع.

ثم إنَّ الذي صار سبباً للتفريق بين الأمرين عند القاضي هو أنه اشترط في النسخ أموراً أهمّها: أنَّ النسخ لا يتعلّق بعين ما كان ثابتاً، بل يتعلّق بمثل ما كان ثابتاً أشار إليها بقوله: «النسخ إزالة مثل الحكم الثابت بدلالة شرعية بدليل آخر شرعيّ على وجه لولاه لثبت ، ولم يزل مع تراخيه عنه».

قال: فاعتبرنا أن يكون إزالة مثل الحكم الثابت لأنّه لو زال عين ما كان ثابتاً من قبل لم يكن نسخاً بل كان نقضاً، وهذا بخلاف البداء فإنّه يتعلّق بعين ما كان ثابتاً، ومثاله أن يقول أحدنا لغلّامه: إذا زالت الشمس ودخلت السوق فاشتر اللحم. ثم يقول له: إذا زالت الشمس ودخلت السوق فلا تشتّر اللحم، وهذا هو البداء ، وإنّا سمّينا به لأنّه يقتضي أنّه قد ظهر له من حال اشتراء اللحم ما كان خافياً عليه من قبل.^(١)

وقال أيضاً: الذي يدل على البداء، أن يأمر الله جلّ وعزّ بنفس ما نهى عنه في وقت واحد على وجه واحد وهذا محال لا نجيزه البتة.^(٢)

نحن لا نحوم حول البداء وما هو الفرق بينه وبين النسخ، فقد أشبعنا الكلام فيه في بحوثنا الكلامية^(٣) غير أنّ الذي يتوجّه على كلام القاضي أنّ ما أحاله هو أيضاً من أقسام النسخ لا من أقسام البداء المصطلح فإنّه على قسمين:

١. القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٥٨٤-٥٨٥.

٢. رسائل العدل والتوحيد: ١، رسالة القاضي عبد الجبار: ٢٤١.

٣. لاحظ الإلهيات: ١/ ٥٦٥.

١. النسخ بعد حضور وقت العمل.

٢. النسخ قبل حضور وقت العمل.

والذي أحاله هو القسم الثاني، وأما الوجه الذي اعتمد عليه فموهون بأنه ربّما تترتب المصلحة على نفس انشاء الحكم وإن لم يكن العمل به مراداً جدياً كما هو الحال في أمر إبراهيم بذبح ولده، والأوامر الامتحانية كلّها من هذا القبيل، فإذا شوهده من المكلف القيام بمقدمات الواجب، ينسخ الحكم وعلى كلّ تقدير فما سمّاه بداءً، ليس هو محلّ النزاع بين الإمامية وغيرهم.

والبداء عندهم عبارة عن تغيير المصير بالأعمال الصالحة أو الطالحة وهو شيء اتفق عليه المسلمون، وورد به النصّ في القرآن والسنة.

هذا هو حقيقة البداء في عالم الثبوت، وله أثر في عالم الإثبات، وهو أنّه ربّما يقف النبي على مقتضى المصير ولا يقف على ما يغيّره، فيخبر به على حسب العلم بالمقتضي ولكن لا يتحقّق لأجل تحقّق ما يغيّره، فيقال هنا: بداء الله والمقصود بداء من الله للعباد كما هو الحال في إخبار يونس عن تعذيب القوم وغير ذلك، وقد وردت جملة «بداء الله» في صحيح البخاري.^(١)

قال الشيخ المفيد: أقول في معنى البداء ما يقوله المسلمون بأجمعهم في النسخ وأمثاله من الإفقار بعد الإغناء، والإمراض بعد الإعفاء، وما يذهب إليه أهل العدل خاصة من الزيادة في الآجال والأرزاق والتقصان منها بالأعمال، وأما إطلاق لفظ البداء فإنّما صرت إليه لأجل السمع الوارد عن الوسائط بين العباد وبين الله عزّ وجلّ وليس بيني وبين كافة المسلمين في هذا الباب خلاف، وإنّما خالف من خالفهم في اللفظ دون ما سواه.^(٢)

١. البخاري، الصحيح: ٤ / ١٧٢، باب حديث «أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل».

٢. المفيد: أوائل المقالات: ٥٣.

وهذا يعرب عن أنّ القوم لم يقفوا على مصطلح الإمامية في البداء وإلاّ صفقوا على جوازه.

٨ . الواسطة بين الوجود والعدم

اتّفق المفكّرون من الفلاسفة والمتكلّمين على أنّه لا واسطة بين الوجود والعدم كما لا واسطة بين الوجود والعدم، وأنّ الماهيّات قبل وصفها بالوجود معدومات حقيقة غير أنّ المعتزلة ذهبوا إلى أنّها في حال عدم غير موجودة ولا معدومة، بل متوسطة بينهما وهذا هو المعروف منهم بالقول بالأحوال.

قال الشيخ المفيد: المعدوم هو المنفيّ العين، الخارج عن صفة الوجود، ولا أقول: إنّ جسم ولا جوهر ولا عرض، ولا شيء على الحقيقة وإن سمّيته بشيء من هذه الأسماء فإنّها تسمّيه به مجازاً، وهذا مذهب جماعة من بغداديّة المعتزلة وأصحاب المخلوق [كذا] والبلخي يزعم أنّه شيء ولا يسمّيه بجسم ولا جوهر ولا عرض والجبائي وابنه يزعم أنّ المعدوم شيء وجوهر وعرض، والخطايط يزعم أنّه شيء وعرض وجسم.^(١)

وبما أنّ المسألة واضحة جداً لا نحوم حولها.

٩ . التفويض في الأفعال

ذهب المعتزلة إلّا من شدّد كالنجار وأبي الحسن البصري^(٢) إلى أنّ أفعال العباد واقعة بقدرتهم وحدها على سبيل الاستقلال بلا إيجاب^(٣) بل باختيار.

١ . المفيد: أوائل المقالات: ٧٩.

٢ . لاحظ حاشية شرح مواقف لعبد الحليم السبلكوتي: ١٤٦/٢.

٣ . ولعلّ قولهم: «بلا إيجاب» إشارة إلى أنّ الفعل حال الصدور لا يتّصف بالوجوب أيضاً، والقاعدة الفلسفية: الشيء ما لم يجب لم يوجد، غير مقبولة عندهم.

قال القاضي: أفعال العباد لا يجوز أن توصف بأنها من الله تعالى و مِنْ عِنْدِهِ وَمِنْ قَبْلِهِ....^(١)

قال السيد الشريف الجرجاني (المتوفى ٨٨٦هـ): إِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ اسْتَدَلُّوا بِوُجُوهٍ كَثِيرَةٍ مَرْجِعُهَا إِلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّهُ لَوْ لَا اسْتِقْلَالُ الْعَبْدِ بِالْفِعْلِ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِيَارِ لَبُطِلَ التَّكْلِيفُ وَبُطِلَ التَّأْدِيبُ الَّذِي وَرَدَ بِهِ الشَّرْعُ وَارْتَفَعَ الْمَدْحُ وَالذَّمُّ إِذْ لَيْسَ لِلْفِعْلِ اسْتِنَادٌ إِلَى الْعَبْدِ أَصْلًا، وَلَمْ يَبْقَ لِلْبُعْثَةِ فَائِدَةٌ لِأَنَّ الْعِبَادَ لَيْسُوا مُوجِدِينَ أَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ أَيْنَ لَهُمْ اسْتِحْقَاقُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ؟^(٢)

ثمَّ إِنَّ نَظَرِيَّتَهُمْ فِي اسْتِقْلَالِ الْعَبْدِ فِي الْفِعْلِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى مَسْأَلَةٍ فِلْسَفِيَّةٍ، وَهُوَ أَنَّ حَاجَةَ الْمُمْكِنِ إِلَى الْعِلَّةِ تَنْحَصِرُ فِي حَدُوثِهِ، لَا فِيهِ وَفِي بَقَائِهِ، وَعَلَى ضَوْءِ ذَلِكَ قَالُوا بِاسْتِقْلَالِ الْعَبْدِ فِي مَقَامِ الْإِيجَادِ.

وَالْمَبْنِيُّ وَالْبِنَاءُ كِلَاهُمَا بِاطْلَانِ. أَمَّا الْإِفْتِقَارُ حَدُوثًا فَقَطُّ فَهُوَ لَا يَجْتَمِعُ مَعَ كَوْنِ الْإِمْكَانِ مِنْ لَوَازِمِ الْمَاهِيَةِ وَهِيَ مَحْفُوظَةٌ حَدُوثًا وَبَقَاءً، فَكَيْفَ يَجُوزُ الْغِنَاءُ عَنِ الْفَاعِلِ بَقَاءً؟

قال الحكيم الشيخ محمد حسين الاصفهاني:

وَالْإِفْتِقَارُ لَازِمُ الْإِمْكَانِ مِنْ دُونِ حَاجَةِ إِلَى الْبَرْهَانِ لَا فَرْقَ مَا بَيْنَ الْحُدُوثِ وَالْبَقَا فِي لَازِمِ الذَّاتِ وَلَنْ يَفْتَرِقَا هَذَا كُلُّهُ حَوْلَ الْمَبْنِيِّ، وَأَمَّا الْبِنَاءُ فَالْتَخَلُّصُ عَنِ الْجَبْرِ يَكْفِي فِي اسْتِنَادِ الْفِعْلِ إِلَى الْفَاعِلِ وَالْخَالِقِ مَعًا، لَكِنْ يَكُونُ قُدْرَةُ الْمَخْلُوقِ فِي طُولِ قُدْرَةِ الْخَالِقِ، وَمِنْ شَعْبَةِ عَنْهَا، وَهَذَا يَكْفِي فِي الْإِسْتِنَادِ وَصَحَّةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالتَّأْدِيبِ وَالتَّثْوِيبِ،

١. القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٧٧٨، وفي ذيله ما ربما يوهم خلاف ما هو المشهور عنهم.

٢. شرح المواقف: ١٥٦/٨.

فالجبر والتفويض باطلان، والأمر بين الأمرين هو الحقّ الصراح، وقد تواتر عن أئمة أهل البيت قولهم: لا جبر وتفويض لكن أمر بين الأمرين.^(١)

ثم إنّ الدافع إلى القول بالتفويض هو صيانة عدله سبحانه فزعموا أنّ الصيانة لها رهن القول بالتفويض واستقلال العبد بالفعل، وغفلوا عن أنّ هناك طريقاً آخر وهو ما ذهبت إليه الإمامية، ثمّ إنهم وإن نزهوا الله سبحانه عن الظلم ولكن صوّروا له شريكاً في الایجاد، ولأجل ذلك قال الإمام الرضا عليه السلام: «مساكين القدرية أرادوا أن يصفوا الله عزّ وجلّ بعدله فأخرجوه من قدرته وسلطانه».^(٢)

١٠. قبول التوبة واجب على الله أو تفضّل منه؟

اتّفق المسلمون على أنّ التوبة تسقط العقاب، وإنّما الخلاف في أنّه هل يجب على الله قبولها فلو عاقب بعد التوبة كان ظالماً، أو هو تفضّل منه سبحانه؟ فالمعتزلة على الأوّل، والأشاعرة والإمامية على الثاني.^(٣)

قال المفيد:

«اتّفقت الإمامية على أنّ قبول التوبة بفضل من الله عزّ وجلّ، وليس بواجب في العقول إسقاطها لما سلف من استحقاق العقاب، ولولا أنّ السمع ورد بإسقاطها لجاز في العقول بقاء التائبين على شرط الاستحقاق، ووافقهم على ذلك أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة على خلافهم وزعموا أنّ التوبة مسقطه لما سلف من العقاب على الوجوب».^(٤)

١. الصدوق: التوحيد: ٣٦٢، الحديث ٨، ولاحظ الأحاديث الأخرى.

٢. نفس المصدر: ص ٥٤، الحديث ٩٣.

٣. لاحظ: التفاتزاني: شرح المقاصد: ٢/ ٢٤٢؛ العلامة الحلي: كشف المراد: ٢٦٨؛ القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٧٩٨.

٤. المفيد: أوائل المقالات: ١٥.

ولقد أحسن قدّس الله سرّه حيث جعل محور المسألة قبول التوبة وعدمه بها هو هو لا بلحاظ آخر كما إذا أخبر سبحانه أنّه: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾^(١) فعندئذٍ يجب قبول التوبة عقلاً وإلاّ لزم الخلف في الوعد. قال الطبرسي في تفسير قوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢): «ووصفه بالرحيم عقيب التّوّاب يدلّ على أنّ إسقاط العقاب بعد التوبة تفضّل منه سبحانه ورحمة من جهته، على ما قاله أصحابنا، وأنّه غير واجب عقلاً على خلاف ما ذهب إليه المعتزلة».^(٣)

و من أراد أن يقف على دلائل المعتزلة في المقام فليرجع إلى كشف المراد وشرح المقاصد.

١١. عصمة الأنبياء قبل البعثة وبعدها

اتّفقت الإمامية على أنّ جميع أنبياء الله ﷺ معصومون من الكبائر قبل النبوة وبعدها، ومما يستخف فاعله من الصغائر وأمّا ما كان من صغير لا يستخف فاعله فجائز وقوعه منهم قبل النبوة وعلى غير تعمد وممتنع منهم بعدها على كلّ حال هذا مذهب جمهور الإمامية، والمعتزلة بأسرها تخالف فيه.^(٤)

والمنقول عن أبي علي الجبائي التفصيل في الكبائر بين ما قبل البعثة وبعدها فيجوز في الأوّل دون الثاني، والمختار عند القاضي في الكبائر عذم الجواز مطلقاً وأمّا المنفرات فاتّفقوا على عدم جوازه.^(٥)

١. التوبة: ١٠٤.

٢. البقرة: ١٦٠.

٣. الطبرسي: مجمع البيان: ٢٤٢/١.

٤. المفيد: أوائل المقالات: ٣٠.

٥. القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٥٧٣.

١٢. وجوب الأمر بالمعروف عقلاً وعدمه

اتَّفقت الأئمة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا استثناء، غير أنهم اختلفوا في وجوبه عقلاً وسمعاً، أو سمعاً فقط، فالمعتزلة على الأول، والإمامية على الثاني.

قال المفيد: إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان فرض على الكفاية لشرط الحاجة إليه لقيام الحجّة على من لا علم لديه إلّا بذكره أو حصول العلم بالمصلحة به أو غلبة الظنّ بذلك.^(١)

ثمَّ إنَّ المحقّق الطوسي ذكر في متن التجريد دلائل المعتزلة على وجوبها عقلاً، ثمَّ عبّ عليها بنقد وتحليل.^(٢)

١٣. آباء رسول الله كلّهم موحدون

اتَّفقت الإمامية على أنّ آباء رسول الله من لدن آدم إلى عبد الله بن عبد المطلب مؤمنون بالله عزّ وجلّ موحدون له، وخالفهم على هذا القول جميع الفرق.^(٣)

١٤. تفضيل الأنبياء على الملائكة

اتَّفقت الإمامية على أنّ أنبياء الله عزّ وجلّ ورسله من البشر أفضل من الملائكة، ووافقهم على ذلك أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك وزعم الجمهور منهم أنّ الملائكة أفضل من الأنبياء والرسل.^(٤)

١. المفيد: أوائل المقالات: ٩٨. وبذلك يظهر وهن ما ذكره القاضي في شرح الأصول الخمسة من نسبة عدم الوجوب على الإطلاق إلى الإمامية، لاحظ ص ٧٤١.

٢. العلامة: كشف المراد: ٢٧١، ط صيدا.

٣. المفيد، أوائل المقالات: ١٢.

٤. المفيد: أوائل المقالات: ١٦.

١٥. الرجعة: إمكانها ووقوعها

قضية الرجعة التي تحدثت عنها بعض الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن أهل بيت الرسالة مما تعتقد به الشيعة من بين الأمة الإسلامية . قال الشيخ المفيد: إنّ الله يختار قوماً من أمة محمد ﷺ بعد موتهم قبل يوم القيامة وهذا مذهب يختص به آل محمد ﷺ والقرآن شاهد به.^(١) وخالفت المعتزلة والأشاعرة وأهل الحديث في ذلك.

١٦. الجنة والنار مخلوقتان أو لا ؟

إنّ الله سبحانه وعد المتقين بالجنة وأعد العصاة بالنار فهل هما مخلوقتان أو لا؟ والمسألة نفلية محضة فالإمامية إلّا من شدّ ذهبت إلى أنّ الجنة والنار في هذا الوقت مخلوقتان. قال الشيخ المفيد: وبذلك جاءت الأخبار وعليه إجماع أهل الشرع والآثار.^(٢)

وقال التفتازاني: جمهور المسلمين على أنّ الجنة والنار مخلوقتان الآن خلافاً لأبي هاشم والقاضي عبد الجبار، ومن يجري مجراهما من المعتزلة حيث زعموا أنّهما إنّما يخلقان يوم الجزاء.^(٣)

والظاهر من السيد الرضي من الشيعة (٣٥٩-٤٠٦ هـ) أنّها غير مخلوقتين الآن حيث قال: الصحيح أنّهما إنّما تخلقان بعد.^(٤)

١. المجلسي: البحار: ٣٦/٥٣، نقلاً عن المسائل المروية للشيخ المفيد.

٢. المفيد: أوائل المقالات: ١٠٢.

٣. التفتازاني: شرح المقاصد: ٣١٨/٢؛ ولاحظ شرح التجريد للقوشجي: ٥٠٧، وعبارة الأخيرين واحدة.

٤. الرضي: حقائق التأويل: ٢٤٥/٥.

١٧. تأويل النصوص اعتماداً على القواعد العقلية

إنّ الأصول الخمسة عند المعتزلة توصف بالصحة والإتقان على درجة تقدم على النصوص الشرعية الواردة في القرآن والسنة، فقد أعطوا للعقل أكثر مما يستحقه، ولذلك نرى أنهم لما بنوا على أنّ مرتكب الكبيرة مخلّد في النار أولوا النصوص القرآنية، فقالوا: إنّ المراد من الشفاعة هو ترفيع الدرجة لا رفع العقاب، وقس على ذلك سائر تأويلاتهم في الكتاب والسنة.

إنّ النصّ الوارد في القرآن الكريم دليل قطعي لا يعادله شيء، فعند ذلك تجب تخطئة العقل لا تأويل القرآن، والتعارض بين القطعيين غير معقول، وتأويل النصّ القطعي كرفضه، نعم لو كان النصّ ظنيّ السند أو كان الدليل الشرعيّ ظنيّ الدلالة فالتأويل مجال، هذا وللبحث صلة تطلب في محاله.

١٨. الإمامة بالتنصيص أو بالشورى

اتّفقت الإمامية على أنّ الإمامة بالتنصيص خلافاً للأشاعرة والمعتزلة وقالوا بالشورى وغيرها، ويتفرّع على ذلك أمر آخر، وهو أنّ النبي نصّ على علي عليه السلام خليفته بالذات عند الإمامية، وقال الآخرون سكت وترك الأمر شورى بين المسلمين.

قال القاضي عند البحث عن طرق الإمامة (عند المعتزلة): إنّها العقد والاختيار.^(١)

١٩. هل يشترط في الإمام كونه معصوماً؟

اتّفقت الإمامية على أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً عن الخطأ والمعصية

١. القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٧٥٣.

خلافاً للمعتزلة حيث اكتفت أنه يجب أن يكون مبرزاً في العلم مجتهداً، ذا ورع شديد، يوثق بقوله ويؤمن منه ويعتمد عليه.^(١)

قال المفيد: إنّ الأئمة القائمين مقام الأنبياء في تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وحفظ الشرائع، وتأديب الأنام، معصومون كعصمة الأنبياء وأتهم لا يجوز منهم صغيرة إلا ما قدّم ذكر جوازه على الأنبياء وأنه لا يجوز منهم سهو في شيء في الدين ولا ينسون شيئاً من الأحكام، وعلى هذا مذهب سائر الإمامية، إلا من شدّ منهم وتعلّق بظاهر روايات، لها تأويلات على خلاف ظنه الفاسد من هذا الباب، والمعتزلة بأسرها تخالف في ذلك ويجوزون من الأئمة وقوع الكبائر والردة عن الإسلام.^(٢)

٢٠. حكم محارب الإمام عليّ أمير المؤمنين

اتفقت الإمامية على أنّ الناكثين والقاسطين من أهل البصرة والشام أجمعين كفّار ضلّال ملعونون بحربهم أمير المؤمنين عليه السلام، وأتهم بذلك في النار مخلّدون، وأجمعت المعتزلة سوى الغزال منهم وابن باب، والمرجئة والحشوية من أصحاب الحديث على خلاف ذلك، فزعمت المعتزلة كافة إلا من سمّيناه وجماعة من المرجئة وطائفة من أصحاب الحديث، أنهم فسّاق ليسوا بكفار، وقطعت المعتزلة من بينهم على أنهم لفسقهم في النار خالدون.^(٣)

هذه جملة من الأصول التي يختلف فيها المنهجان وبقيت هناك أصول أخرى تضاربت فيها آراء الفريقين، لم نذكرها روماً للاختصار.

١. شرح الأصول الخمسة: ٧٥٤.

٢. الشيخ المفيد: أوائل المقالات: ٣٥.

٣. نفس المصدر: ١٠.

الآن حصص الحقّ

إنّ القارئ الكريم إذا أمعن فيما أوردناه في هذه الفصول الستة يقف على ضالّتنا المنشودة وهي:

١. إنّ الشيعة عن بكرة أبيهم كانوا مستقلّين في التفكير، وقد اقتفوا في الأصول والفروع أئمة أهل البيت، ولم يكونوا في عصر من الأعصار تبعاً للمعتزلة، وأنهم لو اتفقوا معهم في أصول، اختلفوا في أخرى، ولو كان الاتفاق فيها دليلاً على التبعية فلماذا لا يكون دليلاً على العكس؟ والحقّ أنّ الطائفتين يصدران عن معين عذب وهي خطب الإمام أمير المؤمنين في التوحيد والعدل، و الرجوع إلى العقل في مجال العقائد، وأنّ من زعم أنّ الشيعة كانت تبعاً للمعتزلة فقد ظنّ ظناً خاطئاً بلا تحقيق ولا إمعان.

هذا وإنّ شيخ الأئمة المفيد عقد باباً خاصاً في كتابه أوائل المقالات يبيّن فيه الفوارق الفكرية بين الشيعة والمعتزلة.^(١)

٢. إنّ الشيعة كانت تتمتع في القرون السبعة بمنهج كلاميّ تام متشعب الفنون، وقد نضج المنهج في ظلّ الأصول السمعية والدراسات العقلية، وهام علماءهم، ومتكلّموهم فيها، وهذه كتبهم ورسائلهم، وهذه أصولهم وعقائدهم، وهذه مناظراتهم مع المخالفين.

ومهما يكن من أمر فإنّ الشيعة قد خلفت تراثاً كلامياً ضخماً إلاّ أنّ ثمة من يلمح إلى معنى فيه ظلم كثير للكلام الشيعي فهذا هو آدم متز يقول: لم يكن للشيعة في القرن الرابع منهج كلامي مع أنّ ابن النديم يصف المفيد بأنّه: «في عصرنا انتهت رئاسة متكلّمي الشيعة إليه، مقدّم في صناعة الكلام على مذهب أصحابه، دقيق الفطنة، بادئ الخاطر، شاهده فرائته بارعاً»^{(٢)؟!}

نحمده سبحانه على انعامه وافضاله، ونشكره على آلائه، ونصلي على محمد
أفضل سفرائه، وعلى آله الأطهار أفضل بريته، صلاة دائمة ما دامت السماء ذات
أبراج، والأرض ذات فجاج.

جعفر السبحاني

قم، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

صفر المظفر/ ١٤١٣ هـ

الرسالة الثامنة



دراسة إيمان أبي طالب في ضوء الكتاب والسنة

كُتبت هذه الرسالة جواباً لمحاضرة الشيخ يوسف القرضاوي في قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله ورعاه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نسأل الله لكم دوام الصحة والتوفيق لخدمة الإسلام والمسلمين.

أما بعد؛ فقد وقفنا في إحدى المجلات الإسلامية على مقالة رثائية قيّمة لكم بمناسبة رحيل المفكر الإسلامي القدير الشيخ الغزالي - رحمه الله - تحت عنوان: «النجم الساطع».

ولقد كان الشيخ الغزالي حقاً - كما وصفتموه - العقل الذكي، والقلب النقي، وصاحب الرشد في الفكر والشجاعة في الحق، والغيرة على الدين فقد صدع بما يرى أنّه الحق غير آبه بما يُثيره رأيه الصريح، من انتقادات واعتراضات،

لأنه كان — كما قلتم — حرَّ الفكر والضمير، حرَّ اللسان والقلم، و لأنه رفض الخضوع لأهواء العوام كما فعل أدعياء العلم الذين يحسبهم الناس دعاةً !!

ولقد طالعنا في نفس الوقت رسالتكم القيمة إلى الندوة الثانية للتقريب بين المذاهب الإسلامية بالرباط (١٢ - ١٤ ربيع الثاني ١٤١٧ هـ) التي انطلقت من روح متوقّدة متطلّعة إلى عزّة المسلمين وفهم عميق ومنطقي للقرآن والسنة.

وقد أعجبنا فيها رؤيتكم الصائبة حول ما يحول دون تحقيق الوحدة الإسلامية الكبرى والتقريب بين فصائل المسلمين وطوائفهم، وأبرز ذلك فراغ نفوس المسلمين من الهموم الكبيرة والآمال العظيمة، واعتراكمهم على المسائل الصغيرة والهامشية من فروع العقيدة أو الفقه، وقد كان من الواجب — كما قلتم — على الدعاة والمفكرين الإسلاميين أن يشغلوا جماهير المسلمين بهموم أمتهم الكبرى وليلفتوا أنظارهم وقلوبهم وعقولهم إلى ضرورة التركيز عليها والتنبيه لها.

والحق كما تفضلتم: مشكلة المسلمين اليوم ليست في الذي يؤوّل آيات الصفات وأحاديثها بل في من ينكر الذات والصفات الإلهية جميعاً ويدعو إلى العلمانية والإلحاد، ومشكلة المسلمين ليست في من يجهر بالبسمة أو يخفضها أو لا يقرؤها في الصلاة، ولا في من يرسل يديه في الصلاة أو يقبضهما، إنّما مشكلة المسلمين في من لا ينحني يوماً لله راکعاً ولا يخفض جبهته لله ساجداً ولا يعرف المسجد ولا يعرفه ...

ولا ... ولا ... أنّها إنّما

وبالتالي أنّ المشكلة حقاً هي: وهن العقيدة في النفوس، وتعطيل الشريعة في الحياة، وانحيار الأخلاق في المجتمع، وإضاعة الصلوات، ومنع الزكوات واتباع الشهوات، وشيوع الفاحشة، وانتشار الرشوة، وخراب الذمم، وسوء الإدارة، وترك

الفرائض الأصلية، وارتكاب المحرمات القطعية، وموالة أعداء الله ورسوله والمؤمنين.

إن مشكلة المسلمين - كما تفضلتم فيها - تتمثل في إلغاء العقل وتجميد الفكر وتخدير الإرادة، وقتل الحرية، وإماتة الحقوق، ونسيان الواجبات، وفشو الأنانية، وإهمال سنن الله في الكون والمجتمع.

وهي بالضبط وعلى التحديد كل هذا، وبخاصة ما ذكرتموه في أرقام سبعة تحت عنوان هموم سبعة أساسية.

ولقد أعجبنا كل هذه الرؤى جملةً وتفصيلاً، وتمنينا لو كان مثل هذه الرؤية والبصيرة شائعة بين مفكري الإسلام وعلمائه اليوم سنةً وشيعةً ومن جميع الفرق والمذاهب، وكان هناك تعاون صادق وعميق ومتواصل لحل هذه المشكلات ما دامت كل هذه الفرق والمذاهب متفقة على وحدانية الله، ورسالة النبي الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ، وأركان الإسلام العملية، ومكارم الأخلاق، وأمور كثيرة أخرى تفوق الحصر، وتستعصى على العد والإحصاء.

وتمنينا لو كان المسلمون يكفون - إلى جانب ذلك - عن التراشق بسهام الاتهام فيما بينهم، ويتحرّرون من عقدة الطائفية وأساليبها الجاهلية، ويقوموا - بدل ذلك - بدراسة نقاط الخلاف والاختلاف بروح أخوية ونهج علمي، واسلوب رصين، ويفسحون للجميع فرصة التعبير عن مذهبه، والإدلاء بأدلته، وبراهينه في جوٍّ ملؤه رحابة الصدر واتساع الفكر والسماحة، ويتركون إثارة ما يبعد القلوب بعضها عن بعضها، ويكدر الصفو، ويفسد المودة.

غير أنه بلغنا أنكم في محاضرة لكم في «قطر» تعرضتم بسوء لشيخ الأباطح ناصر الإسلام وحامي نبيه الأكبر أبي طالب - رضوان الله تعالى عليه - الذي تكفل رسول الله ﷺ وآواه، وحامى عنه بعد ابتعائه بالرسالة، وضحى في سبيل دعوته براحتة، ونفسه، وبأولاده وأفلاذ كبده، كاتماً إيمانه، ومتقياً قومه العتاة ليبقى على منصبه، من أجل أن يخدم في ظلّه الرسول والرسالة، ويدفع به عنها أذى معارضيهما، وكيدهم كما فعل مؤمن آل فرعون طوال أربعين سنة، بلا انقطاع.

فهل ترى كان حقيقاً بأن يُنكر فضله، وتُتجاهل خدمته؟ وهو الذي صرح بصحة الرسالة المحمدية وصدق الدعوة النبوية الخاتمة في قصائده، وأشعاره وترجم إيمانه، بالوقوف الصريح - هو وأبناؤه الغر - إلى جانب رسول الله ﷺ حيث يقول:

كَذَبْتُمْ وَبَيَّتَ اللَّهُ بُنَى مُحَمَّدًا	ولما نطاعن دونه ونناضل ^(١)
وَنُسَلِّمُهُ حَتَّى نُصْرَعَ حَوْلَهُ	وَنَذْهَلُ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ
لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجَدًا بِأَحَدٍ	وإخوته دأب المحبِّ المواصل
فَلَا زَالٍ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا	وَزَيْنًا لِمَنْ وَالَاهُ رَبُّ الْمَشَاكِلِ ^(٢)
فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤَمِّلٍ	إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ
حَلِيمٌ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ	يُوَالِي إِلَّا هَآلِيْسَ عَنْهُ بِغَافِلٍ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مَكْذَبَ	لِدِينَا وَلَا يُعْنِي بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

١. أي نُغَلِّبَ عليه.

٢. المشاكِل: العظيَّات من الأمور.

- فأصَبَحَ فِينَا أَحْمَدُ فِي أُرُومَةٍ تَقْصُرُ عَنْهُ سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ ^(١)
 حَذِبْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحِمِيَّتِهِ وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذُّرَا وَالْكَلَاكِلِ ^(٢)
 فَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ وَأَظْهَرَ دِينًا حَقُّهُ غَيْرَ بَاطِلِ ^(٣)

نقل ابن هشام في سيرته أربعة وتسعين بيتاً من هذه القصيدة، فيما أورد ابن كثير الشامي في تاريخه «اثنين وتسعين بيتاً» وأورد أبو هفان العبدي الجامع لديوان «أبي طالب» مائة وواحد وعشرين بيتاً منها في ذلك الديوان ولعلها تمام القصيدة وهي في غاية العذوبة والروعة، وفي منتهى القوة والجمال، وتفوق في هذه الجهات كلَّ المعلقات السبع التي كان عرب الجاهلية يفتخرون بها ويعدونها من أرقى ما قيل في مجال الشعر.

وله وراء هذه اللامية، قصيدة أخرى ميمية «فهو - سلام الله عليه - يصرح فيها بنبوة ابن أخيه وأنه نبي كموسى وعيسى ﷺ إذ يقول:

- لِيَعْلَمَ خِيَارُ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ كَمُوسَى وَالْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ
 أَتَانَا يَهْدِي مِثْلَ مَا أَتَى بِهِ فَكُلُّ بَأْمَرِ اللَّهِ يَهْدِي وَيَعْصَمُ ^(٤)
 ونظيرها قصيدته البائية وفيها:
 أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا نَبِيًّا كَمُوسَى خَطٍ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ ^(٥)

١. السورة: الشدة والبطش.

٢. الذرا: جمع ذروة وهي أعلى ظهر البعير.

٣. راجع السيرة النبوية: ١/ ٢٧٢ - ٢٨٠.

٤. مجمع البيان: ٧/ ٣٧، الحجة: ٥٦، مستدرک الحاكم: ٢/ ٦٢٣.

٥. مجمع البيان: ٧/ ٣٦، وقد نقل ابن هشام في سيرته: ١/ ٣٥٢ خمسة عشر بيتاً من هذه القصيدة.

أفبعد هذه البلاغات والتصريحات يصحّ لإنسان واع أن يكفر سيد الأباطح
أو يشك في إيمانه؟

وعلى فرض التسليم، فهل هذه هي واقعاً مشكلة الأمة الإسلامية اليوم وأنتم
الأدري بمشاكل الأمة، وهل التنكيل بحامي الرسول، والإيقاع فيه من ما يخدم
الأمة؟!

هل يكون أبو طالب مع كل تلکم المواقف المشرفة ومع كل تلك الإثارة
الصريحة الكاشفة عن عمق إيمانه بالرسالة المحمدية مشركاً، وأبو سفيان الذي
أشعل حروباً وقام بمؤامرات مدة عشرين سنة وأبناءؤه الذين كانوا أساس المشكلة
ومبدأ الانحراف في المسار الإسلامي، مسلمين موحدين يستحقون كل تقدير وكل
احترام منا؟!

وهل ترى لو كان أبو طالب والد الأغير علي عليه السلام كان يرى هذا الحيف من
قبل أبناء الإسلام؟!

هلاً كنتم يا فضلية الأستاذ - وأنتم على ما أنتم عليه من مستوى رفيع
ومرموق في الرؤية والبصيرة - على نهج زميلكم الراحل الفقيد الشيخ الغزالي - رحمه
الله - من الصدع بالحق، وعدم الخضوع للمرويات الباطلة.

نحن - وقد وقفنا على قسم من مؤلفاتكم القيمة الزاخرة بالفكر المشرق -
كنا ولا نزال نأمل أن تنصفوا الحقيقة ولا تقعوا فيما وقع فيه الأولون من غمطها
وتجاهلها والجناية عليها، وأن تكونوا المرجع الأمين لشباب هذا العصر في تصحيح
التاريخ، وتنقيته من الأباطيل، ورفع الضيم والظلم عن المظلومين.

ورحم الله ابن أبي الحديد القائل:

ولولا أبو طالب وابنه لما مثل الدين شخصاً وقاماً
فهذا بمكة أوى وحامى وذلك بيثرب ذاق الحماماً
كل ذلك لو كان النبأ الواصل إلينا عن محاضرتكم صادقاً، وأرجو أن لا
يكون كذلك.



هذا ونرسل إليكم ما قمنا به من دراسة لإيمان أبي طالب في ضوء الكتاب
والسنة والتاريخ، وقد طبع ضمن دراستنا لحياة وتاريخ سيد المرسلين ﷺ.

ثم إننا انطلاقاً من ضرورة السعي لإيجاد المزيد من التفاهم والتقارب نرسل
إليكم كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، و حكم الأرجل في الوضوء، و الأسماء
الثلاثة، وأملنا أن تكون هذه الكتب خطوات على سبيل تحصيل التقارب بين
الفقهين.

وختاماً نقول: إنكم في رسالتكم للمؤتمر رجحتم قول الإمام أحمد في مسألة
خلق القرآن، وما قوله إلا «قدم القرآن»، وكيف يكون هذا القول، القول الأرجح
وليس القديم إلا الله سبحانه، فيكون القرآن عندئذٍ إلهاً ثانياً، وهو يضاد أصل
التوحيد؟!!

ولو أريد من قدم القرآن قدم علمه سبحانه فهذا أمر لا سترة عليه ولا نزاع
فيه.

والجدير بالإمام أحمد الذي يأخذ العقائد من الكتاب والسنة أن لا يخوض
في هذا الموضوع بحجة أن الكتاب والسنة لم يذكر شيئاً حول قدم القرآن و حدوثه

لو لم نقل أنّه تبنيّ حدوثه.

وتقبلوا في الختام أسمى تحياتنا، وأفضل تمنياتنا، وفقكم الله لصالح العلم والعمل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

جعفر السبحاني

قم - الجامعة الإسلامية

تحريراً في ١٥ / ١١ / ١٤١٧ هـ ق

الرسالة التاسعة



جواب رسالة حول الشيعة

أصولها وعقائدها

١

قد وجهت إليّ دعوة من الأردن عام ١٤١٩ هـ لإلقاء المحاضرات في جامعاتها، وكان لها صدقٌ واسع النطاق لا سيما في التعريف بالشيعة وأصولها وفروعها وتاريخها.

ودارت المحاضرات حول الوحدة الإسلامية والأصول المشتركة بين الفريقين، ونالت اهتمام الصحف والمجلات الأردنية، كما نالت إعجاب الحاضرين.

ولما أقفلت راجعاً إلى إيران انهارت عليّ رسائل عديدة من الأردن تستفسر فيها عن الشيعة وأصولها وعقائدها.

ومن كتب إليّ في ذلك أخت جامعية فاضلة تدعى ابتسام سالم زبن العطيات.

فقد كتبت رسالة مسهبة سألتني فيها عن مسائل تتعلق بالشيعة وعقائدها، وقد بعثت إليها بالرسالة التالية جواباً لاستفساراتها.

وبالإمعان فيها تعلم الأسئلة التي وجهتها إليّ، وهي رسالتان ننشرهما تبعاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أُختي في الله: ابتسام سالم زين العطيات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد:

فقد وافتنني رسالتكم الكريمة معربة عن أخلاقكم السامية وأعرافكم الزاكية، ووقفت على ما تنطوون عليه من حبّ للوحدة الإسلامية ورص الصفوف، وقد كتبتم في صدر رسالتكم أموراً أوافقكم في جميع ما حررتموه، غير أنني أقوم برفع بعض الشبهات العالقة بأذهانكم بالنسبة إلى الشيعة.

١. إن الشيعة ليست فرقة حادثة بعد النبي ﷺ بل ترجع جذورها إلى أمائل من المهاجرين والأنصار الذين بقوا على ما كانوا عليه في عصر الرسالة من الاعتقاد بمبدأ التنصيب على الإمام بعد الرسول ﷺ، فبقوا على تلك العقيدة بعد رحيل النبي ﷺ فتلك الثلة من المهاجرين والأنصار هم رواد التشيع، وقد ذكرنا أسماء كثير منهم في الجزء السادس من كتابنا «بحوث في الملل والنحل»، وفي طليعتهم: أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، والمقداد بن الأسود الكندي، وقيس بن سعد بن عبادة، وسلمان الفارسي، والعباس عم النبي ﷺ.

وأبو أيوب الأنصاري، وذو الشهادتين خزيمة بن ثابت الأنصاري، وقد انتشر التشيع عن طريق هؤلاء في الحجاز أولاً ومنها إلى سائر الأمصار عبر القرون. إن اختلاف الشيعة مع السنة ليس اختلافاً فيما أوحى إلى الرسول ﷺ بل هو اختلاف في بعض ما روي عنه، و الشيعة على أن الرسول ﷺ نصّ على الخليفة بعده في مواقف عديدة، مثل:

أ. حديث الدار

بعد أن مضت ثلاث سنوات على بعثة النبي ﷺ كلفه الله تعالى بأن يبلغ لأبناء عشيرته وقبيلته، وذلك عندما نزل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١).

فجمع النبي ﷺ رؤوس بني هاشم وقال: «يا بني عبد المطلب إنني والله ما أعلمُ شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا قد جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيتكم يؤازرنّي على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي ووزيري وخليفتي فيكم».

ولقد كرّر النبي ﷺ العبارة الأخيرة ثلاث مرّات، ولم يقم في كلّ مرّة إلاّ الإمام علي عليه السلام، الذي أعلن عن استعدادّه لمؤازرة النبي ﷺ ونصرته، وفي المرّة الثالثة قال النبي ﷺ: «إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»^(٢).

١. الشعراء: ٢١٤.

٢. مسند أحمد: ١/١٥٩؛ تاريخ الطبري: ٢/٤٠٦؛ تفسير الطبري (جامع البيان: ١٩/

ب. حديث الغدير

ومن جملة التنصيب على الخليفة نصّ النبي ﷺ على عليّ عليه السلام في محتشد عظيم في منصرفه من حجة الوداع في أرض تعرف بغدير خم، حيث قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها؟».

قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال ﷺ: «فإني فرطُ (أي أسبقكم) على الحوض (أي الكوثر)، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين؟».

فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال ﷺ: «الثقلُ الأكبر كتابُ الله طرف بيد الله عزّ وجلّ وطرف بأيديكم فتمسّكوا به لا تضلّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلّكوا، ولا تقصّروا عنهم فتهلّكوا».

ثم أخذ بيد «عليّ» فرفعها حتى روي بياض آباطهما فعرّفه القوم أجمعون فقال ﷺ: «أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال ﷺ: «إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه».

ثم قال ﷺ: «اللهم وإل من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه، وأنصر من نصره، وأخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث ما دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

حديث الغدير من الأحاديث المتواترة

إنّ حديث الغدير من الأحاديث المتواترة، وقد رواه العديد من الصحابة والتابعين والمحدثين في كلّ قرنٍ بصور متواترة.

فقد نقل حديث الغدير ورواه (١١٠) من الصحابة، و(٨٩) من التابعين، و(٣٥٠) من العلماء والمحدثين، وفي ضوء هذا التواتر لا يبقى أيُّ مجالٍ للشكِّ في أصالة وصحّة هذا الحديث.

كما أنّ فريقاً من العلماء ألّفوا كتباً مستقلةً حولَ حديث «الغدير» أشملها وأكثرها استيعاباً لطرق وأسناد هذا الحديث كتابُ «الغدير» للعلامة الشيخ عبد الحسين الأميني (١٣٢٠-١٣٩٠هـ).



٢. تسمية هؤلاء بالشيعة ترجع إلى نفس النبي ﷺ فلاحظوا تفسير الدر المنثور في سورة البيّنة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، حيث قال النبي ﷺ: هم علي وشيعته.

هؤلاء نواة التشييع وقد نمت بعد رحيل الرسول ﷺ بفضل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين إلى يومنا هذا. ولهم دول وحكومات وجامعات علمية ومساهمات كثيرة في الحضارة الإسلامية وكتب و آثار عظيمة ومكتبات ضخمة وقد خدموا الإسلام والمسلمين في كافة الحقول.

هذه لمحة إجمالية للشيعة ولنجب الآن عن ما طلبتموه من إعطاء المعلومات حول الأمور التالية:

١. كتبتم: «لديّ بعض المعلومات والنصوص التي قرأتها من خلال كتب

الشيعة».

كنت أود أن أتعرف على تلك الكتب التي قرأتموها لأقف على مدى معلوماتكم الصحيحة بالنسبة إلى الشيعة الإمامية.

٢. كتبتم: «أن تكون الاجابة لكم صريحة بدون اللجوء إلى مبدأ التقية».

نوضح لكم أنّ مبدأ التقية عند الشيعة هو في حالة الخوف على النفس والنفس، وهو أمر يتحقق عند الضعف، وأمّا في الحالات الطبيعية واستتباب الأمن فلا معنى للتقية، وأنا أقسم بالله تبارك و تعالی ﴿وأنّه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ أنّه لم يكتب كتاب عبر القرون على نمط التقية بل كلّ من كتب من علمائنا الشيعة سواء أصاب أم أخطأ فإنّنا كتب فيما يراه واعتقده.

٣. ذكرتم وقرأتم في إحدى الكتب: «أنّ الإمام آية الله الخميني كُفر صاحبي رسول الله ﷺ وهذا واضح في كتابه كشف الأسرار، ص ١١١ و ١١٤ و ١١٧ ويسميها صمني قريش... الخ».

إنّ التعقيم الاعلامي لم يزل سائداً على الشيعة إلى يومنا هذا، وقد نسبوا إليهم أموراً لا حقيقة لها، و من هذه الأمور ما نقلتموه عن أحد الكتب.

إنّ الإمام الخميني كُتب كتابه كشف الأسرار (عام ١٣٦٣ هـ. ق/ ١٩٤٤ م) وهو كان ممن يحمل هموم المسلمين منذ شبابه حتى لقاء ربه، وقد قام بعض أصحاب الأقلام المشبوهة بترجمة كتابه (كشف الأسرار) ترجمة مزوّرة ومحرفة ولم يراع الأمانة العلمية، فأدخل فيه أشياء لتشويه سمعة الثورة الإسلامية التي فجّرها الإمام الخميني ولم تزل تشع وتدعو الأمة إلى الوحدة ورّص الصفوف، فالترجمة التي اعتمدتم عليها، ترجمة مزوّرة ومحرفة، فلأجل أن تثقوا بما ذكرت أودّ أن ترسلوا إلي تلك الصفحات حتى أرسل إليكم ما كتبه السيد في تلك المواضيع باللغة الفارسية المطبوعة، وبإمكانكم التطابق بين النسختين عن طريق من يجيد، اللغتين العربية و الفارسية في جامعة أهل البيت في الأردن الهاشمي وغيرها كي

تصدقوا بأنّ التعقيم الإعلامي لم يزل قائماً بين المسلمين للحيلولة دون الوقوف على عقائد هذه الطائفة الكبيرة والمظلومة.

٤. قلت: «تعتقد الشيعة الإمامية أنّ حكام أهل السنة وقضاتهم طواغيت...».

تعتقد الشيعة بأنّ القضاة المنصوبين من قبل السلطة الظالمة لا يجوز التحاكم إليهم من غير فرق بين كون القاضي شيعياً أو سنياً أو غير ذلك، و المنسوب من قبل الحكومات الغاشمة كالأمويين والعباسيين، لا يصحّ التحاكم إليهم لأنهم ليسوا بعدول.

٥. ذكرتم: «تكفير الشيعة للسنة...».

هذه النسبة غير صحيحة، وهذه كتب الشيعة في تفسير معنى الإسلام والإيمان، وقد اتفقوا على أنّ أركانها عبارة عن الإيمان بالله تبارك وتعالى ورسالة النبي ﷺ والإيمان بيوم المعاد، وعلى ذلك جروا في كتبهم العقائدية والفقهية. والمسلمون - بحمد الله - كلّهم شيعتهم وسنيهم متطلّلون تحت ظلال الإسلام والإيمان.

هذا هو الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام يروى عن النبي ﷺ قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا حرمت عليّ دماؤهم وأموالهم.^(١)

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله، به حقنت الدماء...».^(٢) وقد كتبنا كتاباً مستقلاً حول الإيمان والكفر في الكتاب والسنة وبيننا حدودهما.

١. بحار الأنوار: ٦٨/ ٢٤٢.

٢. بحار الأنوار: ٦٨/ ٢٤٣.

٦. كتبتم: «حول سبّ صحابة رسول الله ﷺ على منابر المساجد...».

إنّ الصحابة تطلق على كلّ من رأى النبي ﷺ مرة أو مرات، أو عاشره ولو لفترة قليلة، وهم على طوائف.

منهم: من قضى نحبه في العهد المكي مثل ياسر وسميّة.

ومنهم: من استشهد بعد الهجرة في بدر وأحد والأحزاب ومؤتة، مثل: عبيدة بن الحارث في بدر، وحزمة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله في أحد، وسعد بن معاذ في الأحزاب، وجعفر الطيار وعبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة في مؤتة.

ومنهم: من بقي بعد رحيل الرسول شاركوا في نشر الإسلام والجهاد في سبيل

الله.

فهل يتصور أنّ أحداً يمتلك شيئاً من العقل يسبّ هؤلاء الأماثل وقد انتشر الإسلام بفضلهم وجهودهم، وفيهم رواد التشيع الحاملون رسالة التنصيص.

إنّ مسألة سبّ الصحابة تحوير لمسألة كلامية أخرى، وهي كون كلّ صحابي عادلاً، والشيعة تعتقد بأنّ حكم الصحابة كحكم التابعين من غير فرق بينهما، إلّا من جهة التشرف برؤية النور النبوي والانتهال من نير علوم المصطفى ﷺ، وليس هنا أيّ دليل على أنّ صحابة النبي ﷺ الذين يتجاوز عددهم مائة ألف، كلّهم عدول، مع أنّنا لا نعرف أسماء أكثرهم فضلاً عن أعيانهم، والمسجّل من أسمائهم لا يتجاوز عن خمسة عشر ألف صحابي، والإمعان في القرآن يثبت نظرية الشيعة، فلاحظوا سورة الحجرات الآية ٦ وغيرها.

٧. كتبتم: «إنّ الشيعة تعتقد بتحريف القرآن المجيد».

أقول: إنّ أعيان الشيعة الإمامية الذين يؤخذ بقولهم ورأيهم في مجال العقيدة الإسلامية قالوا بصيانة القرآن عن التحريف وعلى سبيل المثال: الفضل بن

شاذان (٢٦٠هـ)، و الشيخ محمد الصدوق (٣٨١هـ) في كتابه «عقائد الإمامية»، والشيخ المفيد (٤١٣هـ) في أجوبة المسائل السروية، والسيد المرتضى (٤٣٦هـ) في كتبه، والشيخ أبو جعفر الطوسي (٤٦٠هـ) في كتابه التبيان في تفسير القرآن، والشيخ أبو علي الطبرسي (٥٤٨هـ) في تفسيره مجمع البيان، إلى غير ذلك....

نعم وردت روايات في كتب الحديث عند الشيعة والسنة على حدّ سواء تتحدث عن طروء التحريف على القرآن الكريم. وهي أخبار آحاد ليست حجة في مجال العقائد، وما أشرتم إليه من كتاب للشيخ الحسين الطبرسي تنتهي رواياته إلى أشخاص ضعفاء في الرواية لا يعتمد على رواياتهم كالسيّاري وعلي بن أحمد الكوفي... وقد كتبت الشيعة ردوداً على هذا الكتاب منذ طبعه إلى الآن، أخص بالذكر كتاب «صيانة القرآن الكريم من التحريف» للعلامة الحجة محمد هادي معرفة - مدّ ظله - ولنا أيضاً رسالة في نقد هذا الكتاب طبعت في مقدمة طبقات الفقهاء.

إنّ وجود الرواية في كتاب الكافي للكليني ليس دليلاً على العقيدة، وإلاّ فإنّ روايات التحريف موجودة حتى في صحيح البخاري كحديث عمر عن الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما نكالاً من الله....^(١)

قد نقل القرطبي في تفسير سورة الأحزاب عن السيدة عائشة أمّ المؤمنين أنّ سورة الأحزاب كانت أكبر من سورة البقرة، لاحظو ذلك التفسير.

وقد ألّف أحد علماء الأزهر كتاباً باسم «الفرقان في تحريف القرآن» وقد طبع وانتشر ولدي نسخة منه.

والمحقّقون من علماء السنة والشيعة لا يقيمون لهذه الكتب وزناً ولا قيمة.

١. راجع : صحيح البخاري ٢٠٨/٨ — ٢١١، باب رجم الحلي؛ صحيح مسلم: ٤/١٦٧ و ج ٥/١١٦، طبعة محمد علي صبيح؛ مسند أحمد: ١/٢٣ و ج ٥/١٣٢ و ١٨٢، طبعة دار الفكر.

وفرض القول بالتحريف على السنة والشيعة ليس لصالح الأمة، وإنّما هو لصالح الأعداء الذين يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين.

اعتذر إليكم من عدم التفصيل في بعض المجالات، لأنّ بعض هذه المواضيع رهن كتاب مستقل. وأرجو أن تكون رسالتي لكم مزيلة لبعض الاتهامات والشبهات ونحن أيضاً على استعداد على أن نجيب مرة ثانية لو كانت عندكم استفسارات.

٨. ذكرتم: «إنّ لكم اهتماماً بالشعر...».

إنّ الشعر الهادف أمنية كلّ مفكر إسلامي، يوقظ به الأمة، ويدعم الصحة الإسلامية، ويندّد بالظالمين، ويصوّر الوقائع على ما كان، لا على ما يريد، وهذه الغاية أبعث إليكم قصيدة حول حديث الطفّ لشاعر إيراني أرجو قراءتها بالدقة والإمعان، وتوضيح لغاتها، وشقّ مفاهيمها وقد جرى في قريضه على نهج الشعر الجاهلي.

وقياماً وعملاً بما قاله الإمام الصادق عليه السلام «أحبّ إخواني إلي من أهدى إليّ عيوبي». انبّه على بعض ما جاء في رسالتكم من بعض الكلمات وليس ذلك إلّا من هفوات القلم.

ص ١، س ٨ «ولدي اهتماماً شديداً» والصحيح: اهتمام شديد.

ص ٢، س ١٦ «عن أبوه محمد الباقر» والصحيح: عن أبيه.

وفي الختام أتمنى لكم التوفيق والسعادة، وللمسلمين وحدة الكلمة وقد بني الإسلام على كلمتين: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة.

والسلام عليكم ورحمة الله

جعفر السبحاني

إيران - قم - مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

الرسالة العاشرة

جواب رسالة حول الشيعة

أصولها وعقائدها

٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أُخْتِي فِي اللَّهِ ابْتِسَامَ سَالِمَ زَيْنِ الْعَطِيَّاتِ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد وافتنني رسالتك المؤرخة ١٥ جمادى الأولى ١٤١٩ هـ، وهي تكشف عن عنايتك بالبحث عن الحقيقة، وتجردك عن التعصب، ولا شك أن الموضوعية هي مفتاح كشف الحقيقة، وقد طرحت فيها عدة أسئلة أقوم بالإجابة عليها بنحو موجز وأحيل التفصيل إلى الكتب التي سأشير إليها في آخر الرسالة أو أرسلها إليك مرفقة بها.

١. جاء في رسالتك أنّ الدكتور موسى الموسوي نقل أنّ الإمام الخميني أدخل اسمه في الأذان....

الجواب: أنّ الدكتور المذكور قد انتقل إلى الدار الآخرة ولا أقول في حقّه شيئاً عملاً بالحديث المعروف: «اذكروا موتاكم بخير» ولكنّه - سبحانه الله - قد افعل و افترى وبإمكانكم الاستماع إلى أذان إذاعة الجمهورية الإسلامية ليلاً ونهاراً.

نعم الشعار الثوري للأمة المسلمة الإيرانية في غير الأذان والإقامة هو «الله أكبر، خميني رهبر» ولا صلة لهذا الشعار بهما وإنّما يهتفون بها في ساحات الوغى وفي التظاهرات الشعبية، والعجب أنّ الملك خالد عاهل المملكة السعودية آنذاك طرح هذا السؤال على الإمام الخميني ﷺ فأجاب بقوله: معاذ الله أن يدخل مسلم في الشريعة ما ليس منها فإنّها بدعة محرمة لا يخضع لها الشعب المسلم.

٢. صلاة الجمعة تقام في حضور الإمام وفي غيبته، وهي صلاة عبادية سياسية مقرونة ولا يقام إلّا بإذن الإمام المعصوم أو الفقيه العادل الجامع للشرائط، ولذلك فالشيعة في عصر الغيبة تقيم صلاة الجمعة في جميع المدن والقرى، ومن قال بأنّ الشيعة عطلت صلاة الجمعة فهو مفتر لا يقام لكلامه وزن ولا قيمة.

وبإمكانك الرجوع إلى مبحث الأذان وصلاة الجمعة من كتاب «تحرير الوسيلة»، وهو كتاب فقهي للإمام الخميني في جزئين كبيرين يوجدان في الملحق الثقافي للسفارة الإيرانية في الأردن.

أُختي في الله لقد وظّف الجهاز الحاكم في عصر الأمويين والعباسيين ومن والاهم إلى يومنا هذا وسائل الإعلام بغية الاقتراء على الشيعة وتشويه سمعتها بما لايسع المجال لذكر معشار ما ارتكبه من الأعمال في حقّ الشيعة، ونعم الحكم الله.

٣. مسألة الإمام المهدي عليه السلام أصل اعتقادي اتفق عليها المسلمون، وإنه يظهر في آخر الزمان ليملا الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً، وإنما الاختلاف بين الشيعة والسنة في أمر آخر، وهو إن الشيعة تعتقد بولادته عام ٢٥٥هـ في سامراء وعاش في أحضان والده ووالدته خمس سنين وغاب عن الأبصار بعد وفاة أبيه عام ٢٦٠هـ بأمر من الله سبحانه وهو حي يرزق في هذا العالم، وليس هذا ببعيد عن قدرته تبارك وتعالى .

وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى أن الله سبحانه حجبتين ظاهرة وغائبة في عصر واحد، أما الظاهرة فكموسى عليه السلام ، وأما الغائبة فكمصاحبه الخضر عليه السلام الذي لم يكن موسى يعرفه وإنما تعرّف عليه بتعريف من الله سبحانه، وقد نهل من معين علمه على ما ورد في سورة الكهف الآية (٦٠-٨٢) فقد كان مصاحب موسى ولياً من أوليائه سبحانه متصرفاً في أمور الناس ولم يكن الناس يعرفونه .

فالإمام المهدي عليه السلام من تلك الفئة إمام غائب عن الأبصار متصرف في أمور الناس قائم بوظائف الإمامة وإن كان الناس لا يعرفونه وسيظهر بأمر من الله سبحانه، وهو مصلح كبير وعد الله به الأمم وأخباره متفشية في العهدين وغيرهما، مضافاً إلى الأحاديث النبوية المتواترة التي نقلها علماء الفريقين .

٤. مدينة قم مدينة مقدسة فيها مدفن كريمة رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر بن محمد الباقر بن الإمام زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب عليه السلام و في تلك البلدة الطيبة ضريحها وضريح العديد من أعلام الشيعة من القرن الثاني إلى يومنا هذا من المحدثين الكبار والفقهاء العظام، وقامت فيها جامعة إسلامية كبيرة زهت بالعديد من طلاب العلم والمعرفة يربو عددهم إلى ثلاثين ألف طالب .

وتُدرس في هذه الجامعة مختلف العلوم الإسلامية وفيها أيضاً جامعة أخرى

للبنات تدعى جامعة الزهراء عليها السلام تتقاطر إليها الطالبات من مختلف الأمصار الإسلامية.

ومؤسسة الإمام الصادق عليه السلام فرع من تلك الجامعة الكبيرة الأولى التي تختص بالدراسات الكلامية حيث تزود خريجيها بشهادات عليا مضافاً إلى ما تقوم به من نشر التراث الإسلامي وسدّ الفراغ بتأليف الكتب الدراسية ، والتبليغية .

٥. الزواج بين المذاهب الإسلامية جائز والمسلم كفء المسلم بلا فرق بين فرقة وأخرى فمادام الجميع يتمسكون بأهداب الإسلام ويشهدون بتوحيده سبحانه ورسالة نبيّه الخاتم ويوم جزائه فالجميع على حد سواء.

٦. ذكرتم شيئاً من الاحتفالات التي تُقام في الأردن حول ضريح سيدنا جعفر بن أبي طالب عليه السلام في مدينة الكرك الأردنية، ولكنها نموذج صغير بالنسبة إلى ما يقام في العراق وإيران من الاحتفالات، فهو فوق أن يذكر، والهدف من ورائها إحياء المنهج الذي رسمه السبط الأطهر حسين العظمة، حسين الإباء والشهادة، حسين التضحية، فهو منهج حي ومبدأ قيم يجب الحفاظ عليه ليشبّ عليه الصغير ويهرم عليه الكبير، وليترنم الجميع بكلامه عليه السلام الخالد «أنّ الحياة عقيدة وجهاد» فالاستسلام أمام العدو الغاشم على النقيض من منهج الحسين الثوري .

ولو كان كان منهج الحسين سائداً بين أوساط المسلمين لما عمّهم الذل والهوان ولما اغتصبت أراضيهم من قبل شذاذ الآفاق.

وقد بعثنا إليكم مع الرسالة السابقة قصيدة حول ثورة الحسين عليه السلام وطلبنا منك تفسيرها وتشقيق معانيها والتي كانت مطلعها.

أناخت على قلبي الكآبة والكرب عشية زمّ العيس للظعن الركب

إلى أن قال:

رَزِيَّةٌ قَوْمٌ يُمُومُوا أَرْضَ كَرْبَلَا فعاد عبيراً منهم ذلك التُّرْبُ

٧. غسل الرجلين أو مسحهما في الوضوء مسألة فقهية اختلفت فيها آراء السنة و الشيعة، فأغلب السنّة على الغسل و الشيعة على المسح وكتاب الله معهم و المستفاد من ظاهره أنّ الوضوء «غسلتان» و «مسحتان» كما قاله ابن عباس، و صبه بحر العلوم في قالب شعري في منظومته المسماة بالدرة النجفية حيث قال:

إنّ الوضوء غسّلتان عندنا و مسحتان و الكتاب معنا

قال سبحانه:

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(١).

وقال:

﴿فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾^(٢).

فالشيعة تقول بأنّ لفظ الأرجل معطوف على الرؤوس سواء قرئ بالجر فيكون معطوفاً على اللفظ، أو بالنصب فيكون معطوفاً على المحل، لأنّ الرؤوس مفعول ومحله النصب، فكلتا القراءتين مطابقتان للقواعد العربية، وعلى ذلك فيجب المسح على كلتا القراءتين.

وأما السنة القائلون بالغسل فقد وقعوا في ورطة عجيبة في تفسير القراءتين حتى اعترف قسم كبير منهم بأنّ ظاهر الآية هو المسح وذلك:

بما أنّهم يقولون بغسل الأرجل فقد مالوا يميناً و شمالاً في تفسير قرائتي الجر و النصب فقالوا:

على قراءة الجرّ - فهو مجرور بالجار - مكان القول بأنّه معطوف على لفظ

الرؤوس - نظير قول الشاعر: «جحر ضبّ خرب» فلفظ «خرب» خبر يجب أن يرفع لكنه صار مجروراً لوقوعه في جوار «ضب» المجرور، وعلى قراءة النصب فهو منصوب لأنه معطوف على «أيديكم» في الجملة المتقدمة.

والتأمل في التفسير يثبت بطلان النظرين.

أما الجرّ: فالتفسير الصحيح أنه معطوف على الرؤوس، لا الجرّ بالجوار وذلك أن الجرّ بالجوار أمر شاذ في لغة العرب وربما تدعوا الضرورة إلى هذا النوع من الجرّ، ولا يصحّ لنا تفسير كلام الله على ضوء تلك القاعدة الشاذة، مضافاً إلى أن الجرّ بالجوار إنما يصحّ إذا لم يكن هناك التباس كما في البيت إذ من المعلوم أن الحرب وصف لجحر لا لضبّ. بخلاف الآية فإنّ الجرّ بالجوار يوجب الالتباس إذ القارئ يتصور أنه معطوف واقعاً على الرؤوس فتكون النتيجة هو المسح عليها مع أن الفرض أنها معطوفة على الأيدي.

وأما قراءة النصب فالإشكال أوضح، فأهل السنة تذهب إلى أنها معطوفة على الأيدي الواردة من الجملة المتقدمة مكان العطف على الرؤوس التي هي بجنب «أرجلكم» وهذا شيء لا يرضى به الخبير بأساليب اللغة العربية فمثلاً إذا قال:

أكرمت زيدا وعمراً.

ثم قال:

ضربت بكرّاً وخالداً.

فهل يخطر ببال أحد أن «خالداً» عطف على «عمراً» بل الجميع يقولون إنه عطف على «بكرّاً».

وفي الآية فعلان: أحدهما: ﴿اغسلوا﴾ وله مفعولان: الوجوه والأيدي.

والثاني: ﴿فامسحوا﴾ وقد جاء بعده أمران: الرؤوس والأرجل.

أفصح أن نقول بأن الأرجل ليست معطوفة على الرؤوس بل معطوفة على الأيدي مع أنه وقع بين المعطوف والمعطوف عليه جملة معترضة يغير فعلها ﴿فامسحوا﴾ مع فعل الجملة الأولى ﴿اغسلوا﴾.

والعجب أنك طرقت كل باب إلا باب القرآن فما رجعت إليه حتى تأخذ حكم الله من الآية المباركة.

وأما حديث عبد الله بن عمر فهو على خلاف الغسل أدل إذ جاء فيه قول ابن عمر «نتوضأ ونمسح على أرجلنا» أفيمكن أن يتوضأ ابن عمر ويمسح رجله - وهو في أحضان النبي ﷺ وبمراى ومسمع منه ﷺ - من جانب نفسه، وهذا يدل على أن عمل الصحابة كان على المسح.

وأما الجملة الأخيرة «ويل للأعقاب من النار» فليس فيها دلالة على وجوب الغسل عند الوضوء، بل الويل، لأجل أن الأعقاب كانوا عراة حفاة بوالين على أعقابهم من دون مبالاة بإصابة البول لها، فكانوا يمسحون على الأرجل النجسة، فناداهم النبي ﷺ بقوله: «ويل للأعقاب من النار». إذ كان عليهم أن يغسلوا أعقابهم أولاً ثم يمسحوا عليها.

ولعمر الحق لو كان النبي ﷺ بصدد بيان الحكم الشرعي وهو أن الواجب في الأرجل هو الغسل لا المسح كان عليه أن يعبر عن تلك الحقيقة بعبارة واضحة وينادي بقوله: أيها المسلمون اغسلوا أرجلكم ولا تمسحوا بها، من دون أن يتفوه بكلمة لا يفهم منها الغسل إلا بتفسير النووي وغيره.

كل ذلك يدل على أن الحديث على فرض صحته يعني أمراً آخر كما ذكرنا، وعلى تقدير دلالة الغسل على قيمة حديث يعارض الذكر الحكيم ولا يصح

نسخ الكتاب بخبر الواحد لا سيما أنّ الآية في سورة المائدة وهي آخر سورة نزلت في المدينة.

٨. مسألة الخلافة عن رسول الله ﷺ مسألة عصبية إذ ما سُئل سيف بين المسلمين مثلما سُئل في أمر الإمامة، فلنترك هذا البحث إلى ذمة التاريخ والحديث وعلم الكلام.

ويكفيك في ذلك مراجعة كتاب «العقيدة الإسلامية» ففيه من الدلائل المشرقة على أنّ الخلافة بعد رسول الله ﷺ منصب تنصيب لا اختياري ولا انتخابي، وقد قام النبي ﷺ بنصب خليفته تارة في بدء الدعوة، وأخرى في غزوة خيبر حيث شبه عليّاً بهارون وأثبت له جميع المناصب إلّا النبوة، وثالثة عند منصرفه عن حجة الوداع حيث قام في غدِير خم بتنصيب علي عليه السلام للخلافة والقيادة بأمر من الله سبحانه الواردة في الآية التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١) وقد نقل غير واحد من أعلام السنة نزولها في غدِير خم.

أنشدك بالله ما هذا الموضوع الذي كان عدم تبليغه بمنزلة عدم تبليغ الرسالة بأجمعها؟! وهل يصح تفسير الآية بابلّغ الأحكام الشرعية؟ كلا، لا، بل لابدّ من تفسيرها بأمر خطير يعد دعامة للإسلام، ورمزاً لبقائه وليس هو إلّا تعيين الخليفة والوصي من بعده وإن أثار حفيظة الآخرين وقد قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وبما أنّ الموضوع ذو شجون أكتفي بهذا المقدار وألفت نظرك إلى موضوع التقريب ونقول:

لقد قرأت مقالك في صحيفة الدستور وأعجبني اهتمامك بمسألة التقريب التي هي أهم الأمور في هذه الأعصار.

كيف والمسلمون يد واحدة وما يجمعهم أكثر مما يفرقهم ، ونحن كما يقول شاعر الأهرام:

انا لتجمعنا العقيدة أمة وَيَضْمُنَا دِينُ الهدى أتباعا
ويؤلف الإسلام بين قلوبنا مهما ذهبنا في الهواء أشياعا
كما وكتبت في رسالتك الأولى بأن الإمام الخميني سمى الخليفين بصنمي
قريش في كتابه كشف الأسرار، ص ١١١، ١١٤، ١١٧ ولم أجد في الصفحات
المستنسخة التي أرسلتها إلي شيئاً من تلك الكلمات.

نعم جاء في التعليقة للمترجم، ص ١٢٦ «أن الخميني وشيعته ينعنان
الخليفين بصنمي قريش» والتعليقة لا يحتاج بها لا سيما وأن كاتبها قد ملأ كتابه
بالسب و الشتم على المجاهد الذي أفنى عمره في الذب عن حياض الإسلام ،
ومكافحة الاستعمار والصهيونية وتأسيس دولة إسلامية متكاملة الجوانب.

وإنني بما أنا شيعي وقد ناهزت من العمر ٧٣ عاماً وألفت ما يفوق المائة
كتاب لم أجد تلك الكلمة في كتاب وإنما سمعته من شيخ سعودي كان ينسبه إلى
الشيعية.

وأما الأمر الثاني الذي طلبت منا وهو مصدر قول الخليفة - حينما طلب
رسول الله ﷺ القلم والدواة - قال الخليفة: لقد هجر رسول الله ﷺ وقد ذكرت في
ظهر الصفحة المستنسخة ما رواه البخاري في باب مرض النبي ﷺ وفيها قوله،
فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجد وعندكم القرآن حسبنا كتاب
الله. (١).

ثم كتبت : لا نرى إشارة إلى أنّ سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال ما ورد في كتاب كشف الأسرار.

أقول: إنّ البخاري نقل الحديث في غير موضع من كتابه وإليك الصور الأخرى.

٢. روى البخاري في الجزء الأول، باب كتابة العلم من كتاب العلم، ص ٣٠، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر، الحديث التالي:

عن ابن عباس، قال: لما اشتدّ بالنبي ﷺ وجعه، قال: اتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، قال عمر: إنّ النبي غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط.

قال ﷺ: قوموا عني .

تجد أنّ الحديث ينص على أنّ القائل بأنّ النبي ﷺ غلبه الوجع هو عمر بن الخطاب.

وبذلك يعلم أنّ المراد من البعض فيما رواه البخاري في باب مرض النبي ﷺ هو نفس عمر بن الخطاب غير أنّه صرح باسم القائل في باب كتابة العلم وكنى عنه بـ «البعض» في باب مرض النبي ﷺ كما نقلت.

٣. روى البخاري في الجزء الرابع، باب جوائز الوفد من كتاب باب فضل الجهاد والسير، ص ٦٩ و ٧٠، الحديث بالنحو التالي.

عن ابن عباس أنّه قال: اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس فقال: اتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً.

فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي ﷺ تنازع، فقالوا: هجر رسول الله ﷺ.

وعلى ذلك فالبخاري نقل الحديث بهذه الصور الثلاثة التي يفسر بعضها بعضاً.

ففي باب كتابة العلم قال عمر: إنّ النبي غلبه الوجع

وفي باب مرض النبي ﷺ قال بعضهم: إنّ رسول الله قد غلبه الوجع.

وفي باب جوائز الوفاء، فقالوا: هجر رسول الله.

فقد صرح البخاري باسم القائل في الأول دون الثاني والثالث، ومنه يعلم أنّ القائل واحد.

والظاهر أنّ اللفظ الصادر هو: «هجر رسول الله» ولكن البخاري غيره إلى قوله: «قد غلبه الوجع» تهذيباً للعبارة وتقليلاً للاستهجان.

ولأجل ذلك لما رواه أبو بكر الجوهري في كتاب السقيفة أشار إلى تلك النكتة في نقله، وقال: لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر ابن الخطاب، قال رسول الله: ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده، قال: فقال عمر كلمة معناها «إنّ الوجع قد غلب على رسول الله ثمّ قال: عندنا القرآن حسبنا كتاب الله».

هذا ما في البخاري.

وأما مسلم فقد رواه في صحيحه بصور ثلاث:

الصورة الأولى: ... اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي فتنازعوا وما ينبغي عند نبي التنازع.
وقالوا: ما شأنه؟ أهجر؟ استفهموه؟، قال: دعوني.

الصورة الثانية: قال رسول الله ﷺ: ائتوني بالكف والدواة أو اللوح والدواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً.

فقالوا: إنّ رسول الله يهجر.

الصورة الثالثة: فقال النبي ﷺ: هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده.

فقال عمر: إنّ رسول الله قد غلب عليه الوجع و عندكم القرآن حسبنا كتاب الله.

(صحيح مسلم، الجزء الرابع، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له

شيء يوصي فيه، ص ٧٥-٧٦، طبعة مصر، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده).

فبمقارنة هذه الأحاديث بعضها ببعض يعلم أنّ القائل في الحديث الأول (ما شأنه أهجر، استفهموه) والحديث الثاني (إنّ رسول الله يهجر) هو القائل في الحديث الثالث الذي صرح مسلم باسمه (إنّ رسول الله قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن).

ويعلم أيضاً أنّه عندما كان التعبير مستهجنًا كنوا بالقائل، و عندما كان خفيف الوطأة صرحوا باسمه، وإن كان التعبير الثاني (قد غلبه الوجع) نفس التعبير بأنّه (هجر) نظير قول القائل: (أنت أو ابن أخت خالتك).

ثمّ إنّ هنا سؤالاً يطرح نفسه وهو، لما ذا حال الصحابة العدول بين النبي ﷺ وأُمنيته، ولماذا منعه من كتابة، كتابه، وما هو السر وراء ذلك؟!!

والجواب يفهمه كلّ من له إلمام بالحوادث الواقعة قبل وفاة النبي ﷺ وبعده.

فدع عنك نهياً صريحاً في حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل
ثمّ هل يصحّ لمسلم واع أن يقول: حسبنا كتاب الله، وهل كتاب الله الأعظم
واف بتفاصيل التشریع؟!!

هذا قليل من كثير قدمته إليك نزولاً عنه رغبتك، وإن كان إثارة هذه
المسائل توجب الخدشة في العواطف وتشتت الصفوف، ولكن إصرارك الأكيد
دفعني إلى كتابة هذه السطور.

رزقنا الله توحيد الكلمة كما رزقنا كلمة التوحيد

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

مقالات في التقريب

المقالة الأولى

التقريب ضرورة دينية وخطوة مباركة^(١)

التقريب بين الطوائف الإسلامية من الأمانى العزيزة، التي يتمناها كل مسلم واع بصير، خصوصاً في الأوضاع الراهنة، والأجواء السائدة على المسلمين، والظروف المحيطة بهم في شتى النواحي والأقطار، ولا يشك في ضرورته إلاّ اثنان: جاهل مغفل، وجاحد معاند مكرر. إذ لا يمرّ على المسلمين يوم إلاّ وفيه مجازر رهيبة، وحروب دامية طاحنة، فرضتها عليهم القوى الكافرة، التي تخاف من سيادة الإسلام في ربوع العالم، وانتشاره فيها، فعادتْ توجّج نار الحرب بين آونة وأخرى، فتضرب المسلم بالمسلم تارة، وبالكافر أخرى فتحقّق امنيتها الكبرى.

وليس ببعيد عنّا المجازر التي يرتكبها اليوم، الكفار «الأرمن» ضد المسلمين الآذرين في القفقاس، والتي أبرزت ما تكنّه صدورهم من العدااء والبغض لهم طوال القرون، فمن أجل السيطرة والتسلّط يقتل الأرمن الرجال والنساء والأطفال، ويمثلون بهم، ويجهزون على الجريح، وليس هناك دولة تحمي المسلمين، ولا مغيثٌ

١. أُلقيت في المؤتمر الدولي الرابع للتقريب بين المذاهب الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة رابع شهر ذي الحجة الحرام، عام ١٤١٢ هـ.

يغيثهم، ولا قوة تدفع عنهم كارثة الحرب، وتجزي المسيئ بالجزاء الذي يستحقه، وغاية ما نسمعه من وسائل الأعلام هو الاستنكار والمفاوضات والمذاكرات (إلى غير ذلك من الأساليب الدبلوماسية غير الناجعة) التي لا تفيد شيئاً سوى إعطاء الفرص للعدو وزيادة جراته.

وأعطف النظر على المجازر التي ترتكبها القوى الكافرة في «يوغسلافيا» ضد المسلمين في «البوسنة» و«الهرسك» فقد أجبّت ناراً ضد المواطنين بحجة أنّهم مسلمون، وراحت تقتلهم وتبعدهم عن أوطانهم، وتذبّحهم في عقر دارهم، وتدمّر مدنهم، إلى غير ذلك من الأعمال الإجرامية التي كانت ترتكبها القوى الشريرة في القرون الوسطى، وليس هناك من يداوى جروحهم، ولا من يسعفهم بشيء سوى الاستنكارات والخطب الرنانة في وسائل الإعلام وفوق المنابر.

ناهيك عن المجازر الدامية في فلسطين المحتلة التي يرتكبها الصهاينة، لأنّها بمرأى و مسمع من عامة المسلمين.

إنّ هذه الحوادث والوقائع الأليمة وعشرات من أمثالها، تدفع المسلم الحرّ الذي يجري في عروقه دُم الغيرة والحمية، إلى التفكير في داء مجتمعه ودوائه، وفي إعادة مجده التالّد، وكيانه السابق، فلا يجذّ دواءً ناجعاً سوى التمسك بالإسلام في مجالي العقيدة والشريعة ومن أبرز أصوله ما دعا إليه الذكر الحكيم في قوله سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢) إلى غير ذلك من الآيات إلى تحثّ على الوحدة والوئام، والابتعاد عن التمزّق والتفرّق، وقد أكد الرسول الكريم ما دعا إليه القرآن بقوله:

١. آل عمران: ١٠٣.

٢. الحجرات: ١٠.

«مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».^(١)

وقال الإمام علي عليه السلام:

«وألزموا السواد الأعظم، فإن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب، ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه».^(٢)

وفي ضوء الوضع الراهن نخطب المسلمين وفي مقدمتهم الرؤساء والمشايخ وقادة الفكر وأرباب القلم بقولنا: قاربوا الخطيئة أيها المسلمون، وقللوا الخلاف، وأكثروا الوئام، وتمسكوا بالأصول المشتركة المتوفرة في مجالي العقيدة والشرعية، ابتعدوا عن التنافر والتناكر، حتى تكونوا صفاء واحداً في وجه الأعداء لا يزعزعكم مكر الشياطين وحيلة أعدائهم في المناطق كلها.

ويطيب لي في المقام أن أركز على أمور، ربما يكون لها أثر بارز في حصول التقريب وهي:

١. ما هو المراد من التقريب؟

ليس المراد من التقريب بين المذاهب والطوائف الإسلامية، هو ذوب طائفة في أخرى، أو جعل جميع المذاهب مذهباً واحداً حتى لا يبقى من المذاهب المختلفة عين ولا أثر ويصبح المسلمون على مذهب واحد، فإن ذلك أمر عسير جداً إن لم يكن محالاً عادة، ولا يتفوق به ذو مسكة، ولا يدعو إليه أحد من القادة، أعني: الذين يحملون لواء التقريب، فإن معنى ذلك أن يصير الأشعري معتزلياً أو

١. مسند أحمد: ٤/ ٢٧٠.

٢. نهج البلاغة: ٢٦١، طبعة عبده.

بالعكس ويصبح السني شيعياً أو بالعكس، ومثله المذاهب الفقهية المتوفرة السائدة في العالم الإسلامي.

وإنما المراد هو التقريب بين القادة للمذاهب وبالتالي بين القادة وأتباعهم، وذلك من خلال رسم الخطوط العريضة المشتركة التي تجمع المذاهب الإسلامية في مجالي العقيدة والشرعية، وأنه لو كان هناك خلاف فيهما فهو بالنسبة إلى الأمور المتفق عليها قليل جداً. فالله سبحانه ربنا، والقرآن كتابنا، ومحمد نبينا، والكعبة قبلتنا، وسنة الرسول قدوتنا، وأئمة أهل البيت خيارنا، إلى غير ذلك من الخطوط التي لا يحيد عنها أي مسلم قيد شعرة، ومن أنكر أحدها خرج عن ربة الإسلام وهذا هو الذي يوحد المسلمين ويجمعهم تحت راية واحدة، ويجعل شعار الجميع قول الشاعر المخلص (محمد حسن عبد الغني المصري) الداعي إلى تقريب الخطى: الذي يقول:

انا لتجمعنا العقيدة أمة ويضمننا دين الهدى أتباعاً
ويؤلف الإسلام بين قلوبنا مهما ذهبنا في الهوى أشياعاً

فإذا كان النبي ﷺ يقبل إسلام من نطق بالشهادتين، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام شهر رمضان وحج البيت ^(١) ويتلقاه أخاً لعامة المسلمين، ويجعلهم صفواً واحداً في مقابل المشركين والطغاة من اليهود والنصارى، فلماذا لا نقبل إيماناً من آمن بأزيد مما جاء في تلك الرواية؟ ولو كان هناك اختلافات فلأنما هي اختلافات كلامية أوجدها الجدل وصقلها البحث طوال القرون، مثلاً الاختلاف في كون التكلم والإرادة من صفات الذات أو من صفات الفعل وإن كان اختلافاً حقيقياً وجدياً لكنه اختلاف كلامي لا يتوقف عليه الإسلام والإيمان

١. لاحظ جامع الأصول لابن الأثير: ١/ ١٥٨-١٥٩ فقد جمع ما رواه البخاري ومسلم في ذلك المجال.

ومثله سائر البحوث الكلامية التي أوجدت الانشقاق بين علماء المسلمين من حدوث كلامه وقدمه، وخلود مرتكب الكبيرة وعدمه.

ومثل ذلك الاختلاف في الفروع الفقهية من الطهارة إلى الديات، فاتها اختلافات أوجدها البحث والاجتهاد من خلال الاستنباط من الكتاب والسنة، والغاية هي الوصول إلى واقع الكتاب والسنة وإن كان المصيب واحداً والمخطئ متعدداً.

فاللزام على المسلمين في هذه اللحظات الحاسمة، التمسك بالعروة الوثقى وبجبل الله المتين والانظواء تحت المشتركات وإرجاع الاختلافات إلى المدارس والمحافل العلمية التي يكثر فيها البحث والجدال، وفي النهاية يخرجون منها إخوة متحابين.

هذا هو الذي يدعو إليه دعاة التقريب، وهو عدم إفناء مذهب في مذهب، بل إلفات أنظار القادة إلى المشتركات المتوفرة بين المذاهب، وترك الاختلافات إلى المدارس ومراكز البحث التي لا يضر الخلاف فيها بالوحدة وجمع الشمل.

٢. التعرف الصحيح على المذاهب

إن من عوامل التقريب هو التعرف الصحيح على المذاهب الإسلامية عقيدة وشريعة حيث إن التعرف الموضوعي على عقائد كل طائفة من الطوائف، يُصير البعيد قريباً، والعدو صديقاً، ويزيل الافتراءات والدعايات الباطلة التي ألصقت بطائفة وأخرى، فعندئذ يُصبح المخالف موافقاً ويحل الوثام محل الشقاق.

ومثل هذا، مثل من يرى شعباً بعيداً فيظن أنه حيوان ضار، لو اقترب إليه لفتك به، كلما اقترب منه ظهر له بصورة أفضل حتى تبين أنه إنسان، فمواطن، فأخ جميع.

وكلما ازداد التعرّف على المذاهب في مجالي العقيدة والشرعية ازداد التعارف وازمحل التنافر واشتد الصفاء بينهم.

ولأجل ذلك يجب على دعاة التقريب عقد المؤتمرات المتوالية للتعرف على ما تملكه الطوائف من ثقافة فكرية وعقيدة راسخة وثروة فقهية وأدبية فإنّ التقريب رهن ذلك التعرف.

فإذا كان البحث على ضوء الكتاب والسنة وتحلّي الباحثون بالإخلاص والوفاء للدين وكان الجو السائد على المؤتمرات هو الوقوف على الحقيقة، فعند ذلك تقف كلّ طائفة على ما لدى الأخرى من أفكار وآراء، وإلاّ فالتقريب يُصبح شيئاً صورياً ولا تُحقق الفائدة المرجوة منه.

٣. الرجوع إلى أحاديث أئمة أهل البيت

الرجوع إلى أئمة أهل البيت في مجالي العقيدة والشرعية يؤدي إلى جمع شمل المسلمين وتقليل الخلاف، وهذا ليس بمعنى ترك ما رواه أهل السنة من الصحابة والتابعين عن النبي ﷺ بل بمعنى عدم إقصاء أئمة أهل البيت عن ساحة العقيدة والشرعية، والأخذ بأحاديثهم كالأخذ بمرويات الصحابة، فإنّ كلّ ما يرويه أئمة أهل البيت فإنما يسندونه إلى جدهم النبي ﷺ وبالتالي تصل أقوالهم إليه بسند عالٍ والمسلمون وإن اختلفوا في مسألة الخلافة والقيادة إلى طائفتين معروفتين، ولكنهم لم يختلفوا في أنّ أئمة أهل البيت هم ممن يُرجع إليهم في أخذ العلم والفتوى، لحديث الثقلين الذي لا يشك في صحّته وتواتره كلّ من له أدنى إلمام بالحديث والدراية.

فقد قال النبي ﷺ: **إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا من بعدي**.^(١)

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يُلْفِتُ أَنْظَارَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أُمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِأَسَالِيبٍ مُخْتَلَفَةٍ فَتَارَةً يَقُولُ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَدْخَلَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(١).

فقد سأل أبو بكر النبي ﷺ عن هذه البيوت، وأن بيت علي وفاطمة هل هو من تلك البيوت؟ فقال النبي: نعم، هو من أفاضلها^(٢).

وأخرى يعرفهم مطهرين عن الرجس، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٣).

وثالثة: يجعل ودهم أجراً للرسالة، قال سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٤).

ورابعة: يأمر النبي الأعظم المسلمين أن يصلوا على آل محمد في صلواتهم في فرائضهم ونوافلهم، كل ذلك يعرب عن أن لآل محمد مكانة خاصة في الشريعة الإسلامية ليس لغيرهم، وإلا لم يكن لهذا الاهتمام مبرر ولا مسوغ، ولم تكن الغاية من هذه الالتفاتات هو الحب المجرد عن كل شيء، وإنما الحب الحقيقي هو الاتباع في الحياة الدنيوية، فإذا كانت الواقعية تتجلى في الاتباع فهو فرع كون أئمة أهل البيت علماء بمواقف الشريعة وأصولها وفروعها.

وعلى هذا فلو صار المسلمون متمسكين بهذا الحبل الممدود من السماء إلى الأرض لقلَّ الخلاف وحصل الوئام، وسد الفراغ. هذا، مع أن المسلمين بجميع طوائفهم - إلا النواصب - يحملون حب النبي والآل، ويضحون في سبيلهم بكل غال ونفيس، حتى أن الإمام الشافعي - رضي الله عنه - يفتخر بحبهم ويرد عن نفسه عادية المعارضين، ويقول:

٢. الدر المنثور: ٦/٢٠٣.

٤. الشورى: ٢٣.

١. النور: ٣٦.

٣. الأحزاب: ٣٣.

إن كان رفضاً حبّ آل محمد فليشهد الثقلان أنّي رافضي^(١)

فإذا كانت الظروف حملت قادة الفقه إلى رفض حصر المذاهب في أربعة، وعاد المحققون يفكرون بالاجتهاد الحرّ، سواء أوافق مذهباً من المذاهب السالفة أم خالف، كان من المتحتم الرجوع إلى أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام وفتح باب الاجتهاد المطلق في ضوء الكتاب والسنة بمصراعيه على وجه الأئمة، فالإعراض عن أحاديثهم يزعزع أركان الاجتهاد المطلق، ويتسم الاجتهاد عندئذ بالاجتهاد النسبي.

إنّ الاجتهاد المطلق لا يتمّ إلّا بالرجوع إلى كلّ ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله، ولا تحتوى الصحاح والمسانيد على كلّ ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وحدث عنه، بل هناك أحاديث تحمّلها أهل بيته عليهم السلام عن جدّهم في مختلف المجالات، ومن الظلم على العلم وأهله الاعراض عنهم، وإسدال الستار على تلك الثروة الهائلة.

ولعلّ من يسمع هذه الكلمة من إخواننا أهل السنة يقترح علينا أيضاً الرجوع إلى أحاديث الصحابة والتابعين المجتمعة في الصحاح والمسانيد، وإنّ الاجتهاد المطلق لا يتمّ إلّا بالرجوع إليها مثل الرجوع إلى أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام.

غير أنّي ألفت نظر المقترح إلى أنّه أمر محقّق في فقه الشيعة، فالآثار النبوية الواردة عن الطرق الموثوقة يعمل بها علماء الشيعة من غير فرق بين ما يرويه الشيعة عن أئمة أهل البيت أو السني عن النبي صلى الله عليه وآله.

أضف إليه أنّ هناك مجموعة كبيرة من الأحاديث النبوية رواها علماء الشيعة عن الصادق بالحق عن طرق الصحابة من دون أن يتوسط فيها أئمة أهل البيت، فليس الأمر دائراً بين الرجوع إلى أئمة أهل البيت أو الصحابة، فإنّ الكل طرق

وسائل إلى الوصول إلى الحق وما جاء به نبي الإسلام في حقّ المكلفين في العقيدة والشرعية، فالواجب هو العمل بالسنة الصحيحة من أيّ طريق وصلت إلينا. إنّ الاختلاف بين الشيعة والسنة ليس في مسألة الرجوع إلى الصحابة فيما يروونه عن النبي ﷺ، فإنّه قضية متفقّة بين الفريقين كالرجوع إلى أئمة أهل البيت، بل الاختلاف بينهم في أمر آخر، وهو تعديل الصحابة كلّهم، والحكم بعدالة كلّ من رأى النبي ﷺ ولو مرة أو مرتين أو يوماً أو يومين، وهذا ما يتبنّاه أهل السنة حيث يحكمون بعدالة كلّ صحابي، بينما لا تعتقد الشيعة عمومية القضية، وإنّ مجرد الرؤية لا تعطي لكلّ راء وصف الوثاقة والعدالة، وهاتان النظريتان لا تمنعان من الرجوع إلى الأحاديث الصحيحة المروية عن النبي عن طرق الصحابة والتابعين إذا كانوا ثقات.

وهناك كلمة قيمة للإمام الطاهر علي بن الحسين عليه السلام تعرب عن موقف الشيعة بالنسبة إلى الصحابة نذكرها بنصّها، وفيها كفاية.

«اللهم وأصحاب محمد ﷺ خاصة الذين أحسنوا الصحبة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به، ومن كانوا منظّوين على محبته، يرجون تجارة لن تبور في مودته والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته، وانتفت منهم القربابات، إذ سكنوا في ظل قرابته، فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك وبها حاشوا الخلق عليك، وكانوا مع رسولك، دعاة لك إليك واشكرهم على هجرهم فيك، ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقة، ومن كثرت في اعزاز دينك من مظلومهم، اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا...»^(١)

١. الصحيفة السجادية، الدعاء الرابع مع شرحه: في ظلال الصحيفة السجادية، ص ٥٥-٥٦.

وإذا كان هذا موقف الإمام بالنسبة إلى الصحابة، فكيف يمكن اتهام الشيعة بأنهم لا يقيمون للصحابة وزناً ولا قيمة؟ ولا يعملون بأحاديثهم. فقد حان موعد اللقاء بين اعلام السنة والشيعة والاجتماع لدراسة الأوضاع المؤسفة السائدة على المسلمين في أقطار العالم.

وفي ختام المقال نرجع إلى ما بدأنا به وهو ضرورة توحيد الكلمة وحرص الصفوف ونقول: إن أحمد أمين المصري - الكاتب الشهير - قد أقام الدنيا في كتبه: فجر الإسلام وضحاها وظهره على الشيعة الإمامية، وأحلّ الخيال محلّ الواقع، وأجج نار الخلاف بين الطائفتين بما أوتي من قوة وقدرة، ولكنه ندم في أخريات حياته، فقال في آخر كتاب ألفه وأسماه «يوم الإسلام»:

هل للمسلمين أن يشتد وعيهم الديني، ويفهموا بعد طول هذه التجارب أنه لم يعد هناك وجه للخلاف بين سني وشيعي وزيدي، وغير ذلك من المذاهب، لأنهم لو رجعوا إلى أصل دينهم ما وجدوا لهذا الخلاف محلاً، ولوجدوا أنه خلاف مصطنع لا خلاف أصيل، وإن الأمم الإسلامية في موقفها الحاضر أحوج ما تكون إلى لمّ شعئها، وإصلاح ذات بينها، وتوحيد كلمتها، وهي ترى كيف تهاجم من كلّ جانب، وكيف يتخذ إسلامها وسيلة من وسائل الكيد لها، وإذا اتحد أهل الباطل على باطلهم فأولى أن يتحد أهل الحق على حقهم.^(١)

وفيا ذكره «عبرة لأولى الألباب».

أسأل الله سبحانه أن يلم شعئنا، ويجمع شملنا ويرفع كلمة التوحيد في العالم في ظل توحيد الكلمة أنه على ذلك قدير.

جعفر السبحاني - مكة المكرمة

سادس ذي الحجة الحرام ١٤١٢ هـ

المقالة الثانية

الوحدة الإسلامية في الكتاب والسنة^(١)

إنّ التشريع الإسلامي ينظر إلى المسلمين على أنّهم أمة واحدة يجب أن يسود فيهم الوئام والتآلف بدل الفرقة والاختلاف، ويؤكد على وحدة المسلمين ونبذ كلّ ما يهدم هذه الوحدة من النميمة والغيبة والتهمّة وغير ذلك، وهذا أمر ملموس لمن راجع الكتاب العزيز والسنة النبوية، وإليك بعض ما ورد في ذلك المجال:

أ. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢).

ب. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٣).

ج. ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٤).

د. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٥).

هـ. ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٦).

و. ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^(٧).

١. المؤتمر الدولي الخامس للوحدة الإسلامية.

٢. الحجرات: ١٠.

٣. التوبة: ٧١.

٤. الفتح: ٢٩.

٥. آل عمران: ١٠٥.

٦. آل عمران: ١٠٣.

٧. الأنعام: ١٥٩.

ز. ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾^(١) وفي سورة المؤمنين الآية ٢٢: ﴿فَاتَّقُونَ﴾ مكان ﴿فَاعْبُدُونَ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الحاثّة على التمسك بحبل الله والناحية عن التفرّق. وفي السنة النبوية تصرّجات على حفظ الوثام والوداد تأتي ببعضها:

١. مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وترحمهم بمنزلة الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.^(٢)

٢. المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.^(٣)

٣. إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، وبلدكم هذا، وشهركم هذا.^(٤)

إلى غير ذلك من الكلمات المضيئة الواردة حول الأخوة والوحدة الإسلامية التي تزخر بها الصحاح والمسانيد.

ولقد كان النبي ﷺ يراقب أمر الأمة كي لا يشق عصاها منازع جاهل أو عدو غاشم، وكان يقودها إلى الأمام برعايته الحكيمة، وكلّمها واجه خلافاً أو شقاقاً ونزاعاً، بادر إلى ترميم صدعها بحزم عظيم وتدبير وثيق، ولقد شهد التاريخ له بمواقف في هذا المجال نتخب منها ما يلي:

١. انتصر المسلمون على قبيلة بني المصطلق، وقتل من قتل من العدو،

١. الأنبياء: ٩٣.

٢. مسند أحمد: ٤/ ٢٧٠.

٣. الواقدي: المغازي: ٢/ ٨٣٦؛ والحز العاملي، وسائل الشيعة: ١٩، الباب ٣١ من أبواب القصاص

برقم ١ و٢ و٣.

٤. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٦٠٥.

وأُسِرَ من أُسِرَ منهم، فبينما رسول الله ﷺ على مائِهِم، نشب النزاعُ بين رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين، فصرخ الأنصاري فقال: يا معشر الأنصار، وصرخ الآخر وقال: يا معشر المهاجرين، فلما سمعها النبي، قال: دعوها فإنها منتنة... يعني أنها كلمة خبيثة، لأنها من دعوى الجاهلية والله سبحانه جعل المؤمنين إخوة وصيرهم حزباً واحداً، فنبغي أن تكون الدعوة في كل مكان و زمان لصالح الإسلام والمسلمين عامة لا لصالح قوم ضد الآخرين، فمن دعا في الإسلام بدعوى الجاهلية يعزز. ^(١)

فالنبي ﷺ يصف كل دعوة تشق عصا المسلمين وتمزق وحدتهم بأنها دعوة منتنة، فكيف لا تكون كذلك وهي توجب انهدام دعامة الكيان الإسلامي وبالتالي انقراض صرح الإسلام.

٢. نزل النبي ﷺ دار هجرته والتفَّ حوله قبيلتا: الأوس و الخزرج، فمر شاس بن قيس اليهودي، وكان شيخاً قد عسا، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس و الخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملائ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم فقال: إعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم «بعث»... وكان يوم بعث يوماً اقتلت فيه الأوس و الخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشعري وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي فقتلا جميعاً.

١. السيرة النبوية: ٣/ ٣٠٣، غزوة بني المصطلق ولاحظ التعليقة للسهيلى وراجع مجمع البيان:

دخل الشاب اليهودي مجتمع القوم فأخذ يذكر مقاتلتهم ومضاربتهم في عصر الجاهلية، فأحيا فيهم حميتها حتى استعدوا للنزاع والجدال بحجة أنهم قتل بعضهم بعضاً في العصر الجاهلي يوم بعث، وأخذ الشاب يؤجج نار الفتنة ويصب الزيت على النار حتى تواب رجلاً من الحيين فتقاولا.

فبلغ ذلك رسول الله فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين! الله، الله، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله بالإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر وآلف به بين قلوبكم؟!!

لقد كانت كلمة النبي ﷺ كالماء المصبوب على النار بشدة وقوة، حيث عرف القوم أنها نزع من الشيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مدعين، متسلمين، مطيعين قد دفع الله عنهم كيد عدو الله: شاس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شاس وما صنع....^(١)

٣. كان لقضية الإفك في عصر الرسالة دوي بين أعدائه، فكان عدو الله «عبد الله بن أبي» يشيع الفاحشة ويؤذي النبي ﷺ، فقام رسول الله في الناس يخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه - ثم قال: - «أيها الناس ما بال رجال يؤذوني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق؟ والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك الرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي - وكان كبر ذلك الإفك على عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج.

فلما قال رسول الله تلك المقالة، قال «أسيد بن حضير» وكان أوسياً: يا رسول الله! إن يكونوا من الأوس نكفكمهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا

بأمرك، فوالله أنهم لأهل أن تضرب أعناقهم، فقال سعد بن عبادَة وكان خزرجياً: كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلتَ هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلتَ هذا. فقال أُسيد: ولكنك منافقٌ تجادل عن المنافقين، وعندئذ تساور الناس حتى كاد أن يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر. وفي لفظ البخاري: فصار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل يُخَفِّضُهم حتى سكتوا وسكت. ^(١)

هذه نماذج من مواقف النبي الأعظم حيال الخلافات التي كانت تشب أحياناً بين أُمته، وهو ﷺ كان يصنع من الخلاف وثاماً ومن النزاع وفاقاً، ويدفع الشر بقيادته الحكيمة، وما هذا إلا لأن صرح الإسلام قائم على كلمتين: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

وهذا صنو النبي ﷺ ووصيه وخليفته إذ حُرِمَ من حقّه المشروع، وبدلت الخلافة التنصيبية إلى تداول الخلافة بين تيم وعديٍّ ثم إلى أمية، قد بقي حليف بيته وأليف كتاب الله وهو يرى المفضول يمارس الخلافة مع وجود الفاضل، بل يرى تراثه نهياً ومع ذلك كله لم ينبس ببنت شفة إلا في موارد خاصة، حفاظاً على الوفاق والوئام وهو ﷺ يشرح لنا تلك الواقعة بقوله: «فوالله ما كان يُلقَى في روعي، ولا يخطر ببالي، أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده ﷺ عن أهل بيته، ولا أنهم مُنَحَّوه عني من بعده، فما راعني إلا إنشغال الناس على فلان يبايعونه فامسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام فلائل...». ^(٢)

١. السيرة النبوية: ٣/ ٣١٢-٣١٣؛ وصحيح البخاري: ١١٩/٥، باب غزوة بني المصطلق.

٢. نهج البلاغة، الرسالة ٦٢، طبعة محمد عبده.

وعندما تسنم منصة الخلافة ورجع الحق إلى مداره قام خطيباً فقال: «والزموا السواد الأعظم، فإنّ يدالله مع الجماعة، وإياكم والفرقة، فإنّ الشاذّ من الناس للشيطان كما أنّ الشاذّ من الغنم للذئب، ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه»^(١).

هذه هي سيرة النبي ﷺ وسيرة وصيه وتلميذه وهما تعربان عن أنّ حفظ الوحدة من أهم الواجبات وأوجب الفرائض، وقد اتبع السنة النبوية المحنكون من الأمة فجاءوا يوصون بحفظ الوثام ونبذ الخلاف في الظروف العصيبة.

وهذا هو الشيخ الإمام أبو الحسن الأشعري لما حضرته الوفاة، قال: اشهدوا عليّ أنّي لا أكفر أحداً من أهل القبلة بذنب، لأنّي رأيتهم كلّهم يشيرون إلى معبود واحد والإسلام يشملهم ويعمهم^(٢).

وقال الشيخ تقي الدين السبكي: إنّ الاقدام على تكفير المسلمين عسر جداً وكلّ من كان في قلبه إيمان يستعظم القول بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، فإنّ التكفير أمر هائل عظيم الخطر^(٣).

وقال ابن حزم: وذهبت طائفة إلى أنّه لا يكفر ولا يفسق مسلم بقول فاسد في اعتقاد أو فتيا وإنّ كلّ من اجتهد في شيء من ذلك فدان لما رأى أنّه الحق فانه مأجور على كلّ حال إن أصاب فأجران، وإن أخطأ فأجر واحد.

قال: وهذا قول ابن أبي ليلى وأبي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري وداود بن علي وهو قول كلّ من عرّفنا له قولاً في هذه المسألة من أصحابه رضي الله عنهم، لا

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

٢. الشعراني: اليواقيت والجواهر: ٥٨.

٣. نفس المصدر.

نعلم منهم خلافاً في ذلك أصلاً.^(١)

وقال السيد محمد رشيد رضا: إنّ من أعظم ما بليت به الفرق الإسلامية رمي بعضهم بعضاً بالفسق والكفر مع أنّ قصد الكل الوصول للحق بما بذلوا جدهم لتأييده واعتقاده والدعوة إليه والمجتهد وإن أخطأ معذور.^(٢)

ولو أضفنا إليه كلمات المفكرين الشيعة لجئنا برسالة خاصة، ويكفي في ذلك قول المصلح الكبير الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: بني الإسلام على دعامتين: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

وقد قام العلامة السيد شرف الدين العاملي بتأليف رسالة في هذا المجال أسماها: الفصول المهمة في تأليف الأمة.

إلى غير ذلك من الكلم المنشورة والمنظومة من الأعلام.

وقال بعض الأعظم والمصلحين: لتتحد على الرغم من أخطائنا، فإنّ الوحدة لا تعني في يوم ما، عصمة المنتسبين إليها.^(٣)

وهؤلاء يؤكدون على ذلك، لأنهم لمسوا و رأوا بأأم اعينهم ما يحكيه الشهرستاني في ملله حيث يقول: ما سُئل سيف على قاعدة من قواعد الدين مثل ما سل على الإمامة في كل زمان^(٤).

وهذا هو السبكي يحكي لنا عن الفتن الكبيرة التي وقعت بين الأحناف والشوافع وهما غصنان من شجرة واحدة حيث يقول: وقد وقعت فتنة بين الحنفية والشافعية في نيسابور ذهب تحت هياجها خلق كثير، وأحرقت الأسواق والمدارس

١. ابن حزم الظاهري الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٣/ ٢٤٧.

٢. السيد محمد رشيد رضا، المنار: ٧/ ٤٤.

٣. وهو السيد محمود البغدادي.

٤. الشهرستاني: الملل والنحل: ١/ ٢٤، دار المعرفة، بيروت - ١٤٠٢ هـ.

وكثر القتل في الشافعية، فانتصروا بعد ذلك على الحنفية وأسرفوا في أخذ الشار منهم في سنة ٥٥٤ هـ، ووقعت حوادث وفتن مشابهة بين الشافعية والحنابلة، واضطرت السلطات إلى التدخل بالقوة لحسم النزاع في سنة ٧١٦، وكثر القتل وأُحرقت المساكن والأسواق في إصبهان، ووقعت حوادث مشابهة بين أصحاب هذه المذاهب وأشياعها في بغداد ودمشق، وذهب كلّ واحد منها إلى تكفير الآخر، فهذا يقول من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم، وذاك يضرب الجهلة بالطرف الآخر، فتقع منهم الساءة على العلماء والفضلاء منهم وتقع الجرائم الفضيعة.^(١)

هذا حال سلفنا وليست حال الخلف في هذه الأيام بأحسن من حالهم، فقد رأى أنّ أناساً تحالفوا على إيجاد البغضاء وتأجيج نار الشحناء وطار شررها في الآفاق حتى احترق الحرث والنسل كلّ ذلك جهلاً أو تجاهلاً لواجبهم في تلك الظروف العصيبة.

وهنا كلمة أخطب بها أعضاء المؤتمر وهي:

إنّ الوحدة الإسلامية لا تتحقق ولا تتجسّد بهذه المؤتمرات، ولا بالخطب الرنانة الملقاة فيها، ولا بالشعارات الموجهة إلى الأمة الإسلامية.

فإنّ هذه الكلمات لا تتجاوز عن أثر الوخزة في البدن، فما لم تكن هناك اجراءات وقرارات عملية لتحقيق الوحدة لا تؤثر هذه المؤتمرات تأثيراً بالغاً، ولأجل أن نخرج عن هذه الدوامة ولا نكتفي بالشعار مكان الشعور، نشير إلى بعض السبل العملية:

١. السبكي طبقات الشافعية: ٣/ ١٠٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ١٤/ ٧٦ والياضي: مرآة الجنان:

٣/ ٣٤٣، إلى غير ذلك من المصادر .

السبل العملية للتقريب

لا شك أنّ للتقريب مقومات وعناصر يقوم بها، وأنّ له سبلاً وطرقاً يتوسّل بها للوصول إليه، ولسنا في مقام تبين مقوماته وعناصره وإن كان أقوم عناصره هو «وجود الإخلاص والإيمان في دعائه، والتضحية بالنفس والنفيس في طريقه» ولكن نشير إلى إحدى الطرق التي لها أثرها الخاص في تقارب الخطى وهي ما يأتي.

إنّ الإنسان مهما جهل أو تجاهل لا يصحّ له التجاهل بأنّ هناك فرقاً بين الطائفتين السنة والشيعة، ومهما صفا الجو وتم الإخلاص في دعاة الوحدة وحملة مشعل التوحيد، ففي النفوس لدى كلتا الطائفتين شيء بالنسبة إلى بعض الأصول والأحكام التي تتبناها الطائفتان في مجالي العقيدة والتشريع، وربما نشير إلى رؤوس بعض هذه الأمور من كلّ مذهب.

ومن السبل العملية تسليط الضوء على هذه الفوارق التي مزّقت الأمة وجعلتها متشتتة. وذلك لا لغاية جمع العقول والقلوب على نقطة واحدة وإزالة الاختلاف من رأس وإذابة الطوائف الإسلامية في طائفة خاصة، فإنّ ذلك من المستحيلات العادية والمنازع فيها مكابر بلا شبهة.

أقول: لا لهذه الغاية بل لغاية أخرى، وهي إيجاد التعارف بين الطائفتين وتقليل التناكر، وبالتالي تتعرف كلّ طائفة على ما عند الطائفة الأخرى من العقائد والأسس التي تبني عليها تلك الآراء حتى تكون كلّ طائفة على ثقة من الأخرى، وأنهم لم يتبنوها اعتباطاً وإنّما ساقطهم إليها الحجج الشرعية سواء كانوا مصيبين أم مخطئين وأقلّ ما يترتب على هذا النوع من الدراسات - وراء التعرف على العقائد والمباني - إعدار أصحاب العقيدة وعدم التشدد عليهم وعندئذٍ تذوب العصبية، إلى حدّ كثير و يرتفع سوء الظنّ، وتحترم كلّ طائفة عقيدة الطائفة الأخرى ومنهجها إذا لمست منها الجهد والسعي وراء الكتاب والسنة، وإن كانت

الطائفة الساعية في نظر الأخرى ربما تصرفها ولم تدرك بغيتها. ونحن إننا نؤكد على ذلك، لأن أكثر أصحاب المقالات وكتاب تاريخ العقائد استقوا معلوماتهم عن الطوائف الأخرى من الأفواه دون تحقيق ولا تثبت إلى أن مضى جيل وأجيال على هذه الكتابات فأصبحت حقائق راهنة، وبالتالي اتسع الشقاق وصارت مثاراً للمطاعن.

وها نحن نشير إلى بعض هذه المسائل التي نود أن يبحث عنها المؤتمر في المناسبات الآتية بشرط أن تسود الموضوعية عليه، فعندئذ يتخطى المؤتمر كثيراً من العقبات الواقعة في طريق التقريب وهذه المسائل تتراوح بين ما صحت نسبتها إلى الطائفة وبينما افترت عليهم وهم براء منها براءة يوسف وأخيه من السرقة، وإليك البيان:

١. البداء

القول بالبداء من عقائد الشيعة، وقد رووا عن أئمتهم: ما عُبِدَ الله بشيء مثل البداء. ^(١)

وغير خفي على العارف باللغة العربية أنّ البداء هو الظهور بعد الخفاء، والعلم بعد الجهل، وعند ذاك كيف تصح نسبة البداء إليه سبحانه مع سعة علمه؟ وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن المعلوم أنّ البداء بهذا المعنى باطل بالضرورة - ومع ذلك - فكيف يعد البداء من صميم عقائد تلك الفرقة التي بذلت جهودها في تنزيه الحق عن كلّ ما لا يليق به؟ ويزيد العطش لدراسة هذه المسألة إذا وقفنا على وجود توصيف الله سبحانه بالبداء في الصحاح.

وقد روى البخاري: عن أبي هريرة أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: إنّ ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا الله أن يتبليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى

الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن قد قدرني الناس قال: فمسحه فذهب عنه، فأعطني لوناً حسناً وجلداً حسناً، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو قال: البقر، هو شك في ذلك الأبرص والأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر، فأعطى ناقة عشرةا فقال: يبارك الله لك فيها. و أتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا، قد قدرني الناس قال: فمسحه فذهب وأعطى شعراً حسناً، قال: فأني المال أحب إليك؟ قال: البقر، قال: فأعطاه بقرة حاملاً، وقال: يبارك لك فيها. وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إليّ بصري، فأبصر به الناس قال: فمسحه، فرد الله إليه بصره قال: فأني المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطاه شاة والداء، فانتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من إبل ولهذا واد من بقر ولهذا واد من الغنم. ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بغيراً أتبلغ عليه في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كاني أعرفك، ألم تكن أبرص يقدرك الناس فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثلما قال لهذا، فردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين و ابن سبيل، و تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، و فقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجحدك اليوم بشيء أخذته الله، فقال: امسك مالك، فإنها ابتليتكم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك. ^(١)

١. البخاري: ١٧١ / ٤، كتاب الأنبياء، حديث أبرص وأعمى وأقرع، ط ١٣١٤ هـ.

فما هو المقصود من «بدا لله» في هذا الحديث هو المقصود، من روايات البدء في روايات أهل البيت.

٢. عصمة الأئمة

القول بعصمة الأئمة الاثني عشر من أسس مذهب الشيعة، وقد دانت بها منذ تمسكت بعرى ولائهم ومودتهم وذهبت إلى أنهم معصومون من المخالفة والعصيان بل السهو والخطأ في القول والعمل بينما نرى أنه ثقل على الطائفة الأخرى، وقد حلّ القول بها - في زعم بعضهم - محل اصفاء وصف النبوة عليهم. فدراسة الموضوع وتبيين أسسه ومبانيه تطلع ما في بعض النفوس من سيئ الظن، ويتبين أنها عقيدة دينية تبناها أصحابها متخذين من الكتاب و السنة سواء أكانوا مصيين أم مخطئين.

٣. الرجعة

الرجعة بمفهومها الواضح من المشهورات لدى الشيعة وإن كان التشيع لا يناط بها، وقد وردت فيها روايات متضافرة أدت إلى القول بأنه سبحانه سوف يحشر فوجاً من المؤمنين والكافرين قبيل الساعة ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً﴾^(١) فيما تعد الرجعة من المشهورات لديهم، تلقته الطائفة الأخرى بأنه أمر محال وجعلتها مرادفة للتناسخ الباطل الذي أجمعت الأمة الإسلامية على بطلانه، فعند ذلك يتحير الإنسان الواعي ما بين هذين؛ فدراسة الموضوع لا لإحقاق الحق بل لتبيين دلائله، تقرب الخطى وتجلب الثمام.

٤. تحريف الكتاب

إن الشيعة الإمامية مرمية بالقول بالتحريف في غير واحد من الكتب

أكانت كتباً موضوعية أم كانت من الكتب المهرجة، غير أننا نرى أنّ المحققين من الشيعة كالفضل بن شاذان (٢٦٠هـ) والشيخ الصدوق (٣٠٦-٣٨١هـ) والشيخ المفيد (٣٣٦-٤١٣هـ) في الرسالة الصاغانية والسيد المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) والشيخ الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ) والشيخ الطبرسي (٤٧٠-٥٤٨هـ) إلى غير ذلك من الأعلام في الأجيال المتأخرة، وهكذا المحدثون الواعون من الشيعة يتبرأون من هذه النسبة، ويصرّحون بأنّ ما بين الدفتين هو كتاب الله العزيز لم ينقص منه شيءٌ ومازاد عليه شيءٌ، وفي الوقت نفسه هناك قسمٌ من المحدثين غير الواعين المعروفين بالاخبارية يرجّحون التحريف.

فما هو حقّ المقال في هذه النسبة؟ هل الشيعة بعامة طبقاتها ذهبوا إلى التحريف أو قسم خاص منهم؟ وإذا أمعنا النظر، رأينا نفس تلك الفكرة في السنة فالمحقّقون منهم وهم الأكثرية يذهبون إلى نفي التحريف ولكن الحشوية منهم يروّجون التحريف يظهر ذلك بالرجوع إلى الصحاح والمسانيد.

فالسنة تطعن على إخوانهم الشيعة بكتاب «فصل الخطاب» للمحدث النوري، وهو يطعنون على إخوانهم السنة بكتاب «الفرقان» الذي كتبه أحد المصريين وصادره الأزهر، ومع ذلك نشرته يد العدوان بين المسلمين.

فما هو الموقف الحقّ في تلك المسألة للطائفتين؟

٥. رؤية الله سبحانه

إنّ رؤية الله سبحانه من صميم عقائد الأشاعرة وأهل الحديث جميعاً حتى أنّ إنكار جواز الرؤية يلزم الكفر عند بعضهم، وهم يفسرون الرؤية بالرؤية الحسية لا الرؤية بالقلب، وعندئذ يقع السؤال كيف تصح تلك العقيدة مع أنّها تستلزم ثبوت الجهة والمقابلة والجسمية له تعالى؟ والقول إنّه يرى لا في مكان ولا

على جهة من مقابله واتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائي وبين الله تعالى، إنكار للرؤية والتجاء إلى الرؤية بالقلب، فدراسة الموضوع يوجب تقارب الخطى، وإن كان صاحب جوهرة التوحيد التي تدرس في الأزهر يقول:

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها

٦. الصفات الخبرية

إنّ الأشاعرة وأهل الحديث يتفقون على تفسير الصفات الخبرية وحملها على الله سبحانه وتعالى بمعانيها الحرفية كاليد والوجه وغير ذلك، وينكرون التأويل ويصفونه بعمل الجهمية كما ينكرون التفويض إلّا قليل منهم. ومن طرف آخر يدعون أنّه سبحانه ليس بجسم ولا جسماني وإنّه منزّه عن كلّ ذلك. ودراسة الموضوع ربما تجمع الشمل أو ربما تقرب النظرتين.

وهناك فروع وأحكام شرعية لا تقصر عن آثارة الطعن من الأصول العقائدية الماضية.

٧. المتعة

المتعة من المسائل المسلمة لدى الشيعة، وهم يدّعون أنّ الكتاب والسنة أباحها وهي باقية عليها إلى يومنا هذا، ولكن السنة مع ذهابهم إلى ثبوت تشريعها في زمن النبي الأكرم قائلة بالتحريم إمّا من جهة النسخ أو من جهة النهي الحكومي عنها، ومع ذلك فإنّ كثيراً منهم يفقدون التصور الصحيح عن المتعة وربما يجعلونها في عداد السفاح، وهذا هو أحمد زكي باشا القاضي الشرعي بمصر كتب إلى الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء بعد ما قرأ كتابه «أصل الشيعة» وفيه بحث عن المتعة وحدودها، وقال: مع دفاعه المتين المؤيد بالحجج الوافية الكافية

فأنه لم يقتل من نفسي ما يخالفها من حيث النظام الشرعي والعمري، فماذا نصنع بالولد إن جاء من طريق المتعة وكان أبوه قد سافر بعد انتهاء العقد وجاء الولد بعد هذا السفر.^(١)

وهذا يعرب عن أن السائل لم يتصور المتعة إلا تمتعاً جنسياً بالنساء المطروحات في الطريق مع أن النقص لو صح فهو متوجه إلى الدائم أيضاً، فإذا تزوج الرجل بالعقد الدائم ثم طلق وسافر وهي حامل فما تصنع بالولد؟ ثم إن زواج المتعة لا ينتهي بمجرد انتهاء الوقت إلا من جهة الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة، وأما من حيث الولد فإنه يلحق بالأب الذي تزوج أمه مؤقتاً كالحقوق بها، وعلى هذا اتفاق الشيعة جميعاً مضافاً إلى الشؤون الأخرى كالنفقة عليه للولد إلى الحد المعين وكل ذلك يستلزم وجود الصلة بين الولد والوالد.

٨. غسل الرجلين ومسحها

هذه المسألة أوجدت هوة سحيقة بين العلماء وحتى العوام من الطائفتين، وكلّ يطعن في الآخر، وكأنّ لأحد الأمرين أساساً اجتهادياً دون الآخر، مع أنّ لكل طائفتين دليله واجتهاده، وكان ابن عباس يقول: «الوضوء غسّلتان ومسحتان إلا أنّ الناس أبوا إلا الغسل».^(٢)

٩. السجود على التربة

إنّ الشيعة تسجد على الأرض أو ما أنبتت إلّا ما يؤكل أو يلبس، وعلى ذلك عملهم من عصر الأئمة إلى يومنا هذا، وبما أنّ من شرائط المسجود عليه الطهارة

١. أصل الشيعة وأصولها: ٣٤، الطبعة العاشرة، القاهرة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م.

٢. الطبري: التفسير: ٦ / ٨٢ - ٨٣.

وهي غير متوفرة بسهولة في كل مكان اتخذوا لأنفسهم قطعاً من التراب يسجدون عليها، فالتراب والأحجار الطيبة عندهم مما يسجد عليه، وكذا الحصى و الحصير ونحو ذلك لا تكون مسجوداً لها بل المسجود له هو الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك نرى أنّ بعض المرجفين يتّهمون الشيعة بأنّهم يعبدون الصنم والحجر والحصى، فدراسة الموضوع تزيل أغشية الجهل عن محيّات الواقع، ويتبيّن أنّ الحجر مسجودٌ عليه، لا مسجود له، كما أنّ الرخام والفرش المنسوجة يسجد عليها لا لها.

١٠. الطلاق في المحيض

إنّ جمهور الفقهاء من أهل السنة قالوا بمضيّ طلاق الحائض، وقالت عدّة قليلة لا ينفذ ولا يقع، و من القائلين بالمضيّ: أبو حنيفة وأصحابه ومالك والأوزاعي والثوري والشافعي وإن كانوا يعدّونه أمراً محظوراً ولكنهم يفتون بصحته، والشيعة الإمامية قائلة بفساد الطلاق، وأنّه لا يصحّ الطلاق إلّا في الطهر، فأبي القولين هو الأوفق بالكتاب والسنة قال سبحانه: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾^(١).

فالغاية من الطلاق هو الاعتداد وهو لا يحصل إلّا إذا وقع الطلاق في الطهر، وأمّا إذا وقع في الحيضة فيها أنّ تلك الحيضة لا تحسب من الأقراء عند أهل السنة جميعاً، فيلزم الفصل بين الطلاق والاعتداد وهو خلاف ظاهر النص.

نعم هناك رواية عبد الله بن عمر المروية في السنن و المسانيد، وقد نقلها البيهقي بصورها المختلفة المنتشئة المضطربة.^(٢)

١. الطلاق: ١.

٢. البيهقي، السنن الكبرى: ج ٧، كتاب الخلع و الطلاق.

١١ . الطلاق ثلاثاً في مجلس واحد

من المسائل التي أوجبت انغلاقاً في الحياة بين أهل السنة إمضاء الطلاق الثلاث في مجلس واحد، وأنه تحسب ثلاث طلاقات فتحرم الزوجة حتى تنكح زوجاً آخر، مع أن الكتاب يقول: ﴿الطَّلَاق مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾^(١) وصريح الآية وقوع الطلاق مرة بعد أخرى، فكيف تقع المَرَّتَانِ واحدة؟!

١٢ . الإشهاد على الطلاق والرجعة

إنّ الاشهاد على الطلاق غير معتبر عند أهل السنة إلاّ القليل من بعض المعاصرين^(٢) مع أن صريح الكتاب وجوب الإشهاد. يقول سبحانه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾^(٣). سواء قلنا برجع إلى الطلاق والرجعة أو بخصوص الأول فالطلاق بلا اشهاد على خلاف الكتاب فكيف يمضى بلا إشهاد؟

هذه اثنتا عشرة مسألة خلافية أوجدت شقة فكرية بين المسلمين في مجالي العقائد والأحكام، فعلى رواد التقريب ودعاة التوحيد، التأكيد على عناصر الوحدة في منشوراتهم ومجلاتهم العلمية لتقريب الخطى وسحق العصبية .

١ . البقرة: ٢٢٩ .

٢ . أحمد محمد شاکر في كتابه نظام الطلاق في الإسلام، ط ١٣٨٩ ، الطبعة الثانية .

٣ . الطلاق: ٢ .

خقامه مسك

الدارج بين الشيعة هو ضمّ الآل إلى النبي ﷺ عند الصلاة عليه، عملاً بما رواه أصحاب الصحاح وهو أنّ الصحابة سألوا النبي كيف يصلّون عليه؟ فقال: قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. ^(١)

وقد أكد ابن تيمية على تلك الكيفية في كتابه «حقوق آل البيت» ^(٢) ولكن الرائج عند أهل السنّة هو ذكر النبي وحدة ورفض الآخرين. أما أنّ لدعاة الوحدة دراسة المسألة حتى يصلوا في هذا الموضوع البسيط إلى وحدة الكلمة والنظر، ويضيقوا الخلاف؟! والله من وراء القصد.

جعفر السبحاني

مكة المكرمة

سادس شهر ذي الحجة الحرام

من شهور عام ١٤١٢هـ

١. أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، الباب ١٠، وفي الدعوات الباب ٣١ و٣٢؛ مسلم في كتاب الصلاة، الحديث ٦٦، ٦٥.

٢. حقوق آل البيت: ٢٨.

المقالة الثالثة

عناصر الوحدة الإسلامية وموانعها^(١)

الوحدة الإسلامية أمنية يتمناها كل مخلص له أدنى إلمام بالأوضاع المحدقة بالإسلام والمسلمين ولا يشك في أنّ المسلمين في أمس الحاجة إلى الوحدة وتقريب الخطى، لأنّ فيه عزّ الإسلام ورفع شوكة المسلمين وتقوية أواصر الأخوة بينهم، وإنّ في التفرقة اضمحلال الإسلام وتشتت شمل المسلمين وتكتلهم إلى فرق وطوائف متناحرة.

وقد حثّ سبحانه على الوحدة بقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(٢).

ويقول أيضاً: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣).

وفي الوقت نفسه يذم التفرقة ويشجبها ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^(٤).

١. أُلقيت في جامعة الأردن شهر محرم الحرام عام ١٤١٩ هـ، عند رحلة المحاضر إليها في ذلك العام.

٢. آل عمران: ١٠٣.

٣. الأنعام: ١٥٣.

٤. الأنعام: ١٥٩.

ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا﴾^(١).

أنه سبحانه يعدّ التفارقة والتشتت من أنواع البلايا والمحن التي تجابه الأمم ويقول: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ اُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾^(٢).

فانطلاقاً من وحي تلك الآيات تجب على كلّ مسلم واع، الدعوة إلى توحيد الكلمة للحيلولة دون التشتت والتفرق.

إنّ الوضع الراهن للأمة الإسلامية يبعث على القلق، واستمرار هذا الوضع يجعلهم ضحية للخطط الاستعمارية التي تستهدف الإجهاز على المسلمين واستئصال شأفتهم.

إلا أنّ الذي يبعث النشاط في قلوبنا ويزيدنا أملاً بالغد المشرق هي الآيات الدالة على أنّ المستقبل للصالحين من عباده، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٣). وقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٤).

هذه سنة الله تبارك وتعالى لكنها رهن شروط وخصوصيات كفيلة بتحقيق ذلك الوعد.

أنه سبحانه يصف المسلمين بأنهم أمة واحدة ويقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾^(٥).

٢. الأنعام: ٦٥.

٤. القصص: ٥.

١. الروم: ٣١-٣٢.

٣. الأنعام: ١٠٥.

٥. الأنبياء: ٩٢.

والأمة مشتق من أمّ م والمادة تحكي عن القصد والهدف والقيادة والزعامة، وعلى ضوء ذلك فلا يكون المسلمون أمة حتى يكون لهم هدف ومقصد أسنى وقيادة وزعامة حكيمة، فالأمة الواحدة لها ربّ واحد وكتاب واحد وشريعة واحدة وقيادة وهدف واحد. وهو نيل السعادة الدنيوية والأخروية.

وثمة سؤال يطرح نفسه، ما هي العناصر الكفيلة لتحقيق الوحدة إذ تحققها مع وجود التفرقة والاختلاف أمر متعذر.

هذه العناصر تكمن في التوحيد في العقيدة والشريعة لا في الوطن ولا في الجنس ولا في اللون ولا في اللغة ولا في الطائفية ولا في القومية، والإسلام قد شطب بخط عريض على تلك الأفكار، ولم يعر لها أهمية تذكر بل حذر المسلمين من الانخراط تحت لوائها والانجراف معها، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

وقال الرسول ﷺ: «إن العربية ليست بأبٍ والد ولكنها لسان ناطق، فمن قصر به عمله لم يبلغه حسبه»^(٢) فعلى ذلك يجب الإلماع إلى العناصر التي تكمن فيها الوحدة وتبني عليها أواصر الاخوة.

فالعناصر العقائدية هي:

١. التوحيد ومراتبه

التوحيد - بمعنى الاعتقاد بوجود إله واحد لا شريك له، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، عالم قادر، حي لا يموت، إلى غير ذلك من صفات الجلال والجلال، وليس في صحيفة الوجود خالق، مدبّر ومعبود، سواء - من العناصر

البناءة للوحدة.

وقد تثار بحوث كلامية حول صفاته تبارك وتعالى، لكنها بحوث لا تمت إلى صميم الإسلام بصلة.

فهل صفاته سبحانه عين ذاته أو زائدة عليها، فلكل من الرأيين دليله ومنطقه إلا أنّ هذه البحوث - مع تسمين جهود باحثيها - يجب أن لا تثير الريبة في غرضنا الذي نرمي إليه ألا وهو الوحدة الإسلامية الكبرى.

لا أنسى وأنتم أيضاً لا تنسون أنّ مسألة خلق القرآن وحدوثه أو قدمه قد شغلت بال المسلمين أيام الخلافة العباسية سنين طوال، وقد شقّ عصا الوحدة وشتمهم إلى طوائف وأريقّت دماء ونهبت أموال وما ذلك إلا لأنّ طائفة منهم كانوا يقولون بقدّم القرآن والطائفة الأخرى بحدوثه مع أنّها بحوث كلامية لا تمت إلى صميم الإسلام بصلة، فالبحث و الحوار العلمي والانصياع للدليل شيء، وكون هذا الاختلاف يثير كامن العداة والشقاق ويصبح - لاسمح الله - هدفاً لسهام اللوم والتكفير شيء آخر، فلنفسح المجال للبحث العلمي دون أن يمسّ بالوحدة الإسلامية الكبرى.

٢. النبوة العامة والخاصة

إنّ من عناصر الوحدة الإيمان بأنّه سبحانه تبارك وتعالى بعث أنبياءً ورسلاً لترسيخ التوحيد بين الناس وشجب أيّ عبادة سواه.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(١).

وهذه هي العقيدة المشتركة بين الأمة الإسلامية جميعاً، كما أنّ الإيمان بخاتمة الرسول و أنّه لا نبي ولا رسول بعده من صميم العقيدة الإسلامية، ومن أنكر الخاتمية وادعى استمرار الوحي بعد النبي ﷺ أو إمكان ظهور نبي جديد مع شريعة جديدة، فقد خرج عن رتبة الإسلام، لأن ذلك متعارض مع العقيدة الإسلامية قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾^(١).

٣. الإيمان بالمعاد

الإيمان بالمعاد وإنّ الدنيا قنطرة الآخرة، وليس الموت بمعنى فناء الإنسان من العقائد المشتركة بين المسلمين ويعدُّ أصلاً من الأصول التي جاء بها الأنبياء قاطبة، ولولاه لما قام للدين عمود، ولذلك نجد أنّ القرآن يعطف الإيمان بالمعاد، على الإيمان بالتوحيد، ويقول: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾^(٢) وفي آية أخرى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾^(٣).

فهذه الأصول الثلاثة، تشكّل حجر الزاوية للعقيدة الإسلامية، ويدور عليها رchy الإيمان والكفر، وقد صبّ النبي ﷺ اهتمامه على هذه الأصول وجعلها حداً فاصلاً بين الإيمان والكفر، فمن آمن بها فقد دخل في زمرة المسلمين ومن أنكر واحداً منها فقد خرج عن رتبة الإسلام، وها نحن نذكر بعض ما روى عن النبي ﷺ في هذا المضمار لتعلم من خلالها العناصر الكفيلة بتحقيق الأخوة الإسلامية.

١. الأحزاب: ٤٠.

٢. البقرة: ٦٢.

٣. النساء: ٥٩.

روى البخاري عن عمر بن الخطاب: أنَّ علياً صرخ، يا رسول الله: على ماذا أُقاتل، فقال ﷺ: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها وحسابهم على الله. (١)

روى الإمام الشافعي عن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: لا أزال أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاَّ الله فإذا قالوا، فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها وحسابهم عليهم. (٢)

وروى الإمام الرضا عليه السلام وهو أحد أئمة أهل البيت عن آبائه عن علي عليه السلام، قال النبي ﷺ: أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاَّ الله فإذا قالوا حرمت عليَّ دماءهم وأموالهم. (٣)

وحدة الشريعة

إذا كانت العقيدة بعناصرها الثلاثة هي الركيزة الأولى للوحدة، فوحدة الشريعة عامل آخر لجمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم وصفوفهم.

فالمسلمون عامة في مجال العبادة يقيمون شعائرهم الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد، فلا تجد مسلماً ينكر واحداً من تلك الأمور.

نعم بين المذاهب الفقهية اختلاف في جزئيات المسائل ولكنها شروط وآداب لا تمسُّ بجوهر الإسلام، فالمسلم من يؤمن بالشريعة التي جاء بها النبي ﷺ ويقيمها حسب الفقه الذي يقلده، واختلاف العلماء لا يمس جوهر الشريعة لأنه اختلاف سطحي في جزئياتها وخصوصياتها.

١. رواه البخاري في صحيحه: ١٠ / ١، كتاب الإيمان.

٢. الشافعي، الأم: ١٥٧ / ٦.

٣. المجلسي، البحار: ٦٨ / ٢٤٢.

فكما أنّ العبادات جزء من الشريعة فالمعاملات بمعناها الأخص أو الأعم جزء من الشريعة أيضاً فالبيع والاجارة والوكالة، والمضاربة والمساقة والمزارعة معاملات بالمعنى الأخص، كما أنّ النكاح والطلاق والوصايا ونظائرها معاملات بالمعنى الأعم، فالمسلمون متحدون في هذا المجال من الشريعة يبيحون ما أباحت الشريعة ويحرمون ما حرّمت الشريعة.

وعلى ضوء ذلك فالشريعة هي الركيزة الثانية للوحدة، واختلاف الفقهاء فيها لا يخل بها.

وحدة القيادة

إنّ التوحيد في القيادة هي الركيزة الثالثة لوحدة الأمم، فالجميع يؤمن بأنّ القيادة لله سبحانه ولرسوله ولأولي الأمر مستلهمين من قوله سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١).

فالقيادة الإسلامية ليست قيادة سياسية بحتة، بل قيادة دينية تقود المجتمع إلى السعادة والرفاه تحت ظل تعاليم الإسلام، وحيث إنّ إطاعة أولي الأمر جاءت مباشرة بعد إطاعة الرسول في الآية فيلزم أن تكون طاعتهم شبه إطاعة الرسول في علمهم وسياستهم وتقواهم، ولأجل ذلك يجب أن يتوفر فيهم شروط كثيرة تحوّل لهم صلاحية الزعامة.

وحدة الهدف

تقع على عاتق الأمة الإسلامية مسؤولية خاصة وهي سوق المجتمع نحو المثل الأخلاقية والمكارم الإنسانية، قال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»^(١).

فالطوائف الإسلامية برمتها لها رؤية مشتركة في الهدف الذي جاء به الإسلام ودعا إليه.

والهدف هو سيادة الدين في الأرض لتكون السيادة لله وحده ويكون الدين ظاهراً على سائر الأديان، قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٢).

هذه الوحدات الأربع، أي: وحدة العقيدة، وحدة الشريعة، وحدة القيادة، ووحدة الهدف إذا تمسك المسلمون بأهدافها تعود إليهم السعادة المسلوقة والكرامة المنشودة. قال رسول الإسلام ﷺ: «إنما مثل المسلمين كالرجل الواحد إذا وجع منه شيء تداعى له سائر جسده»^(٣).

تكفير أهل القبلة

إن تكفير أهل القبلة ما لم يُنكر أحد منهم شيئاً من تلك الأصول الثلاثة مما لم يجوزه أحد من أئمة المسلمين.

قال ابن حزم نقلاً عن أبي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري: إنه لا يُكفر ولا يُفسق مسلم.^(٤)

وقال السرخسي: لما حضرت الشيخ أبا الحسن الأشعري الوفاة بداري ببغداد أمرني بجمع أصحابه فجمعهم له، فقال: اشهدوا عليّ إني لا أكفر أحداً

١. آل عمران: ١١٠.

٢. التوبة: ٣٣.

٣. مسند أحمد بن حنبل: ٢٧٨/٤.

٤. ابن حزم: الفصل: ٢٤٧/٣.

من أهل القبلة بذنب لآتي رأيتهم كلهم يشيرون إلى معبود واحد والإسلام يشملهم ويعممهم.^(١)

ولقد أحسن الإمام الأشعري حيث أسمى كتابه بمقالات الإسلاميين واختلاف المصلين فأضفى على جميع الطوائف لفظ الإسلاميين وجعل اختلافهم اختلاف أهل القبلة كما يشعر بذلك قوله اختلاف المصلين.

وقال القاضي الإيجي: جمهور المتكلمين والفقهاء على أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة، واستدل على مختاره بقوله: إن المسائل التي اختلف فيها أهل القبلة من كون الله تعالى عالماً يعلم أو موجوداً لفعل العبد أو غير متحيز ولا في جهة ونحوها لم يبحث النبي عن اعتقاد من حكم بإسلامه فيها ولا الصحابة ولا التابعون، فعلم أن الخطأ فيها ليس قادحاً في حقيقة الإسلام.^(٢)

إلى غير ذلك من كلمات لعلمائنا الأبرار تبعاً للسنة النبوية المنكرة لتكفير المسلم.

موانع الوحدة

قد عرفت عناصر الوحدة وما يمكن أن يجمع به شمل المسلمين، ولكن مع ذلك ثمة عوامل أخرى تُعرقل خطا الوحدة، فعلى المعنيين بوحدة المسلمين دراسة عوامل التفرقة ليعالجوها كي لا تكون سداً أمام تلك الأمنية، وإليك دراسة هذه العوامل.

١. الشعراي: البواقيت والجواهر: ٥٨.

٢. الإيجي: المواقف: ٣٩٢.

١. المذاهب الكلامية والفقهية

إنّ المسلمين ينقسمون في المذاهب الكلامية إلى طوائف كالأشاعرة والمعتزلة والماتريدية والشيعة.

والشيعة تنقسم بدورها إلى زيدية وإسماعيلية واثني عشرية، فكيف يمكن توحيد الكلمة مع سيادة هذه المناهج الكلامية عليهم؟!

والحقّ أنّ هذه المذاهب تتراءى في النظر البدئي سداً منيعاً بوجه الوحدة، ولكن بالنظر إلى أواصر الوحدة تبدو وكأنّها موانع وهنة لاتصد المسلمين عن التمسك بأهداب الوحدة على كافة الأصعدة .

أمّا المناهج الكلامية فجوهر الاختلاف فيها يرجع إلى مسائل كلامية لا عقائدية مثلاً أنّ الأشاعرة والمعتزلة يختلفون في المسائل التالية:

١. هل صفاته عين ذاته أو زائدة عليها؟

٢. هل القرآن الكريم قديم أو حادث؟

٣. هل أفعال العباد مخلوقة لله أو للعباد؟

٤. هل يمكن رؤية الله في الآخرة أو هي ممتنعة؟

إلى غير ذلك من أمثال هذه المسائل، ومع تبيين جهود الطائفتين فالاختلاف فيها اختلاف في مسائل عقلية لا يناط بها الإسلام ولا الكفر فالمطلوب من المسلم اعتقاده بكونه سبحانه عالماً وقادراً، وأمّا كيفية العلم والقدرة بالزيادة أو العينية فليس من صميم الإسلام، فلكلّ مجتهد دليله ومذهبه، كذلك القرآن هو معجزة النبي ﷺ وكتابه سبحانه، فليس الحدوث والقدم من صميم العقيدة وقس على ذلك ما تلوناه عليك من المسائل، حتى أنّ مسألة رؤية الله في الآخرة وإن أصبحت عقيدة ضرورية لأجل روايات وردت في صحيح

البخاري ولكنها من ضروريات المذهب الكلامي الخاص لا من ضروريات الإسلام، فهناك فرق بين ضروريات المذهب الأشعري وضروريات الإسلام، فكلّ أشعري يقول بالرؤية تبعاً لإمامه وهو تبعاً للدليل الذي قام عنده ولا يقول به كلّ مسلم.

وقس على ذلك سائر الوجوه المفرقة التي ترجع كلّها إلى فروق كلامية. وأما المناهج الفقهية فالمشهور هي المذاهب الأربعة مضافاً إلى الزيدية والجعفرية فهذه المذاهب الستة مذاهب فقهية والاختلاف يرجع إلى الاختلاف في فهم الآية والرواية فلو اختلفوا فإنّما يختلفون في فهم الكتاب والسنة وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على اهتمامهم بهما وإمعانهم في فهمهما والاختلاف أمر طبيعي خصوصاً بعد مضي ١٤ قرناً من عصر الإسلام.

ولكن اختلافهم في المناهج الفقهية لا يمس بصميم الفقه الإسلامي فهل هناك من يرى صلاة الفجر ثلاث ركعات أو يرى صلاة الظهر والعصر غير أربع ركعات؟

وليس الاختلاف وليد اليوم، بل بدأ الاختلاف بعد رحيل رسول الله ﷺ في أبسط المسائل الفقهية كعدد التكيّرات على الميت إلى أعمقها، فالاختلاف الموروث إنّما هو اختلاف في فهم النصوص لا في رفض النصوص وردها.

ولا شك أنّ الشيعة ترى جواز الجمع بين الصلاتين مع القول بأنّ التفريق هو الأفضل، والسنة تخص جواز الجمع بالسفر ومواقف خاصة، ولكلّ دليله، وقد ورد في الصحاح والمسانيد قرابة عشرين رواية بأنّ رسول الله ﷺ جمع بين الصلاتين من غير سفر ولا مطر ولا مرض ليوّسع بذلك الأمر على الأمة.

وقس على ذلك سائر الاختلافات الفقهية حتى الاختلاف في متعة النكاح، فذهب جمهور السنة إلى النسخ والشيعة إلى بقاء الجواز، فالاختلاف فيها كالاختلاف في سائر المسائل الناشئة من الاختلاف في النسخ وعدمه.

٢. الاختلافات القومية

يتشكل المسلمون من قوميات متعددة من عرب وعجم وترك وبربر إلى غير ذلك من الشعوب والقبائل ولكن هذا الاختلاف، اختلاف تكويني لا يصلح لأن يكون مانعاً عن وحدة الكلمة وقد عالج سبحانه هذا النوع من الاختلاف وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١).

فالاختلاف في اللون واللسان والدم والوطن وإن كانت عوامل توحد طائفة كبيرة لكنها عوامل عرضية لا تمت إلى جوهر الإنسان بصلة، وأمّا الإيثار بالأصول الثلاثة فهو عامل باطني ذاتي أقوى من جميع العناصر المتقدمة.

فالمسلم الشرقي إذا تعارف مع المسلم الغربي مع ما بينهما من الهوة السحيقة يتآخيان، لما بينهما من وحدة المبدأ والمعاد والقيادة والهدف وأمّا الاخوان من أم وأب واحد إذا كان أحدهما إلهياً والآخر مادياً يتناكران.

أظن أنّ هذين المانعين ليسا من موانع الوحدة وقد عاجلها الإسلام بشكل واضح، وإنّما هناك عوامل واقعية تعرقل مسير الوحدة وهي بحاجة إلى الدراسة والوقوف عليها بنحو مسهب.

٣. الجهل بمعتقدات الطوائف:

الحقيقة أنّ جهل كلّ طائفة بمعتقدات الطائفة الأخرى يعد من أهمّ الموانع التي تشكل حاجزاً منيعاً عن الوحدة وهذا ليس بالأمر المستسهل، وإليك هذا المثال:

كان لي صديق في مكة المكرمة كنت أزوره عند تشرفي إلى زيارة بيت الله الحرام وكان يزاول حرفة بيع الأقمشة، سألني يوماً ما تقولون أنتم معاشر الشيعة في آخر الصلاة بعد رفع الأيدي إلى الأذن؟ قلت: يقولون: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، فعاد يعتذر ويقول: كنت أعتقد أنكم تقولون: خان الأمين، خان الأمين، خان الأمين!!

فإذا كان هذا مبلغ علم المسلم بعقيدة أخيه الشيعي في قبة الإسلام، فما ظنك بمسلم يسود بينهما آلاف الفراسخ؟! وقد سألني عالم مكي من قضاة مكة المكرمة ومدرسي الحرم عندما نزلت بيته ضيفاً مع أصدقائي، فقال: شيخنا السبحاني!! هل للشيعة تأليف؟ قلت: سبحان الله ليست الشيعة طائفة لا تاريخ لها ولا جذور، وإنما هي طائفة إسلامية منذ عصر النبي إلى يومنا هذا قد شاركوا المسلمين في تأسيس الحضارة الإسلامية العريقة.

ونأتي بمثال ثالث: أنّ الشيعة الإمامية اقتداءً بالنبي وأئمة أهل البيت لا يسجدون في الصلاة إلا على الأرض أو ما ينبت منها، بشرط أن لا يكون مأكولاً ولا ملبوساً، فيما أنّ السجود على الأرض في المنازل وحتى المساجد المفروشة غير ميسرة يتخذون أقراصاً من التربة يسجدون عليها، فعند ذلك نرى أنّ بعض إخواننا من السنة يرمون الشيعة بالسجود للحجر والتراب كسجود عبّاد الوثن له مع أنهم لا يفرّقون بين المسجود عليه والمسجود له، فالتراب هو المسجود عليه وأما المسجود له هو الله سبحانه.

وعلى ذلك فلو وقف فقهاء المذاهب على ما لدى الطوائف الأخرى من الفقه والأصول والاستدلال والاجتهاد لما عاب أحدهم الآخر، وإنّما الخلاف في كيفية الاستدلال وحقيقة البرهان لا في الأخذ بالبرهان ولو أردنا أن نمثل في المقام لطال بنا الكلام وطال مقامنا مع الحضار.

وهناك نكتة أود أن أذكرها هي أنّ أكثر من كتب عن الشيعة فإنّها أخذت عن كتاب ليسوا شيعة كابن خلدون أو من المستشرقين الحاقدين على الإسلام عامة وعلى التشيع خاصة، أمثال جولدزيهر.

فعلى من يريد نسبة شيء إلى أي طائفة من الطوائف الرجوع إلى مصادرهم الأصلية المؤلفة من قبل علماءهم.

٤. الجهل بالمصطلحات

أن لكل طائفة مصطلحات خاصة في العقيدة والشرعة يجب أن تؤخذ مفاهيمها من كتبهم وليس لنا تفسيره من جانبنا، ولنذكر هنا مثالين.

أ. البداء

البداء عقيدة إسلامية دلّ الكتاب والسنة عليها، وهي لا تعني إلاّ تغيير مصير الإنسان بالأعمال الصالحة والطالحة، فالإنسان بما أنّه مسؤول عن أعماله بيده تغيير مصيره، فيجعل نفسه من السعداء أو من الأشقياء، وهذا أمر دلّ عليه الكتاب والسنة. وهذا هو البداء عند الشيعة فقوم يونس بدّلوا مصيرهم السيئ إلى الحسن بالأعمال الصالحة والإنابة. قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١). فيقال عندئذ «بدا لله في قوم يونس» أي ظهر لهم ما خفي عليهم، لا ظهر له - نعوذ بالله - بعد ما خفي عليه، وهذا النوع من الاستعمال المجازي شائع على لسان النبي ﷺ حتى في صحيح البخاري في قضية الأبرص والأعمى والأقرع.^(٢)

١. يونس: ٩٨.

٢. صحيح البخاري: ٤/ ١٧١، حيث جاء فيه: بدا لله أن يتليهم فبعث إليهم ملكاً... الخ.

ولكن يُفسر عند من لا يعرف عقائد الشيعة بتغير إرادة الله سبحانه وتعالى وظهور الشيء له بعد خفائه ومن المعلوم أنّ الأولى عقيدة إسلامية والثانية عقيدة إلحادية لا يتفوه بها أحد من المسلمين.

ب . التقية

التقية من المفاهيم الإسلامية، وهي سلاح الضعيف أمام القوي، فإذا خاف المسلم على ماله وعرضه ودمه من أيّ إنسان سواء أكان كافراً أو مسلماً وأراد شخص قوي سلب حرياته فلا محيص له إلاّ كتمان عقيدته وقد أمر به سبحانه وقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(١) وقد نزلت في حقّ عمار بن ياسر حيث أظهر الكفر وأخفى الإيمان وجاء إلى النبي ﷺ باكياً فقال ﷺ: لا شيء عليك، فنزلت الآية، ولكنّ التقية يُفسر عند بعض المخالفين بالنفاق، مع أنّ بين التقية والنفاق بوناً شاسعاً، فالتقية إظهار الكفر وإبطان الإيمان، والنفاق على العكس هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر.

هذه بعض الموانع الماثلة أمام وحدة المسلمين وهناك عوامل أخرى لا مجال للبحث فيها على هذه العجالة.

نسأله سبحانه أن يرزق المسلمين توحيد الكلمة

كما رزقهم كلمة التوحيد

المقالة الرابعة

الحج عمل عبادي، وملتقى سياسي

الإمعان والدقة في الآيات الواردة حول الحج ومناسكه وما رويت حوله من النبي الأكرم والعترة الطاهرة من الروايات وما استقرت عليه سيرة المسلمين في القرون الأولى الإسلامية يعرب عن أمرين مهمين، يعرفان ماهية الحج وحقيقته وأهدافه وهما: أنّ الحج عمل عبادي وفي الوقت نفسه ملتقى سياسي للمسلمين، ويطيب لي أن أذكر كلا الأمرين بعبارات موجزة مستشهداً بآيات الذكر الحكيم، وما أثر في ذلك المجال، والذي يدل على أنّ الحج عمل عبادي هو:

١. إنّ الحج عمل يقصد به الإنسان كسب رضا سبحانه تلبية لنداء الخليل عليه السلام حيث قام بدعوة الناس إلى الحج الذي أقامه بعد انهيار، وعمّره بعد خراب، كما قال سبحانه: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ...﴾^(١).

٢. الحج تذكّار وذكر لله سبحانه في كافة مراحل ومواقفه ومراسمه ومشاهده وقد أمر سبحانه في غير واحد من الآيات حجّاج بيته أن يذكروه في جميع المواقف، قال سبحانه: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ

النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴿١﴾ ويقول سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢).

٣. الحج تطهير للنفس عن دنس الأقدار الخلقية وتوجيهها إلى المثل العليا وكبح للنفس عن اللذائذ الدانية النفسانية . قال سبحانه: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ...﴾ (٣).

ولأجل أن الحج تطهير للنفوس سميت أعماله مناسكاً وهو من نسك ثوبه أو غسله، فكانت تلك الأعمال تغسل ما عليها من صدأ الذنوب ودرن الآثام، قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ (٤).

٤. الحج تدريب وتربية للنفس للغلبة على الهوى وتحصيل التقوى الذي هو خير الزاد للإنسان، قال سبحانه في ثانيا آيات الحج: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٥).

٥. قد كان الهدف الأسمى من تجديد بناء البيت بيد بطل التوحيد، دعوة الناس إلى عبادة الله وحده ورفض عبادة الأنداد والشرك بألوانه، قال سبحانه: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٦)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٧) ولأجل ذلك كان شعار الخليل عليه السلام عند بناء البيت ورفع قواعده

١. البقرة: ١٩٨-٢٠٠.

٢. البقرة: ٢٠٣.

٣. البقرة: ١٩٧.

٤. البقرة: ٢٠٠.

٥. البقرة: ١٩٧.

٦. البقرة: ١٢٥.

٧. آل عمران: ٩٦.

هو الطلب من الله سبحانه أن يجعل ذريته أمة مسلمة ويريهم مناسكهم ويتوب عليهم بالرحمة. قال سبحانه حاكياً عنه ﷺ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

٦. إن الخليل أنزل أسرته بأرض قاحلة عند البيت المحرم لغاية إقامة الصلاة، وفي الوقت نفسه طلب من الله سبحانه أن يوجه أفئدة الناس إلى هذا البيت لتلك الغاية السامية، قال سبحانه حاكياً عن الخليل: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾^(٢).

٧. الحجّ ترهيد عن الدنيا واكتفاء من زخرفها وزبرجها بثوبين يرتدي بأحدهما ويتزر بالآخر ويردد في جميع الحالات الشكر والثناء امتثالاً لأمره سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(٣).

٨. الحجّ عمل رمزي لكثير من العبادات والطقوس الواردة في الشريعة المفروضة في ظروف خاصة، فصار الحجّ بمفرده مظهراً لها ومجسداً لكثير منها حيث نجد فيه الأعمال التالية المعربة عن جانبه العبادي، أعني: النية، الطهارة من الحدث والخبث، الصلاة، الصوم، الطواف بالبيت، الذبح لله، إطعام القانع والمعتّر من اللحوم، الاعتكاف الذي يجسده الوقوف في المشاعر، ورجم الشيطان العدو الوحيد للإنسان الذي يوسوس في صدور الناس.

كلّ ذلك يعرب عن أنّ الحجّ عبادة لله وتقرب إليه يصل به الإنسان إلى مدارج الكمال.

غير أنّ كون الحجّ أمراً عبادياً أو مجسداً لأكثر العبادات لا ينافي أن يشتمل على بعد آخر فيه حياة للمسلمين وقوام لعيشهم وإقامة لشؤونهم الاقتصادية

١. البقرة: ١٢٧.

٢. إبراهيم: ٣٧.

٣. إبراهيم: ٣٧.

والاجتماعية والسياسية والعسكرية والحكومية، وهذا ما نعبر عنه بكون الحج ملتقى سياسياً تجتمع فيه هذه الآثار الحيوية، وهذا ما يدعمه أيضاً الذكر الحكيم وتؤيده السنة النبوية وعمل المسلمين في القرون الإسلامية الأولى.

أما الآيات التي ترمز إلى تلك الأبعاد فنكتفي منها بما يلي:

الف. قال سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾^(١) والمراد من كونه مثابة كونه مرجعاً للناس والمسلمين عامة، ولأجل أن الحج عمل اجتماعي يجب أن يخيم عليه الأمن ويسيطر عليه السلام، حتى يقوم الناس بعمل اجتماعي لأهداف اجتماعية، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(٢)، وقال تعالى حاكياً عن خليله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾^(٣).

فالحج بما أنه أمر اجتماعي وملتقى للشعوب المختلفة، بحاجة إلى استتباب الأمن والهدوء حتى يقوم كل إنسان وشعب ببيان فكرته ونظريته ولا يخاف من إنسان ولا دولة، ويتجلى الحج كمنبر حرّ للمسلمين كلّهم، وهذا ما نعبر عنه بكونه عملاً اجتماعياً.

وفي جانب ذلك فالحج ملتقى ثقافي يلتقي فيه المفكرون الكبار والعلماء في شتى الحقول، فيقومون بعرض الأطروحات والتجارب على الصعيد الثقافي والعلمي والاقتصادي كي تتعرف كل طائفة على ما عند الأخرى من الأفكار القيمة والنظريات المفيدة فيؤدي ذلك إلى التقاء الأفكار والاحتكاك بينها.

إذاً الحج عمل اجتماعي وملتقى ثقافي وفي الوقت نفسه مؤتمر سياسي سنوي يجتمع فيه قادة المسلمين فيتشاورون في مهام الأمور بغية التنسيق والتعاون فيما بينهم ولعلّ إلى تلك الجوانب الثلاثة يشير قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾^(٤).

٢. آل عمران: ٦٧.

١. البقرة: ١٢٥.

٤. المائدة: ٩٧.

٣. البقرة: ١٢٦.

فسواء كان القيام بمعنى القوام وما به حياة المسلمين، أو كان بمعنى ضد القعود، فالآية تتضمن نكتة مهمة وهي أنّ كيان المسلمين معقود بناصية الحجّ فيه يقومون وفي ظلّه قوام حياتهم، فالآية نظير قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾^(١).

فوصف سبحانه أموال الناس بكونها قياماً لهم أي بها يقومون في الحياة، أو بها قوام حياتهم الاجتماعية، فاقتران الآيتين يعرب عن كون الحجّ ركناً في حياة المسلمين وبقاء كيانهم. ويشير أيضاً إلى تلك الجوانب قوله سبحانه: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾^(٢) فكانت الغاية من دعوة كل راجل وراكب إلى الاجتماع في أيام الحجّ خصوصاً في المواقف والمشاهد، حيازة المنافع الكبيرة التي يحتوى عليها الحجّ. فما جاء في الآية تعبير جامع يتضمن كلّ نفع يرجع إلى المسلمين في ذلك الملتقى، ولا يصحّ لنا تخصيصه بالنفع المعنوي بإخراج النفع المادي، أو تخصيصه بنفع دون نفع، ففي ذلك الوفود إلى الله سبحانه منافع كثيرة يصطادها المسلمون حسب قابلياتهم وصلحياتهم.

هذا ما لخصناه للقارئ الكريم من الذكر الحكيم، وأمّا السنّة الشريفة فيكفي في ذلك أنّ النبي ﷺ أمر الإمام عليّاً عليه السلام بأن يتلو آيات البراءة في يوم الحجّ الأكبر. قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْنَا الْكِتَابَ وَالْحُجُوجَ إِلَى اللَّهِ رِجَالًا لِلَّهِ الْحُقُوفُ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾^(٣) وهل يشك ذو مسكة في أنّ البراءة ورفع الأمان عن المشركين وإمهالهم أربعة أشهر عمل سياسي قام به قائد الإسلام أيام رسالته وازدهار دعوته، حتى يكون ذلك قوّة للمسلمين في الأجيال اللاحقة؟

هذا هو الإمام الطاهر الحسين بن علي عليه السلام أطاح بطاغية عصره ففضحه

بعرض جناياته وأعماله المخزية على الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان في موسم الحج في أرض منى، وقد اجتمع تحت منبره قرابة ثمانمائة منهم، وأبان في خطابه موقف أهل البيت من الإسلام، ثم ذكر مظالم الجهاز الأموي الحاكم، وطلب من الجميع أن يحملوا خطابه وهتافه إلى إخوانهم وأوطانهم حتى يقفوا على فداحة الكارثة التي ألمت بهم من جراء تسلّم بني أمية لمنصة الحكم، وقد جاءت خطبته في كتب السير والتاريخ، فمن أراد فليرجع إليها.

وبعد ذلك إنّ في سيرة المسلمين لدليلاً واضحاً على أنّ الحجّ ملتقى سياسي وراء كونه عملاً عبادياً، فإنّ الاصلاحات الجذرية التي قام بها المفكرون المسلمون قد انعقدت نطفها في الأراضي المقدسة وفي موسم الحجّ، فحملوا الفكرة التي تبوّها في جواربيت الله الحرام وفي ذلك المحتشد العظيم، ثم غدّوها بفكرتهم وتجاربهم إلى أن أتاحت لهم الفرص لبناء مجتمع طاهر أو حكومة عادلة أو ثورة عارمة في وجه الطغاة والظالمين، وبذلك يتضح أنّ الحجّ الإبراهيمي ليس مجرد طقوس وسنن يقوم بها الفرد أو الجمع في أيام معلومات، بل فيه آية العبادة وشارة السياسة وفيه منافع للمسلمين في عاجلهم وآجلهم، فيجب على المسلمين احياء هذه السنة الكريمة الحجّ الحقيقي الذي وضع حجره الأساس إبراهيم الخليل عليه السلام. كلّ ذلك بفضل الحجّ وببركة ذلك المحتشد العظيم. هذا ما سمح به الوقت، غير أنّ للبحث صلة ربما نستوفيه في فرصة أخرى.

جعفر السبحاني

مكة المكرمة - الخامس من شهر ذي الحجة

من شهور عام ١٤١١ هـ

المقالة الخامسة

بين الحقائق والأوهام

اتَّفَق المسلمون قاطبة - إلا من شذَّ منهم - على أنه يظهر في برهنة من الزمن قائد يقوم باصلاح المجتمع الإنساني قاطبة، وينشر راية العدل في رُبوع الأرض بعد ما مُلئت بالجهل والطغيان.

وهذا القائد المثالي العظيم من سلالة النبي ﷺ وقد جاء نبؤه وثورته العارمة على الفساد في الكتب السماوية، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١).

ومن حسن الخطَّ أنَّ زبور داود عليه السلام الموجود في العهد العتيق يحتوي على مضمون هذه الآية بصراحة.^(٢)

هذا ما اتَّفَق عليه المسلمون وأهل الكتاب جميعاً، غير أنَّ هنا نكتة لا محيص من إلفات نظر القارئ إليها.

إنَّ الإمام وإن كان يظهر ويحابه الفساد بمنطق الشدة والعنف، ولكن هذا المنطق ليس العماد الوحيد لثورته وسلطته، بل هناك عماد آخر وهو بلوغ الإنسان

١. الأنبياء: ١٠٥.

٢. مزامير: المزمور السابع والثلاثون، الاصحاح ٢٢: «لأنَّ المباركين منه يرثون الأرض، والملعونين منه يقطعون».

عبر القرون إلى ذروة الكمال من حيث الصناعات والعلوم وتقدمه في معترك العلوم والفنون والثقافة على حدٍّ يؤمن إيماناً كاملاً بأن الظروف الحاضرة لا تستطيع أن تلبي حاجاته، وتُعطي له حياة طيبة وإن المنظمات البشرية مع دويها وعناوينها الفخمة، لا تُسعدُه أو تُنقذه من محنته ومشكلته. ولأجل ذلك ظلّ يتربص بصيصاً من الأمل حتى تُمدّه عناية غيبية في إصلاح المجتمع وإسعاده.

ولأجل هذا الأمل والفتح العقلي لقبول الدعوة الغيبية، إذا ظهر القائد، الذي وعد الله به الأمم لباه كثير من الناس بالإيمان والبيعة، والتضحية والفداء بلا شك وتردد ويستقبلونه بصدور رحبية.

إنّ هذا التهيؤ النابع من صميم الإنسان، هو الذي يُسهّل لقائد الإصلاح أن يصل إلى الغاية التي أمر بتحقيقها بسرعة، وإلى ذلك العامل المؤثر يشير الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام : إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد، فجمع به عقولهم وكملت به أحلامهم.^(١)

إنّ الشيعة قاطبة وكثيراً من أهل السنّة يرون أنّ ذلك القائد هو الإمام الثاني عشر ومن ذرية الحسين عليه الصلاة والسلام ونجل الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام وقد ولد عام ٢٥٥ هـ، وظلّ في أحضان والده خمس سنين حتى تُوفي الإمام العسكري عليه السلام فنعلقت مشيئة الله تعالى بغيبته عن أعين الناس لا عن بيتاتهم، بل يحى حياة إنسانية كاملة من غير أن يعرفونه إلى أن يأذن له الله تبارك وتعالى بالظهور.

والناظر في حياة الأمم يقف على أنّ ليس ذلك بأمر بديع، فقد كانت بين الأمم غيبة للأنبياء والأولياء حتى أنّه سبحانه يأتي بأنموذج واضح في سورة الكهف، ويُعرّف إنساناً كان وليّاً راشداً من أوليائه يحى بين الناس، لم يكن الناس

يعرفونه حتى النبي موسى ﷺ . قال سبحانه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ .^(١)

غاب الإمام الثاني عشر على إثر وفاة أبيه وقد شاع بين الناس على أنّ المهدي المصلح نجل الإمام العسكري ﷺ وهو الذي يقوِّض عروش الجبابرة والطواغيت، فلأجل ذلك لما انتشر نبأ وفاة أبيه تقاطرت لجأُ التفتيش على بيت الإمام العسكري حتى يعثروا على الوارث الوحيد لإمامته، ولكنهم رجعوا خائبين، فقد حالت مشيئة الله تعالى بينهم وبين ما وعد الله به الأمم في كتب السابقين واللاحقين.

ما عشت أراك الدهر عجباً

إنّ هناك من ينقض ويبرم في أحاديث الإمام المهدي ﷺ وبالأخص ما يرجع إلى ميلاده وحياته وسفرائه وهو ليس في حلّ ولا مُرْتَحِلٍ ، ممّا يرجع إلى علم الحديث وأصوله وأحكامه وأقسامه. فيا ليت شعري ماذا جرى على عالم الحديث حتى أخذ الصبيان في الكتاتيب يحلون ويعقدون من دون أن يتلمذوا عند عالم أو يتفقهوا عند محقق.

إذا ما فصلت عليا قریش فلا في العير أنت ولا النفير

إلى الله المشتكى من أقلام مأجورة أو أوراق، لا تهدف إلاّ لتكدير الصفو، وتغطية الوقائع المسلّمة، وإنكار الأحداث الواضحة وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم، فتعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى.

نعم إنّ هذا النوع من الخصوم، يقدّم لنا أكبر خدمة وهي استقطاب نظر المحققين إلى الفحص عن الروايات الواردة حول المهدي بشتّى عناوينه فيخرجوا

عن الدراسة أكثر صلابة ، وأكبر رصيдаً، مرفوعي الرأس عند أصحاب التحقيق، وحماة الحقائق.

غاب الإمام الثاني عشر عن أعين الناس، ولكن لم تنقطع صلته بهم، وكان بينه وبين شيعته صلة وثيقة عن طريق سفرائه طيلة سبعين سنة (٢٦٠-٣٢٩هـ)، وكان سفراؤه هم الذين يتصلون بالإمام، ويبلغونه رسائل شيعته وحوائجهم، فيجيبهم الإمام عن طريقهم ويُرشدهم، وهؤلاء السفراء هم أكرام جيله، وأصفياء عصره، قد حمل كل واحد منهم على عاتقه رسالة هداية الناس ورفع حوائجهم، ومجابهة الدعايات الضالة. وهؤلاء عبارة عن:

١. عثمان بن سعيد العمري، وكانت سفارته ما بين ٢٦٠-٢٦٥هـ.
٢. محمد بن عثمان العمري، وكانت سفارته ما بين ٢٦٥-٣٠٥هـ.
٣. الحسين بن روح النوبختي، وكانت سفارته ما بين ٣٠٥-٣٢٦هـ.
٤. علي بن محمد السمری، وكانت ما سفارته بين ٣٢٦-٣٢٩هـ.

لقد مهدت الغيبة الصغرى الناس إلى الإيمان بالغيبة الكبرى التي انقطعت فيها الصلة بين الإمام والناس، ولولا الغيبة الأولى لكان تحمل الغيبة الثانية أمراً شديداً على المجتمع، إلا أن الله تعالى بلطفه، جعل الغيبة الصغرى طريقاً للغيبة الكبرى، وسبباً لمزيد الإيمان بها.

الإمام المهدي هو شمس الحياة الطالعة التي لا يمكن أن تستر بالأوهام والافتراءات ولا بالدعايات الفارغة ولا بالتحليلات الخاطئة. ولا تجد موضوعاً كهذا الموضوع - موضوع المهدي - تواترت فيه الروايات، وألفت فيه كتب وموسوعات منذ بدء حياته إلى يومنا هذا.

نعم تغمرني من الأحاسيس ماتراها متجلية في الأبيات التالية وهي باقة زهور عطرة نقدمها إلى القراء جادت بها قريحة بعض المخلصين المجاهرين بولاء

أئمة أهل البيت عليهم.^(١)

لئن غبت عنا هيكلًا متجسدًا
إلى أن قال:

وَأَنْتَ الَّذِي عَنِي تَصَدُّ وَتَزُورُ
فَقَدْ مَلَّنِي حَتَّى التَّجَلَّدَ وَالصَّبْرُ
طَوِيلًا - وَهَلْ إِلَّا الْهُوَى لِلْهُوَى أَجْرُ
وَلَكِنْ مِنْ يَهُوَى يَدُومُ لَهُ الْأَسْرُ
ءَالْتَاعُ بِالْأَشْوَاقِ جَهْرًا وَخَفِيَّةً
أَمَّا أَنْ أُنْ أَلْقَاكَ يَا حُبُّ سَاعَةً
أَسِيرُ غَرَامٍ لَحَجَّ فِي قَلْبِي الْهُوَى
لِكُلِّ أَسِيرٍ مَدَّةٌ ثُمَّ تَنْقُضِي

جعفر السبحاني

قم. مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

غرة ذي الحجة الحرام من شهور عام ١٤١٦ هـ

١. للعلامة المحقق والشاعر المفلح: السيد محمود البغدادي.

المقالة السادسة

دراسة علم الكلام حاجة ملحة

الحمد لله الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه. والصلاة والسلام على ذي المقام الأجل، الحائز لقصبات السبق في مضمار كل فضل، سيدنا ونبينا محمد مصباح الهدى وملاذ أهل التقى، وآله الطاهرين الذين مستقرهم خير مستقر ومنبتهم أشرف منبت، سلاماً لا بداية له ولا نهاية.

أمّا بعد:

فإن التفكير هو العامل المميز للإنسان عن سائر الحيوانات، فهو يشاركهم في الغرائز والميول، ولكن يفارقهم بأنه موجود مفكر، وفي ظل التفكير بسط نفوذه، وبلغ حدّاً حير فيها العقول، وأدهش فيه الأبواب، ولم يزل دؤوباً في تسخير ما خُلق له.

وقد حاز الفكر على عناية كبيرة في القرآن الكريم حتى نوه عليه ثماني عشرة مرة بصور مختلفة، إلى أن عاد وجعله من سمات أولي الأبواب، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ

اللَّهِ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾

كما أنه سبحانه قد أمر بالتعقل في غير واحد من الآيات الكونية وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢).

والدعوة إلى التفكير والتعقل في آياته سبحانه ليست لهدف الوقوف على النظام السائد في الكون الذي تتكفل ببيانه العلوم الطبيعية والفلكية، بل ثمة غاية قصوى هي أشرف من الأولى وهي الوقوف على باطن الكون الذي يعبر عنه سبحانه بملكوت السماوات والأرض، وهو عبارة عن جهة تعلقه بخالقه، وقيامه به قيام المعلول بالعلّة، والمعنى الحرفي بالمعنى الاسمي، وهذا النمط من التفكير يصنع من الإنسان عارفاً موحداً لا يرى شيئاً إلا ويرى الله معه و قبله وبعده، قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٣). وقال سبحانه: ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٤).

إنّهُ سبحانه جهز الإنسان بالتفكير والتعقل، وأعطى له الأدوات المطلوبة، ومن أفضلها السمع والبصر، كما أشار إليه في قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ

١. آل عمران: ١٩٠ - ١٩١.

٢. البقرة: ١٦٤.

٣. الأنعام: ٧٥.

٤. الأعراف: ١٨٥.

بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾.

والمراد من الشكر في ذيل الآية هو صرف النعمة في مواضعها، فشكر السمع والبصر هو إدراك المسموعات والمبصرات بهما، وشكر الفؤاد هو إدراك المعقولات وغير المشهودات به، فالآية كما تحرّض على إعمال السمع والبصر في درك ظواهر الكون، تحرّض أيضاً على استعمال الفؤاد والقلب والعقل فيما هو خارج عن إطار الحس وغير واقع تحت متناول أدواته، فمن أراد قصر التعليم والتفكير على ظواهر الكون وحرمان الإنسان عن التفكير خارج نطاق الحس فقد خالف القرآن الكريم.

كما وإنّ من اقتصر على المعرفة الحسية هو أشبه بالطفل الذي لا يتمكن من التحليق في سماء المعرفة، بل يقتصر بها حوله من الأشباه والصور، كما أنّ من اقتصر على المعرفة العقلية فقد أفرط، وربّما حُرِمَ من بعض المعارف التي يكون الحس وسيلة إليها فالإنسان يستخدم الحس والعقل ويخلّق بكلا جناحيه في سماء العلم والعرافان، فالقرآن الكريم يُعطي للحس منزلة ومكانة، كما ينمي القابليات الفكرية في الإنسان عن طريق طرح قضايا حسية ملموسة وعقلية.

قال سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ تَخْلُقُونَهُ * أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * ... أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ *

ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿١﴾.

انظر إلى هذا البيان الرفيع والكلام الرصين كيف يطرح أسلوب التفكير الصحيح؟ وفي نفس الدعوة إلى ظواهر الكون والنظام السائد فيه، دعوة أخرى للارتقاء إلى معرفة عقلية بحتة، وهو أن للنظام صلة بخالق عالم قادر في وضع الكون على أحسن نظام.

يذكر فيها أمر الخلق، والزرع، والماء، والنار، ويذكر دور الإنسان فيها، فأمره في الأول لا يزيد على أن يُودع الرجل ما يمني في رحم امرأته، ثم ينقطع عمله وعملها، فالعقل يحكم بأن هناك قدرة غيبية تأخذ بزمام الأمور، تعمل في هذا الماء المهيّن، في تنميته وبناء هيكله، ونفخ الروح فيه.

وأمره في الثاني لا يزيد على الحرث وإلقاء الحب والبذر، الذي هو صنعه سبحانه، ثم ينتهي دوره، فلا يحيص عن وجود قدرة تنميه تحت التراب، وتجعله سنبلًا أو سنابل فيها حبٌّ كثير.

وأما الماء فليس للإنسان فيه أيّ دور، لكنّه أصل الحياة وعنصرها، لا تقوم إلّا به، فمن الذي خلقه وأنزله من المزن، وأسكنه في الأرض؟ ومثله النار فليس له فيها شأن سوى أنه يوقدها، ولكن من الذي خلق وقودها، وأنشأ شجرتها التي توقد؟

إنّ الذكر الحكيم عرض هذه الأمور لغاية الاهتداء بها إلى الحقيقة التي تنتهي إليها هذه الحقائق، والتي تمسك بزمام هذه الظواهر الكونية، ولأجل ذلك ختم الآيات بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

القرآن هو المنطلق لتنمية الفكر الإنساني

ما مرَّ من الآيات يُعرب عن أنَّ القرآن هو المنطلق الأوَّل لتنمية الفكر الإنساني، وتحتَّ الإنسان إلى التعقل والتفكير، فمن أراد أن يخلص لله في العبودية بلا تحليق العقل في سماء المعرفة فقد تغافل عن هذه الآيات ونظائرها التي تأخذ بيد العقل من حضيضه وتقوده إلى أوج المعرفة، قال سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿^(١) فلو فسرنا (الشيء) في الآية بالسبب والعلَّة فالجزء الأوَّل من الآية يشير إلى برهان الإمكان الذي يقوم على لزوم سبب موجب لخروج الشيء من العدم إلى الوجود، والجزء الثاني منها يشير إلى بطلان كونهم خالقي أنفسهم، الذي يستقل العقل ببطلانه قبل أن يستقل ببطلان الدور اللازم عليه.

ومن سبر هذه الآيات وتدبَّر فيها يقف على عظمة قوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ^(٢).

أئمة أهل البيت رواد الفكر

إنَّ أئمة أهل البيت عليهم السلام - تبعاً للذكر الحكيم - فتحوا أمام الأئمة باب التفكير الصحيح في المعارف الإلهية والمسائل العقلية، وأوَّل من ولج ذلك النهج هو الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام رائد الفكر، فأنه صلوات الله عليه يذكر في خطبه ورسائله وكلماته القصار كثيراً ممَّا يرجع إلى أسماؤه وصفاته، والعوالم الغيبية مقروناً بالبرهان والدليل، وكفاك في هذا الباب ما ذكره في كيفية وصفه سبحانه التي شغلت بال التابعين والمتكلمين على مر العصور، يقول سلام الله عليه:

«أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيد، وكمال توحيد الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: فيم، فقد ضمنه، ومن قال: علام، فقد أخلّى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده...»^(١).

فهو ﷺ في كلامه هذا يبيّن لنا كيفية وصفه سبحانه وتعالى بالعلم والقدرة أولاً، كما يبيّن لنا مكانة الممكنات بالنسبة إليه سبحانه ثانياً، ثم يبيّن معنى كونه فاعلاً وخالقاً إلى غير ذلك من النكات البديعة في كلامه.

وقد تبعه الأئمة المعصومون فسلكوا سبيله في تبين المعارف والعقائد، وإقامة البراهين الصحيحة المأخوذة من الكتاب والسنة أو العقل السليم، وكفى في ذلك ما ألفه شيخنا الصدوق في كتابه «التوحيد» فإنه نسخة عقلية، أو رشح من فيض، جمعه ذلك المحدث في القرن الرابع.

ويكفيك في الوقوف على بُعد المنهجين (منهج الإمام علي عليه السلام والأئمة المعصومين، ومنهج أهل الحديث) مقارنة هذا الكتاب بكتاب التوحيد لابن خزيمة (المتوفى ٣١١هـ)^(٢) الذي ألفه قريباً من عصر الصدوق في توحيد

١. نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

٢. هو محمد بن إسحاق بن خزيمة بن مغيرة بن صالح النيسابوري مؤلف كتاب التوحيد والصفات وفقه الحديث، توفي عام ٣١١هـ عن عمر ناهز ٨٨ عاماً.

الصحابة والتابعين، وأسماهم «التوحيد والصفات» فتجد أن الكاتبين سلكا مسلكين مختلفين أحدهما يعتمد على الكتاب والسنة الصحيحة، والعقل الصريح، وتحليل العقائد والمعارف تحليلاً عقلياً رائعاً، معتمداً على الفكر، وأما الآخر فهو يعجّ بروايات أكثرها ترجع إلى مستسلمة أهل الكتاب في العصور الأولى ككعب الأبحار، ووهب بن منبه اليماني، وقيم بن أوس الداري، إلى غير هؤلاء ممن تلقوا القصص والحكايات الخرافية من أساتذتهم وبشوها بين المسلمين. وأنت إذا تفحصت ما انطوى عليه تفسير الطبري، و الدر المنثور للشيخ السيوطي، تراها عاجة بروايات منتهية إلى الصحابة و التابعين، وليس فيها شيء يرجع إلى تحليل العقائد والمعارف، وعلى ذلك درج الخلف، فصار التعطيل شعاراً لأهل الحديث ومن تبعهم.

تدوين علم الكلام حاجة ملحة

فتح المسلمون البلاد المعمورة بإيمانهم وعزيمتهم الراسخة، فاعتنق الإسلام أمم كثيرة كانت لهم حضارات عريقة وديانات مختلفة، فأدّى ذلك إلى احتكاك المسلمين بهم، وكانت نتيجته انتقال الفلسفة اليونانية والفارسية إلى العواصم الإسلامية، ونشطت من خلالها حركة الترجمة والتعريب، فترجمت كتب فلسفية كثيرة تحمل طابع الفلسفة اليونانية والرومانية والفارسية في طياتها، وهذه الحركة قد تركت خيراً كثيراً، حيث اطلع المسلمون من خلالها على العلوم الطبيعية والرياضية، والفلكية، وماوراء الطبيعة، وشكّل ماورثوه عن طريق الترجمة فيما بعد النواة الأولى لإرساء قواعد هذه العلوم وإكمالها، حتى تألّق نجم العلم في المشرق الإسلامي، وصار مركزاً ومحطاً يقصده رواد العلم والمعرفة من كلّ حذب وصوب. إلا أن تلك الحركة قد تركت آثاراً سلبية حيث بذرت شهباً كثيرة في حقل

العقائد والأحكام بين المسلمين، خصوصاً غير المتدرّعين منهم بسلاح العلم والبرهان، فاشتدّ حمى الجدل بين المسلمين وروّاد الأفكار الدخيلة.

كما أنّه كان لوجود الأسرى أثرٌ فعّالٌ في طلي الشبه وسوقها في بوتقة البرهان ردّاً على العقائد الإسلامية، نظراء ابن أبي العوجاء وحماد بن عجرّد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن أبياس، وعبد الله بن المقفع، الذين كان لهم نشاطٌ ملموسٌ في زعزعة عقائد العامة.

وكان لظاهرة الترجمة، وانتشار الشبه بين المسلمين، تأثيرٌ مهمٌ في شحذ همم المفكرين من المسلمين بغية الوقوف أمامها، وبذلك نشأ علم الكلام ودونت رسائل في الذّب عن العقيدة والتدرّع بنفس السلاح الذي تدرّع به المخالف، فلم يمض القرن الأول إلّا وتجدد حلقات شكلت لهذا العلم طرحت فيها المسائل الكلامية على طاولة البحث لتفنيد حجج المخالفين وإبطالها.

نعم قام بعض السدّج من أهل الحديث بتحريم علم الكلام، والوقوف أمامه، ودعوا إلى نبذه، يزعم أنّهم بذلك يقدمون أفضل خدمة للإسلام وعقيدته، غافلين عن أنّ سلب هذا السلاح من يد المفكرين من المسلمين يوجب استيلاء الإلحاد على الربوع الإسلامية.

كلّ هذا وذاك دعا المفكرين إلى تأسيس علم الكلام، وقد استلهموا في ذلك من الكتاب العزيز، وخطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومدرسة الأئمة من بعده التي تركت بصمات واضحة على زعزعة الحركة الإلحادية، وجعل الشبه والردود في مدحرة البطلان، ولذلك كان تدوين علم الكلام حاجة ملحة لا ترفيحية، وقد أخذ علم الكلام على عاتقه الذّب عن حياض العقيدة الإسلامية، باستعراض البراهين العقلية تارة، وبإعمال أساليب الجدل والمناظرة تارة أخرى، وقد بلغ هذا العلم ذروته وظهرت مناهج كلامية مختلفة تنتهي جذورها إلى ما ورثوه من الكتاب، وخطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

دعاة التفكير في المعارف

كان لأهل الحديث صيت واسع في أرجاء العالم الإسلامي، وكانت الأكثرية تبعاً لهم، وقد وُجد في صفوف المسلمين من نادى بالتفكير وإقامة البرهنة على المعارف وتحليلها على ضوء الدليل العقلي، كل ذلك استلهاماً من الذكر الحكيم وخطب الإمام أمير المؤمنين وما أثر من أهل بيته المعصومين.

قال ابن أبي الحديد^(١): إنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهي، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف المعلومات، ومن كلامه عليه السلام اقتبس عنه نقل، وإليه انتهى.^(٢)

وما ذكره ابن أبي الحديد هو الذي يدعمه تاريخ علم الكلام، فإنّ المناهج المعروفة في علم الكلام لا تتجاوز عن أربعة وهي:

الأول: الإمامية.

الثاني: المعتزلة.

الثالث: الأشاعرة.

الرابع: الماتريدية.

وهذه المدارس الكلامية على الاختلاف السائد بينها تنتهي جذورها إلى الإمام علي عليه السلام.

أما الإمامية فهم شيعة علي عليه السلام في عامة المجالات، وأما المعتزلة فمؤسسها واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١ هـ) وعمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٣ هـ) وقد أخذ واصل

١. هو عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني، توفي عام ٦٥٥ هـ.

٢. شرح نهج البلاغة: ١/ ١٧.

وعمره عن أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأخذ أبو هاشم عن أبيه محمد بن الحنفية، وأخذ محمد عن أبيه علي بن أبي طالب.^(١)

وأما المنهج الأشعري فمؤسسه هو الإمام أبو الحسن الأشعري (٢٦٠-٣٣٠هـ) فقد اتفقت كلمتهم على أنه خريج مدرسة أبي علي الجبائي (٢٣٥-٣٣٠هـ) وإمام المعتزلة، وإن عدل عن ذلك المنهج وأسس منهجاً معتدلاً بين أهل الحديث والإعتزال، ولكنه تبخر في إقامة البرهان والاستدلال على المعارف في منهج الاعتزال، فهو عيال على المعتزلة.

وأما الماتريدية فمشيد أركانها هو الإمام محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي (٢٦٠-٣٣٣هـ) وقد عاصر الماتريدي الإمام الأشعري و كانا يعملان على صعيد واحد، وكل يكافح الاعتزال، ويدعو إلى منهج متوسط بين المنهجين، ولكن المنهج الماتريدي أقرب إلى الاعتزال من المنهج الأشعري، والمنهج الذي اختاره الماتريدي وأوضح براهينه، هو المنهج الموروث عن أبي حنيفة (٨٠-١٥٠هـ) في العقائد والكلام والفقه ومبادئه، والتاريخ يحدّثنا أن أبا حنيفة كان صاحب حلقة في الكلام قبل تفرغه لعلم الفقه، وقبل اتصاله بحماد بن أبي سليمان، الذي أخذ عنه الفقه.

هؤلاء هم دعاة التفكير في المعارف على اختلاف وجهات نظرهم.

المعتلة خصوم العقل

ارتحل النبي ﷺ إلى دار البقاء، وترك شريعة بيضاء، وكتاباً هو خزانة المعارف، وأمر الأمة بالتدبر والتفكير فيه دون فرق بين ما يرجع إلى آيات الأحكام، أو قصص الأقسام، والأنبياء، أو المعارف والعقليات، فقال سبحانه: ﴿كِتَابٌ

أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾

ومع هذه الدعوة المؤكدة التي نادى بها القرآن ظهرت فرقة في العصور الأولى صارت سمتهم وشعارهم إعدام العقل وتعطيله عن التفكير فيما وراء الحس، مما يرجع إلى أسماؤه سبحانه وصفاته وغير ذلك، وقالوا معتذرين في تعطيل العقل «إنّ ما أُعطينا من العقل لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية، فمن شغل ما أُعطي لإقامة العبودية بإدراك الربوبية فاتته العبودية ولم يدرك الربوبية». (٢)

وكأنّ العبودية عند القائل هي القيام والقعود والإمساك، التي هي من واجبات الأعضاء، وغاب عنه أنّ العبودية تقوم على ركنين، ركن منه يرجع إلى الأعضاء والجوارح، وركن آخر إلى العقل واللب، فتعطيل العقل عن معرفة المعبود بالمقدار الميسور تعطيل للعبودية.

فالاقتصار في معرفة الربّ بالعبودية الظاهرية من القيام والقعود من دون التعرّف على ما للمعبود من جمال وجلال، يؤدي إلى كون عبودية الإنسان أدون من عبودية الجهاد، إذ الجهاد ربّما يستشعر عظمة الخالق، حسب مقدّراته، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٣).

والعجب أنّ هذا النمط من الجمود قد عاد إلى الساحة الفكرية باسم السلفية، وأخذ لنفسه طابعاً جديداً، وصار الجهل بالمعارف وإعدام العقل عن التفكير مفخرة نادى بها أصحابها، وبذلك انقادوا لما في الصحاح والمسانيد، من

١. ص: ٢٩.

٢. علاقة الإثبات والتفويض: ٣٣.

٣. البقرة: ٧٤.

التشبيه، والتجسيم، وإثبات الجهة بلا اكتراث.

قال ابن تيمية - مثير الدعوة السلفية بعد اندراسها - : إنّ الله يدين مختصتين به ذاتيتين له كما يليق بجماله، وإنّ سبحانه خلق آدم بيده دون الملائكة، وإبليس، وإنّ سبحانه يقبض الأرض ويطوي السماء بيده اليمنى. ^(١)

وهذه العبارة ونظائرها التي طفحت بها كتب السلفية ترمي إلى أحد أمرين إمّا التجسيم والتشبيه، أو تعطيل العقول عن معرفة الكتاب العزيز.

فإنّ اليد والوجه والرجل موضوعات في اللّغة العربية للأعضاء خاصة، فلو أريد المعنى الحقيقي يلزم منه التشبيه، وإن أريد المعنى الكناي فلهذا هو التأويل عندهم، وهم يفرون منه فلم يبق هناك معنى ثالث حتى يتبعه السلفية.

وقد بلغ بهم التزمّت بمكان حدا بهم أن لا يقيموا للبحوث العقلية وزناً.

يقول ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة، عن طريق الأهوازي: قرأت عن علي القومسي، عن الحسن الأهوازي، قال: سمعت أبا عبد الله الحمراي يقول: لما دخل الأشعري بغداد جاء إلى البرهاري فجعل يقول: رددت على الجبائي وعلى أبي هاشم ونقضت عليهم وعلى اليهود والنصارى والمجوس وقلت وقالوا، وأكثر الكلام، فلمّا سكّت، قال البرهاري: وما أدري ممّا قلت لا قليلاً ولا كثيراً، ولا نعرف إلّا ما قاله أبو عبد الله أحمد بن حنبل، فخرج من عنده وصنّف كتاب «الإبانة» فلم يقبله منه. ^(٢)

١. مجموعة الفتاوى: ٦/ ٣٦٢.

٢. ابن عساكر الدمشقي: تبين كذب المفترى: ٣٩١، قسم التعليق.

علم الكلام في القرن الخامس

بلغ علم الكلام ذروته في الكمال، وظهر في المنهج الأشعري لفيف من الأعلام منهم:

١. القاضي أبو بكر الباقلاني (المتوفى ٤٠٣هـ) مؤلف كتاب «التمهيد» في الرد على الملاحدة، وهو كتاب كلامي يعرف منه آراؤه الكلامية في مختلف الأبواب.
٢. أبو منصور عبد القاهر البغدادي (المتوفى ٤٢٩هـ) مؤلف كتاب «الفرق بين الفرق» في الملل والنحل و«أصول الدين» طبع غير مرة.
٣. إمام الحرمين الجويني (المتوفى ٤٧٨هـ) مؤلف كتاب «الإرشاد» في أصول الدين، وقد طبع غير مرة.

كما ظهر في المنهج المعتزلي رواد فطاحل منهم:

١. قاضي القضاة عبد الجبار المعتزلي (المتوفى ٤١٥هـ) مؤلف كتاب «المغني» في عشرين جزءاً، وهو أبسط كتاب كلامي ألف في هذا المضمار.
٢. أبو الحسين البصري (المتوفى ٤٣٦هـ) مؤلف كتاب «شرح الأصول الخمسة» التي بني الإسلام عليها.

كما برع في المنهج الإمامي نوابغ الكلام، منهم:

١. شيخ الأمة شيخنا المفيد (٣٣٦-٤١٣هـ) يعرفه ابن النديم: أبو عبد الله، في عصرنا انتهت رئاسة متكلمي الشيعة إليه، مقدّم في صناعة الكلام على مذهب أصحابه، دقيق الفطنة، ماضي الخاطرة، شاهدته فرأيت به بارعاً.^(١) وله كتب كثيرة في علم الكلام مذكورة في فهرس كتبه.^(٢)

١. فهرست ابن النديم: ٢٦٦.

٢. النجاشي، الرجال: ١٠٤/٢ برقم ٧٠٦.

٢. علي بن الحسين الشريف المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) تلميذ الشيخ المفيد.

عرّفه تلميذه النجاشي بقوله: حاز من العلوم ما لم يدانه فيه أحد في زمانه، وسمع من الحديث فأكثر، وكان متكلماً شاعراً أديباً، عظيم المنزلة في العلم والدين والدنيا، ومن كتبه الكلامية: «الشافى» في نقض المغني للقاضي عبد الجبار في قسم الإمامة، وكتاب «تنزيه الأنبياء والأئمة» و«الذخيرة» في علم الكلام، وغيرها من الرسائل^(١) وشرح جمل العلم والعمل.

٣. أبو الصلاح التقي بن الحلبي (٣٧٤-٤٤٧هـ) مؤلف «تقريب المعارف» في الكلام، مطبوع.

٤. وأخيرهم لا آخرهم محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ).

يعرّفه زميله النجاشي بقوله: جليل من أصحابنا، ثقة، عين، من تلاميذ شيخنا أبي عبد الله.

ويعرّفه العلامة بقوله: شيخ الإمامية ورئيس الطائفة، جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة، عين، صدوق، عارف بالأخبار والرجال والفقه والأصول والكلام والأدب، وجميع الفضائل تنتسب إليه، وله في الكلام كتب كثيرة منها: الجمل والعقود، تلخيص الشافى في الإمامة، ومقدمة في المدخل إلى علم الكلام^(٢)، والاقتصاد، والرسائل العشر.

١. النجاشي: الرجال، برقم ٧٠٦.

٢. النجاشي: الرجال، برقم ١٠٦٩، والخلاصة: ١٤٨.

علم الكلام في القرن السادس

ما أن أطل القرن السادس إلّا وقد أفل نجم المعتزلة، حيث وضع فيهم السيف، من قبل الخلافة العباسية فلا نجد لهم أثراً وذكرًا إلّا أن الزمخشري مؤلف الكشف قد أورد آراءهم في تفسيره، وكان غياب المعتزلة عن المسرح الفكري خسارة جسيمة للمنهج العقلي، وقد بلغ التعصّب بمكان حتى أن أحرقت كتبهم، وقتل أعلامهم وشرّدوا، والحديث ذو شجون.^(١)

وأما المنهج الأشعري فقد نبغ فيه أعلام في الكلام، منهم:

١. حجة الإسلام الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ) ومن كتبه «قواعد العقائد» فقد اقتفى أثر إمامه الأشعري، ويلتقي معه في كثير من الآراء والمباني، وقد أوضحنا حال الكتاب والمؤلف في كتابنا «بحوث في الملل والنحل».^(٢)

٢. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٤٣٧-٥٤٨هـ) مؤلف كتاب «الملل والنحل» و«نهاية الإقدام» في علم الكلام، إلى غير ذلك من الكتب. كما واحتفل المنهج الإمامي في القرن السادس في حقل الكلام بمتكلمين بارعين، بلغوا القمة في تحقيق الأصول الكلامية، وقد عجنوا ما ورثوه عن مشايخهم وأسلافهم في القرون السالفة، وما جادت به قريحتهم العلمية، ونذكر المشاهير منهم:

١. قطب الدين المقرئ النيسابوري من مشايخ السيد ضياء الدين أبي الرضا فضل الله الراوندي (المتوفى حدود ٥٤٧) مؤلف كتاب الحدود (المعجم الموضوعي للمصطلحات الكلامية وغيره) وقد طبع.

٢. الفضل بن الحسن الطبرسي، مؤلف مجمع البيان (المتوفى ٥٤٨هـ) وله في تفسيره بحوث كلامية مهمة.

١. لاحظ الجزء الثاني من كتابنا «بحوث في الملل والنحل».

٢. بحوث في الملل والنحل: ٢/ ٣٢٥-٣٣٩.

٣. الحسين بن علي بن محمد بن أحمد المعروف بـ «أبي الفتوح الرازي» (المتوفى ٥٥٢هـ) وكتابه مشحون بالبحوث الكلامية.
٤. محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (المتوفى ٥٥٨هـ) وقد ذكر فهرس كتبه المختلفة في معالم العلماء.
٥. قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي (المتوفى ٥٧٣هـ) مؤلف كتاب تهافت الفلاسفة، وجواهر الكلام في شرح مقدمة الكلام.
٦. سديد الدين الشيخ محمود الحمصي المتوفى في أواخر القرن السادس، مؤلف «المنقذ من التقليد» مطبوع.
٧. أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي صاحب «الاحتجاج» توفي في أواسط القرن السادس.
٨. مؤلفنا الجليل السيد حمزة بن علي بن زهرة الحلبي (٥١١ - ٥٨٥هـ). ومن أشهر كتبه غنية النزوع إلى علمي الأصول والفروع. يقع المؤلف في جزئين أحدهما في علم الكلام، والآخر في علم الأصول، فكان مشتملاً على علوم ثلاثة، والناظر في الكتاب يلمس أنّ المؤلف يتمتع بموهبة كبيرة في التفكير الكلامي، والأصولي، فله هناك آراء وأفكار وعلى صعيد آخر فقد استفاد من كتب «شرح جمل العلم والعمل» للسيد المرتضى و«تقريب المعارف» لأبي الصلاح الحلبي و«الاقتصاد» و«الرسائل العشر» لشيخ الطائفة الطوسي، ومن كتب المعتزلة «شرح الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار، وأضاف إليها ما جادت به قريحته، وذهنه الوقاد، فرحم الله مؤلفنا الجليل حيث استوعب البحث في العلوم الثلاثة، وأتى بكتاب بديع قل نظيره.

جعفر السبحاني

قم المقدسة

المقالة السابعة

واقع التشريع الإسلامي

معالمه وملامحه^(١)

التشريع أحد أركان الحضارة فلا تجد مجتمعاً حضارياً إلا وعنده قوة التشريع والتقنين وهذا ممّا لا كلام فيه. وإنّما الكلام في الأصل الذي يعتمد عليه التشريع ويستمد منه. فهناك منهجان:

منهج يعتمد في التحليل والتحريم على رأي الأكثرية فما صوبته الأكثرية يُصبح قانوناً محترماً لدى الكل ومالم تصوّبه الأكثرية يكون مرفوضاً. ومنهج يعتمد في التشريع على الواقعيات والمصالح والمفاسد فما كان واقعياً وصالحاً للبشرية فهو القانون السائد، وما لم يكن كذلك لا يعتبر أبداً. والإسلام في تشريعه يتبع المنهج الثاني، لأنّ التشريع بيد الله سبحانه وتعالى وحده، فلا حاجة إذاً إلى رعاية التصويت والتصويب، وتتجلى واقعية التشريع الإسلامي في ملامحه ومعامله.

فالتشريع الإسلامي يتميز بملامح بينها هي ملامح ثبوتية ترجع إلى مادة التشريع وروحه، وبينها هي ملامح إثباتية ترجع إلى دلالة التشريع.

١. أُلقيت في المؤتمر العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية المنعقد في طهران عام ١٤١٩ هـ.

فما يرجع إلى القسم الأول يتلخص في أمور ستة:

١ . الفطرة الإنسانية هي المقياس في التقنين .

٢ . التشريع حسب المصالح و المفاسد الواقعية .

٣ . النظر إلى المادة والروح على حدّ سواء .

٤ . النظر إلى الحقائق دون الظواهر .

٥ . المرونة في التشريع .

٦ . العدالة في التقنين .

فلنأخذ كلّ منها بالبحث واحداً تلو الآخر ثمّ نرجع إلى بيان ملامح

التشريع الإسلامي في مقام الدلالة والإثبات .

أما الملامح الثبوتية فهي عبارة:

١ . الفطرة هي المقياس

إنّ للإنسان مع قطع النظر عن الظروف الموضوعية المحيطة به شخصية تكوينية ثابتة لا تنفك عنه عبر الزمان، فالغرائز السّفلية والعلوية هي التي تكون شخصيته ولا تنفك عنه مادام الإنسان إنساناً، فجعل الإسلام الفطرة معياراً للتشريع، فكّل عمل يتجاوب وينساق مع الفطرة فقد أحلّه، وما هو على موضع الضدّ منها فقد حرّمه .

فقد ندب إلى الروابط العائلية وتنسيق الروابط الاجتماعية، كرابطة الولد بوالديه، والأخ بأخيه، والإنسان المؤمن بمثله، كما قد حذر عمّا ينافي خلقه وإدراكه العقلي، كتحرّمه الخمر والميسر والسفاح، لما فيها من إفساد للعقل الفطري والنسل والحُرث .

فالأحكام الثابتة في التشريع القرآني تشريع وفق الفطرة .

٢. التشريع حسب المصالح

نعم ثمة ميزة أخرى للتشريع القرآني، وهو أنه مبني على المصالح والمفاسد الواقعية. فلا واجب إلا لمصلحة في فعله، ولا حرام إلا لمصلحة في تركه، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(١). وقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٢).

وعلى هذا الأساس فقد عقد فقهاء الشيعة باباً خاصاً باسم تراحم الأحكام في ملاكاتها حيث يقدّم الأهم على المهم، ويتوصل في تمييزهما بالقرائن المفيدة للاطمئنان.

٣. النظر إلى المادة والروح على حد سواء

ألف القرآن بتعاليمه القيمة بينهما مؤالفة تفي بحق كلّ منهما حيث يفسح للإنسان أن يأخذ قسطه من كلّ منهما بقدر ما يصلحه.

لقد غالت المسيحية (الغابرة) بالاهتمام بالجانب الروحي من الإنسان حتى كادت أن تجعل كلّ مظهر من مظاهر الحياة المادية خطيئة كبرى، فدعت إلى الرهبانية و التعزب، وترك ملاذ الحياة، والانعزال عن المجتمع، والعيش في الأديرة وقلل الجبال والتسامح مع المعتدين.

كما غالت اليهودية في الانكباب على المادة حتى نسيت كلّ قيمة روحية، وجعلت الحصول على المادة بأي وسيلة كانت، المقصد الأسنى، ودعت إلى القومية الغاشمة.

١. المائدة: ٩١.

٢. العنكبوت: ٤٥.

لكن الإسلام أخذ ينظر إلى واقع الإنسان بما هو كائن ذو بعدين، فبالبعد المادي لا يستغني عن المادة، وبالبعد الروحي لا يستغني عن الحياة الروحية، فأولاهما عنايته، فدعا إلى المادة والالتذاذ بها بشكل لا يؤثرها على حياته الروحية، كما دعا إلى الحياة الروحية بشكل لا يصادم فطرته وطبيعته؛ وهكذا فقد قرن بين عبادة الله وطلب الرزق وترفيه النفس، فندب إلى القيام بالليل وإقامة النوافل، وفي الوقت نفسه ندب إلى طلب المعاش وتوخي اللذة، قال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَقِيَامًا﴾ ^(١) وقال أيضاً: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ^(٢).

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرُمُّ معاشه، وساعة يُخَلِّي بين نفسه وبين لذتها». ^(٣)

٤. النظر إلى المعاني لا الظواهر

إنَّ التشريع القرآني ينظر إلى الحقائق لا إلى القشور، فلا تجد في الإسلام مظهراً خاصاً من مظاهر الحياة يكون له من القداسة ما يمنع من تغييره ويوجب حفظه إلى الأبد بشكله الخاص، فليس هناك تناقض بين تعاليمه والتقدم العلمي.

فلو كان التشريع الإسلامي مصرّاً على صورة خاصة من متطلبات الحياة لما انسجم مع الحياة، فمثلاً ينهى الإسلام عن أكل الأموال بالباطل، وعلى هذا فرّج الفقهاء حرمة بيع الدم لعدم وجود منفعة محلّلة له في تلك الأعصار الغابرة بيد أن

١. الفرقان: ٦٤.

٢. الأعراف: ٣٢.

٣. نهج البلاغة: باب الحكم، الحكمة ٣٩٠، طبعة صبحي الصالح.

تقدّم العلوم والحضارة أتاح للبشر أن يستخدم الدم في منافع محلّلة لم يكن لها نظير من قبل، فعادت المعاملة بالدم في هذه الأعصار معاملة صحيحة لا بأس بها، وليس هذا من قبيل نسخ الحكم، بل من باب تبدّل الحكم بتبدّل موضوعه كانقلاب الخمر خلاً.

فالإسلام حرّم أكل المال بالباطل، فإدام بيع الدم مصداقاً لتلك الآية كان محكوماً بالحرمة، فلما أُتيح للبشر أن يستفيد منه في علاج المرضى خرج عن كونه مصداقاً للآية، وهذا هو الذي عبّرنا عنه في عنوان البحث بأن الإسلام ينظر إلى المعاني لا إلى القشور.

٥. المرونة في التشريع

إنّ من ملامح التشريع القرآني مرونته وقابليته للانطباق على جميع الحضارات الإنسانية، وما ذلك إلّا لأنّه جاء بتشريعات خاصة لها دور التحديد والرقابة على سائر تشريعاته، وهذا التشريع أعطى للدين مرونة ومنعطفاً جديداً قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١). وقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُسَمِّيَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»^(٣).

فحدّد كلّ تشريع بعدم استلزامه الضرر والضرار، فأوجب التيمم مكان الوضوء إذا كان استعمال الماء مضرّاً، كما أوجب الإفطار على المريض والمسافر

١. الحج: ٧٨.

٢. المائدة: ٦.

٣. الوسائل: ١٢/٣٦٤ ح ٣ و ٤، الباب ١٧ من أبواب الخيار.

لغاية اليسر، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ^(١) إلى غير ذلك من الآيات والروايات التي لها دور التحديد والرقابة.

وجاء في الحديث عن الصادق بالحق أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». ^(٢)

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ هذا الدين لمتين، فأوغلوا فيه برفق، لا تكرهوا عبادة الله لعباد الله». ^(٣)

٦. العدالة في التقنين

ومن ملامح التشريع القرآني، العدالة حيث تراها متجلية في كافة شريعته، خاصة فيما يرجع إلى القانون والحقوق، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. ^(٤)

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. ^(٥)

وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. ^(٦)

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ^(٧)

وقال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. ^(٨)

٢. أحمد بن حنبل: المسند: ٢٦٦/٥.

٤. البقرة: ١٩٠.

٦. الشورى: ٤٠.

٨. البقرة: ٢٢٨.

١. البقرة: ١٨٥.

٣. الكافي: ٧٠/٢ ح ١.

٥. البقرة: ١٩٤.

٧. الأنعام: ١٦٤.

إلى غير ذلك من الآيات التي تدلّ على أنّ هيكَل التشريع الإسلامي بُني على أساس العدل والقسط.

هذه الملامح ترجع إلى سمات القانون الإسلامي ثبوتاً.

ملامح التشريع الإسلامي في مقام الإثبات

أما سماته في عالم الإثبات والدلالة فهي عبارة عن الأمور التالية:

أ. شموليته لعامة الطبقات.

ب. سعة آفاق دلالة القرآن والحديث.

ج. التدرّج في التشريع.

أ. شمولية التشريع

أخذ القرآن الإنسان محوراً لتشريع، مجرّداً عن النزعات القومية والوطنية والطائفية واللونية واللسانية، فنظر إلى الموضوع بنظرة شمولية وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

التشريع القرآني تشريع من جانب رب العالمين إلى نوع البشر، فالوطن والقوم والقبيلة لم تؤخذ بنظر الاعتبار، والكرامة للإنسان وحده، ولا فضل لإنسان على آخر إلا بالمثُل والأخلاق.

فترى أنّه يخاطب المجتمع الإنساني بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أو ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ أو ﴿يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ وما ضاهاها، فكسر جميع الحواجز والقيود التي

يعتمد عليها المفكر المادي في التقنين الوضعي، والذي يقتفي إثر اليهود في مزعمة الشعب المختار.

إن النبي ﷺ هو القائل: إن العربية ليست بأب والد، ولكنها لسان ناطق فمن قصر به عمله لم يبلغه حسبه^(١)، وفي الوقت نفسه لا يعني بكلامه هذا أن العلائق الطبيعية، كالاتماء الوطني أو القومي بغیضة لا قيمة لها، وإنما يندد باتخاذها محاور للتقنين، وسبباً للكرامة والمفخرة، أو سبباً لتحقير الآخرين، وإثارة على الدين والعقيدة، يقول سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .^(٢)

والعجب أنه قد صدر هذا من لدن إنسان أمي نشأ في بيئة تسودها خصلتان على جانب الضد من هذا النمط من التشريع، وهما:
الأمية والتعصب.

وهذا الإنسان المثالي صان بأنظمته كرامة الإنسان، ورفعته إلى الغاية القصوى من الكمال، وأخذ يخاطب ضميره الدفين، و مشاعره النبيلة، ويكلفه بها فيه صلاحه، ويقول:

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ .^(٣)

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ .^(٤)

﴿بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ .^(٥)

١ . الكافي: ٢٤٦/٨ برقم ٣٤٢.

٣ . آل عمران: ١٣٨.

٢ . المجادلة: ٢٢.

٥ . القصص: ٤٣.

٤ . إبراهيم: ٥٢.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾. ^(١)

وإذا قورن هذا النوع من التشريع الذي ينظر إلى الإنسان بنظرة شمولية وبرأفة ورحمة، دون فرق بين عنصر وآخر، بالتقنين الوضعي السائد في أعصارنا في الشرق والغرب، الناظر إلى الإنسان من منظار القومية أو الطائفية وغيرهما من النزعات المقيتة، لبان أنّ التشريع الأول تشريع سماوي لا صلة له بتلك النزعات، والآخر تشريع بشري متأثر بنظرات ضيقة تجود لإنسان وتبخل لآخر، وكفى في ذلك فرقاً بين التشريعين.

ب . سعة آفاق دلالة القرآن والحديث

إنّ من تمعن في القرآن الكريم و تدبّر في معانيه ومفاهيمه، وقف على سعة آفاق دلالاته على مقاصده، غير أنّ ثلّة من الفقهاء مروا على القرآن مروراً عابراً مع أنّه سبحانه يعرف القرآن بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. ^(٢)

وعلى ضوء ذلك لا غنى للفقهاء عن دراسة آيات الأحكام دراسة معمّقة ثاقبة، ليجد فيها الجواب على أكثر المسائل المطروحة، ولا ينظر إليها بنظرة عابرة. وقد استدل أئمة أهل البيت عليهم السلام بالقرآن على كثير من الأحكام التي غفل عنها فقهاء عصرهم، ونذكر هنا نموذجاً على ذلك:

قدّم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد أن يقيم عليه الحد، فأسلم، فقال يحيى بن أكثم: الإيوان يمحو ما قبله، وقال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود. فكتب المتوكل إلى الإمام الهادي عليه السلام يسأله، فلمّا قرأ الكتاب، كتب: «يضرب حتى يموت». فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب إليه يسأله عن العلة،

فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿^(١)﴾. فأمر به المتوكل، فضرب حتى مات. ^(٢)

تجد أن الإمام الهادي عليه السلام استنبط حكم الموضوع من آية مباركة، لا يذكرها الفقهاء في عداد آيات الأحكام، غير أن الإمام لوقوفه على سعة دلالة القرآن، استنبط حكم الموضوع من تلك الآية، وكم لها من نظير. ولو أن القارئ الكريم جمع الروايات التي استشهد بها أئمة أهل البيت على مقاصدهم استشهاداً تعليمياً لا تعبدياً لوقف على سعة آفاق القرآن.

وها نحن نذكر مثالين على سعة آفاق دلالاته:

١. إن الأصوليين تحمّلوا عبئاً ثقيلاً لإثبات كون الأمر موضوعاً للوجوب ومجازاً في النذب، فإذا ورد الأمر في الكتاب احتاجوا في استفادة الوجوب منه إلى نفي المدلول المجازي، بإجراء أصالة الحقيقة.

ولكن هذا النمط جار في المحاورات العرفية، والقرآن في غنى عنها في أغلب الموارد أو أجمعها، فإن لاستفادة الوجوب أو النذب في الأوامر الواردة في القرآن طريقاً آخر، وهو الإيعاز بالعذاب أو النار كما نجده في كثير من الواجبات مثل الصلاة و الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال سبحانه: ﴿مَّا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿^(٣)﴾ وقال سبحانه: ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآنْفَى﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿^(٤)﴾ بل كل ما أوعد على فعله أو تركه يستفاد منه الوجوب أو الحرمة.

٢. ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٤٠٣ - ٤٠٥.

١. غافر: ٨٤ - ٨٥.

٤. الليل: ١٧ - ١٨.

٣. المدثر: ٤٢ - ٤٣.

٢. اختلف الفقهاء في وجوب الكتابة في التداين بدين والاستشهاد بشاهدين الواردين في قوله سبحانه: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ... وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾. (١)

فمن قائل بالوجوب أخذاً بأصالة الحقيقة، وقائل باستحبابه مستدلاً بالإجماع، ومعتزلاً عن الأصل المذكور بكثرة استعمال صيغة الأمر في النذب، مع أنّ الرجوع إلى نفس الآية وما ورد حولها من الحكمة يعطي بوضوح أنّ الأمرين لا للوجوب ولا للنذب، بل الأمران إرشاديان لئلا يقع الاختلاف بين المتدائنين فيفسد باب النزاع والجدال. قال سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْسَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾. (٢)

ويدل على سعة دلالة أيضاً ما رواه المعلّى بن خنيس، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله عز وجل، ولكن لا تبلغه عقول الرجال». (٣)

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق لكم، أخبركم عنه أنّ فيه علم ما مضى، وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة، وحكم ما بينكم، وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون، فلو سألتهموني عنه لعلمتكم». (٤)

وقال الصادق عليه السلام: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وفصل ما بينكم، ونحن نعلمه». (٥)

والسائر في روايات أئمة أهل البيت عليه السلام يقف على أنّهم كانوا يستنبطون من الآيات نكاتاً بديعة ومعاني رفيعة عن مستوى الأفهام.

وربما يتصور الساذج أنّ هذا النوع من التفسير تفسير بالرأي وفرض على الآية، ولكن بعد الإمعان في الرواية والوقوف على كيفية استدلالهم عليه السلام يدع عن أنّ لها

دلالة خفية على ذلك المعنى الرفيع الشامخ وقد غفل عنه.

مثال ذلك ما رواه العياشي في تفسيره، عن زرقان صاحب ابن أبي دؤاد: أنَّ سارقاً أقرَّ على نفسه بالسرقة وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحد عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد أحضر محمد بن علي عليه السلام فسألنا عن القطع في أيِّ موضع يجب أن يقطع، فقال الفقهاء: من الكرّسوع، لقول الله في التيمم: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾. ^(١)

فالتفت الخليفة إلى محمد بن علي فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فأجاب: «إنّهم أخطأوا فيه السنّة، فإنّ القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، ويترك الكف» قال: لم؟

قال: «لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين؛ فإذا قطعت يده من الكرّسوع لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني به الأعضاء السبعة التي يسجد عليها: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وما كان لله لم يقطع».

فأعجب المعتصم ذلك، فأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف. ^(٢)

وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه كان إذا قطع السارق ترك الإبهام والراحة، ف قيل له: يا أمير المؤمنين تركت عليه يده؟ قال: فقال لهم: «فإن تاب فبأيّ شيء يتوضأ؟ لأنّ الله يقول: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ - إلى قوله: - ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾» ^(٣). ^(٤)

١. النساء: ٤٣.

٢ و ٤. الوسائل: ١٨، الباب ٤ من أبواب حد السرقة، الحديث ٦٥ و ٦٠.

٣. المائدة: ٣٨-٣٩.

فهذا النمط من الاستدلال يوقف القارئ على سعة دلالة الآيات القرآنية، وإن أئمة أهل البيت عليهم السلام هم السابقون في هذا المضمار، يستنبطون من القرآن ما لا تصل إليه الأفهام.

وأما عدد آيات الأحكام فقد ذكر الفاضل المقداد في تفسيره «كنز العرفان» ما هذا نصّه:

اشتهر بين القوم أنّ الآيات المبحوث عنها نحو خمسمائة آية، وذلك إنّما هو بالمتكرر والمتداخل، وإلاّ فهي لا تبلغ ذلك، فلا يظن من يقف على كتابنا هذا ويضبط عدد ما فيه، أنّا تركنا شيئاً من الآيات فيسيء الظن به ولم يعلم أنّ المعيار عند ذوي البصائر والأبصار، إنّما هو التحقيق والاعتبار لا الكثرة والاشتهار. ^(١)

ويظهر من البعض أنّ عدد آيات الأحكام ربما تبلغ ٣٣٠ آية، قال عبد الوهاب خلاف:

ففي العبادات بأنواعها نحو ١٤٠ آية.

وفي الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وإرث ووصية و حجر وغيرها نحو سبعين آية.

وفي المجموعة المدنية من بيع وإجارة ورهن وشركة وتجارة ومدانة وغيرها نحو سبعين آية.

وفي المجموعة الجنائية من عقوبات وتحقيق جنایات نحو ثلاثين آية.

وفي القضاء والشهادة وما يتعلق بها نحو عشرين آية. ^(٢)

١. جمال الدين المقداد السيوري: كنز العرفان في فقه القرآن: ٥ / ١.

٢. عبد الوهاب خلاف: خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي: ٢٨-٢٩.

ولكن بالنظر إلى ما ذكرنا من سعة آفاق دلالاته يتبين أنّ عددها ربّما يتجاوز عن الخمسمائة، إذ ربّ آية لا تمت إلى الأحكام بصلة، ولكن بالدقة والإمعان يمكن أن يستنبط منها حكم شرعي.

فمثلاً سورة المسد، أعني قوله سبحانه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ...﴾^(١)، بظاهرها ليست من آيات الأحكام، ولكن للفقهاء أن يستند إليها في استنباط بعض الأحكام الشرعية، وقد حكي عن بعض الفقهاء أنّه استنبط من سورة «المسد» قرابة عشرين حكماً فقهياً، كما استنبطوا من قوله سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ...﴾^(٢) أحكاماً شرعية.

وهذا بالنسبة إلى ما ذكرناه من سعة آفاق دلالة القرآن ليس بغريب.

ج . التدرّج في التشريع

نزل القرآن تدريجياً قرابة ثلاث وعشرين سنة لأسباب ودواع مختلفة اقتضت ذلك، وأشار إليها الذكر الحكيم في غير واحد من الآيات:

قال سبحانه: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾^(٣) أي فرقنا نزوله كي تقرأه على الناس على مهل وتريث.

كما أشار في آية أخرى إلى داع آخر، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾^(٤) فثبّيت فؤاد النبي ﷺ أحد الأسباب التي دعت إلى نزول القرآن بين الحين والآخر وفي

غضون السنين، شاحداً عزمه ﷺ للمضي في طريق الدعوة بلا مبالاة لما يتهمونه به.

والآية تعرب عن أن الكتب السماوية الأخرى كالتوراة والإنجيل والزبور نزلت جملة واحدة، فرغب الكفار في أن ينزل القرآن مثلها دفعة واحدة.

وليست الدواعي للنزول التدريجي منحصرة فيما سبق، بل أن هناك أسباباً ودواعي أخر دعت إلى نزوله نجوماً، وهي مسابقة الكتاب للحوادث التي تستدعي لنفسها حكماً شرعياً، فإن المسلمين كانوا يواجهون الأحداث المستجدة في حياتهم الفردية والاجتماعية ولم يكن لهم محيص من طرحها على النبي ﷺ بغية الظفر بأجوبتها، وقد تكرر في الذكر الحكيم قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ قرابة خمس عشرة مرة و تصدى النبي ﷺ للإجابة عنها، وتختلف تلك المواضيع بين الاستفسار عن حكم شرعي، كحكم القتال في الشهر الحرام، والخمر، والميسر، والتصرف في أموال اليتامى، والأهله، والمحيط، والأنفال، وغير ذلك؛ أو الاستفسار عن أمور كونية كالروح والجبال والساعة.

وهناك شيء آخر ربما يؤكد لزوم كون التشريع أمراً تدريجياً، وهو أن موقف النبي ﷺ تجاه أمته كموقف الطبيب من مريضه، فكما أن الطبيب يعالج المريض شيئاً فشيئاً حسب استعدادده، فكذلك الطبيب الروحي يمارس نشاطه التربوي طبقاً لقابليات الأمة الكامنة بغية الاستجابة، لئلا تثبط عزائمهم ويطفأ نشاطهم ويثقل كاهلهم.

ومع ذلك فإن كانت الظروف مهيئة لنزول تشريع أكثر تفصيلاً وأوسع تعقيداً وافاهم الوحي به، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي

حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ .

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ .

حيث تجد أن الآيتين تتكفلان تشريع عشرة أحكام تُعَدُّ من جوامع الكلم، وقد روى أمين الإسلام الطبرسي، قال: روى علي بن إبراهيم، قال: خرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه، فقال له: إنه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم، فقال عتبة: بُعدت دارنا عن داركم ولنا شغل لا نتفرغ لشيء، قال: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟! قال له عتبة: خرج فينا رجل يدعي أنه رسول الله، سقه أحلامنا، وسب آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرق جماعتنا، فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفاً، وأعظمنا بيتاً؛ وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم أبناء «النضير» و«قريظة» و«قين قاع» أن هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجرة بالمدينة لنقتلنكم به يا معشر العرب، فلما سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمعه من اليهود، قال: فأين هو؟ قال: جالس في الحجر، وأنهم لا يخرجون من شعبهم إلا في الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلمه، فإنه ساحر يسحرك بكلامه، وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب، فقال له أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لا بد لي أن أطوف بالبيت؟ فقال: ضع في أذنك القطن، فدخل أسعد المسجد وقد حشا أذنيه من القطن، فطاف بالبيت

١. الأنعام: ١٥١.

٢. الأنعام: ١٥٢.

ورسول الله ﷺ جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم، فنظر إليه نظرة، فجازاه.

فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهل مني أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أعرفه حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم، ثم أخذ القطن من أذنيه ورمى به، وقال لرسول الله: أنعم صباحاً، فرفع رسول الله رأسه إليه وقال: «قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا تحية أهل الجنة: السلام عليكم» فقال له أسعد: إن عهذك بهذا لقريب إلى مَ تدعو يا محمد؟ قال: «إلى شهادة أن لا إله إلا الله واني رسول الله، وأدعوكم:

﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

فلما سمع أسعد هذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنت رسول الله. يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين إخواننا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها الله بك فلا أجد أعز منك، ومعني رجل من قومي فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتم الله لنا أمرنا فيك، والله يا رسول الله لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك، وكانوا يبشروننا بمخرجك، ويخبرونا بصفتك، وأرجو أن تكون دارنا دار هجرتك، وعندنا مقامك، فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد لله الذي ساقني إليك، والله ما جئت إلا لنطلب الحلف على قومنا،

وقد أتانا الله بأفضل مما أتيت له. ^(١)

ومع ذلك كله فالتدرّج هو المخيّم على التشريع، خاصة فيما إذا كان الحكم الشرعي مخالفاً للحالة السائدة في المجتمع، كما في شرب الخمر الذي ولع به المجتمع الجاهلي آنذاك، فمعالجة هذه الرذيلة المتجذّرة في المجتمع رهن طيّ خطوات تهتّى الأرضية اللازمة لقبولها في المجتمع.

وقد سلك القرآن في سبيل قلع جذور تلك الرذائل مسلك التدرّج.

فتارة جعل السكر مقابلاً للرزق الحسن، وقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾. ^(٢)

فاعتبر اتّخاذ الخمر من التمور والأعنب - في مجتمع كان تعاطي الخمر فيه جزءاً أساسياً من حياته - مخالفاً للرزق الحسن، وبذلك أيقظ العقول.

وهذه الآية مهّدت وهيئت العقول و الطبائع المنحرفة لخطوة أخرى في سيرها نحو تحريم الخمر، فتلتها الآية الثانية معلنة بأن في الخمر والميسر إثماً ونفعاً، ولكن إثمها أكبر من نفعها، قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾. ^(٣)

إنّ هذا البيان وإن كان كافياً إلا أنّ جماهير الناس لا يقلعون عن عاداتهم المتجذّرة ما لم يرد نهي صريح حتى وافتهم الآية الثالثة، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. ^(٤) فالآية الكريمة جاءت بالنهي الصريح عن شرب الخمر في وقت محدّد، أي عند إرادة الصلاة بغية الوقوف على ما يتلون من القرآن والأذكار.

١. الطبرسي: إعلام الوري: ٥٥-٥٧.

٢. النحل: ٦٧.

٣. البقرة: ٢١٩.

٤. النساء: ٤٣.

فهذه الخطوات الثلاث هيئت أرضية صالحة للتحريم القاطع الذي بيته سبحانه في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (١)

وأدّل دليل على أنّ التشريع القرآني كان يتمتع بالتدرّج، تتابع الأسئلة على النبي ﷺ في فترات مختلفة بغية إجابة الوحي عنها، قال سبحانه:

١. ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾. (٢)

٢. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾. (٣)

٣. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾. (٤)

٤. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾. (٥)

٥. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾. (٦)

٦. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾. (٧)

٧. ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾. (٨)

٨. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. (٩)

وقد جاء في بعض الآيات لفظ الاستفتاء بدل السؤال: قال سبحانه:

٩. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾. (١٠)

١. المائدة: ٩٠.

٢. البقرة: ٢١٥.

٣. البقرة: ٢١٧.

٤. البقرة: ٢١٩.

٥. البقرة: ٢٢٠.

٦. البقرة: ٢٢٢.

٧. الأنفال: ١.

٨. الأنفال: ١.

٩. النساء: ١٢٧.

١٠. ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. (١)

ومما يدل أيضاً على أنّ التشريع القرآني أخذ لنفسه صورة التدرج هو أنّ الآيات المتضمنة للأحكام الشرعية منبثة في سور شتى غير مجتمعة في محل واحد، وهذا يوضح أنّ التشريع لم يكن على غرار التشريع في التوراة الذي نزل دفعة واحدة يقول سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذُّهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾. (٢)

وقال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾. (٣)

هذا بعض الكلام في ملامح التشريع الإسلامي ثبوتاً وإثباتاً قدمتها للمؤتمر العالمي الحادي عشر (ربيع الأول ١٤١٩ هـ) للوحدة الإسلامية، عسى أن يوفق أصحابنا لجمع شمل المسلمين وتقريب خطاهم.

جعفر السبحاني

قم - الجامعة الإسلامية

١. النساء: ١٧٦.

٢. الأعراف: ١٤٥.

٣. الأعراف: ١٥٤.

المقالة الثامنة

مكانة المرأة في القرآن^(١)

احتلّت المرأة مكانة مرموقة في الإسلام واستأثرت باهتمام خاص في الذكر الحكيم، وحيث إنّ الموضوع مترامي الأطراف، فلنسلط البحث في هذا المقام على الموضوعات التالية:

الأول : النظر إلى طبيعتها وتكوينها ونفسيّتها.

الثاني: النظر إلى حقوقها .

الثالث: الواجبات التي تقع على عاتقها.

كلّ ذلك على ضوء القرآن الكريم.

هذه هي العناوين الرئيسية في بحثنا هذا وربما تطرح في ثنايا الكلام أمور أخرى لمناسبة تقتضيها .

الأول: النظر إلى طبيعتها وتكوينها ونفسيّتها

بزغ نور الإسلام في عصر لم يكن لجنس الأنثى يومذاك أيّ قيمة تذكر في الجزيرة العربية ولا في سائر الحضارات السائدة آنذاك، وكانت البحوث الفلسفية

١. أُلقي المقال في جامعة «جرش» الاردن الهاشمي شهر محرم الحرام عام ١٤١٩ هـ، عند رحلة المحاضر إليها في ذلك العام.

عند الروم واليونان تدور على أَنَّ الأُنثى من جنس الحيوان أو من جنس برزخي يتوسط بين الحيوان والإنسان، وكان الرجل يتشاءم إذا أنجبت امرأته أنثى ويظل وجهه مسوداً متوارياً عن أنظار قومه وكأَنَّها وصمة عارٍ على جبينه قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَوْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١).

فلم يكن للرجل بد إلا وأد بناته وقتلن إثر الجهل بكرامة المرأة وفضيلتها ظناً منه أنه يحسن صنعاً، وهذا هو القرآن الكريم يندد بذلك العمل ويشجبه ويقول: ﴿وَإِذَا الْمَوْدُودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾^(٢).

وفي خضم تلك الأفكار الطائشة نجد القرآن الكريم يصف المرأة بأنها أحد شطري البنية الإنسانية ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾^(٣) فالأنثى مثل الذكر يشكلان أساس المجتمع دون فرق بينهما.

ومن جانب آخر يرى للأنثى خلقة مستقلة ماثلة لخلقة الذكر دون أن تُشتق الأنثى من الذكر، على خلاف ما عليه سفر التكوين في التوراة من أَنَّ الأنثى خلقت من ضلع من أضلاع آدم، يقول سبحانه شاطباً على تلك الفكرة التي تسربت إلى الكتاب الإلهي (التوراة): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾^(٤).

فالنفس الواحدة، هي آدم وزوجها حواء وإليهما ينتهي نسل المجتمع

١. النحل: ٥٨-٥٩.

٢. التكوين: ٨-٩.

٣. الحجرات: ١٢.

٤. النساء: ١.

الإنساني، ومعنى قوله: ﴿خَلَقَ مِنْهَا﴾ أي خلق من جنسها، مثل قولك: الخاتم من فضة أي من جنس الفضة فالزوجان متماثلان ولولا التماثل لما استقامت الحياة الإنسانية.

ويستنتج من هذه الآيات أنّ كلاً من الذكر والأنثى إنسان كامل وليس هناك أي نقص في إنسانية الأنثى وعلى ضوء ذلك فالتفريق بينهما من تلك الناحية لا يبتني على أساس صحيح .

لقد شملت العناية الإلهية الإنسان لما جعلته أفضل الخلائق، وسخرت له الشمس والقمر ولا تختص هذه الكرامة بالذكر فحسب بل شملت أولاد آدم قاطبة قائلاً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١).

ولأجل هذه الكرامة العامة جعل الذكر والأنثى في كفة واحدة فمن آمن منهما وعمل صالحاً فهما سيّان أمام الله تبارك وتعالى يجزيهما على حدّ سواء قال سبحانه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

ومّا يعرب عن موقف القرآن الكريم في خلقه المرأة: هو أنّه جعل حرمة نفس الأنثى كحرمة نفس الذكر وإن قتل واحد منهما يعادل قتل جميع الناس قال سبحانه: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٣).

فقتل المرأة كقتل الرجل عند الله سواء فمن قتل واحداً منهما فكأنما قتل

١. الإسراء: ٧٠.

٢. النحل: ٩٧.

٣. المائدة: ٣٢.

الناس جميعاً، أفيتصور تكريم فوق ذلك.

ومّا يعرب عن أنّ نظر الإسلام إلى الشطرين نظرة واحدة هو أنّه يتخذ النفس موضوعاً لبعض أحكامه في مجال القصاص دون أن يركز على الذكر، قال سبحانه: ﴿إِنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾^(١) حتى أنّه سبحانه يصف من لم يحكم على وفق الآية بأنّه ظالم ويقول: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

إنّ الرسول يجعل دماء المسلمين في ميزان واحد ويصف ذمة الجميع بأنّها ذمة واحدة ويقول: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»^(٢) فالمرأة والرجل يتشاركان في لزوم احترام ايجار كلّ واحد منهما فرداً من المشرّكين.

نعم مشاركة المرأة والرجل في القصاص لا يلزم مشاركتها في الدية، لأنّ المعيار في القصاص غير المعيار في الدية، فكلّ من جنّى على إنسان يُقتصّ منه باعتبار أنّ الجاني أعدم إنساناً فيعادل بإعدامه.

وأما الدية فالمعيار في تعيينها هو تحديد الخسارة والضرر المادي التي مُنيت بها الأسرة، ولا شكّ أنّ خسارة الأسرة بفقد معيلها الرجل هي أكبر من خسارتها بفقد الأنثى، فلذلك صارت دية المرأة نصف دية الرجل على الرغم من أنّ المصيبة على حد سواء، وهذا لا يعني اختلافهما في الإنسانية.

إلى هنا تبين واقع خلقته كلّ من الرجل والمرأة واتّهما متماثلان لا يتميز أحدهما عن الآخر في ذلك المجال.

وأما ما يرجع إلى الأمور النفسية والروحية عند المرأة والرجل فنقول: لا شكّ

١. المائدة: ٤٩.

٢. مسند أحمد: ٢/١٩٢.

ثمة فارق واضح وجلي بين الرجل والمرأة من هذه الزاوية وهي أنّ المرأة جياشة العاطفة ملؤها الحنان والعطف واللطافة ولها روح طريفة حساسة.

أودعت يد الخلقة ذلك فيها لتنسجم مع المسؤولية الملقاة على عاتقها، كترية الأطفال التي ترافقها مشاق ومصاعب جمة لا يتحملها الرجل عادة في حين أنّ الرجل يفقد تلك العواطف الجياشة، لأنّه خلق لوظائف أخرى تتطلب لنفسها الغلظة والخشونة لتنسجم مع المسؤوليات التي تقع على عاتقه.

فالعواطف الجياشة من جانب إذا تقارنت مع الغلظة والخشونة تصبح الحياة عندها نعمة متوازنة فتكون طرية ومبتسمة.

إلى هنا تمّ ما نروم إليه من العنوان الأول.

الثاني: النظر إلى حقوقها في القرآن الكريم

حظيت المرأة في الإسلام بحقوق واسعة، قد بحث عنها الفقهاء في كتبهم في أبواب خاصة لا يمكن لنا الإشارة إلى قليل منها فضلاً عن كثيرها، وإنّا نقبس بعضها.

نزل القرآن الكريم وكانت المرأة محرومة من أبسط حقوقها حتّى ميراثها، بل كانت كالمال تورث للآخرين، وفي هذا الجو المفعم بإهدار حقوقها قال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾^(١).

وبذلك كسر الطوق الذي أحاط بالمرأة وحال بينها وبين ميراثها في سورة خاصة باسمها - أعني سورة النساء - وهي في ميراثها تارة تعادل الذكر وأخرى تنقص عنه وثالثة تزيد عليه، حسب المصالح المذكورة في محلها.

وما اشتهر بأن ميراث المرأة ينقص عن ميراث الرجل دائماً فليس له مسحة من الحق بل تتراوح فريضتها بين التساوي والنقصان والزيادة كما هو واضح لمن لاحظ الفرائض الإسلامية، ففيما إذا كان المورث هو الأب والأم فللذكر مثل حظ الأنثيين، وفيما إذا كان المورث هو الولد فالأم والأب متساويان يقول سبحانه: ﴿لَكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾^(١).

وإذا تركت المرأة المتوفاة زوجها وابنتها، فالابنة ترث النصف والزوج الربع، فترث الأنثى ضعف ما يرثه الذكر، قال سبحانه: ﴿فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دِينَ﴾^(٢).

إلى غير ذلك من صور الفرائض التي شرحها الفقهاء.

نعم الاختلاف في الميراث تابع للملاكات خاصة يجمعها عنوان الأقربية، ومسؤولية الإنفاق، فالأقرب يمنع الأبعد، كما أن من يقع على عاتقه الإنفاق يرث أكثر من غيره.

ومن حقوقها حريتها المالية التي ما بلغ إليها الغرب إلى الأمس الدابر، قال سبحانه: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٣) فأى كلمة أظهر وأرفع من هذه الكلمة حيث أعلن عن استقلالية كل من الرجل والمرأة في حقوقها وأموالها والاستمتاع بهما.

المهر عطية من الزوج إلى الزوجة وله تأثير في إحياء شخصية المرأة وبقاء علاقة الزوجية، فإذا تزوج الرجل على مهر ليس له التنصل عن تعهده فيجب عليه

١. النساء: ١١.

٢. النساء: ١٢.

٣. النساء: ٣٠.

إعطاء ما نحل، قال سبحانه: ﴿وَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نَحْلَةً﴾^(١).

نعم لو وهبت بطيب نفسها جاز للرجل أخذه شأن كل هبة كان للواهب فيه رضا قال سبحانه: ﴿فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾^(٢).

إن القرآن يندد بزواج يضيق الخناق على زوجته ويسيء معاملتها كي تتنازل بذلك عن مهرها يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٣).

ثم يؤكد مرة أخرى بأنه لو دفع الزوج لها مالا كثيراً فليس له أخذه منها، يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾^(٤).

الثالث: الواجبات التي تقع على عاتقها

إن التعاون بين أفراد المجتمع الإنساني شرط بقائه، فلو حذفنا التعاون من قاموس المجتمع لانهار، والأسرة مجتمع صغير ولبنه أولى للمجتمع الكبير فلا تقوم حياة الأسرة إلا بالتعاون، وحقيقة التعاون عبارة عن أن يكون كل واحد له حق وعليه حق وهذا ما يعبر عنه الذكر الحكيم بكلمة بليغة جامعة لا يمكن أن يباريه فيها أحد قال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٥).

فيظهر معنى الآية من خلال النظر إلى الأسرة الإسلامية، فمسؤولية المرأة القيام بالحضانة وتربية الأطفال وليس هذا أمراً سهلاً، لا تقوم به إلا الأم التي ينبض قلبها بالعطفة والحنان.

١. النساء: ٤.

٢. النساء: ٢٠.

٣. النساء: ١٩.

٤. البقرة: ٢٢٨.

ومن زعم أنّ دور الحضانة تحل محلّ الأم في القيام بتلك الوظائف فقد أخطأ ولم يقف على المضاعفات السلبية التي تركها تلك الدور على حالات الأطفال النفسية.

وفي مقابل تلك الحقوق ثمة حقوق للرجل لابدّ له من القيام بها تحتاج إليه المرأة في حياتها الضرورية والكمالية فيشير القرآن إلى تلك المسؤولية الكبيرة على عاتق المرأة بقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمَ الرِّضَاعَةَ﴾.

كما يشير إلى المسؤولية التي تقع على عاتق الرجل بقوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١).

فكلّ من الزوجين يسعى في إقامة دعامة الأسرة، وبذلك تكون الزوجة عوناً للزوج، والزوج عوناً للزوجة، ويكون العيش بينهما رغيداً طيباً.

هذه نظرة إجمالية إلى ملامح المرأة في القرآن، وثمة بحوث ضافية لا سيما حول حرّيتها الثقافية والاجتماعية والسياسية التي طرحت في العصور المتأخرة وموقف القرآن منها نتركها إلى مجال آخر.

ولكن ثمة نقطة هامة وهي:

المساواة أو العدالة

إنّ الغرب يتبنّى موقف المساواة بين الرجل والمرأة، ويريد منها أن ينزلا إلى معترك الحياة بلا استثناء لكي يقوموا بعامّة الوظائف جنباً إلى جنب سواء أكانت منسجمة مع طبيعة كلّ منهما أو لا.

هذا هو الذي يتبناه الغرب، فالمرأة لا بدّ لها أن تشارك الرجل في ميادين الحرب والقتال والسياسية والزعامة وميادين العمل والاستثمار ولا يترك ميداناً خاصاً للمرأة أو الرجل إلّا يسوقها إليه بدعوى المساواة.

ولكن القرآن يتبنّى العدالة بين الرجل والمرأة ويخالف المساواة، إذ ربما تكون المساواة ضدّ العدالة، وربما لا تنسجم مع طبيعتها، ومن يدّعي المساواة، فكأنّه ينكر الفوارق الموجودة في نفسياتها وغرائزها، ويتعامل معها معاملة إنسان أُستلبت عنه الغرائز الفطرية ولم يبق فيه رمق إلّا القيام بالأعمال المخوّلة له.

وهذا موضوع هام يحتاج إلى التشريح والتبيين حتى يتضح من خلاله موقف القرآن.

إنّ التساوي في الإنسانية لا تعني التساوي في جميع الجهات، وفي القدرات والغرائز والنفسيات، حتى يتجلّى الجنسان، جنساً واحداً لا يختلفان إلّا شكلياً، ومن يقول ذلك فإنّها يقول في لسانه وينكره عقله ولبّه.

لا شك أنّ بين الجنسين فوارق ذاتيّة وعرضيّة، فالأولى نابعة من خلقتها، والثانية تلازم وجودها حسب ظروفها وبيئتها، وبالتالي صارت تلك الفوارق مبدأً للاختلاف في المسؤوليات والأحكام.

جعل الإسلام فطرة المرأة وخلقها، المقياس الوحيد في تشريعه وتقنينه والتشريع المبني على الفطرة يتماشى معها عبر القرون، وهذا هو سرّ خلود تشريعه، وأمّا التشريع الذي لا يأخذ الفطرة بنظر الاعتبار، ويقنّن لكلّ من الأنثى والذكر على حدّ سواء فربما لا ينسجم مع الفطرة والخلقة ويخلق تعارضاً بين القانون ومورده ويورث مضاعفات كثيرة كما نشاهده اليوم في الحضارة الغربيّة.

شبهات وحلول

١. الرجال قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ

أعطى سبحانه إدارة شؤون الأسرة للرجال دون النساء، ومعنى ذلك أنّ الرجل هو الذي يترأس الجهات التي بها قوام العائلة، لأنّ الإدارة تتقوم بأمرين متحققين في الرجل دون المرأة وهما:

١. القوة وتحمل الشدائد.

٢. الإنفاق ورفع الحاجات المالية.

والرجل يتوفر فيه الأمر الأول أكثر من غيره.

وأما الإنفاق فقد فرض الإسلام إدارة أمور الأسرة المالية على الزوج، فهو الذي يتحمل المشاق ليدبر دفة العائلة.

وقد أشار سبحانه إلى تلك الإدارة وأنها تدخل تحت صلاحيات الرجل بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ كما أشار إلى الشرطين بقوله: ١. ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ٢. ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(١).

وليس المراد الأفضلية عند الله وفي ميزان القرب منه سبحانه، بل المراد هو التفوق على الجنس الآخر في تحمل الصبر والاستقامة على الشدائد. وهو أمر تكويني لا يمكن إنكاره، ومن أنكر فأنما أنكره بلسانه دون قلبه، وهذا هو المراد من الأفضلية.

وأما الشطر الثاني فهو حكم تكليفي وضعه سبحانه على عاتق الرجل، وبذلك صار أولى بإدارة شؤون الأسرة من المرأة، وعلى ذلك سارت الحياة

الاجتماعية.

فلو كان هناك انتخاب طبيعي فقد اختير الرجل لإدارة الأسرة اختياراً طبيعياً أمضاه الشارع.

هذا هو معنى القوامية وليس فيه أي هدر لكرامتها، نعم تفسير القوامية بالسلطة على المرأة وإجحاف حقها والتدخل في شؤونها بما هو خارج عن إطار العلة الزوجية أمر مرفوض ومن فسر الآية به فقد افترى على الله سبحانه.

فإدارة الأسرة والتخطيط لها نحو مستقبل أفضل حسب الاستطاعة شيء، وإنكار حق الزوجة والتسلط عليها وإجحاف حقوقها شيء آخر، ومن خلط بين الأمرين فقد انحرف عن جادة الصواب.

٢. تعدد الزوجات

من المسائل التي يثيرها الغرب والمؤسسات التي تدافع عن حقوق النساء هي مسألة تجويز تعدد الزوجات التي شرعها الإسلام، ومنطقهم أن تجويز تعدد الزوجات تشكل معاناة للزوجة أولاً وتخالف المساواة بين الزوج والزوجة ثانياً، وسنقوم بتسليط الضوء على كلا الأمرين، فنقول:

لا شك أن الأصل في تشكيل الأسرة هو أن يجنس الزوج نفسه ولا يتزوج بزوجة ثانية رعاية لحال الزوجة الأولى، ومما لا شك فيه أن جنس كل من الزوجين نفسه على الآخر يشكل رصيلاً لبقاء أواصر الأسرة ويُسفر عنه سيادة الثقة المتبادلة بين الزوجين.

ومع الاعتراف بذلك لكن ربّما يواجه الزوج بعض الظروف والحالات التي تلجئه إلى عدم الاكتفاء بزوجة واحدة وهذا أمر لا يمكن لأحد إنكاره نظير:

إذا كانت الزوجة مريضة مدة مديدة، أو كانت عقيمة لاتنجب، أو كانت

غريزتها الجنسية ضعيفة لا تلبي حاجات الزوج، أو كان الزوج يقطن في مناطق نائية بعيداً عن زوجته مدة لا يستهان بها، ففي تلك الظروف لا يتمكن الزوج من الاقتصاد على زوجة واحدة، فأمامه - مع قطع النظر عن تجويز تعدد الزوجات - طريقان:

الأول: أن يكبح جماح شهوته ويحد من نشاطها.

الثاني: أن ينزلق في مهاوي الفساد والفحشاء.

أمّا الأول: فلا يقوم به إلاّ الأمثل فالأمثل من الرجال.

وأما الثاني: فهو يخالف كرامته وشرفه وينجم عنه أضرار بدنية ونفسية وغير ذلك.

فإذا سدّ الطريقان أمامه فلا يبقى له سبيل سوى أن يختار زوجة بعقد رسمي مع مهر ونفقة وسكنى لتدخل في نطاق الأسرة ويتحمل مسؤولية الجميع على حدّ سواء مع تطبيق العدالة، وهذا هو الذي دعا الإسلام إلى تشريع تعدد الزوجات، قال سبحانه: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾^(١).

ومن الطبيعي معاناة الزوجة الأولى مع قيام الرجل بانتخاب زوجة أخرى له، ولكنه أمام انجراف الرجل في الفحشاء وانحلال الأسرة من رأس أخف وطأة وأقل معاناة.

إنّ الغرب وإن طبل وزمر ضد قانون تعدد الزوجات، لكنه في الواقع اتخذ سلوكاً موافقاً مع هذا القانون لكن بصورة شوهاء حيث إنه يقتنع بزوجة قانونية في حين يقيم علاقات جنسية مع نساء كثيرات خارج إطار الأسرة ولا يكفي

بواحدة.

إنّ نظام الأسرة في الغرب أخذ يضمحل وينحل، وما ذلك إلاّ لخيانة الرجل زوجته بإقامة علاقات جنسية مع نساء أُخر، وما ينطوي عليه من فقدان الثقة وضمحلل الروابط العاطفية بينهما، وينتهي إلى انفصام أواصر الأسرة، قانونياً وعملياً.

وأما مسألة المساواة حيث أُبيح للزوج إقامة علاقات جنسية مشروعة مع نساء أُخر دون الزوجة فهذا أمر نحن في غنى عن الإجابة عنه، فإنّ تجويز تعدّد الأزواج للزوجة يكسر عمود النسب ويعصف بالأسرة ويترك ألواناً من الأمراض وتفسد العلاقات من رأس وحينها يكون المجتمع مرتعاً خصباً للزنا والفحشاء. وبذلك يعلم سرّ التشريع الإسلامي في تجويز تعدد الزوجات دون الأزواج.

٣. الضرب عند النشوز

من الإشكالات الماثرة على حقوق المرأة في الإسلام هو أنّه يسوغ للزوج أن يضرب الزوجة عند نشوزها إذا لم ترجع الزوجة ببذل النصيحة والعظة، وهجران مضجعها، قال سبحانه: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾^(١).

والحقّ أنّ ذلك الإشكال المثار نجم عن عدم التدبر في مضمون الآية ومورد إباحة الضرب، فالآية تبحث في امرأة ناشزة أطاحت بحقوق زوجها وأساءت بإنسانيته دون أن يضيع منها حق، ففي ذلك الجو المفعم بتمرد الزوجة على زوجها حتّى ظلت متشبّهة به بعد معالجتها بالنصح والعظة أو هجرانها في الفراش لا

محيص للزوج عن معالجتها بالضرب غير المبرح حتى تردع الزوجة عن شذوذها الذي طغى على إنسانيتها وكدر صفوة الجو العائلي.

وبذلك اتضح أولاً أنّ البحث ليس في زوجة مهورة على أمرها، ومظلومة في حقها، فاندفعت إلى التمرد دفاعاً عن حقها وكرامتها، بل الكلام في المرأة التي قام الزوج بجميع حقوقها ولكنها طغت على حقوق الزوج وتمردت عليه.

وثانياً: ليس المراد من الضرب هو الضرب المبرح ولا المدمي، بل المراد الضرب المخيف حتى تردع عن شذوذها، وقد فسر الإمام الباقر عليه السلام الضرب في الآية بالضرب بالسواك.^(١)

وهذه الحالة فريدة من نوعها، وقلما يتفق أن لا يُثمر العلاجان الأولان، وعلى فرض الوصول إلى هذه الدرجة، فليس الضرب ضرباً مبرحاً، وإنّما الغرض فيه هو إيجاد الرعب في قلبها كي تردع عن تمرداها.

روى الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيضرب أحدكم المرأة ثم يعانقها».

وفي الختام نعطف أنظار الحضار إلى كلمة قيمة عن إمام حكيم خبير بداء المجتمع ودوائه ألا وهو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال: «ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها، فإنّ المرأة ريحانة وليست قهرمانة»^(٢) فلتعامل معها، بما أنّها ريحانة لا قهرمانة، ولنطلب منها ما يطلب من موجود ظريف كوردة الربيع لا تتحمل البرد القارص ولا الحر الذي يذبلها.

١. مجمع البيان: ج ٢، في تفسير الآية.

٢. نهج البلاغة، قسم الرسائل، الرسالة ٣١.

المقالة التاسعة

زواج المتعة

لم تنزل مسألة المتعة - مع أنها من المسائل الفرعية - مثاراً للاهتمام والنقاش، فأهل السنة على ردها وادّعاء نسخها.

والشيعة عن بكرة أبيهم على أنها زواج مشروع نزل بها القرآن الكريم، ومارسها الصحابة عصر النبي ﷺ وبعده.

وقد كتب أحد الكتاب - المدعو محمد الالوسي - مقالاً حول المتعة نشرتها صحيفة اللواء على صفحاتها، وقد قرأت المقال أثناء رحلتي الأولى إلى الأردن عام ١٤١٨ هـ، فكتبت مقالاً في رده، وتفضل رئيس تحرير الصحيفة مشكوراً بنشرها^(١).

وإليك المقال مع تقديم بقلم رئيس تحريرها.

العلامة سبحاني: «ما اختلفنا في النبي... اختلفنا فيما روي عنه»

يطرح الأستاذ آية الله جعفر سبحاني في هذا المقال رأي الشيعة في قضية «نكاح المتعة»، ويقدم من الأدلة والحجج والبراهين حول جوازها وعدم نسخها بأسلوبه المميز وفكره الموضوعي، وعلمه الغزير ما يدفعنا إلى نشر مقاله إيماناً منا بحرية الرأي الآخر وضرورة فتح صفحات الحوار بين المسلمين مهما اختلفت الرؤى والاجتهادات.

الشيخ سبحاني، واحد من أعلام الفقه والفكر، صدر له أكثر من مائة

١. راجع صحيفة اللواء، المؤرخة الأربعاء، ٢٩/٥/١٩٩٦ م.

كتاب في الملل والنحل والتفسير والفقه وعقائد الإسلام والإلهيات، درس على يد الأعلام، السيد البروجردي، و السيد محمد حسين الطباطبائي، وهو تلميذ الإمام الخميني لأكثر من ثلاثة عشر عاماً، ويشغل الآن رئاسة مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام للبحوث والدراسات العليا، ويدرس علم الفقه والأصول.

وإذا كانت «اللواء» قد نشرت في عددها قبل السابق مقالاً حول «زواج المتعة» من وجهة نظر المذهب السني، وبقلم أحد الباحثين في الجامعة الأردنية، فإنها وهي تنشر في هذا العدد مقال الشيخ سبحاني، من وجهة نظر المذهب الشيعي، لترجو أن تفتح هذه الاجتهادات في وجه علمائنا ومفكرينا أبواب الحوار وفق أدب الاختلاف ومنهجية الإسلامية التي نحترمها جميعاً، وأن تكون مقدمة لإزاحة حالة الاحتقان التي طرأت بفعل عوامل شتى على بحوثنا ومفكرينا وأورثت أمتنا ما تعيشه من انقسامات وتناقضات لم تكن في أي حال متعلقة بأصول ديننا بقدر ما كانت اجتهادات في فروعه وهوامشه لا غير.

وإذا كان الشيخ سبحاني قد أكد في أكثر من مناسبة بأنّ المشتركات بين المذهبين السني والشيعي تفوق الاختلافات، وأنّ الاختلاف في الفروع أمر طبيعي تحتاج إليه المجتمعات، فإنّه يثير أيضاً وفي كل مناسبة وحوار، أنّ المسلمين يختلفون. ولن يختلفوا على النبي ﷺ وستته المشرفة ولكنهم اختلفوا أو سيختلفوا فيما روي عنه. فالاختلاف - إذن - ليس في النبي أو الكتاب ولكن فيما روي عنه ﷺ وفيما فسره المفسرون مما جاء في كتاب الله عز وجل.

و«اللواء» إذ تشكر سماحة الشيخ سبحاني على تعقيبه الذي أبداه في حوارها معه حول ما نشرته عن حكم زواج المتعة ليسعدها أن تنشر مقالته ورده، دون أن تكون مضطرة لتبني أي من وجهتي النظر السالفتين... فهي منبر للحوار وساحة للتقريب بين أتباع المذاهب، تلك رسالتها وستظل تسعى من أجل ذلك الهدف الحلم الذي يتطلع إليه كلّ المخلصين والغيورين على دين الله ورسالته.

ما هو زواج المتعة؟

زواج المتعة عبارة عن تزويج المرأة الحرة الكاملة نفسها إذا لم يكن بينها وبين الزوج مانع - من نسب أو سبب أو رضاع أو إحصان أو عدة أو غير ذلك من الموانع الشرعية - بمهر مسمى إلى أجل مسمى بالرضاء والاتفاق، فإذا انتهى الأجل تبين منه من غير طلاق. ويجب عليها مع الدخول بها - إذ لم تكن يائسة - أن تعتد عدة الطلاق إذا كانت ممن تحيض وإلا فخمسة وأربعين يوماً.

وولد المتعة - ذكراً كان أو أنثى يلحق بالأب ولا يدعى إلا به، وله من الإرث ما أوصانا الله سبحانه به في كتابه العزيز كما يرث من الأم، وتشمله جميع العمومات الواردة في الآباء والأبناء والأمهات، وكذا العمومات الواردة في الاخوة والأخوات والأعمام والعمات.

وبالجملية: المتمتع بها زوجة حقيقة، وولدها ولد حقيقة. ولا فرق بين الزوجين: الدائم والمنقطع إلا أنه لا توارث هنا ما بين الزوجين، ولا قسمة ولا نفقة لها. كما أن له العزل عنها، وهذه الفوارق الجزئية فوارق في الأحكام لا في الماهية، لأن الماهية واحدة غير أن أحدهما زوج مؤقت والآخر دائم، وإن الأول ينتهي بانتهاء الوقت والآخر ينتهي بالطلاق أو الفسخ.

وقد أجمع أهل القبلة على أنه سبحانه شرع هذا النكاح في صدر الإسلام، ولا يشك أحد في أصل مشروعيته، وإنما وقع الكلام في نسخه أو بقاء مشروعيته.

ما هو الأصل في مشروعيتها؟

والأصل في مشروعيتها قوله سبحانه: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً* وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾^(١).

والآية ناظرة إلى نكاح المتعة وذلك لوجوه:

١. الحمل على النكاح الدائم يستلزم التكرار بلا وجه:

إن هذه السورة، أي سورة النساء، تكفلت ببيان أكثر ما يرجع إلى النساء من الأحكام والحقوق، فذكرت جميع أقسام النكاح في أوائل السورة على نظام خاص، أما الدائم فقد أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَمَامِ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً...﴾^(٢).

وأما أحكام المهر فقد جاءت في الآية التالية: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾^(٣).

وأما نكاح الإماء فقد جاء في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ

١. النساء: ٢٣ - ٢٤.

٢. النساء: ٣.

٣. النساء: ٤.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُمْ بِإِذْنِ أَهْلِهِمْ وَاتُّوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ... ﴿١١﴾.

فقوله سبحانه: ﴿فَانكِحُوهُمْ بِإِذْنِ أَهْلِهِمْ﴾ إشارة إلى الزواج من أمة الغير.

فإلى هنا تم بيان جميع أقسام النكاح فلم يبق إلا نكاح المتعة، وهو الذي جاء في الآية السابقة، وعلى ضوء هذا حمل قوله سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ على الزواج الدائم، وحمل قوله: ﴿فَاتَّوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ على المهور والصدقات يوجب التكرار بلا وجه، فالناظر في السورة يرى أن آياتها تكفلت ببيان أقسام الزواج على نظام خاص ولا يتحقق ذلك إلا بحمل الآية على موضوع جديد وليس إلا نكاح المتعة كما هو ظاهرها أيضاً.

٢. تعليق دفع الأجرة على عقد الاستمتاع

إن لفظ الاستمتاع وإن كان في الأصل واقعاً على الانتفاع والالتذاذ، لكنه صار بعرف الشرع مخصوصاً بهذا العقد المعين لا سيما إذا أضيفت إلى النساء والمراد من قوله سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ هو «متى عقدتم عليهن هذا العقد المسمى متعة فاتوهن أجورهن» وذلك لأن المهر يجب بالعقد، لا بالجماع والاستمتاع.

ولا يصح تفسير قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ بالعقد الدائم وحمله عليه وذلك لأنه حينئذ إما أن يراد منه المعنى اللغوي أي الانتفاع والالتذاذ ومعنى ذلك أنه لا يجب شيء على الزوج إذا لم ينتفع من المرأة بشيء مع أن الفقهاء اتفقوا على لزوم دفع نصف المهر في العقد الدائم إذا طلقها قبل الانتفاع.

أو يراد منه العقد الدائم ولازمه وجوب دفع المهر بكما له بمجرد العقد، لأنه

قال: ﴿فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهنّ ولا خلاف في أنّه غير واجب، وإنّما يجب دفع الكل إذا دخل وإلاّ فذمة الزوج مشغولة بالكلّ على وجه التعليق. نعم للزوجة المنع من الدخول ما لم تأخذ المهر كلّّه، وأين هو من وجوب دفع المهر كلّّه، إليها مطلقاً، امتنعت أم لا، أراد الدخول أم لم يرد.

نعم هذا شأن المتعة التي لم يشرع فيها الطلاق فإذا عقد، عقد متعة، لزمه المهر كلّّه، دخل أم لم يدخل.

٣. تصريح جماعة من الصحابة على شأن نزولها

ذكرت أمة كبيرة من أهل الحديث نزولها فيها، وينتهي نقل هؤلاء إلى أمثال ابن عباس، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وحبيب بن أبي ثابت، وسعيد بن جبيرة، إلى غير ذلك من رجال الحديث الذين لا يمكن اتهامهم بالوضع والجعل.

وقد ذكر نزولها من المفسرين والمحدثين:

إمام الحنابلة أحمد بن حنبل في مسنده: ٤/٤٣٦.

وأبو جعفر الطبري في تفسيره: ٩/٥.

وأبو بكر الجصاص الحنفي في أحكام القرآن: ٢/١٧٨.

وأبو بكر البيهقي في السنن الكبرى: ٧/٢٠٥.

ومحمود بن عمر الزخشري في الكشف: ١/٣٦٠.

وأبو بكر بن سعدون القرطبي في تفسير جامع أحكام القرآن: ٥/١٣٠.

وفخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب: ٣/٢٠٠.

إلى غير ذلك من المحدثين والمفسرين الذين جاءوا بعد ذلك إلى عصرنا

هذا، ولا نطيل الكلام بذكرهم.

وليس لأحد أن يتهم هؤلاء الأعلام بذكر ما لا يؤمنون به. وبملاحظة هذه القرائن لا يكاد يشك في ورودها في نكاح المتعة.

ونزيد الوضوح بياناً بقوله سبحانه: ﴿وَاحِلَ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ إِنْ تَتَّبِعُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾.

إنّ قوله سبحانه ﴿إِنْ تَتَّبِعُوا﴾ مفعول له لفعل مقدر، أي بين لكم ما يحل مما يحرم لأجل أن تبتغوا بأموالكم، وأمّا مفعول قوله: ﴿تَتَّبِعُوا﴾ فيعلم من القرينة وهو النساء أي طلبكم نكاح النساء، أي بين الحلال والحرام لغاية ابتغائكم نكاح النساء من طريق الحلال لا الحرام.

وقوله سبحانه: ﴿مُحْصِنِينَ﴾ وهو من الإحصان بمعنى العفة وتحصين النفس من الوقوع في الحرام، وقوله سبحانه ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ هو جمع مسافح بمعنى الزاني مأخوذ من السفح بمعنى صب الماء، والمراد هنا هو الزاني بشهادة قوله سبحانه في الآية المتأخرة في نكاح الإماماء: ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ أي عفاف غير زانيات.

ومعنى الآية: إنّ الله تبارك وتعالى شرع لكم نكاح ما وراء المحرمات لأجل أن تبتغوا بأموالكم ما يحصنكم ويصون عفتكم ويصدقكم عن الزنا، وهذا المناط موجود في جميع الأقسام، النكاح الدائم، والمؤقت والزواج بأمة الغير، المذكورة في هذه السورة من أولها إلى الآية ٢٥.

هذا هو الذي يفهمه كلّ إنسان من ظواهر الآيات غير أنّ من لا يروقه الأخذ بظاهر الآية ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ لرواسب نفسية أو بيئية حاول أن يطبق معنى الآية على العقد الدائم، وذكر في المورد شبهات ضعيفة لا تصمد امام النقاش نجملها بما يلي:

شبهات حول المتعة

الشبهة الأولى: إنّ الهدف من تشريع النكاح هو تكوين الأسرة وإيجاد النسل، وهو يختص بالنكاح الدائم دون المنقطع الذي لا يترتب عليه إلا إرضاء القوة الشهوية وصب الماء وسفحه.

ويجاب عنها: بأنّه خلط بين الموضوع والفائدة المترتبة عليه، وما ذكر إنّما هو من قبيل الحكمة، وليس الحكم دائراً مدارها، لضرورة أنّ النكاح صحيح وإن لم يكن هناك ذلك الغرض، كزواج العقيم واليائسة والصغيرة. بل أغلب المتزوجين في سن الشباب بالزواج الدائم لا يقصدون إلا قضاء الوطر واستيفاء الشهوة من طريقها المشروع، ولا يخطر ببالهم طلب النسل أصلاً وإن حصل لهم قهراً، ولا يقدح ذلك في صحّة زواجهم.

ومن العجب حصر فائدة المتعة في قضاء الوطر، مع أنّها كالدائم قد يقصد منها النسل والخدمة وتدبير المنزل وتربية الأولاد والإرضاع والحضانة.

ونسأل المانعين الذين يتلقون نكاح المتعة، مخالفاً للحكمة، التي من أجلها شرع النكاح، نسألهم عن الزوجين اللذين يتزوجان نكاح دوام، ولكن ينيان الفراق بالطلاق بعد شهرين، فهل هذا نكاح صحيح أو لا؟ لا أظن أنّ فقيهاً من فقهاء الإسلام يمنع ذلك إلا إذا أفتى بغير دليل ولا برهان، وعندئذ يطرح السؤال الثاني: أي فرق حينئذ بين المتعة وهذا النكاح الدائم سوى أنّ المدة مذكورة في الأوّل دون الثاني؟

يقول صاحب المنار: إنّ تشديد علماء السلف والخلف في منع المتعة يقتضي منع النكاح بنية الطلاق، وإن كان الفقهاء يقولون إنّ عقد النكاح يكون صحيحاً إذا نوى الزوج التوقيت، ولم يشترطه في صيغة العقد، ولكن كتماناً إياه يعد خداعاً

وغشاً وهو أجدر بالبطلان من العقد الذي يشترط فيه التوقيت.

أقول: نحن نفترض أنّ الزوجين رضا بالتوقيت لباً، حتى لا يكون هناك خداع وغش فهو صحيح بلا إشكال.

الشبهة الثانية: أنّ تسويغ النكاح المؤقت ينافي ما تقرر في القرآن كقوله عز وجل في صفة المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾^(١).

والمراد من الآية: أنّ من ابتغى وراء ذلك، هم المتجاوزون ما أحله الله لهم إلى ما حرّمه عليهم. والمرأة المتمتع بها ليست زوجة فيكون لها على الرجل مثل الذي عليها بالمعروف.

إلا أنّه يرد عليها: أنّها دعوة بلا دليل. فاتها زوجة ولها أحكام، وعدم وجود النفقة والقسمة لا يخرجها عن الزوجية، فإنّ الناشئة زوجة ليست لها النفقة وحقّ القسمة، ومثلها الصغيرة. والعجب أن يستدل بعدم وجود الأحكام على نفي الماهية، فإنّ الزوجية رابطة بين الزوجين ترتب عليها جملة من الأحكام وربما تختص بعض الأحكام ببعض الأقسام.

الشبهة الثالثة: أنّ المتمتع في النكاح المؤقت لا يقصد الإحصان دون المسافحة بل يكون قصده مسافحة، فإن كان هناك نوع ما من إحصان نفسه ومنعها من التنقل في دمن الزنا، فإنّه لا يكون فيه شيء ما من إحصان المرأة التي توجر نفسها كلّ طائفة من الزمن لرجل فتكون كما قيل:

كرة حذفت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

ويرد على هذه الشبهة: أنه من أين وقف على أن الإحصان في النكاح المؤقت يختص بالرجل دون المرأة، فأنّا إذا افترضنا كون العقد شرعياً، فكّل واحد من الطرفين يحصن نفسه من هذا الطريق، وإلا فلا محيص عن التنقل في دمن الزنا. والذي يصون الفتاة عن البغي أحد الأمور الثلاثة:

١. النكاح الدائم.

٢. النكاح المؤقت بالشروط الماضية.

٣. كبت الشهوة الجنسية.

فالأول ربما يكون غير ميسور خصوصاً للطالب والطالبة اللذين يعيشان بمنح ورواتب مختصرة يجريها عليهما الوالدان أو الحكومة، والثالث أي كبت الشهوة الجنسية أمر شاق لا يتحملة إلاّ الأمثل فالأمثل من الشباب والمثلى من النساء وهم قليلون، فلم يبق إلاّ الطريق الثاني فيحصنان نفسيهما عن التنقل في بيوت الدعارة.

إنّ الدين الإسلامي هو الدين الخاتم، ونبيه خاتم الأنبياء وكتابه خاتم الكتب، وشريعته خاتمة الشرائع، فلا بد أن يضع لكل مشكلة اجتماعية حلاًّ شرعياً، يصون بها كرامة المؤمن والمؤمنة، وما المشكلة الجنسية عند الرجل والمرأة إلاّ إحدى هذه النواحي التي لا يمكن للدين الإسلامي أن يهملها، وعندئذٍ يطرح هذا السؤال نفسه:

ماذا يفعل هؤلاء الطلبة والطالبات الذين لا يستطيعون القيام بالنكاح الدائم، وتمنعهم كرامتهم ودينهم عن التنقل في بيوت الدعارة والفساد، والحياة المادية بجماها توجب نار الشهوة في نفوسهم؟ فمن المستحيل عادة أن يصون نفسه أحد إلاّ من عصمه الله، فلم يبق طريق إلاّ زواج المتعة الذي يشكل الحل الأنجح لتلافي الوقوع في الزنا، وتبقى كلمة الإمام علي بن أبي طالب ترن في الأذان محذرة

من تفاقم هذا الأمر عند إهمال العلاج الذي وصفه المشرع الحكيم له، حيث قال ﷺ: «لولا نهي عمر عن المتعة لما زنى إلا شقي أو شقية».

وأما تشبيه المتعة بما جاء في الشعر فهو يعرب عن جهل الرجل بحقيقة نكاح المتعة وحدودها فإنّ ما جاء فيه هي المتعة الدورية التي ينسبها الرجل وغيره إلى الشيعة، وهم براء من هذا الإفك إذ يجب على المتمتع بها بعد إنهاء المدة الاعتداد على ما ذكرنا، فكيف يمكن أن تؤجر نفسها كلّ يوم لرجل؟ سبحان الله ما أجرأهم على الكذب على الشيعة والفريّة عليهم، وما مضمون الشعر إلاّ جسارة على الوحي والتشريع الإلهي، وقد اتفقت كلمة المحدثين والمفسرين على التشريع، وإنّه لو كان هناك نهي أو نسخ فإنّها هو بعد التشريع والعمل.

الشبهة الرابعة: إنّ الآية منسوخة بالسنة، واختلفوا في زمن نسخها على

أقوال شتى:

١. أُبيحت ثمّ نهي عنها عام خيبر.

٢. ما أحلت إلاّ في عمرة القضاء.

٣. كانت مباحة ونهي عنها في عام الفتح.

٤. أُبيحت عام أوطاس ثمّ نهي عنها.

وهذه الأقوال تنفي الثقة بوقوع النسخ، كما أنّ نسخ القرآن بأخبار الأحاد ممنوع جداً، وقد صحّ عن عمران بن الحصين أنّه قال: إنّ الله أنزل المتعة وما نسخها بآية أخرى، وأمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة وما نهانا عنها، ثمّ قال رجل برأيه يريد به عمر بن الخطاب.

إنّ الخليفة الثاني لم يدع النسخ وإنّها اسند التحريم إلى نفسه، ولو كان هناك ناسخ من الله عزّ وجلّ أو من رسوله، لأسند التحريم إليها، وقد استفاض قول عمر وهو على المنبر: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهيّ عنها وأعاقب

عليهما: متعة الحج ومتعة النساء.

بل نقل متكلم الأشاعرة في شرحه على شرح التجريد أنه قال: أيها الناس ثلاث كنّ على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهيّ عنهنّ، وأُحرّمهنّ، وأُعاقب عليهنّ، متعة النساء، ومتعة الحج، وحجّي على خير العمل.

وقد روي عن ابن عباس - وهو من المصرّحين بحلية المتعة وإباحتها - في ردّه على من حاجه بنهي أبي بكر وعمر لها، حيث قال: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر. حتى أن ابن عمر لما سئل عنها أفتى بالإباحة فعارضوه بقول أبيه فقال لهم: أمر رسول الله ﷺ أحق أن يتبع أم أمر عمر؟

كلّ ذلك يعرب عن أنّه لم يكن هناك نسخ ولا نهي نبوي وإنّما كان تحريماً من جانب الخليفة، وهو في حدّ ذاته يعتبر اجتهاداً قبالة النص الواضح، ولم يزل جملة من الصحابة يعلنون رفضهم له وعدم إذعانهم لأمره، وإذا كان الخليفة قد اجتهد لأسباب رآها وأفتى على أساسها فكان الأولى بمن حقوقه أن يتنبهوا لهذا الأمر لا أن يسرفوا في تحريمها دون حجة ولا دليل.

المنكرون للتحريم

ذكرنا أنّ لفيفاً من وجوه الصحابة والتابعين أنكروا هذا التحريم ولم يقرّوا به، منهم:

١. علي أمير المؤمنين، في ما أخرجه الطبري بالاسناد إليه أنّه قال: «لولا أنّ عمر نهى عن المتعة ما زنى إلّا شقي»^(١).

٢. عبد الله بن عمر، أخرج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمر، قال -

وقد سئل عن متعة النساء - : والله ما كنا على عهد رسول الله ﷺ زانين ولا مسافحين، ثم قال: والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليكونن قبل يوم القيامة المسيح الدجال وكذابون ثلاثون وأكثر»^(١).

٣. عبد الله بن مسعود، أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود، قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شيء، فقلنا: الا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل معين، ثم قرأ علينا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٢).^(٣)

٤. عمران بن حصين، أخرج البخاري في صحيحه عنه، قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله ففعلناها مع رسول الله ﷺ ولم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها حتى مات. قال رجل برأيه ما شاء^(٤).

٥. انّ الخليفة العباسي المأمون أوشك أن ينادي في أيام حكمه، بتحليل المتعة إلا أنه توقف خوفاً من الفتنة وتفرق المسلمين. قال ابن خلكان، نقلاً عن محمد بن منصور: قال: كنا مع المأمون في طريق الشام فأمر فنودي بتحليل المتعة، فقال يحيى بن أكثم لي ولأبي العيناء: بكرأ غدا إليه، فإن رأيتنا للقول وجهاً فقولا، وإلا فاسكتا إلى أن أدخل، قال: فدخلنا عليه وهو يستاك ويقول وهو مغتاض: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبي بكر رضي الله عنه وأنا أنهي عنها، ومن أنت يا جُعَل حتى تنهى عما فعله رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه؟ فأوماً أبو العيناء إلى محمد بن منصور وقال: رجل يقول في عمر بن الخطاب ما يقول نكلمه نحن؟ فأمسكنا، فجاء يحيى بن أكثم فجلس وجلسنا،

١. مسند أحمد: ٩٥/٢.

٢. المائدة: ٨٧.

٣. البخاري: الصحيح: ٤/٧، باب ما يكره من التبتل والخضاء من كتاب النكاح.

٤. البخاري: الصحيح: ٦/٢٧، تفسير قوله تعالى: ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾.

فقال المأمون ليحيى: ما لي أراك متغيراً؟ فقال: هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام، قال: وما حدث فيه؟ قال: النداء بتحليل الزنا، قال: الزنا؟ قال: نعم، المتعة زنا، قال: ومن أين قلت هذا؟ قال: من كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله ﷺ، قال الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ*^(١) يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا، قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين^(٢).

أقول: هل عذب عن ابن أكرم - وقد كان ممن يكن العداء لآل البيت - أن المتعة داخلية في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾ وأن عدم الوراثة تخصيص في الحكم، وهو لا ينافي ثبوتها، وكم لها من نظير، فالكافرة لا ترث الزوج المسلم، وبالعكس، كما أن القاتلة لا ترث وهكذا العكس، وأمّا الولد فيلحق قطعاً، ونفي اللحق ناشئاً من الجهل بحكمها أو التجاهل به.

وما أقبح كلامه حيث فسر المتعة بالزنا وقد أصفقت الأمة على تحليلها في عصر الرسول ﷺ والخليفة الأول، أفحسب ابن أكرم أن الرسول ﷺ حلل الزنا ولو مدة قصيرة؟!

كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

وهناك روايات ماثورة عن الخليفة نفسه، تعرب عن أن التحريم كان صميم رأيه، من دون استناد إلى آية أو رواية.

فقد أخرج مسلم في صحيحه: عن أبي نضرة قال: كان ابن عباس يأمر بالمتعة، وكان ابن الزبير ينهى عنها، فذكر ذلك لجابر، فقال: على يدي دار

الحديث: تمتعنا مع رسول الله ﷺ فلما قام عمر، قال: إنّ الله كان يحل لرسوله ما شاء بها شاء، فأتموا الحج والعمرة وأبوا نكاح هذه النساء، فلئن أوتي برجل نكح امرأة إلى أجل إلّا رجمته بالحجارة.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة، قال: قلت لجابر: إنّ ابن الزبير ينهى عن المتعة، وإنّ ابن عباس يأمر بها، فقال لي: على يدي جرى الحديث: تمتعنا مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر، فلما ولي عمر خطب الناس فقال: إنّ القرآن هو القرآن، وإنّ رسول الله ﷺ هو الرسول، وإنّما كانتا متعتان على عهد رسول الله ﷺ احدهما متعة الحج والأخرى متعة النساء.

وهذه المأثورات تعرب عن جملة من الملاحظات نجم لها بملاحظتين اثنتين:

الأولى: أنّ المتعة كانت باقية على الحل إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وبقيت حلالاً في أيامه حتى نهى عنها ومنع.

والثانية: أنّه باجتهاده قام بتحريم ما أحله الكتاب والسنة، ومن المعلوم أنّ اجتهاده - لو صحت تسميته بالاجتهاد - حجة على نفسه لا على غيره.

وفي الختام نقول:

إنّ الجهل بفقهاء الشيعة أدى بكثير من الكتاب إلى القول على الشيعة، وخصوصاً في مسألة المتعة التي نحن في صدد الحديث عنها، بجملة منكورة من الآراء والأحكام تدل على جهل مطبق أو خبث سريرة، ومن هذه الأقوال: إنّ من أحكام المتعة عند الشيعة أنّه لا نصيب للولد من ميراث أبيه، وإنّ المتمتع بها لا عدّة لها، وإنّما تستطيع أن تنتقل من رجل إلى رجل إن شاءت، و من أجل هذا استقبحوا المتعة واستنكروها وشنعوا على من أباحها.

وقد خفي الواقع على هؤلاء وإنّ المتعة عند الشيعة كالزواج الدائم لا تتم

إلّا بالعقد الدال على قصد الزواج صراحة، وأنّ المتمتع بها يجب أن تكون خالية من جميع الموانع، وأنّ ولدها كولد الزوجة الدائمة من وجوب التوارث، والإنفاق وسائر الحقوق المادية، وأنّ عليها أن تعتد بعد إنهاء الأجل مع الدخول بها، وإذا مات زوجها وهي في عصمته اعتدت كالدائمة من غير تفاوت، إلى غير ذلك من الآثار.

على أنّ الأمر الذي ينبغي الالتفات إليه وإدراكه بوضوح، أنّ الشيعة ورغم إدراكهم وإيمانهم بحلية زواج المتعة وعدم تحريره - وهو ما يعلنون عنه صراحة ودون تردد - إلّا أنّهم لا يلجأون إلى هذا الزواج إلّا في حدود ضيقة وخاصة، وليس كما يصوّره ويتصوّره البعض من كونه ظاهرة متفشية في مجتمعاتهم وبشكل مستهجن مجوج.

المقالة العاشرة

الاختلاف في الفروع لا في الأصول

قرأنا في العدد ٣٧٣ من مجلة الشريعة الأردنية المؤرخة بكانون الثاني سنة ١٩٩٧ م لقاءً صحفياً أجرته مجلة الشريعة مع الشيخ عبد الله المنيع من علماء السعودية، فكان في كلامه لدغ للشبهة فأثرت كتابه مقال في رده، وتفضلت مجلة الشريعة مشكورة بنشره.

وإليك نصّ الحوار الذي أجرته معه مجلة الشريعة :

سأله المحاور: مؤخراً عقدت عدّة مؤتمرات بهدف تقريب وجهات النظر بين المذاهب الإسلامية المتعدّدة وخاصة بين المذهبين السني و الشيعي، فما هو رأي فضيلتكم في هذه المؤتمرات؟

فأجاب الشيخ المنيع: لا يوجد هناك معايير يرجع إليها في سبيل التقريب بين المذاهب الإسلامية. فالخلاف بين المذاهب السنية هو خلاف بالفروع وليس بالأصول، وحتى أصحاب رسول الله وجد بينهم خلاف في فروع الشريعة فقط ولم يكن هذا سبباً في تباعدهم وتناحرهم وتباغضهم بل بقي بينهم التآخي والتوَادد، ولكن الاختلاف بين أصحاب المذهب السني والمذهب الشيعي هو اختلاف في الأصول حيث إنّ نظرهم إلى أصحاب رسول الله ﷺ نظرة سيئة تصل لدرجة أن يلعنوا بعض أصحاب رسول الله بينما ورد في سورة الحشر وصف المهاجرين والأنصار بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾.

بالإضافة إلى عدم إقرار إخواننا الشيعة بكتابي مسلم و البخاري، فلو
أمكن إيجاد تقارب في هذه النقاط التي نعتبرها أصولاً فإننا نرحب بهذا التقارب.

وقد كتبنا مقالاً حول تلك المقابلة وبعثنا به إلى هيئة تحرير المجلة، وإليك
نصّ مقالنا المنتشر في مجلة الشريعة العدد ٣٧٩ الموافق ربيع الأول ١٤١٨ هـ.
قرأنا في العدد ٣٧٣ المؤرخ في كانون الثاني سنة ١٩٩٧ م من مجلتكم الموقرة
[الشريعة] حواراً مع الشيخ عبد الله سليمان المنيع طرح فيه المحاور على الشيخ
مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية طالباً رأيه فيها، فأجاب الشيخ على النحو
الماضي.

وحاصل كلامه يرجع إلى أمرين:

الأول: أنّ نظرة الشيعة إلى أصحاب رسول الله ﷺ نظرة سيئة.

الثاني: أنّ الشيعة لا تعترف بكتابي مسلم و البخاري.

فإليك تحليل ذينك الأمرين:

أمّا الأول: إنّ الشيعة هم من يشايعون علياً والأئمة من أهل البيت ولا
يتخلفون عن إرشاداتهم وتعاليمهم التي هي امتداد لإرشادات وتعاليم رسول
الإسلام العظيم محمد ﷺ، وهذا هو الإمام علي ﷺ يقول في أصحاب النبي ﷺ:
«أين إخواني الذين ركبوا الطريق و مضوا على الحق؟ أين عمار، وأين ابن التيهان،
وأين ذو الشهادتين، وأين نظرائهم من إخوانهم الذين تعاهدوا على المنية»^(١) وهذا
هو الإمام علي بن الحسين زين العابدين ﷺ يدعو لأصحاب جدّه رسول الله ﷺ
الذين أحسنوا الصحبة إذ قال: «اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا
الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة

رسالاته وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به، ومن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته» إلى أن قال: «اللهم وصلّ على السابقين لهم بإحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان خير جزائك». ^(١)

لنفترض إنّ من الشيعة من لا يحب بعض الصحابة لا لكونهم صحابة النبي ﷺ بل لما صدر منهم من المواقف و من الأعمال التي لا تنطبق على موازين الشريعة، فهو إمّا مصيب في اعتقاده واجتهاده وإمّا مخطئ، وعلى الأول له أجران، وعلى الثاني له أجر واحد، كيف لا وقد حدث هذا التشاجر والتعارض بين صحابة النبي ﷺ أنفسهم، فهذا هو الإمام البخاري ينقل لكم مشاجرة حامية بين سعد بن عبادة الذي قال لسعد بن معاذ في محضر النبي ﷺ «كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من أهلك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - وقال لسعد بن عبادة: كذبت، وعمر الله لنقتلنه، فإنّك منافق تجادل عن المنافقين» ^(٢) وكم لهذه المشاجرات الساخنة والتراتق بالالتهامات بين الصحابة من نظير، ومع ذلك لم يعتبرها أحد موجبات للكفر أو الخروج عن ربة الإيمان، ثمّ ماذا يفعل الشيعة إذا وجدوا في أصح الكتب عند أهل السنة بعد كتاب الله عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلثون عن الحوض، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري»، وغير ذلك من الروايات التي أخرجها الإمام البخاري في صحيحه في باب الحوض وغيره. ^(٣) فما ذنب الشيعي إذا وجد في أصح الكتب لدى إخوانه السنة أنّ صحابياً

١. الصحيفة السجادية : الدعاء ٤.

٢. صحيح البخاري، ج ٥، ص ١١٨-١١٩، في تفسير سورة النور.

٣. لاحظ جامع الأصول، ج ١١، ص ١٠.

جليلاً كآسید بن حُضیر یصف سعد بن عبادة ذلك الصحابي الجليل بالنفاق ويقول: إِنَّكَ منافق تجادل عن المنافقين.

فإذا صحَّ ذلك العمل من الصحابي بحجة أنّه وقف على نفاق أخيه الصحابي الآخر، فلماذا لا يصح صدوره من الآخرين إذا وقفوا على أن بعض من كان حول النبي ﷺ قد اقترف ما لا يرضى به الله ورسوله ﷺ فييدي عدم رضائه من عمله كما أبداه أسيد بن حُضير.

كما أظهر سبحانه عدم رضائه من بعضهم وقال:

﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَنَبِّئُوهُ﴾. ^(١)

فقد وصف بعضهم بالفسق، كما وصف الذكر الحكيم لفيماً منهم بالإعراض عن الذكر والصلاة والاشتغال بالتجارة وكسب المال .

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ^(٢).

وعلى ذلك فالشيعة تحب الصحابة الكرام بما اتهم صحابة للرسول ﷺ وملبي دعوته وناشري سنته، ولكن ذلك لا يمنع من مناقشة بعض مواقفهم إذا خالف الكتاب والسنة فإنّ العصمة لله تبارك وتعالى ولمن عصمه.

فليست الصحابة بمعصومين عن الخطأ والزلل، ونقد بعض أعمالهم نابع عن تلك الحقيقة، وإلا فمن أراد أن تكبح الألسن للحيلولة دون وصف أعمالهم بالخير والشر والحسن والقبح فقد ألبس عليهم ثوب العصمة وهو بدعة ما فوقها بدعة.

هذا كلّه حول الأمر الأول وإليك الكلام في الأمر الثاني:

١. الحجرات: ٦.

٢. الجمعة: ١١.

٣. الكافي: ٦/ ٢٥٦-٢٥٧.

متى أصبح الصحيحان أصليين في الإسلام ؟

إنّ الواجب على كافة المسلمين هو الأخذ بسنة رسول الله ﷺ من غير أن يكون هناك خصوصية لكتاب دون كتاب. و الشيعة بفضلله سبحانه أخذوا سنة الرسول ﷺ من زلال صاف وهو العترة الطاهرة أولاً وثقات المسلمين ثانياً وبذلك وقفوا على أحاديث هائلة في سنته ﷺ فقارنوا الكتاب والسنة ولم يفرقوا بينهما .

ولم يكن الأخذ بالصحيحين ملاكاً للإيمان، بشهادة أنّ المسلمين كانوا يعملون بسنة رسول الله ﷺ ويروونها قبل أن يولد البخاري ومسلم ويكون لهما أثر في الوجود، فمتى أصبح البخاري ومسلم أصلاً و مناراً ومحوراً للإيمان والكفر، مع أنّ الأصل هو سنة الرسول ﷺ وعند الشيعة سنته ﷺ المروية عن طريق أهل بيته المطهرين بأسانيد عالية ونقية من كلّ شائبة.

فنرجو ونأمل من الأستاذ الشيخ المنيع إعادة النظر في كلامه الذي مرّ ملخصه، ونرجو أن يطالع كتب الشيعة في هذا المجال ليقف على الحقيقة.

وفي الختام إنّنا لا نبخس حقّ الشيخ المنيع لما لمسنه فيه من تفتح ومرونة وأدب مع إخوانه الشيعة.

جعلنا الله سبحانه و تعالى جميعاً من أنصار دينه والأشداء على أعدائه الصهاينة الملحدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم - الجامعة الإسلامية

١٤١٧/١٢/٢٨ هـ

المقالة الحادية عشرة

آية التطهير و عصمة أهل البيت

حضرة الأخ العزيز الأستاذ حسن التّل المدير العام و رئيس التحرير
المسؤول لصحيفة اللواء الأردنية، الموقر.

السّلام عليكم ورحمة الله و بركاته

أتقدّم إليكم بالتحية و السّلام ، و أرجو من الله سبحانه مزيد التوفيق لكم
و لمن حولكم من الأعزاء.

منذ مدّة و نحن نقرأ في صحيفتكم الغراء مقالات بقلم الأستاذ الفاضل
محمد الآلوسي حول عقائد الشيعة و تاريخها، و قد امتازت هذه المقالات بالبحث
الموضوعي و الدراسة الهادئة بعيداً عن المهاترات، والانتهاكات و بمعزل عمّا لا
يليق بالكاتب الإسلامي، فشكر الله مساعيه و كثر في المجتمع الإسلامي أمثاله، إذ
طالما نقرأ في الصحف و المجلات أو في الكتب المنشورة حول الشيعة مقالات
بأقلام بذئية، لا تنتج عند القارئ إلّا النفور من الكاتب و إساءة الظن به
وبأهدافه، فإنّ البحث العلمي يرتفع عن إقرانه بالشتم و السب غير أنّ كاتبنا
- والله الحمد - مستثنى من تلك الزمرة، فهو كاتب مؤدّب، ذو صدر رحب، و
لهجة مهذبة.

لكن الذي بعثنا على أن نسجل شيئاً أو هامشاً على بعض مقالاته ما قرأناه

في صحيفة اللواء المؤرخة في ١٠ جمادى الآخرة ١٤١٧ هجري، الموافق لـ ٢٢ تشرين الأول ١٩٩٦م، العدد ١٢٢٢ السنة الخامسة والعشرون.

ففي الصفحة ٢٤ كتب الأخ تحت عنوان «الخلافة والإمامة عند الشيعة» أموراً لنا فيها تأملات و مناقشات يرجى نشرها على صفحات اللواء لتكون الصحيفة منبر الإسلام الحرّ، ومعرضاً لمختلف الآراء، و فرصة لتلاقح الأفكار الذي منه ينبثق النور، ويضاء الطريق، و قد قيل: الحقيقة بنت البحث.

وإليك موجز كلامه:

قال الأستاذ الألوسي:

إنّ أهمّ نصّ استدل به الشيعة وتوصلوا من خلاله إلى عصمة من قالوا بعصمتهم هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١).

فقد قالوا: إنّها نزلت بشأن علي و زوجته فاطمة و ولديها الحسن و الحسين وقد جمعهم النبي ﷺ إثر نزول الآية و ألقى عليهم كساء و قال: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً...» و عليه يكون المقصود بأهل البيت هم هؤلاء الأربعة فقط و ذريتهم من بعدهم دون غيرهم، لأنّ كلمة إنّما تفيد الاختصاص الدالّ على الحصر... و هذا الحديث و الرواية بشأن نزول الآية هي إحدى الروايات المشهورة عند أهل السنّة أيضاً في مصادرهم المعتمدة كالسيوطي و الطبري و ابن كثير و الألوسي في تفاسيرهم و كثيرون غيرهم، و قالوا أيضاً أنّ قوله تعالى في الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ﴾ يفيد الإرادة الإلهية القدريّة النافذة و من ثمّ دلّت على حصول الشيء فعلاً و هو التطهير و ذهاب الرجس عن الأربعة «رضي الله عنهم» و هو ما يعرف عند المتكلمين بالإرادة الكونية لله الذي يقول

للشيء إذا أراد **﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾** .

ثم ناقش استدلال الشيعة الذي نقله بوجوه تأتي بها:

١. أنّ أهل السنة قالوا: إنّ المقصود بأهل البيت هم نساء النبي وليس الأربعة رضي الله عنهم، وأنّ الذي رجّح عندهم هذه الرواية هو سياق الآيات التي سبقتها، و السياق له اعتباره في استنباط الأحكام ثم نقل الآيات المتقدمة على آية التطهير والمتأخرة عنها وكلّها نازلة في نساء النبي.

٢. أنّ الخطاب في آية التطهير وإن جاء بصيغة المذكر: **﴿عَنْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُهُمْ...﴾** خلافاً للضمائر الواردة في سائر الآيات التي سبقتها والتي أعقبتها ، فهي بصيغة المؤنث. لكنّه لا يصير دليلاً على التغاير، وأنّ المقصودين من آية التطهير غير المقصودين من سائر الآيات، وذلك لأنّه يجوز في لغة العرب مخاطبة جمع المؤنث بصيغة جمع المذكر تعبيراً لعلو المقام والمبالغة.

٣. أنّ حديث الرسول جاء بصيغة الطلب «اللّهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» وهي صيغة تفيد عدم شمول الأربعة وقت نزول النصّ، فدعا الرسول ربه أن يشملهم أيضاً بحكمه، ولو كانوا هم المقصودين لكان الرسول ناجي ربه بصيغة الشكر لا بصيغة الطلب.

٤. أنّ الإرادة الواردة في الآية هي الإرادة التشريعية أي الأمر الذي لا يسلب المخاطب القدرة على الاختيار، وليست إرادة كونية - التي تدّعيها الشيعة - والتي تتعلق بكلّ قضايا الخلق والإيجاد فقد خُلِقَتْ من دون اختيار، وذلك لأنّه عندئذ تصبح طهارتهم - عصمتهم - أمراً خارجاً عن الاختيار ولا تكون خاضعة للشواب والعقاب.

هذه هي الأدلة التي استدل بها على نزول الآية في نساء النبي ، ولكن الأستاذ - أنار الله برهانه - لم يتجرّد عن عقيدته في تفسير الآية، ولو كان ناظراً إليها

وما حولها وما فيها من القرائن المتصلة والمنفصلة الدالة على نزولها في آل العباء والكساء، لما عدل عن مقتضاها، ولما اختار ما اختار.

إن استدلال الشيعة بهذه الآية على عصمة آل الكساء مبني على أمور تنتج مختارهم بوضوح:

الأول: ما هو المراد من الإرادة في الآية؟

إن الإرادة المتعلقة بالإيجاد والتكوين إرادة تكوينية وهي لا تنفك عن المراد إذا كان المرید هو الله سبحانه كقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١) فخلق السماوات والأرض مراد بإرادة كونية.

وأما الطلب الموجه إلى البشر الحاكي عن تعلق إرادته سبحانه بقيام الناس بالوظائف فهي إرادة تشريعية ولم يكتب عليها عدم التفكيك، فإنه سبحانه أراد الطاعة من الإنسان، وكم هناك إنسان كافر أو عاص لله سبحانه.

وهذا التقسيم مما لا غبار عليه.

إنما الكلام هو في الإرادة الواردة في آية التطهير وأنها من أي القسمين، والأستاذ ذهب إلى أنها تشريعية، ولكن الدليل يسوقنا إلى أنها كونية، وذلك لأنها إذا كانت تشريعية كان من لوازمها أنها لا تختص بفئة دون فئة، بدليل أنه سبحانه أراد التطهير والتطهر من كل شين و رين و طلبه من جميع الناس، من دون تخصيص و حصر. قال سبحانه:

﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُسَمِّيَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾^(٢)

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾^(٣)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(١).

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٢).

وحبه سبحانه علامة بعثه و طلبه، وإرادته التشريعية المتعلقة بتطهير كل المؤمنين عامة لا جماعة خاصة.

وسؤالنا هو : لو كانت الإرادة الواردة في الآية المبحوثة كالإرادة الواردة في هذه الآيات فما هو وجه التخصيص بأمر خمسة:

ألف: بدأ قوله سبحانه بحرف ﴿إِنَّمَا﴾ المفيدة للتحصر.

ب: قدم الظرف و قال: ﴿لِيَذْهَبَ عَنْكُمْ الرَّجْسُ﴾ و لم يقل ليذهب الرجس عنكم، و ذلك لأجل أن التقديم يفيد التخصيص .

ج: بيّن من تعلّقت الإرادة بتطهيرهم بصيغة الاختصاص و قال: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي أخصّكم أهل البيت مثل قول النبي ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء...». و قول قائلهم: نحن العرب أسخى من بذل.

د: أكد المطلوب بتكرير الفعل و قال: ﴿وَيُطَهِّرْكُمْ﴾ الذي هو تأكيد لمعنى إذهاب الرجس المتقدّم عليه.

هـ: أرفقه بالمفعول المطلق و قال: ﴿تَطَهِّرَآ﴾.

فهذه الوجوه الخمسة آية أنّ هذه الإرادة إرادة خاصة بأهل البيت لا يشاركهم فيها أحد من الأمة، و إلّا لكانت تلك العناية البالغة في مجال التخصيص و الاختصاص لغواً مضراً بالبلاغة، و غير لاثقة بكلام رب العزة.

ثم إنّ تعلّق إرادته التكوينية بطهارة أهل البيت من الذنب ليس بأمر جديد، فقد جاء نظيره في مريم سلام الله عليها، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ

اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾.

وليس هذا الإصطفاء والتطهير بالإرادة التشريعية، فإنّ مريم وغيرها أمام هذه الإرادة سواسية، بل هناك إرادة خاصة تعلّقت بمريم دون غيرها فطهرتها من الذنوب وحصّنتها من اقتراف المعاصي.

و سيوافيك أنّ تعلّق الإرادة التكوينية بالطهارة من الذنب لا ينافي الاختيار على الاستجابة والرفض، والثواب والعقاب، والفعل والترك.

الثاني: ما هو المراد من الرجس؟

هذا هو الأمر الثاني الذي يجب الإمعان فيه حتّى يكون الدليل منتجاً لا عقيباً وقد غفل الأستاذ عن تبين تلك الناحية في كلامه فنقول: إنّ الرجس استعمل في الذّكر الحكيم، في الخمر والميسر والأنصاب والأزلام^(٢) كما استعمل في الميتة والدم ولحم الخنزير^(٣) وفي الأوثان^(٤) وفي المنافقين^(٥) وفي المشركين^(٦) وفي غير المؤمنين^(٧) إلى غير ذلك من موارد استعماله في الكتاب والسنة النبوية واللغة العربية، فينتقل الإنسان من مجموع هذه الموارد إلى أنّ الرجس عبارة عن كلّ قذارة ظاهرة كالدم ولحم الخنزير، أو باطنية وروحية كالشرك والنفاق وفقد الإيمان. وبالجملة مساوئ الأخلاق، والصفات السيئة والأفعال القبيحة التي يجمعها الكفر والنفاق والعصيان.

فالمنفي في الآية المبحوثة عنها هو هذا النوع من الرجس، فهو بتمام معنى

٢. المائدة: ٩٠.

٤. الحج: ٣.

٦. يونس: ١٠٠.

١. آل عمران: ٤٢.

٣. الأنعام: ١٤٥.

٥. التوبة: ٩٥.

٧. الأنعام: ١٢٥.

الكلمة مما أذهب الله عن أهل البيت.

فإذا كان أهل البيت منزهين عن النفاق و الشرك و الأعمال القبيحة و ما يراد منها، فهم معصومون من الذنب مطهرون من الرجس، بإرادة منه سبحانه.

وقد رباهم الله سبحانه و جعلهم معلّمين للأمة هادين للبشر، كما ربّى أنبياءه و رسله لتلك الغاية.

فهل الأستاذ - حفظه الله - يوافقنا على هذا التفسير أم إنّ له في تفسير الرجس مذهباً آخر فليبينه لنا؟ ولا أظن أن يفسره بغير ما يفسره القرآن.

وعلى ضوء ذلك فأهل البيت - كانوا من كانوا - معصومون بنص هذه الآية، مطهرون من الذنب والعثرة في القول و العمل بإذن من الله سبحانه و إرادة حاسمة. وقد اتفقت الأمة على أنّ نساء النبي لسنّ بمعصومات، فإنّ الآيات الواردة في سورة الأحزاب، أوّلاً ثمّ في سورة التحريم ثانياً حيث يقول سبحانه: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(١) تثبت ذلك.

و هذا لا يعني أن نبخس حقّهن، و نترك تكريمهن فانهن أمّهات المؤمنين لهنّ من الحقوق ما شرعها الله في كتابه و سنة نبيّه المطهرة.

الثالث: ما هو المراد من «البيت»؟

لا شك أنّ ﴿البيت﴾ في هذه الآية محلاة باللام و هي تستعمل في تعريف

الجنس، والاستغراق، والعهد فيجب التدبّر في مفادها، فهل هي هنا لتعريف الجنس أو لبيان الاستغراق، أو أنها تشير إلى بيت معهود بين المتكلّم والمخاطب؟ أمّا الأوّل والثاني فلا سبيل إليهما، لأنّه سبحانه ليس بصدد بيان أنّ إرادته الحكيمه تعلقت باذهاب الرجس عن أهل جنس البيت أو كلّ البيوت في العالم، وذلك واضح لا يحتاج إلى الاستدلال إذ تكون حينئذٍ شاملة لبيوت عامة المؤمنين.

فتعيّن الثالث، وهو كون المراد (بيت واحد) معيّن معهود، بين المتكلّم والمخاطب (أي النبي ﷺ).

وعندئذٍ يجب علينا أن نحاول فهم ذلك البيت المعهود وأنّه ما هو؟ ولا يمكن لنا أن نطبقه على بيوت نساء النبي بشهادة أنّه سبحانه عند ما يذكر بيوتهنّ فإنّه يذكرها بصيغة الجمع إذ أنّ لهنّ بيوتاً لا بيت واحد.

والآية تركز على البيت الواحد، والدليل على تعدّد بيوتهنّ:

قوله سبحانه: ﴿وَقُرْآنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾^(٢).

فإنّنا نرى هنا أنّه لم يكن لنساء النبي بيت واحد بل بيوت عديدة.

ولم يكن للنبي أيضاً بيت واحد.

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ

لَكُمْ﴾^(٣).

فإنّنا نرى هنا أنّه لم يكن للنبي ﷺ بيت واحد بل بيوت عديدة

فما هو المراد - ياترى - بالبيت الذي جاء بصيغة المفرد؟

فعندئذ يجب على المفسر المحقق المجرد من كل عقيدة مسبقة تبين هذا البيت و تعيينه، فهذا البيت ليس من بيوت نسائه، ولا بيوت نفس النبي بشهادة ما مضى من أنّ القرآن عندما يتحدّث عن أزواج النبي و نفس النبي إنّما يتحدّث عن بيوت هن لا عن البيت الواحد. فلا محيص عن تفسيره بيت واحد معهود فأَي بيت ذاك؟ فعلى الأستاذ تعيينه.

هذا إذا كان المراد من البيت هو البيت المحسوس، أي البيت المادي وهناك احتمال آخر و هو أن يكون المراد منه هو مركز الشرف و مجمع السيادة و العزّ، وإن شئت قلت إذا أُريد منه بيت النبوة و بيت الوحي و مركز أنوارهما فلا يصح أن يراد منه إلّا المتتمون إلى النبوة و الوحي بوشائج روحية خاصة على وجه يصحّ مع ملاحظتها، عدّهم أهلاً لذلك البيت، و تلك الوشائج عبارة عن النزاهة في الروح و الفكر.

ولا يشمل كل من يرتبط ببيت النبوة عن طريق السبب أو النسب فحسب، و في الوقت نفسه يفتقد الأواصر الروحية الخاصة، و لقد تفتّن العلامة الزمخشري صاحب التفسير لهذه النكتة، فهو يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَعْبَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾^(١):

لأنّها كانت في بيت الآيات و مهبط المعجزات و الأمور الخارقة للعادات فكان عليها أن تتوقّر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، و أن تسبّح الله و تمجّده مكان التعجّب، و إلى ذلك أشارت الملائكة في قولها: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ...﴾ أرادوا أنّ هذه و أمثالها ممّا

يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالأنعام به يا أهل بيت النبوة.^(١)

و على ذلك لا يصح تفسير الآية بكل المتمين عن طريق الأواصر العائلية إلى بيت خاص حتى بيت فاطمة إلا أن تكون هناك الوشائج المشار إليها.

ولقد جرى بين «قتادة» ذلك المفسر المعروف وبين أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام مناظرة لطيفة أرشده الإمام فيها إلى هذا المعنى الذي أشرنا إليه قال - عند ما جلس الإمام الباقر عليه السلام - : لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدام ابن عباس فما اضطرب قلبي قدام واحد منهم ما اضطرب قدامك. قال له أبو جعفر الباقر عليه السلام : ويحك أتدري أين أنت؟ أنت بين يدي ﴿بَيَّوتِ أَذْنَ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿٢﴾ فأنت ثم ونحن أولئك. فقال قتادة: صدقت والله جعلني الله فداك، والله ما هي بيوت حجارة ولا طين.^(٣)

وما جاء في كلام باقر الأمة عليه السلام يحض المفسر فيها على البحث والتحقيق عن الذين يرتبطون بذلك البيت الرفيع بأواصر روحية معينة وبذلك يظهر وهن القول بأن المراد من البيت أزواج النبي صلى الله عليه وآله لأنه لم تكن تلك الوشائج الخاصة - باتفاق المسلمين - بينهم، وأقصى ما عندهن أنهم كن مسلمات مؤمنات.

١. الذهبي، ميزان الاعتدال: ٩٣-٩٧؛ سير اعلام النبلاء: ٥/١٨-٢٢.

٢. النور: ٣٦-٣٧.

٣. الشرح الحديدي: ٤/١٠٢؛ سير اعلام النبلاء: ٤/٤٢١-٤٢٧.

الرابع: الضمائر

نرى أنه سبحانه عندما يتحدث عن أزواج النبي ونسائه يذكرهن بصيغة جمع المؤنث، ولا يذكرهن بصيغة الجمع المذكر، فإنه سبحانه يأتي في تلك السورة من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٤ باثنين وعشرين ضميراً... مؤنثاً مخاطباً بها نساء النبي وإليك الإيعاز إليها:

١. كُتِبْنَ؛ ٢. تَرَدْنَ؛ ٣. تَعَالَيْنَ؛ ٤. امْتَعَكْنَ؛ ٥. أُسْرِحَكْنَ^(١).

٦. كُتِبْنَ؛ ٧. تَرَدْنَ؛ ٨. مَنَكْنَ^(٢).

٩. مَنَكْنَ^(٣).

١٠. مَنَكْنَ^(٤).

١١. لَسْتِنَ؛ ١٢. اتَّقِيْتِنَ؛ ١٣. فَلَا تَخْضَعْنَ؛ ١٤. وَقُلْنَ^(٥).

١٥. وَقُرْنَ؛ ١٦. بِيُوتِكُنَّ؛ ١٧. تَبَرَّجْنَ؛ ١٨. اقْمِنَ؛ ١٩. آتَيْنَ؛

٢٠. اطْعِنَ^(٦).

٢١. وَاذْكُرْنَ؛ ٢٢. فِي بِيُوتِكُنَّ^(٧).

نرى أنه سبحانه عندما يتحدث عن نساء النبي يذكرهن بهذه الضمائر، مع أننا نرى أنه سبحانه عند ما يذكر أهل البيت يذكرهم بضمائر المذكر، ويقول: ﴿لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ﴾، ﴿وَيُطَهَّرَكُمُ﴾.

فما هو وجه العدول في هذه الآية عن السياق الوارد في الآيات المتقدمة

٢. الأحزاب: ٢٩.

٤. الأحزاب: ٣١.

٦. الأحزاب: ٣٣.

١. الأحزاب: ٢٨.

٣. الأحزاب: ٣٠.

٥. الأحزاب: ٣٢.

٧. الأحزاب: ٣٤.

والمتأخرة عنها؟

و ما يقوله الأستاذ من أنّ أهل السنة يجوزون في لغة العرب مخاطبة الجمع المؤنث، بصيغة جمع المذكر تعبيراً لعلو المقام، والمبالغة، لو كانت صحيحة، فما هو وجه العدول في مورد واحد عما ورد في اثنين عشرين مورداً؟!

أليس هذا العدول لذلك التبرير المزعوم موجباً للالتباس و وقوع المخاطب في الاشتباه؟

إلى هنا ثبت أنّ الآية لا تهدف إلى نساء النبي، و إنّما تهدف إلى بيت واحد وإلى أهله خاصة.

فعند ذلك يجب علينا أن نميط الستر عن وجه الحقيقة عن طريق السنة النبوية.

السنة النبوية تميط الستر عن وجه الحقيقة

إنّ للنبي ﷺ عناية وافرة بتعريف أهل البيت لم ير مثلها إلّا في أمور نادرة حيث قام بتعريفهم بطرق مختلفة ، وإليك بيانها على سبيل الإيجاز والاختصار .

لقد قام النبي ﷺ بتعريف أهل البيت بطرق ثلاثة:

أولاً: صرح بأسماء من نزلت الآية في حقهم، حتى يتعين المنزل فيه باسمه ورسمه.

ثانياً: قد أدخل جميع من نزلت الآية في حقهم تحت الكساء و منع من دخول غيرهم.

ثالثاً: كان يمر ببيت فاطمة عدّة شهور كلّما خرج إلى الصلاة فيقول: الصلاة أهل البيت ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً﴾.

و نذكر من كل طائفة نماذج:

أما الأولى: أخرج الطبري في تفسير الآية عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: نزلت الآية في خمسة: في وفي علي رضي الله عنه و حسن رضي الله عنه ، وحسين رضي الله عنه، و فاطمة رضي الله عنها، ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

و قد رويت في هذا المجال روايات فمن أراد فليرجع إلى تفسير الطبري والدر المنثور للسيوطي.

وأما الثانية: فقد روى السيوطي و أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و مسلم و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله غداة و عليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن و الحسين رضي الله عنهما فأدخلهما معه، ثم جاء علي فأدخله معه ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

ولو لم تذكر فاطمة في هذا الحديث فقد جاء في حديث آخر، حيث روى السيوطي قال: و أخرج ابن جرير و الحاكم و ابن مردويه عن سعد قال: نزل على رسول الله الوحي فأدخل علياً و فاطمة و ابنيهما تحت ثوبه، قال: اللَّهُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي وَأَهْلَ بَيْتِي.

و في حديث آخر جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة و معه حسن و حسين، و علي حتى دخل فأدنى علياً و فاطمة فأجلسهما بين يديه و أجلس حسناً و حسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه و انا مستدبرهم ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وأما الطائفة الثالثة: فقد أخرج الطبري عن أنس أن النبي كان يمرّ بيت فاطمة ستة أشهر كلّما خرج إلى الصلاة فيقول الصلاة أهل البيت ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ..

و للوقوف على مصادر هذه الروايات لاحظ تفسير الطبري ، ج ٢٢ ، ص ٧-٥ ، و الدر المنثور: ج ٥ ، ص ١٩٨-١٩٩ ، و الروايات تربو على أربع و ثلاثين رواية ، و رواها من عيون الصحابة: أبو سعيد الخدري ، أنس بن مالك ، ابن عباس ، أبو هريرة الدوسي ، سعد بن أبي وقاص ، واثلة بن الاسقع ، أبو الحمراء أعني هلال بن حارث ، أمهات المؤمنين عائشة و أم سلمة .

و رواه من أصحاب الصحاح: مسلم في صحيحه : ج ٧ ، ص ١٢٢-١٢٣ و الترمذي في سننه .

ولاحظ جامع الأصول لابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٠٣ .

و بالإمعان في ما ذكرنا من النصوص تقف على ضعف قول الأستاذ حيث يقول: إنّ حديث الرسول جاء بصيغة الطلب، اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، و هي تفيد عدم شمول الآية للأربعة وقت نزول النص، فدعا الرسول ربه بأن يشملهم أيضاً بحكمه .

فإنّ ما ذكره الأستاذ إنّما جاء في بعض صور هذا الحديث، و لكن الكثير على خلاف هذا فإنّ صيغة (أذهب) جاءت في قليل من النصوص والصور، و أمّا الأكثر فمشمتمل على أنّ النبي جلّلهم تحت الكساء و تلا الآية المذكورة .

فقد أخرج مسلم عن عائشة أنّها قالت: خرج النبي ﷺ وعليه مرط مرجل أسود فجاءه الحسن فأدخله، ثمّ جاءه الحسين فأدخله، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثمّ جاء علي فأدخله، ثمّ قال: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً﴾ .

ولو افترضنا صحّة ما ورد من صيغة الطلب، فهذا لا يدل على عدم الشمول، و إنّما هو دعاء على استمرار الشمول كقوله سبحانه: ﴿إهدنا الصراط

المستقيم ﴿فَإِنَّهُ يَتْلُوهُ النَّبِيُّ وَالْوَصِيُّ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ، وَ لَيْسَ مَعْنَاهُ خُرُوجُنَا عَنْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ حَتَّى يَهْدِيَنَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ إِلَيْهِ.

بقي هنا كلام و هو أنَّ لفيضاً من التابعين ذكرُوا أنَّ الآية نزلت في حقِّ نساء النبي و أزواجه ، ولكن هذه الرواية تصل إلى عكرمة الخارجي الحروري^(١) و عروة ابن الزبير المعروف بالانحراف عن علي عليه السلام^(٢) و مقاتل بن سليمان^(٣) الذي يعد من أركان المشبهة.

عود إلى بدء

قد تعرفت على منطق الشيعة في نزول الآية في آل العباء و الكساء و دلالتها على عصمتهم من الذنب و العصيان، غير أنَّ الكاتب القدير محمد الألوسي قد استبعد نزولها في حقهم بأمرٍ ربما مضى تحليلها في ثنايا البحث و لإيضاح المطلب نرجع إلى تحليل ما استند إليه ثانياً.

قد مضى أنَّه استند في تقريب مختاره إلى الأمور التالية:

١. سياق الآيات يمنع عن نزولها في غير أزواج النبي ﷺ.
 ٢. أنَّ تذكير الضميرين في آية التطهير مع أنَّ المقصود هو نساء النبي ﷺ هو لأجل الإشعار بعلو المقام و المبالغة.
 ٣. حديث الرسول ﷺ جاء بصيغة الطلب، و هذا دليل على عدم شمول الآية لآل العباء و لو شملت الآية لهم لجاء بصيغة الشكر.
 ٤. الإرادة التكوينية المتعلقة بالعصمة تسلب الاختيار عن المعصوم و لا يكون عمله خاضعاً للشواب و العقاب.
- و إليك تحليل تلك الأمور:

١. ميزان الاعتدال: ٩٣/٣.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦٩/٤.

٣. ميزان الاعتدال: ١٧٣/٤.

الف: مشكلة السياق

إنّ القول بنزول الآية في آل الكساء لا توجد أيّ مشكلة في سياقها شريطة الوقوف على أسلوب البلغاء في كلامهم و خطاباتهم. فإنّ من عادتهم الانتقال من خطاب إلى غيره ثمّ العود إليه مرّة أخرى.

قال صاحب المنار: إنّ من عادة القرآن أن ينتقل بالإنسان من شأن إلى شأن ثمّ يعود إلى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة.^(١)

وقد اعترف الكاتب بهذه الحقيقة أيضاً عند بحثه في آية الولاية التي سيوافيك البحث عنها بعد الفراغ من آية التطهير حيث قال ما هذا نصّه:

الأصل عند أهل السنّة أنّ الآية تعتبر جزءاً من سياقها إلّا إذا وردت القرينة على أنّها جملة اعتراضية تتعلّق بموضوع آخر على سبيل الاستثناء وهو أسلوب من أساليب البلاغة عند العرب جاءت في القرآن الكريم على مستوى الإعجاز.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إنّ الآية من القرآن يكون أولها في شيء وآخرها في شيء».^(٢)

فعلى سبيل المثال، أنّه سبحانه يقول في سورة يوسف حاكياً عن العزيز أنّه بعدما واجه الواقعة في منزله قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكَ إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.^(٣)

تري أنّ العزيز يخاطب زوجته بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكَ﴾ وقبل أن يفرغ من كلامه معها يخاطب يوسف بقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ثمّ يرجع إلى

١. المنار: ٢/ ٤٥١.

٢. الكاشف: ٦/ ٢١٧.

٣. يوسف: ٢٨-٢٩.

الموضوع الأول، و يخاطب زوجته بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لَذَنْبِكِ﴾ فقوله: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ جملة معترضة، وقعت بين الخطابين، و المسوّغ لوقوعها بينهما كون المخاطب الثاني أحد المتخاصمين و كانت له صلة تامة بالواقعة التي رفعت إلى العزيز.

و الضابطة الكلية لهذا النوع من الخطاب هو وجود تناسب المقتضي للعدول من الأول إلى الثاني ثمّ منه إلى الأول و هي موجودة في الآية فانه سبحانه يخاطب نساء النبي بالخطابات التالية:

١. ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مَّيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾^(١).

٢. ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾^(٢).

٣. ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾^(٣).

فعند ذلك صحّ أن ينتقل إلى الكلام عن أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً و ذلك لوجهين:

١- تعريفهن على جماعة بلغوا في التورع و التقى الذروة العلياء و في الطهارة عن الرذائل و المساوىء، القمة، و بذلك استحقوا أن يكونوا أسوة في الحياة و قدوة في مجال العمل، فيلزم عليهنّ أن يقتدين بهم، و يستضئ بنورهم.

٢- كان النبي ﷺ محوراً للطائفتين المجتمعتين حوله ﷺ.

الأولى: أزواجه و نساؤه.

الثانية: بنته و زوجها و أولادها.

فالنبي ﷺ هو الرابط الذي تنتهي إليه تلك المجموعتان، فنحن ننظر إلى

كَلَّ طائفة مجرّدة عن الأخرى و لأجل ذلك نرى انقطاع السياق، إذا فسرنا أهل البيت بفاطمة وزوجها و بنيتها.

ولكن لما كان المحور للمجموعتين هو النبي ﷺ والله سبحانه يتحدث فيها يرتبط بالنبي من بيوت و أهلها، فعند ذلك تترأى المجموعتان كمجموعة واحدة حول النبي و هو الرابط بينهما، فيعطى لكل جماعة حكمها فيتحدث عن نسائه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ خَيْرٌ مِنْكُمْ وَأَشْهَدُ بِمَا تَدْعُونَ فِي نِسَائِهِمْ خَيْرٌ مِنْكُمْ﴾. يا نساء النبي من يأت. يا نساء النبي لستنّ الخ.

كما أنّه يتحدث عن المجموعة الأخرى الموجودة في تلك الجماعة بقوله: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ الصَّافِينَ﴾.

فالباعث للجمع بين الطائفتين في تلك المجموعة من الآيات و في ثنايا آية واحدة إنّما هو انتساب الكلّ إلى النبي ﷺ وحضورهما حوله، و ليس هناك أي مخالفة للسياق.

ب: تذكير الضمائر لأجل التعبير عن علو المقام

قد تعرفت في ثنايا الكلام ضعف هذا الاعتذار، والواجب ان لا نعود إليه.

وقد عرفت أنّ مجموعة الآيات الواردة في هذا المضمار تشتمل على اثنين وعشرين ضميراً بصيغة الجمع المؤنث كلّها ترجع إلى نساء النبي ﷺ فعند ذلك يطرح هذا السؤال فأى سبب دعا المتكلم إلى الإيعاز لعلو مقامهم و المبالغة في تكريمهم في هذا المورد دون الموارد الأخرى مع أنّ المورد لا يقتضي الإيعاز إلى علو مقامهم، فترى أنّ المتكلم يتشدد في كلامه معهم حيث يقول:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ

ضِعْفَيْنِ ... ﴿^(١)﴾.

و يقول: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ...﴾ ﴿^(٢)﴾.

و يقول: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ...﴾ ﴿^(٣)﴾. أفي هذا المقام الذي أخذ المتكلم يندد بهنّ و يطلب منهنّ أن لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى يستحق الإيعاز بتكريمهنّ و بيان علو مقامهنّ!

ترى أنّ لحن الكلام لحن التشدد و التنديد و مثل هذا المقام لا يناسب الإيعاز بعلو مقامهنّ و الإشارة إلى تكريمهنّ خصوصاً أنّ العدول يوجب الالتباس و الذي دعا الكاتب إلى التمسك بهذا الحبل الموهن هو صيانة عقيدته التي نشأ عليها منذ نعومة أظفاره إلى يومه هذا و إلّا فالأستاذ كاتب قدير يعلم مواقف التكريم والتقدير عن غيرها.

ج: حديث الرسول جاء بصيغة الطلب

يقول الأستاذ الآلوسي: إنّ حديث الرسول جاء بصيغة الطلب، و قال: «اللهم اذهب» و لو كانت الآية شاملة لهم لكان المناسب هو صيغة الشكر لا صيغة الطلب.

يلاحظ عليه: أنّ الأستاذ انتقى من أحاديث الرسول ما جاء فيها صيغة الطلب و ترك غيرها و قد عرفت لفيماً من الأحاديث و كيف أنّ الرسول ﷺ تكلم فيها مخبراً عن ذهاب الرجس عنهم لا طالباً، و فيما مضى كفاية.

١. الأحزاب: ٣٠.

٢. الأحزاب: ٣٢.

٣. الأحزاب: ٣٣.

د: الإرادة التكوينية تسلب الاختيار

هذا هو السبب المهم لما ذهب إليه الأستاذ من أنّ الإرادة في الآية تشريعية لا تكوينية، وذلك لأنّ الإرادة التكوينية تسلب الاختيار وبالتالي لا تصبح العصمة فخراً، لأنّ الإنسان مع هذه الإرادة يصبح بلا اختيار.

يلاحظ على هذا الكلام: أنّ القول بالعصمة لو كان سالباً للاختيار فالإشكال يسري إلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم سيد المرسلين فانّهم معصومون من الخطأ في إبلاغ الأحكام ومن العصيان في تطبيق الشريعة على الساحة باتفاق الأمة إلّا من شذ عن لا يعبأ به فلو كانت العصمة سالبة للاختيار فما قيمة عصمتهم وما قيمة اجتنابهم عن المعاصي.

وهذا الإشكال ليس جديداً وإنّما هو مطروح في الموسوعات الكلامية والكتب التفسيرية وقد قام المحققون من علماء الإسلام بالإجابة عنه وقالوا:

إنّ العصمة لا تسلب الاختيار عن الإنسان، فإنّ المعصوم قادر على اقتراف المعاصي وارتكاب الخطايا حسب ما أُعطي من القدرة والحرية غير أنّ وصوله إلى الدرجة العليا من التقوى واستشعاره بعظمة الخالق يصدّه عن اقترافها.

وإن شئت قلت: إنّ المعصوم قد بلغ في العلم بآثار المعاصي مرحلة يشاهد آثارها السيئة مشاهدة حضورية لا يتسرب إليها الشك والترديد - يقول سبحانه:

﴿كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾^(١).

ومثل هذا العلم يصدّ الإنسان عن ارتكاب المعاصي، ولأجل تقريب الفكرة نأتي بالمثال التالي:

إنّ الوالد العطوف بالنسبة إلى قتل ولده معصوم لا يقدم عليه، ومع ذلك

هو قادر عليه، أما أنّه قادر فلا شكّ أنّ بإمكانه أن يأخذ بالسكين و يذبحه كما يذبح الكبش، و أمّا أنّه لا يقدم عليه و لو اعطي له الكنوز المكنوزة و المناصب المرموقة، لأنّ عطفه و حنانه قد ملئ بهما قلبه فلا يبادل به شيء.

فالعلم بآثار الموبقات تعطي ملكة العصمة، و لكن لا تغير الطبيعة الإنسانية، المختارة في أفعالها الإرادية، ولا يخرجها إلى ساحة الإجمار و الاضطرار. هذا إجمال ما أوضحناه في موسوعتنا التفسيرية. ^(١)

آية الولاية و زعامة الإمام علي عليه السلام

قال الأستاذ الألوسي:

لم تزل الشيعة عن بكرة أبيهم يستدلّون على إمامة الإمام علي و قيادته وزعامته بعد النبي ﷺ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (و قد سقط في نص المقال جملة «و يؤتون الزكاة») ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ^(٢).

و إليك عرضاً موجزاً لاستدلالهم:

استدلت الشيعة بهذه الآية على أنّ علياً عليه السلام وليّ المسلمين بعد رسول الله ﷺ قائلين بأنّ الآية تعدّ الولي - بعد الله و رسوله - الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة في حال الركوع، و قد تضافرت الروايات بأنّ علياً عليه السلام تصدّق بخاتمه و هو راعع فنزلت الآية.

أخرج الحفاظ و أئمة الحديث عن أنس بن مالك و غيره أنّ سائلاً أتى مسجد النبي ﷺ و عليّ عليه السلام راعع فأشار بيده للسائل أي اخلع الخاتم من يدي.

قال رسول الله : يا عمر وجبت. قال: بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله ما وجبت؟! قال: وجبت له الجنة والله، و ما خلعه من يده حتى خلعه الله من كلِّ ذنب و من كلِّ خطيئة. قال: فما خرج أحدٌ من المسجد حتى نزل جبرئيل بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾. فأنشأ حسان بن ثابت يقول:

أبا حسن تفديك نفسي و مهجتي و كلّ بطيءٍ في الهدى و مسارع
أيذهب مدحي و المحيّن ضايعاً؟! وما المدح في ذات الإله بضائع
فأنت الذي أعطيت إذ أنت راکعٌ فدتك نفوس القوم يا خير راکع
بخاتمك الميمون يا خير سيّد و يا خير شارٍ ثمّ يا خير بائع
فأنزل فيك الله خير ولاية و بيّنها في محكمات الشرائع^(١)

و قد أخرج ابن جرير الطبري^(٢) والحافظ أبوبكر الجصاص الرازي في أحكام القرآن^(٣) و الحاكم النيسابوري (المتوفى ٤٠٥) ^(٤) و الحافظ أبو الحسن الواحدي النيسابوري (المتوفى ٤٦٨) ^(٥) و جار الله الزنجشيري (المتوفى ٥٣٨) إلى غير ذلك من أئمة الحفاظ و كبار المحدثين ربما ناهز عددهم السبعين ، وهم بين محدث ومفسر و مؤرخ و يطول بنا الكلام لو قمنا بذكر أسمائهم ونصوصهم، و كفانا في ذلك مؤلفات مشايخنا في ذلك المضمار.^(٦)

١. رواه السيد البحراني عن الحافظ أبو نعيم الاصبهاني عن كتابه الموسوم بـ «نزل القرآن في أمير المؤمنين» ص ١٠٦.

٢. تفسير الطبري/٦/ ١٨٦.

٣. أحكام القرآن: ٥٤٢/٢ و رواه من عدة طرق. ٤. معرفة أصول الحديث، ص ١٠٢.

٥. أسباب النزول، ص ١٤٨.

٦. لاحظ المراجعات للسيد شرف الدين العاملي، المراجعة الأربعون، ص ١٦٢-١٦٨ و الغدير لشيخنا الأمين: ١٦٢/٣ و قد رواه من مصادر كثيرة.

و لا يمكن لنا إنكار هذه الروايات المتضاربة لو لم تكن متواترة، فإن اجتماعهم على الكذب أو على السهو والاشتباه أمر مستحيل.

و المراد من الولي في الآية المباركة هو الأولي بالتصرف كما في قولنا : فلان ولي القاصر، و قول الرسول ﷺ «آيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل» وقد صرح اللغويون و منهم الجوهري في صحاحه بأن كل من ولي أمر أحد فهو وليه ، فيكون المراد: أنّ الذي يلي أموركم فيكون أولى بها منكم إنّما هو الله عزّ وجلّ و رسوله و من اجتمعت فيه هذه الصفات: الإيمان و إقامة الصلاة، و إيتاء الزكاة في حال الركوع. و لم يجتمع يوم ذاك إلّا في الإمام علي حسب النصوص المتضاربة. و في حقّه نزلت هذه الآية.

و الدليل على أنّ المراد من الولي هو الأولي بالتصرف أنّه سبحانه أثبت في الآية الولاية لنفسه و لنبيه و لوليه على نسق واحد، و ولاية الله عزّ وجلّ عامة فولاية النبي و الولي مثلها و على غرارها. غير أنّ ولاية الله، و ولاية ذاتية و ولاية الرسول و الولي مكتسبة معطاة، فهما يليان أمور الأمة بإذنه سبحانه.

ولو كانت الولاية المنسوبة إلى الله تعالى في الآية غير الولاية المنسوبة إلى الذين آمنوا لكان الأنسب أن تفرد ولاية أخرى للمؤمنين بالذكر، دفعاً للالتباس كما نرى نظيرها في الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(١).

نرى أنّه سبحانه كرر لفظ الإيمان، و عدّاه في أحدهما بالباء، و في الآخر باللام لاختلاف في حقيقة إيمانه بالله، و للمؤمنين حيث إنّ إيمانه بالله سبحانه إيمان جدّي و تصديق واقعي، بخلاف تصديقه للمؤمنين المخبرين بقضايا

متضادة حيث لا يمكن تصديقهم جميعهم تصديقاً جدياً، والذي يمكن هو تصديقهم بالسماع و عدم الرفض و الرد، ثم التحقيق في الأمر، و ترتيب الأثر على الواقع المحقق.

و مما يكشف عن وحدة الولاية في الآية المبحوثة أنه سبحانه أتى بلفظ «وليكم» بالافراد، و نسبه إلى نفسه و إلى رسوله و إلى الذين آمنوا، و لم يقل: «وإنما أولياؤكم» و ما هذا إلا لأن الولاية في الآية بمعنى واحد و هو: الأولى بالتصرف، غير أن الأولوية في جانبه سبحانه بالأصالة و في غيره بالتبعية.

وعلى ضوء ذلك يُعلم أنّ القصر والحصر المستفاد من قوله: «إنّما» لقصر الأفراد، و كأنّ المخاطبين يظنون أنّ الولاية عامّة للمذكورين في الأمة و غيرهم، فأفرد المذكورون للقصر، و أنّ الأولياء هؤلاء لا غيرهم.

ثم يقع الكلام في تبين هؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بالولاية و هم ثلاثة:

١. الله جلّ جلاله.

٢. و رسوله الكريم ﷺ.

وهما غنيان عن البيان.

وأما الثالث فبما أنّه كان مبهماً بيّنه بذكر صفاته و خصوصياته الأربع:

١. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٢. ﴿الَّذِينَ يقيمون الصلاة﴾.

٣. ﴿وَيؤتُونَ الزكاة﴾.

و لا شك أنّ هذه السمات، سمات عامة لا تميز الولي عن غيره.

فالمقام بحاجة إلى مزيد توضيح يجسّد الولي و يحصره في شخص خاص لا يشمل غيره، و لأجل ذلك قيّده بالسمة الرابعة أعني قوله: ﴿وهم راعون﴾.

وهي جملة حالّة لفاعل يؤتون، وهو العامل فيها. وعند ذلك انحصر في شخص خاص على ما ورد في الروايات المتضاربة.

هذا هو منطق الشيعة في تفسير الآية لا تتجاوز في تفسيرها عن ظاهرها قيد أنملة.

نعم نقل الكاتب القدير نظرية أخرى وهي لأهل السنة فقال: إنّ هذه الآية لم تنزل بهذا السبب رغم ورود هذه الرواية (نزولها في حقّ عليّ) عندهم، وفي كتبهم وتفسيرهم، مرجحين في ذلك روايات أخرى تفيد نزولها بحقّ الذين كانت بينهم وبين اليهود في المدينة تحالفات عُقدت قبل الإسلام وقبل الهجرة فمنهم من رفض فكّ ارتباطه باليهود حرصاً منه على موالاتهم، ومنهم من أنهى هذا التحالف قائلاً بولاية الله ورسوله والمؤمنين عليه معززين رأيهم الذي رجحوه على جملة اعتبارات:

منها أنّ كلمة الولاية مشتركة في معانيها، فهي مثلما تعني الرئاسة والزعامة تعني الولاء والنصرة والحب والود والتحالف وأنّ هذا المعنى الأخير هو المرجح عند نزول الآية لوجود تحالف كان قائماً فعلاً، وعدم وجود ولاية لليهود في جنبه بمعنى الزعامة والقيادة.

ولذلك رأى أهل السنة أنّ هذا الترجيح أقرب لواقع الحال في حينه.

إضافة إلى ذلك فإنّ السياق وهو الآيات التي سبقت هاتين الآيتين والآيات التي أعقبتهما جاءت تحذر من كيد اليهود وتندد بمن أصر على استمرار التحالف معهم، أمثال عبد الله بن أبي، زعيم المنافقين في حينه. والأصل عند أهل السنة أنّ الآية تعتبر جزءاً من سياقها إلا إذا وردت القرينة على أنّها جملة اعتراضية تتعلق بموضوع آخر على سبيل الاستثناء، وهو أسلوب من أساليب البلاغة عند العرب جاءت في القرآن الكريم على مستوى الإعجاز.

عرض و تحليل

هذا نصّ الأستاذ وحاصله يرجع إلى أمرين:

١. أنّ لفظ الولاية مشترك بين عدّة معانٍ، فلا سبيل إلى حملها على القيادة والزعامة إلاّ بدليل.

٢. أنّ سياق الآيات يؤكد على حملها على ذلك المعنى أي النصر والود والحب والتحالف. والأخير هو المناسب.

هذا عرضاً موجزاً لمقاله وإليك تحليله:

يلاحظ على الوجه الأول:

نحن نفترض أنّ الولاية مشتركة بين المعاني المختلفة، ولكن القرائن القاطعة تدل على أنّ المراد منها هو التصرف، لما عرفت.

أولاً: أنّ الولاية بالمعنى الواحد نسب إلى الله وإلى رسوله وإلى الذين آمنوا.

أفصح لنا أن نحصر ولاية الله سبحانه بالنصر والود والحب والتحالف، فإنّ ولايته سبحانه ولاية عامة تشمل جميع ما يعدّ مظاهرها.

فإذا كانت الولاية منسوبةً بمعنى واحد إلى الثلاثة فيجب أن تفسر بمعنى واحد، لا أن تُفرز الولاية المنسوبة إلى الله عما نسبت إلى الآخرين.

وثانياً: لو فسرنا الولاية بالنصر والود والتحالف، فيلزم اتحاد الولي والمولّى عليه، إذ لو كان المؤمنون المصلون المزكون أولياء فمن المولّى عليه إذن؟

وبعبارة أخرى أنّه سبحانه يعدّ جميع المؤمنين أولياء فيجب أن يكون هناك مولّى عليه غيرهم وليس هناك شيء... و « لا قرية وراء عبادان ».

ثالثاً: لو فسرنا الولاية بالنصر والود والتحالف، فالمؤمنون كلّهم في صفّ واحد، فلماذا قيد الولاية بالزكاة في حالة الركوع؟

فلو افترضنا أنَّ مؤمناً صَلَّى و زَكَّى في غير حال الصلاة - و ما أكثرهم - أو يصح لنا إخراجهم عن عداد الأولياء.

كَلْ ذلك يدلنا بوضوح على أنَّ الآية وردت في جمع أو فرد خاص عبر عنه بصيغة الجمع، و ما أكثر نظيره في القرآن حيث عبر عن المفرد بالجمع.

قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ والقائل هو فتحاس اليهودي^(١).

قال سبحانه: ﴿و مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾^(٢). نزل في رجل من المنافقين^(٣).

إلى غير ذلك من الآيات التي يطول المقام بتقلها.

فقد وردت صيغة الجمع في عشرين آية و أُريد منها شخص واحد.

فهذه الوجوه الثلاثة تصدنا عن تفسير الولاية بغير الزعامة و القيادة، فإنها المعنية بقوله سبحانه: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَلِيُّ﴾^(٤).

وقال سبحانه: ﴿مَالِكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٥).

وقال سبحانه: ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ﴾^(٦).

وقال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٧).

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨).

غير أنَّ ولاية الله سبحانه ولاية ذاتية، و ولاية غيره بالجعل و النصب

١. راجع تفسير القرطبي: ٢٩٤ / ٤.

٢. التوبة: ٦١.

٣. تفسير القرطبي: ١٩٢ / ٨.

٤. الشورى: ٩.

٥. السجدة: ٤.

٦. الشورى: ١٠١.

٧. الشورى: ٤٤.

٨. آل عمران: ٦٨.

والإفاضة.

و يشير إلى ولاية الرسول بقوله: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(١).
و إلى ولاية الرسول وأولي الأمر بقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢).

و من يريد تفسير ولاية الله و الرسول بالحب و الحلف و قصرها في إطار ضيق بالنصر، فقد أخرج الآية عن ذروة البلاغة إلى حدّ نازل.

فكما أنّ السياق جزء من التفسير، و سبب يستعان به على كشف المراد، فكذلك الخصوصيات الموجودة في نفس الآية أدل دليل يرشد القارئ إلى التعمق في مراده سبحانه.

فعلى من يفسر الآية بغير الأولوية في التصرف فعليه الإجابة عن الأمور الثلاثة السالفة.

هذا كلّه حول الأمر الأول و أمّا الكلام في السياق الذي تمسك به فنقول:

مشكلة السياق عند الكاتب

إنّ الكاتب القدير إنّما ترك الروايات المتضاربة لأجل صيانة السياق، وإليك توضيح دليله و تحليله:

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

٢. النساء: ٥٩.

١. الأحزاب: ٦.

٣. المائدة: ٥١.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(١).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مِّنْهُمْ مِّنِينٌ﴾^(٢).

ذكر المفسرون أنَّ نزول الآية الأولى في حقَّ عبادة بن صامت الخزرجي و عبد الله بن أبي حيث إنَّ الأوَّل تبرأ من أوليائه من اليهود، بخلاف الثاني فإنه لم يتبرأ من ولاية اليهود، وقال: لأنِّي أخاف الدوائر.

و ذكروا في سبب نزول الآية الثانية: أنه لما تصدَّق عليٌّ عليه السلام بخاتمته في الصلاة و هو راكع نزلت الآية الكريمة.

و ذكروا في سبب نزول الآية الثالثة أنها نزلت في رفاعه بن زيد و سويد بن الحرث اللذين أظهرهما إسلامهما ثمَّ نافقا، و كان رجال من المسلمين يوادونها فنزلت الآية.

فبما أنَّ الولاية في الآية الأولى ليست بمعنى الزعامة بل بمعنى الود والنصر أو الحلف كما هو الحال في الآية الثالثة، فمقتضى السياق يقتضي تفسير الآية الثانية بهما لا بالزعامة.

هذا ما يتبناه الكاتب و قد سبقه الرازي في تفسيره.^(٣) غير أنَّنا نركز على أمرين و بهما يتجلى أنَّ تفسير الولاية في الآية الثانية بالزعامة لا يستلزم مخالفة السياق.

الأوَّل: أنَّ الغوص في غمار اللغة و مجاميع الأدب و جوامع العربية يدفعنا إلى

١. المائدة: ٥٥.

٢. المائدة: ٥٧.

٣. التفسير الكبير: للفخر الرازي: ١٢/٢٦.

القول بأنّه ليس للولي في الآيات الثلاث إلّا معنى واحد وهو الأول بالشّيء ولو أُطلق على الناصر والمحِب والزعيم فإنّما أُطلق بمعنى واحد، ولو كان هناك اختلاف فإنّما هو في جانب المتعلّق.

و بعبارة واضحة: ليس للولي معان مختلفة وضع لها اللفظ بأوضاع متعددة حتى يصبح اللفظ مشتركاً لفظياً بين المعاني المتباينة. بل هو موضوع لمعنى واحد جامع بين مصاديق و موارد مختلفة، فلو كان هناك اختلاف فإنّما هو في المتعلق والمورد، لا في المفهوم والمعنى.

فالربّ ولي لأنّه أولى بخلقه من أي قاهر عليهم حيث خلق العالمين كما شاءت حكمته و يتصرف فيهم بمشيئته.

و كل من المحِب و الناصر ولي، لأنّ كلّاً منهما أولى بالدفاع عمّن أحبه ونصره.

و الزعيم و القائد ولي، لأنّه أولى بأن يتصرف في مصالح من تولّى أمره. فإذا كان للفظ معنى واحد فلا يكون هناك أي اختزال مهما ذهبنا إلى التفريق بين الآيات الثلاثة، فإنّ المفروض أنّ لكلّ شأنًا و سبباً للنزول، و بينها جامع وهو الأولوية المطلقة كما في الآية الثانية و المقيدة كما في الآية الأولى والثالثة.

هذه حقيقة لغوية قد نصّ عليها المحقّقون. قال الإمام أبو الفتح المطرزي: الولي: كلّ من ولي أمر واحد فهو وليه، و منه ولي اليتيم أو القليل: مالك أمرهما، و والي البلد: ناظر أمور أهله و مصدرهما الولاية (بالكسر).^(١)

و ألقت نظر الأستاذ السامي إلى أنّ النهي عن تولي اليهود و النصارى والكفار في الآيات التي تقدّمت أو تأخّرت، لا يرجع إلى التولي المجسّد في مجرد

العطف القلبي ولا يتلخص في الحنان الروحي، فاتهما أمران قلبيان خارجان عن الاختيار، فإن حب الأب أو الأم وإن كانا كافرين أمر جبلي لا يصح النهي عنه بل يرجع إلى التولي المستعقب، للتصرف في أمور المسلمين والتدخل في مصالحهم الذي ليس إلّا من شأنه سبحانه ورسوله ومن عيّنه الرسول بأمر منه.

فآيات بأجمعها سبيكة واحدة، تصد المؤمنين عن اتخاذ أيّ ولي - غير الله ورسوله - يتصرف في أمورهم وإن كان سببه التحالف فلو صار الحلف بين المسلمين والكافرين سبباً لولاية الكفار على المسلمين وتدخلهم في أمورهم فهو ممنوع لأنه لا ولي للمؤمنين إلّا الله ومن نصبه سبحانه.

والذي يرشدنا إلى أنّ الولاية في الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ بمعنى الزعامة والقيادة، هو أنّه سبحانه يقول بعدها: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١) فيطرح حزب الله أولاً، ثم غلبته على سائر الأحزاب، والكل يناسب القيادة والزعامة، لا مجرد الحب والود، أو النصر والحلف.

الثاني: إنّ في نفس الآيات الثلاثة قرينة واضحة على الاختلاف في تفسير الولي (لو قلنا بأنّه اختلاف في المفهوم)، وذلك أنّه سبحانه يجمع لفظ الولي في الآية الأولى والثالثة.

فقال في الأولى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾.

وقال في الثالثة: ﴿وَالْكَافِرُ أَوْلِيَاءُ﴾.

ولكنّه نرى أنّه سبحانه أتى بها بلفظ المفرد في ثمانية الآيات.

وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ...﴾ فما هو الوجه في الإتيان بالجمع في الآيتين

والإفراد في الثانية؟

و الإمعان فيه يدلنا على التغاير في تطبيق معنى الولي، و ذلك لأنّ الولاية في الآيتين ترجع إلى الحب والنصر و بما أنّها متعددة حسب تعدد المحب و الناصر فهناك ولايات و أولياء، و لأجل ذلك أتى سبحانه بلفظ الجمع.

وأما الآية الثانية فهناك ولاية إلهية سهاوية خصّها سبحانه بالذات لنفسه وأفاضها بالتشريع على رسوله و من جاء بعده و لذلك أتى بلفظ المفرد فيحمل على الولاية الملازمة للقيادة والزعامة.

و آخر كلمة أقدمها إلى الأستاذ، أنّه لو كانت الولاية بمعنى الحب و النصر فما معنى تقييد الولي بايتاء الزكاة و هم راکعون فإنّ كلّ مؤمن يقيم الصلاة و يؤتي الزكاة ولي لأبناء أمته، زكّى في حال الركوع أم لا، مع أنّنا نرى أنّه سبحانه يشير إلى الولي بعلامة خاصة تميّزه عن غيره و هو إيتاء الزكاة في حال الركوع، و الركوع حقيقة في الصورة المعلومة منه في الصلاة لا في مطلق الخضوع إذ مع أنّه خلاف الظاهر، ينافيه قوله سبحانه: ﴿يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

على أنّ الأستاذ تفرد في تفسير الولاية بالتحالف، فإنّ أهل السنة يفسرونها بالودّ و الحب و النصر - لاحظ التفسير الكبير للرازي.

هذا غيبض من فيض و قليل من كثير ممّا أفاضه علماؤنا و أصحابنا في تفسير الآية و إن كان ما ذكرناه مقتبساً من أنوار علومهم. غفر الله للماضين من علماء الإسلام و حفظ الله الباقيين منهم و رزقنا الله توحيد الكلمة كما رزقنا كلمة التوحيد.

والسلام عليكم و على من حولكم من الدعاة إلى الوحدة الإسلامية لتتروفر في ظلّها راية الإسلام خفاقة في ربوع العالم و إرجاء الدنيا بإذن منه سبحانه.

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١ / شعبان المعظم ١٤١٧ هـ

المقالة الثانية عشرة

الأخوة الإسلامية

ودورها في بناء الحضارة^(١)

إنّ الحديث عن بلاد القفقاس أعاد إلى ذاكرتي الخواطر، وأثارت في قلبي شعوراً خاصاً حيالها ذلك أنّها انجبت العديد من العباقرة في حقول الأدب والعلم والعرفان والفلسفة أمثال الشاعر المفلّق «الخاقاني» و «الفلكي» و«السيد عظيم» و«صابر» و«بهار» والفيلسوف الكبير السيد حسين البادكوبي .

ولا يفوتني الإشارة إلى أستاذي الكبير السيد محمد البادكوبي الذي كان له حقّ عظيم عليّ وعلى العلم ، فقد كان رجلاً عالماً و مناضلاً، هجره الالحاد متوجّهاً إلى بلاد الغربه بعيداً عن وطنه ومسقط رأسه ، إلى غير ذلك من الشخصيات الطائرة الصيت في سماء العلم والفلسفة والأدب الذين كتبوا لوجودهم خلوداً في القلوب و بقاء في التاريخ وأثراً في المجتمع .

لم أزل أمرّ على شريط الذاكرة استذكر فيه أنّ هذه البلاد ربّت في أحضانها رجالاً وابطالاً ضحّوا بأنفسهم ونفيسهم في سبيل عقيدتهم الإسلامية ، أمثال الشيخ شامل ذلك البطل المجاهد ، والشيخ حنيف ذلك الشائر العظيم .

١ . القيت هذه المحاضرة في مؤتمر الحضارة الإسلامية في القفقاس المنعقد في باكو عاصمة أذربيجان

وثمة حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أنّ شعوب بلاد القفقاس - التي هي جزء من الكيان الإسلامي - لن تبلغ مجدها التليد العتيد إلّا باحياء مآثرها السابقة، والرجوع إلى أصلاتها الإسلامية، وتقوية أواصرها بالمسلمين عامة وبتثالث الثقافة الدينية بين أوساط شبابها و افلاذ كبدها .

وقد شعرت بذلك - بحمد الله - حكوماتها و دولها، وما إقامة هذا المؤتمر - الذي يهدف إلى البحث عن معطيات الحضارة الإسلامية في تلك البلاد- إلّا أثراً من آثار ذلك الشعور.

هذه مقدمة موجزة قدّمها للحضار الكرام ولنبدأ بالمقال الذي كتبه تحت عنوان «الاخوة الإسلامية ودورها في بناء الحضارة» .

نص المقال :

الإسلام عقيدة و شريعة جاء لاسعاد الإنسان في أقطار الأرض ومعالجة مشاكله و معضلاته دون أن يختص خطابه بطائفة دون طائفة أو بعنصر دون عنصر أو بقوم دون قوم، ولا تجد في عقيدته وشريعته أثراً من آثار القومية ولا ملمحاً من ملامحها .

كما أنّه بنى القيم الأخلاقية على اسس رصينة تستمد مقوماتها من الفضائل الروحية والكمالات النفسية، لا من عنصر خاص أو طائفة خاصة، حتى العربية التي هي لسان كتابه وشريعته لم يتخذها ملاكاً للفخر والاعتزاز.

لقد تفشّت ظاهرة القومية بين العرب في العصر الجاهلي وكأّن رحي الفخر قد دار حولها وكأّن جميع القيم و الخصائل الإنسانية قد حُصرت فيها، وفي تلك الأجواء المشحونة بالعنصرية والطائفية والقومية ظهر الإسلام شاطباً

بقلم عريض على تلك النزعات المقيتة ، وقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١).

والعجب أنّ هذه الآية إلى جانب اعترافها بجميع القوميات حيث تقول : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ . تعود و تفسر فلسفة هذه القوميات بقولها ﴿لتعارفوا﴾ أي خلقناكم أقواماً وطوائف مختلفة للتعارف لا للتفاخر، للألفة لا للتناحر، للتعاون لا للتفرق، للخير لا للشر، وحصرت ملاك الفخر في التقوى وقالت : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ .

هذه الآية المباركة وإن تكلم فيها المفسرون قديماً وحديثاً ولكنهم لم يركزوا على تلك النكتة التي صرحت بها ، وهي أنّ الإسلام لا ينكر القومية بل يعترف بها ويرأها من شؤون الخلقة التي تعلقت بها يد الجعل والقدرة وقال : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ ولكنه يتخذ القومية المعترفة ذريعة للفضائل ، وهي التعارف والتجاذب والتعاون ، لا ذريعة للتفاخر والتنازع .

إنّ نبي الإسلام ﷺ لم يقتصر على هذه الآية بل أعقبها بكلمه الطيب وحدّد موقفه من القومية وأنها ليست ملاكاً للافتخار وقال في بعض خطبه التاريخية: أيها الناس، إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، كلّكم لآدم وآدم من تراب ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وليس لعربيّ على أعجميّ فضل إلّا بالتقوى.^(٢)

وقال في خطبة حجة الوداع : أيها الناس إنّ ربكم واحد، وأباكم واحد، ليس لعربيّ على أعجميّ ، ولا لأعجميّ على عربيّ ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، فضل إلّا بالتقوى.^(٣)

وقال رسول الله ﷺ : إنّ العربية ليست بأبٍ والد ولكنها لسان ناطق ،

١. الحجرات: ١٣.

٢. تحف العقول: ٣٤.

٣. سيرة ابن هشام: ٤١٢/٢.

فمن قصر به عمله لم يبلغه حسبه»^(١).

هذه نماذج من أقواله ﷺ استعرضناها على حضراتكم حول نبذ القومية والتركيز على القيم الأخلاقية.

وأما مواقف العملية على هذا الصعيد فقد تلخصت في اهتمامه بالقيم الأخلاقية والانسانية دون أن يعير أهمية للقومية المقيتة.

نرى أنه ﷺ طرد عمه أبا لهب مع صلته الوثيقة به من حيث الدم واللسان والتراب، وفي الوقت نفسه قرّب سلمان الفارسي على الرغم من اختلافه معه في اللسان والدم والتراب. وما هذا إلا لأنّ أبا لهب كان على شفير جرف هار من المساوي الأخلاقية وسلمان كان في أوج القيم والفضائل الإنسانية.

هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة فأخى بين العبيد والسادة، فهذا هو «بلال الحبشي» كان عبداً أسود قد آخى رسول الله بينه وبين «خالد الخثعمي» من أكابر الصحابة، كما آخى بين «زيد» الرق مع عمّه «حمزة»، وبين «عمار» و«حذيفة»، كلّ ذلك لأجل صهر الفوارق الطبقية الناشئة من القومية.

وقد أثرت التعاليم الإسلامية أثرها في القلوب إلى حدّ ارتقى كثير من الموالى إلى مناصب عالية وما كان لهم ذلك لولا الإسلام، فصار الموالى العجم يسيرون جنبا إلى جنب مع العرب في نشر الإسلام وإسعاد البشرية ونجاتها من براثن الوثنية.

وفي ضوء تلك التعاليم صارت المرأة المسلمة كفوّاً للرجل المسلم دون نظر إلى قوميته وطائفته ولسانه.

وقد جسد رسول الله ﷺ تلك المساواة بفعله حيث زوج بنت عمته زينب حفيدة عبد المطلب زعيم قريش، بعد أسود يدعى زيد بن حارثة وكان لعمله هذا صدى واسع على نطاق الجزيرة العربية، وبذلك أزاح الجدار المزعوم بين العبيد والأشراف، حتى أنّ أخا زينب قدم إلى النبي ﷺ - مندفعاً من خلفيات عنصرية وطائفية - واعترض قائلاً: أو ليس هذا عاراً حيث زوجت بنت بيت الشرف بعبد أسود؟!

فأجابه النبي ﷺ بقوله: إنّ زوج زينب رجل مؤمن فهو كفؤ لزينب، ولما طلق زيد زوجته زينب وانفصم عقدهما، قام النبي ﷺ بتدارك ما فات، فزوج زينب لنفسه ليثبت أنّ زواجها بزيد لم ينقص منها شيئاً، فها هي اليوم زوجة رسول الله ﷺ أفضل الخليقة على الأرض.

وها نحن نذكر هنا حادثة طريفة وقعت في عصر الرسول، ينقلها الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام وهي تعكس الفكرة الرائجة عند المسلمين.

قال: كان سلمان جالساً مع نفر من قريش في المسجد فأقبلوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتى بلغوا سلمان، فقال له بعض الحاضرين: أخبرني من أنت و من أبوك و ما أصلك؟ فقال: أنا سلمان بن عبد الله كنت ضالاًً فهداني الله عزّ وجلّ بمحمّد ﷺ، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمّد ﷺ وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمّد ﷺ هذا نسبي و هذا حسبي، قال: فخرج رسول الله ﷺ و سلمان رضي الله عنه يكلّمهم، فقال له سلمان: يا رسول الله ما لقيت من هؤلاء جلست معهم فأخذوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتى إذا بلغوا إليّ قال بعضهم: من أنت و ما أصلك و ما حسبك؟ فقال النبي ﷺ: فما قلت له يا سلمان؟ قال: قلت له: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالاًً فهداني الله عزّ ذكره بمحمّد ﷺ، و كنت عائلاً فأغناني الله عزّ ذكره بمحمّد ﷺ، و كنت مملوكاً فأعتقني الله عزّ ذكره بمحمّد

ﷺ ، هذا نسبي و هذا حسبي . فقال رسول الله ﷺ : يا معشر قريش إن حسب الرجل دينه و مروءته خلقه، وأصله عقله ، و قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ثم قال النبي ﷺ لسلمان : ليس لأحد من هؤلاء عليك فضلٌ إلا بتقوى الله عز وجل ، و إن كان التقوى لك عليهم فأنت أفضل .

إن الشريعة التي تحمل هموم الإنسانية وتحاول نجاتها عن مغالب الوثنية والمفاسد الأخلاقية لا محيص لها إلا أن تنظر إلى العالم من منظار واسع وتنظر إلى الإنسان مجرداً عن كل لون و عنصر، فلذلك عاد الإسلام يخاطب جميع الناس بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكان «يا أيها العرب» أو «يا أيها العجم» و يؤسس «دار الإسلام» مكان «دار العروبة»، فصار هذا و ذاك سبباً في أن ترى جميع الشعوب في الإسلام ديناً لها لا ديناً لطائفة خاصة أعارته هذه.

وفي ضوء ذلك اتحدت الشعوب غير المتجانسة تحت راية الإسلام و نشروا ثقافة إسلامية إنسانية في جميع الأقطار، وصارت تلك الوحدة نواة للحضارة الإسلامية التي لم ير تاريخ البشر مثيلاً لها.

فالحضارة الإسلامية هي حصيلة جهود الشعوب الإسلامية المختلفة، ولكل فيها سهم وافر.

الدعوة القومية ومضاعفاتها

الدعوة القومية فكرة مستوردة من الغرب، والغرض من ورائها هو تشتيت صفوف المسلمين وتمزيق وحدتهم وجعلهم أئماً متناحرة فيما بينها.

ومن تصفح التاريخ يجد أن لهذه الدعوة جذوراً تمتد إلى زمن الأمويين، الذين شرعوا في الخطوات اللازمة لتوطيد القومية من خلال توزيع المناصب

الحكومية على العرب خاصة، وتحقير غير العرب من سائر القوميات وقد انتهى الأمر إلى استياء عام واندلاع حركات تمرد وعصيان في كافة أرجاء الأمصار الإسلامية، فأخذ الجهاز الأموي الحاكم يتهاوى أمامها، إلى أن تمّ القضاء عليه.

ولما دالت دولة الأمويين وقامت دولة العباسيين اتخذوا سياسة مناقضة للأمويين حيث قدموا العنصر غير العربي على العنصر العربي ووزعوا المناصب عليهم.

إنّ السياسة التي سلكتها كلتا الدولتين كانت على طرف النقيض من الإسلام ولم تُنتج إلّا إيقاف عجلة تقدم الحضارة الإسلامية.

فلو كانت الخلافة العباسية متجاوبة مع روح الإسلام لما آلت إلى الضعف والزوال ولازداد الإسلام قوة ومنعة.

الاستعمار وعناصر القومية

بثّ الإسلام روح التسامح والتصالح بين القوميات المختلفة، متخذاً الإنسان محوراً لدعوته وإرشاده، وجعل التفاخر بالتقوى والأخلاق الفاضلة، مما حدا إلى اجتماع القوميات المختلفة تحت رايته وخيمته دون أن يتناهم شعور بالعنصرية والقومية، لأنّ الإيثار جعلهم كالأخوة فيما بينهم.

ولما استيقظ الغرب من سباته في القرن التاسع عشر، ورأى المسلمين كتلة وحدة يحكمون اصقاعاً شاسعة ذات ثروات عظيمة، ورأى أنّ الإسلام سدّ منيع أمام تحقق أطماعه، حاول تمزيقهم إلى دويلات صغيرة بغية القضاء على شوكتهم وعظمتهم من خلال احياء القوميات في كل صقع، فزرع القومية التركية في تركيا، والفارسية في إيران، و العربية في البلاد العربية إلى غير ذلك من القوميات . كما سعى إلى بث روح القومية بين شعوب تلك المناطق.

والعجب أنّ دعاة القومية في البلاد الإسلامية لم يكونوا مسلمين، بل تربوا في أحضان الاستعمار^(١) وأخذوا بأثارة النعرات الطائفية. وفي ظل هذه الدعوة البغيضة انفصمت عرى الخلافة الإسلامية وتمزقت أوصالها، وعادت بشكل دويلات صغيرة، وأضحى لقمة سائغة للاستعمار قابضة تحت نيره.

موقف الإسلام حيال القومية

إنّ الإسلام يحترم كافة القوميات دون أن يرجّح قومية على أخرى، بل ينظر إلى الجميع بعين الأخوة، ويقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ويقول أيضاً: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

ويقول النبي ﷺ مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وتراحهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.^(٢)

فهذه هي الوصفة التي كتبها الإسلام لاسعاد البشرية كافة، ومع ذلك لم يلغ القومية وإيجابياتها بل أحترمها.

روى المفسرون أنّ النبي ﷺ لما هاجر عن مكة المكرمة ووصل في طريقه إلى «جحفة» تذكر موطنه وحنّ إليه فامتلأت عيناه بالدمع، فنزل عليه أمين الوحي يسليه بالآية المباركة: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.^(٣)

وقد حقق سبحانه وعده، ففتح النبي ﷺ مكة بعد ثمانية أعوام ودخلها من ناحية «أذاخر» وهي أعلى نقطة في مكة، ولما وقع نظره على الكعبة وبيوتات مكة هاج به الحزن، وقال مخاطباً ربوعها باني أحبك ولولا آتي هُجرت لما تركتك.

١. انظر المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام.

٢. مسند أحمد: ٤ / ٢٧٠.

٣. القصص: ٨٥.

لا شك أنّ الإنسان إذا نشأ في ريع من الربوع وترعرع فيه منذ نعومة أظفاره وحتى بلوغه وهرمه، يجد في نفسه حباً ورغبةً وودّاً حياله، فذلك أمر جبلي قد فطر عليه الإنسان ولم تكافحه الشريعة التي هي دين الفطرة بل احترمتها، لذا تجد أنّه يحاول بكافة السبل الحفاظ على لغته الأم وثقافته، وبذل كافة الجهود في سبيل ازدهار وطنه ورفاه قومه.

فالمترقب من كلّ مسلم إعمار بلده واستثمار ثرواته في سبيل خدمة قومه وثقافته القومية إذا كانت متجاوبة مع القيم والمثل الإسلامية وهذا أمر مرغوب إليه من قبل الإسلام، ولكن المحذور هو جعل القومية ملاكاً للتفاخر والتفوق. وفي الختام؛ أتقدم بالشكر الجزيل إلى المشرفين على هذا المؤتمر لاتاحتهم الفرصة لي.

وأختتم كلمتي بهذين البيتين:

انّا لتجمّنا العقيدة أمّة ويضمنا دين الهدى اتباعا
ويؤلف الإسلام بين قلوبنا مهما ذهبنا في الهوى اشباعا

اللهم ارزق المسلمين توحيد الكلمة كما رزقتهم كلمة التوحيد

جعفر السبحاني

قم المقدسة - مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١٥ شعبان المعظم من شهور عام ١٤١٩ هـ

المقالة الثالثة عشرة

الطلاق المعلق لا كفارة فيه ولا فراق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضيلة الأستاذ قيس تيسير ظبيان
المدير العام لمجلة «الشرعية» المحترم

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته
أما بعد،

أتقدم لكم بالشكر الجزيل لما قمتم به من نشر محاضرتي التي القيتها في جامعة «الاردن» على صفحات مجلّتكم الغراء «الشرعية» في عددها الصادر برقم ٣٩٤ من شهر تشرين الأول ١٩٩٨ م، وبذلك أكّدتُم أواصر الاخوة بين المسلمين وقد كانت المحاضرة حول عناصر الوحدة الإسلامية وموانعها .

قرأت العدد الانف الذكر بما فيه من مقالات متنوعة حسب ما سمح لي الوقت، وأخصّ بالذكر من بينها، الأسئلة التي تصدّى للاجابة عنها فضيلة الشيخ عبد المنصف عبد الفتاح فكانت الأجوبة مقنعة في أغلب مواردّها لكن استرعى انتباهي السؤال الذي طرحه أحد القراء بالشكل التالي، وقال:

ضربتُ زوجتي ذات يوم فتركْتُ المنزل وذهبتُ إلى بيت أُسرَّتها فلم ألبث ان ذهبتُ إليها لكي أصالحها ولكي تطمئن إلى عدم ضربي لها مرَّة ثانية، قلت لها: عليَّ الطلاق لن اضربك مرَّة أخرى، فهل إذا ضربتُها لأمر ما، تكون طالقاً أم ماذا؟

وأجاب فضيلته عن هذا السؤال بما هذا ملخصه:

هذا النوع من الطلاق على قسمين:

تارة يريد القائل بهذا النوع من الكلام الحملَ على فعل شيء أو تركه أو التهديد أو التخويف، لا إيقاع الطلاق بالفعل.

وأخرى يريد بذلك إنشاء الطلاق بالحلف إذا حصلت المخالفة.

ففي الأوَّل نَقَلَ عن ابن تيمية وابن قيم أنَّ الطلاق المعلق الذي فيه معنى اليمين، غير واقع وتجب فيه كفارة اليمين.

وفي الثاني تقع طلاق واحدة رجعية وللزوج أن يراجعها قبل انقضاء العدة. (انتهى).

الطلاق المعلق لا كفارة فيه ولا فراق

أقول: أنَّ الاجتهاد الحرَّ المستمد من الكتاب والسنة من دون التزام بمذهب إمام دون إمام يجزئنا إلى القول بخلاف ما أجاب به فضيلة الشيخ (مدَّ الله في عمره) في كلا القسمين و أنَّه لا كفارة في الصورة الأولى ولا فراق في الصورة الثانية .

وبكلمة موجزة : الطلاق المعلق لا يترتب عليه أيُّ أثر وإن كان المختار لدى أئمة المذاهب الأربعة غير ذلك . وإليك توضيح كلا الأمرين .

أما الأول (لا كفارة): فلأنّ الدليل على كفارة اليمين هي الآية المباركة التالية.

قال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

والآية توجب الكفارة المترتبة على من نكث يمينه ولكنها ظاهرة في اليمين بلفظ الجلالة أو ما يعادله ويقاربه من الأسماء المقدسة وليس الحلف بالطلاق داخلاً في الآية المباركة حتى يستلزم نقضه، الكفارة بل هي قضية شرطية كعامة القضايا الشرطية المجردة عن معنى الحلف بالله سبحانه كما لو قال لئن كشفت سري، فأنا أيضاً أفعل كذا.

وتصور أنّ الطلاق المعلق يتضمن معنى الحلف بالله تصور خاطئ إذ لا يتبادر منه الحلف بالله أولاً، وعلى فرض تضمنه فليس هو مما قصده المتكلم بكلامه ثانياً. وعلى فرض تسليمها فالموضوع لوجوب الكفارة، هو الحلف الصريح بشهادة قوله سبحانه: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ لا الحلف الضمني.

ولذلك يطلقون الفقهاء على هذا النوع من الحلف، اليمين بالطلاق، لا الحلف بالله سبحانه ولو ضمناً.

وأما الثاني: أي وقوع الطلاق إذا كان قاصداً إنشاء الطلاق المعلق فهو لا يصمد امام النقاشات التالية:

الأول: أنّ عناية الإسلام بنظام الأسرة الذي أُسِّسها النكاح والطلاق،

يقتضي أن يكون الأمر فيها منجزاً لا معلقاً، فإن التعليق ينتهي إلى مالا نحمد عاقبته من غير فرق بين النكاح والطلاق، فالمرء إما أن يقدم على النكاح والطلاق أو لا، فعلى الأول فينكح أو يطلق بتاتاً، وعلى الثاني يسكت حتى يحدث بعد ذلك أمراً، فالتعليق في النكاح والطلاق لا يناسب ذلك الأمر الهام، قال سبحانه:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾^(١).

والله سبحانه يُشَبِّه المرأة التي يترك الزوج أداء واجبها بـ «المعلقة» التي هي لا ذات زوج ولا أيم. وعلاقة الزوجية علفة مقدسة لا تخضع لاهواء الزوج فهو إما أن يطلقها ويسرحها، أو يتركها ولا يمسُّ كرامتها، والزوجة في الطلاق المعلق أشبه شيء بالمعلقة الواردة في الآية، فهي لا ذات زوج ولا أيم.

الثاني: إن هذا النوع من الطلاق يقوم به الزوج في حالات خاصة دون أن يشهده عدلان، والشهاد على الطلاق شرط لصحة وقوعه ومتى فقد لم يقع الطلاق من دون فرق بين المنجز والمعلق، ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ... * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾^(٢).

فقوله سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ﴾ قيد للطلاق والرجعة على قول أو لخصوص الأول على قول آخر وإليك دراسة كلا القولين.

١. النساء: ١٢٩.

٢. الطلاق: ١ - ٢.

الاشهاد في الآية راجع إلى الطلاق والرجوع

فهناك من ذهب إلى كونه قيداً لهما، وقد نقل هذا القول عن عدة من الصحابة والتابعين: نقل عن ابن عباس: أنه فسرها بالطلاق والرجعة.^(١) وقال السيوطي: أخرج عبد الرزاق عن عطاء، قال: النكاح بالشهود والطلاق بالشهود، والمراجعة بالشهود.

وسئل عمران بن حصين عن رجل طلق ولم يشهد، وراجع ولم يشهد؟ قال: بئس ما صنع طلق في بدعة وارتجع في غير سنة فليشهد على طلاقه ومراجعته وليستغفر الله.^(٢)

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ أمرنا بالاشهاد على الطلاق، وقيل: على الرجعة.^(٣)

وقال الألوسي: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ عند الرجعة إن اخترتموها أو الفرقة إن اخترتموها تبرئاً عن الريبة.^(٤) إلى غير ذلك من الكلمات الواردة في تفسير الآية.

وممن قال برجوع القيد إلى الطلاق والرجعة الشيخ أحمد محمد شاكر القاضي المصري. قال بعد ما نقل الآيتين من أول سورة الطلاق: والظاهر من سياق الآيتين أن قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ راجع إلى الطلاق وإلى الرجعة معاً والأمر للوجوب، لأنه مدلوله الحقيقي، ولا ينصرف إلى غير الوجوب — كالندب — إلا

١. تفسير الطبري: ٢٨/ ٨٨.

٢. السيوطي: الدر المنثور: ٦/ ٢٣٢.

٣. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ١٥٧.

٤. الألوسي: روح المعاني: ٢٨/ ١٣٤.

بقريئة، ولا قريئة هنا تصرفه عن الوجوب، بل القرائن هنا تؤيد حمله على الوجوب - إلى أن قال: - فمن أشهد على طلاقه، فقد أتى بالطلاق على الوجه المأمور به، و من أشهد على الرجعة فكذلك، ومن لم يفعل فقد تعدى حدود الله الذي حدّه له فوقع عمله باطلاً، لا يترتب عليه أي أثر من آثاره. ^(١)

الاشهاد في الآية راجع إلى الطلاق خاصة

وهناك من يذهب إلى أن قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يرجع إلى خصوص الطلاق، فقط، قائلاً بأنّ السورة بصدد بيان أحكام الطلاق، وقد افتتحت بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، فذكرت للسورة عدّة أحكام:

١. أن يكون الطلاق لعدتهن.

٢. احصاء العدة.

٣. عدم خروجهن من بيوتهن.

٤. خيار الزوج بين الإمساك والمفارقة عند اقتراب عدتهن من الانتهاء.

٥. اشهاد ذوي عدل منكم.

٦. عدّة المسترابة.

٧. عدّة من لا تحيض وهي في سن من تحيض.

٨. عدّة أولات الأحمال.

وإذا لاحظت مجموع آيات السورة من أولها إلى الآية السابقة تجد أنّها بصدد بيان أحكام الطلاق لأنّه المقصود الأصلي، لا الرجوع المستفاد من قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ وقد ذكر تبعاً.

وقال أبو زهرة: قال فقهاء الشيعة الإمامية الاثني عشرية والإسماعيلية: إنَّ الطلاق لا يقع من غير اشهاد عدلين لقوله تعالى «في أحكام الطلاق وانشائه في سورة الطلاق»: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوْيَ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يَوْمُنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فهذا الأمر بالشهادة جاء بعد ذكر انشاء الطلاق وجواز الرجعة، فكان المناسب أن يكون راجعاً إليه، وإنَّ تعليل الاشهاد بأنَّه يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر يرشِّح ذلك ويقويه، لأنَّ حضور الشهود العدول لا يخلو من موعظة حسنة يزجونها إلى الزوجين، فيكون لها مخرج من الطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله سبحانه وتعالى.

وأَنَّهُ لو كان لنا أن نختار للمعمول به في مصر لاخترنا هذا الرأي فيشترط لوقوع الطلاق حضور شاهدين عدلين.^(١)

ويؤيد رجوع الأمر بالاشهاد إلى خصوص الطلاق لا الرجعة هو أنَّ الطلاق حلال مبغوض عند الله سبحانه، والشريعة الإسلامية شريعة اجتماعية لا ترغب في أي نوع من أنواع الفرقة لا سيما في العائلة والأسرة، بعد ما أفضى كل من الزوجين إلى الآخر بما أفضى، فالشارع بحكمته يريد تقليل وقوع الطلاق والفرقة، فكثّر قيوده وشروطه على القاعدة المعروفة من أنَّ الشيء إذا كثرت قيوده، عزَّ أو قلَّ وجوده، فاعتبر الشاهدين العدلين للضبط أولاً وللتأخير والأناة ثانياً، وعسى إلى أن يحضر الشاهدان أو يحضر الزوجان أو أحدهما عندهما يحصل الندم ويعودان إلى الألفة كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾، وهذه حكمة عميقة في اعتبار الشاهدين، لا شك أنَّها ملحوظة للشارع الحكيم مضافاً إلى الفوائد الآخر، وهذا كلّه بعكس قضية الرجوع فإنَّ الشارع يريد

١. أبوزهرة: الأحوال الشخصية: ٣٦٥ كما في الفقه على المذاهب الخمسة: ١٣١.

التعجيل به ولعل في التأخير آفات فلم يوجب في الرجعة أي شرط من الشروط.
وحاصل الكلام بما أنه حلف بالطلاق مجرداً عن الاشهاد، فلا يترتب عليه
الأثر بحكم الآية المباركة سواء أقلنا بأن المراد بالاشهاد يرجع إلى الطلاق والرجعة
أو إلى الأول فقط.

الثالث: أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام افتوا ببطلان الطلاق المعلق، فقد روى
أبو أسامة الشحام عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال له: إنّ لي قريباً أو صهرّاً حلف
إن خرجت امرأته من الباب فهي طالق، فخرجت وقد دخل صاحبها منها ما شاء
من المشقة فأمرني أن أسألك.

فأجاب عليه السلام مرّة فليمسكها فليس بشيء ثمّ التفّت إلى القوم فقال سبحان
الله يأمرونها أن تتزوج ولها زوج. ^(١)

وقد اشتهر عن أئمة أهل البيت عليهم السلام انكار الأمور الثلاثة التالية:

١. طلاق المرأة وهي حائض.

٢. الطلاق دون اشهاد عدلين.

٣. الحلف على الطلاق.

وثمة سؤال يتوجه إلى فضيلة الشيخ بأنّه لماذا اختار في الاجابة مذهب ابن
تيمية وابن قيم الجوزية مع أنّ المذهب المشهور بين فقهاء السنة أنّه يقع الطلاق
إذا حنث في يمينه دون فرق بين الصورتين.

قال السبكي: وقد أجمعت الأئمة على وقوع المعلق كوقوع المنجز فإنّ الطلاق
مما يقبل التعليق. فلو قال إنّ كلمت فلاناً فأنت طالق وهو الذي يقصد به الحث
أو المنع فإذا علق الطلاق على هذا الوجه ثمّ وجد المعلق عليه، وقع الطلاق.

ثم قال: وقد لبس ابن تيمية بوجود خلاف في هذه المسألة وقد نقل إجماع الأمة على ذلك أئمة لا يرتاب في قولهم ولا يتوقف في صحة نقلهم.^(١)

ولذلك كان الأولى لفضيلة الشيخ الاجتهاد في المسألة ثم الافتاء وفق اجتهاده من دون أن يتبع فتوى إمام دون إمام وإلا فما هو المرجح للافتاء بقول إمامين دون سائر الأئمة من أهل السنة.

وفي الختام نلفت نظركم السامي إلى الكلمة التالية لبعض علماءنا.^(٢)

إن الإمامية يضيّقون دائرة الطلاق إلى أقصى الحدود، ويفرضون القيود الصارمة على المطلق والمطلقة، وصيغة الطلاق وشهوده، كلّ ذلك لأنّ الزواج عصمة مودة ورحمة وميثاق من الله قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(٣) وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٤) إذن لا يجوز بحال أن ننقض هذه العصمة والمودة والرحمة، وهذا العهد والميثاق إلا بعد أن نعلم علماء قاطعاً لا يداخله شك بأنّ الشرع قد حلّ الزواج ونقضه بعد أن أثبتته وأبرمه.^(٥)

وليس اليمين بالطلاق - مع وجود الاختلاف الكثير بين الفقهاء - من هذه المقولة فعلى الزوج أن يمسك بعصمتها ما لم يدل دليل قاطع على الطلاق الشرعي.

جعفر السبحاني

الجمهورية الإسلامية في إيران

قم . الجامعة الإسلامية

١. السبكي: الدرّة المضيئة: ٥٦-٥٥.

٢. الفقه على المذاهب الخمسة: ٢١٤ للمغفور له الشيخ محمد جواد مغنية.

٣. النساء: ٢١.

٤. الروم: ٢١.

المقالة الرابعة عشرة

من كربلاء إلى قانا

لقد كان لرحلتي إلى المملكة الأردنية الهاشمية تأثير بالغ في إلفات الأنظار إلى مذهب الشيعة، وإن الشيعة هم أتباع أئمة أهل البيت عليهم السلام وقد تركت انطباعات مهمة في النفوس والقلوب.

وما أكدتُ عليه في بعض محاضراتي أنّ العشرة الأولى من شهر محرم الحرام أيام حداد وحزن لشهادة السبط الأصغر الحسين بن علي عليه السلام في كربلاء على يد الأمويين، وقد خُير السبط بين السلّة والذلة، وبين القتل و البيعة ليزيد الخمرور والفجور، فأبى أن يهادن مع الظلم والذل واستشهد مع أولاده وخيرة أصحابه في هذا السبيل.

سل كربلا كم من حشى لمحمد نهبت بها وكم استجزّت من يد
أقمار تمّ غالها خسف الردي واغتالها بصروفه الزمن الردي

فإذاً بالمقال الذي كتبه الأستاذ حسين الرواشدة في صحيفة اللواء حول شهادة الحسين عليه السلام وأهدافه وأنّه يجب على الأمة أخذ الدروس و العبر من ثورة الحسين عليه السلام، وبما أنّ للمقالة قيمة تاريخية نشرت في بلد يقام فيها مجالس الأفراح في شهر محرم الحرام، قمنا بنشرها لتبقى خالدة في بلادنا عبر القرون.
وقد خاطبني في مقاله وقال:

إلى سماحة الشيخ آية الله السبحاني:

من كربلاء إلى قانا ... لم نتعلم من المحنة بعد

واقع الأمة بين السلة والذلة...

عاشوراء: دروس في البيعة والصلح والثورة ضد القهر والهوان.

الحسين: لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد

...أما الذين يتطوعون - اليوم - لتحريف الواقع وتسويغهُ وفق بوصلة مصالحهم وأهدافهم فمطالبون بقراءة تاريخ عنوانه «كربلاء» وأما الذين يبحثون عن لغة جديدة لتضليل الشعوب باسم الراحة و السمن والعسل وتكتيك المهادنة، ويحذرونهم من عبثية المواجهة ويدعونهم إلى شرعية الصلح المتصل بـجبال المصلحة الوطنية التي غالباً ما تتحول في أيدي السحرة إلى حيات مخيفة... هؤلاء مدعوون لزيارة الحسين بن علي كرم الله وجهيهما في مثل هذا الموسم من عاشوراء لا لمتابعة اللطم وشق الصدر وإقامة مآتم الندم والعزاء...ولكن لفهم معادلة الصراع بين الحق والباطل وإدراك قضية العدالة المرتبطة بالعبودية الخالصة لله، فعاشوراء ما زالت تتجدد في كيانات هذه الأمة ثورة ضد الاضطهاد، يتمثلها الأجيال كفاحاً وتمرداً ضد الواقع الحزين وتنطق بها الأرض دماً لا يهدأ، وروحاً تستأنس بالشهادة كما يستأنس الطفل بمحالب أمه لا مجرد حماس وانفعال وثورة عاطفية تشتعل ثم تخمد... وإنما فكر متعلق بالله وعمل شعاره «هون ما نزل بنا، أنه بعين الله...» وإرادة مستمدة من الحسين بن علي شهيد كربلاء وهو يصعد إلى السماء ودمه في كفه مردداً «هكذا أكون حتى ألقى الله وجدي رسول الله عليه الصلاة والسلام...».

محنة الحسين بن علي التي تتردد أصدائها اليوم في ذاكرة الأمة الضالة لتعيد إليها تاريخها المستباح وتوقظ فيها مشاعر الكرامة والثورة ضد الظلم

والطاغوت... تعلمنا كيف نمد أيدينا لنصافح أو نعاهد أو نعاقد، وكيف نسحب أيدينا حين تكون المسألة متعلقة بالعزة والكبرياء والانفة، وحين تحس النفس المؤمنة بأن عقد الصلح قيد لإذلالها وإذعانها لشريعة الطاغوت يعلمنا الحسين بن علي الفقير الذي تربى في حضن جدّه المصطفى كما تربى والده علي كرم الله وجهه منذ ولد في كنف ابن عمه ﷺ كيف نحافظ على بساط التفاوض مع الأعداء نسحبه حين يكون الإقرار بإقرار العبيد، ونرفضه حين يكون استجداء كإعطاء الذليل الذي يشعر بانسحاق إرادته أمام سيده... فالعزة ليست في المنصب والمال ولا في «السلة» التي يوهنا بها أديعاء الرفاه والاستقرار، ولكنها بمقدار ما يملك الإنسان من إرادة وعزيمة وبمقدار ما يرتفع إليه من إيمان وشجاعة والتزام.

أين نحن اليوم من حكمة شهيد كربلاء ومحتته المليئة بالدروس والمواقف؟ إنّ الذين يقرأون هذه المحنة التي واجهها الهاشميون من آل عتره المصطفى ﷺ سيدركون - لا ريب - حجم القوة الإيمانية التي تدفع اثنين وثمانين رجلاً وامرأة للوقوف مع الحق في وجه أكثر من اثني عشر ألفاً من جيش يزيد بن معاوية... وتجعلهم مع محارمهم اللواتي ما هتك لهنّ ستر قط يواجهون عطشاً وحصاراً وظلماً وجبروتاً يقع بعده الشهيد تلو الشهيد من أبناء الحسن وجعفر وآل أبي طالب أحفاد رسول الله ﷺ دون أن يدفعهم ذلك إلى قبول «الذلة» ومبايعة يزيد «بالخلافة».

درس في البيعة - اذن - ودرس في قبول الصلح و الانسحاق خلف سلال الغنيمة... فما الذي دفع الحسين إلى رفض السلة مع الذلة معاً؟ السر في ذلك يلخصه رضي الله عنه في إحدى خطبه فيقول: «... لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد، ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين

السلة والذلة وهيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وانوف حمية وجباه آية...».

والسر في ذلك يعرضه مرة أخرى «جون» مولى أبي ذر الغفاري حين أشار عليه الحسين بن علي أن ينتحى عن المشاركة في قتال «عاشوراء» فيجيبه جون: لا والله... أنا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي الشدة أخذلكم؟! والله لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم... فأذن له الحسين حتى استشهد بعد أن قتل خمسة وعشرين رجلاً.

هو - اذن - درس في امتحان الصحابة وفرزهم عن جموع الموظفين الذين يتزاحون ساعة الطمع ويفرون ساعة الفزع... والقائد هنا لا يكذب على أتباعه بالشعارات ولا يصفهم في طواير بالحديد والنار ليقاتلوا دونه، ولكنه يصارحهم بالحرية في البيعة والوضوح في القصد، فالبطولة ليست بهلواناً والمعركة ليست قتالاً مجرداً من العقيدة والرسالة والإرادة.

وهو درس للذين يتسابقون بدافع القوة من قوة الآخر وهيمنته وجبروته للسلجود بين يديه، والاضمحلال فيه لخدمة مصالحه، واستناد إلى الواقع بمنطقه المعكوس لتبرير هذا الانجرار، هؤلاء لم يسمعوا «حنظلة الشامي» [كذا] وهو ينادي على الحسين: «صدقت يا ابن رسول الله أفلا نروح إلى الآخرة...»، ولم يصغوا للشيخ الطاعن في السن «أنس الكاهلي» الذي رأى النبي وسمع حديثه وشهد معه بداراً وحنيناً وقد برز رافعاً حاجبيه بالعصا ومقاتلاً دون الحسين حتى استشهد.

لم تكن قلة العدد - اذن - معياراً للهزيمة أو الانكسار، ولم يكن الانكسار مؤشراً لاندحار الحق وغلبة الباطل... ولم تكن الهزيمة والغلبة مدعاة للرضوخ والاستسلام، وما كان الصادقون - آنذاك - قصراً عن تبرير الواقع وتسويغه

ليناسب حجم المحاذير والرغائب كان «الحسين بن علي» وقد أقفل عائداً من مكة إلى كربلاء بعد أن قطع الحج وترك الذين ينتظرون خطبته على عرفة... كان يدرك وهو يصارع من انسحب خلفه من القوم أنّ كثيراً منهم لا يريد سوى الدنيا وكان صادقاً معهم وهو يقول عشية السفر: «ألا و من كان فينا باذلاً مهجته موطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا فاني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً...» وقد انسحب عنه الكثيرون بعد أن أدركوا حقيقة ما قاله الفرزدق «قلوبهم معك وسيوفهم عليك» وبقي القلة من الذين كان حاديهم يقول: «لوددت اني قتلت وأحرقت ثمّ أحييت يفعل بي ذلك سبعين مرّة ما توانيت عنك».

درس في ترسيم العلاقة مع الله... العلاقة الدائمة غير الرسمية أو الموسمية مع أوامر الخالق... العلاقة التي لا تقتصر على طقوس الصلاة والصيام فحسب بل تتعداها إلى كلّ ما يدور في حياة المسلم وما يتعلق بواقعه داخل المسجد وخارجه وهو درس غائب عن هذه الجماهير التي استهلكتها الحياة المادية بشهواتها وعوارضها... درس ينذر اليوم أن يتجسد في «نموذج» يقارب ولو من بعيد نموذج الحسين وصحابته الذين ماتوا دفاعاً عن حقهم في الكرامة والشهادة.

ما أحوج الأمة اليوم، وهي تضع رقبتها على حدّ المقصلة، وتدافع عن كرامتها بمزيد من التبعية والاستسلام، وتسرب من خلايا أعدائها وعيونهم لتخفق شعوبها... ما أحوجها إلى وقفة مع «عاشوراء» و ما تجسد من فكر في التضحية والالتزام بالحقّ ومواجهة الباطل وجنوده... والاستعلاء على وسخ الواقع وطين الوعود والخوف على شهواته الزائلة... فمن قال إنّ مصلحة الأمة في الراحة والذلة و من قال إنّ مصلحة الوطن في حسن التعامل مع الواقع المهين بمفرداته

وآلياته وشروطه التي يملئها القوي على الضعيف... ألم يمتحن رسول الله صحابته حين أرسل بعضاً منهم إلى قلعة ضخمة لبلوغها، وحين عادوا مقرين بضعفهم وجبنهم قال لهم محمد ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كزار غير فزار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه...».

فأول شروط نبذ الضعف والجبن الذي يسوغه البعض تكتيكا وخروجاً من مأزق الواقع هو محبة الله ورسوله... ولكن أين الذين يحبهم الله وأين الذين يحبونه ورسوله في عالمنا هذا المهزوم؟ وأين الذين قال فيهم علي بن أبي طالب «من أحد سنان الغضب لله قوي على قتل أشداء الباطل»....

إنّ الذين نخشاهم اليوم يحدون سيوفهم للقضاء على شعوبهم، ويغضبون إذا غضبت امريكا أو إذا زجرت إسرائيل... الذين نخافهم ممن يعطون أنفسهم مراسيم القومية والخوف على مستقبل الأمة يحرسون ثغور ومصالح غيرهم، فأين منا الحسين وأين كربلاء التي تجسد في أعماقنا أكبر ثورة إنسانية ضد الخنوع والقهر لآلة الاستبداد واستيطان الإرادة والإنحناء لغير الله عز وجل....

كيف يمكن لهذه الأمة أن تعيد مرة أخرى «عاشورا» إلى منصتها الخالدة، لتتفرض عنها غبار «الدلة» وتمسح دماء أطفال «قانا» التي لم تحف بعد... كيف يمكن أن يقف الشعب خلف قيادته وأن يعلن رجل يصارع الموت كما أعلن «مسلم بن عوسجة» في حضرة «الحسين بن علي» وصيته لصديقه... وما هي وصيته؟ يقول حبيب بن مظاهر:

«لما صرع مسلم بن عوسجة مشى إليه الإمام الحسين وكنت معه، وجلسنا عنده وهو يحتضر قلت له: والله لولا ان أعلم اني في الأثر لأحببت أن توصي فانّ الصديق يوصي صديقه لحظة الاحتضار، يوصيه بأهله وعياله ولكن مشكلتي اني سأموت من بعدك وسأسير في نفس الطريق... فقال له مسلم: لي وصية تستطيع

أن تنفذها الآن...؟ قلت: وما هي وصيتك؟ قال: أوصك بهذا - و أشار بيده للإمام الحسين بن علي - جاهد دونه حتى تموت.

ومادام هنالك قضية عادلة، وحق يقابل باطلاً ليدحضه، فالموت ليس مهماً والدم أقرب اللحظات التي توصل الأرض بالسماء ألم تسمع ماذا قال «علي الأكبر» ابن الإمام الحسين وهو يرى أنفاس والده تعانق السماء وقد ظل يكرر ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ : يا أبتاه لم تسترجع؟ فأجابه: يا بني عنّي لي فارس وأنا في المنام يقول: القوم يسIRON والمنايا تسير خلفهم، فعلمت أنّ نفوسنا نعت إلىنا، قال علي: يا أبتاه ألسنا مع الحق؟ قال الحسين: بلى والذي نفسي بيده. قال علي: لانبا لي يا أبتاه - إذن - أن نموت محقين.

ولكن كيف يمكن لأطفالنا أن يتساءلوا عن قضيتنا؟ وكيف يمكن لنا - نحن التعمساء - أن نجيبهم، لقد علّم الحسين ولده درس نعلم أبناءنا درس التضحية ونحن نسبل رموشنا لاستقبال خيرات العهد الشرق أوسطي الجديد؟

كيف يمكننا أن نقنع أجيالنا بأنّ الذي ندافع عنه هو الحق... الذي يجب أن يدافعوا عنه ويصونونه أي حق هذا الذي استعدناه وأي تضحية تلك التي قطفنا ثمارها بعد سيل الهزائم والانكسارات....
يا الله...

ماذا يحدث لهذه الأمة التي تحولت إلى قطيع تائه... ماذا يحدث لهذه الأجيال التي مسخت تاريخها... ماذا يحدث وقد غابت المرجعيات وتحول معظم العلماء إلى سدنة في بلاط السلطة، وعبيد في أقبية السلاطين وقد فقدت الحركات مبررات وجودها، واستمرأت اللعبة، فاشتغلت في شؤون الحيض وتنظيف الفرج واللسان بدعوى السباحة والنظافة والاعتدال وانتظار فرج السماء.

يا الله...

إذا كان القوم قد تركوا حفيد رسولك «الحسين بن علي» وحيداً أعزل إلا من الإرادة والإيمان واثنين وثمانين رجلاً وامرأة... وشهدوا على دمه الطيب - بعد أن منعوه وحصانته الماء - وهو يصعد في كفة السماء... فمن يستطيع في زماننا أن يحمل راية حملها الحسين... ومن تبقى معه من أمة نخر عصبها الفساد والتعب والضلال.

أما نحن فلا نملك إلا أن نقرأ «كربلاء» و أن نتوقف بقلوب أدمت الحزن ومرارة «المحنة» على معنى المكابدة من أجل رضى الله، ومعنى التضحية بكل شيء من أجل الحق... ومعنى الإيمان الخالص بالقضية العادلة والدفاع عنها مهما غلا الثمن.

نقرأ عاشوراء... مرة تلو مرة... لنحدد أهدافنا ونوضحها ونميز بين الصحابة والموظفين، بين المؤمنين بدينهم وأوطانهم والمندسين طمعاً في الغانم، بين المرتبطين عقلاً وروحاً بالإسلام وبين المرتبطين عاطفياً وموسمياً به عبر الفاكسات والبيانات.

ونعيد إلى ذاكرتنا محنة «الحسين» وأصحابه، فالحسين ليس ملكاً لفرقة دون فرقة، وعاشوراء ليست مناسبة دينية لمذهب دون آخر.... الحسين هو معلّمنا جميعاً وعاشوراء وكربلاء مناسبتان عابقتان بالدم والتضحية في تاريخنا السياسي الإسلامي وهما في قاموسنا ثورة ضد الطغاة، ضد الإذلال، ضد التطبيع والمصالحة والمصافحة ضد الاستهتار بحق الأمة، ضد تسويغ الواقع وتبرير السقوط في دهاليزه المظلمة... ضد كلّ خطط الاذلال التي تحاك هنا وهناك للقضاء على روح الجهاد في هذه الأمة... عاشوراء لنا جميعاً بلا استثناء لفقرائنا وساستنا، لحركاتنا التائهة ولإنسانتنا الذي أدمن اليأس والصمت والانتظار، عاشوراء لغة

الواقع التي تؤسس لصياغة المستقبل وهي لفحة الحرية في تاريخنا المليء بالقهر والاستبداد... تظل تعيد في أذهاننا ما قاله الحسين رضي الله عنه «والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد».

ترى... هل تستطيع هذه الأمة المسكينة التي تبيع برميل نفطها بما يعادل ثمن حبة برتقال - كما اعترف بذلك وزير النفط العماني - التي تشتغل اليوم بكل طواقمها في الانتخابات الصهيونية وتسير خلف أوهام السلام الذي يبشر به سفاح قانا... أن نقرأ دروس عاشوراء، وأن نتعلم من دروس الحسين في كربلاء... أم أنني أنفخ في قربة مخزوقة....

يا الله... ماذا يملك المظلومون العاصون غير الدعاء إليك واللوذ ببابك... فاعف عنا يا أرحم الراحمين.

المقالة الخامسة عشرة

التقية رخصة شرعية

كانت لرحلتي إلى الأردن عام ١٤١٨ نتائج بناءً في تقريب الخطى و تبين عقائد الشيعة من خلال المحاضرات التي القيتها في الجامعات الإسلامية، و ممّا عطف النظر عليه هي مسألة التقية، و إنها ليست أصلاً شيعياً محضاً بل هي أصل قرآني نطق بها الصادع بالحقّ و أوضحها المفسرون بكلماتهم.

ثمّ إنّي لما قفّلت راجعاً إلى إيران وقفت على مقالة بقلم أحد أساتذة جامعة مؤتة نشرتها صحيفة اللواء الأردنيّة في عددها الصادر ١٢١١ المؤرخة ٢٤/٧/٩٦ و قد استرعى انتباهي ما في آخر المقال من جملة ربما تتخذ ذريعة لتحريف الحقيقة فعزمت على كتابة رسالة إلى رئيس التحرير و بيّنت فيها موقف المسلمين بالنسبة إلى ما تحتويه تلك الجملة.

و لما كان المقال وثيقة علمية اصحر الحق بها ذلك الكاتب، آليتُ أن أنشره مع ما ذيلته به، و إليك المقال.



الضرورات تبيح المحذورات و المشقة تجلب التيسير

الحمد لله ربّ العالمين ملء السموات والأرض و ما بينهما و الصّلاة و

السلام على محمد النبي الخاتم و على آله الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً... و بعد.

في بواكير ثقافتني و اطلاعي كنت أسمع الكثير من المفتريات والمبالغات التي كانت تدور حول الشيعة و حول التشيع خاصة ما يؤمنون من أفكار و معتقدات كنت أصدق كل ما يقال و ذلك لقلة اطلاعي.

فقد كنت أسمع عن مبدأ التقية عند الشيعة و كأنّ هذا المبدأ ليس له أصل في الشرع الإسلامي إلاّ أنّه مجرد فكر اختلقه علماء الشيعة و لكن الحقائق بعد الاطلاع ظهرت جلية و ﴿جاء الحق و زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً﴾.

و الآن ما هي التقية و ماهي أحكامها و أدلتها الشرعية؟

التقية: الاظهار باللسان خلاف ما ينطوي عليه القلب للخوف على النفس و هي عكس مفهوم النفاق.

ففي التقية يتم اظهار الكفر و ابطان الإيمان. أمّا في النفاق فيتم إبطان الكفر و إظهار الإيمان.

والتقية رخصة شرعية كأكل الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهّل لغير الله به لأنّ الله عزّ و جلّ يقول: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أمّا النفاق: «فهو أشدّ الكفر لأنّه أشدّ خطورة و المنافقون في الدرك الأسفل من النار».

الأدلة على جواز الأخذ بمبدأ التقية:

إنّ الأصل في الإسلام هو: عدم موالات الكافرين و اليهود و النصارى و الصدع بها أمر الله و عدم خشية أحد في الحقّ إلاّ الله.

فالمؤمنون هم الَّذِينَ ﴿يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾
(المائدة/ ٥٤).

ولكن الضرورات تبيح المحذورات و المشقة تجلب التيسير.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

أي من اضطر للوقوع في المحرم على أن لا يطلبه لذاته و لا يتعدى على أصل تحريمه فإن الإثم عنه مرفوع.

ونحن نعلم أنّ الله قد نهانا عن موالاة الكافرين و مودتهم في الأصل الحكمي و لكن هنالك حالات يجوز لنا فيها موالاتهم فيها فما هي لتتعرف عليها من خلال الآية القرآنية الكريمة التالية:

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران/ ٢٧).

مفهوم الآية: نهى و تحذير من الواحد الأحد عزوجلّ من موالاة و مودة الكافرين؟ و من يفعل ذلك فهو في غاية البعد عن الله. و لكن في حالة خوفكم من جبهتهم أمراً يجب اتقاؤه فهنا الموالاة جائزة كرخصة لا كأصل.

و قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكْذِبْ فَاعِلِهِ كَذِبٌ وَإِنْ يَكْذِبْ يَكْفُرُ بِمَا يَكْفُرُ بِهِ كَذِبٌ لَكُنْ لَهُ أَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ (غافر/ ٢٨).

من خلال الآية السابقة نلاحظ ما يلي:

أنّ الرجل من آل فرعون و قوم فرعون فاسقون والرجل مؤمن وكان هذا

الرجل يكتُم إيمانه أي يخفيه يظهر الكفر و يبطن الإيمان والسبب في ذلك: خوفاً من فرعون وجنوده لأن فرعون طغى و في الأرض علا.

و لكن ماهي المنفعة التي جلبها و حققها مؤمن آل فرعون بكتمه إيمانه:

صيانة نفسه و حمايتها و تقديم النصيح بعدم قتل موسى بناء على أنه كافر ليس مؤمن و ليس له عند موسى أي منفعة.

فهنا تم تحقيق أمرين بالتقية و اخفاء الإيمان: درء مفسدة و جلب مصلحة. والتقية تكون في حال التمكن في الأرض و في حال ضعف المسلمين و تكون في الحرب لأن (الحرب خدعة) و هي جائزة لصون النفس من الضر لأن دفع الضرر عن النفس واجب قدر الإمكان حتى في ساحة القتال. قال تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ و قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾.

أحكام التقية

١. تكون بالجري على اللسان مع الاطمئنان في القلب بالإيمان.
٢. لو أنه أفصح بالإيمان والخوف حيث تجوز له التقية كان ذلك أفضل^١ و ذلك بناء على قاعدة ﴿وان تصوموا خير لكم﴾.
٣. تكون التقية إذا كان الرجل في قوم كفّار و يخاف منهم على نفسه و ماله فيداريهم بلسانه و نحن نعرف أنّ الدعوة السرية للإسلام استمرت ثلاث سنين قبل أن يصدع الرسول ﷺ بالدعوة.

١. إذا ترتّب على ترك التقية مصلحة أعظم من المفسدة التي جرّها تركها.

و من ذلك الذي يعيش مثلاً في «إسرائيل» وسيط اليهود أو في روسيا وسط الشيوعيين أو في أيّ دولة أوروبية تعادي الإسلام.

٤. إنّما تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالاة والدين فأما ما يرجع ضرره على الغير كالقتل والزنا و غصب الأموال و شهادة الزور و قذف المحصنات و اطلاق الكفار على عورات المسلمين فذلك غير جائز البتة لأنه « لا ضرر و لا ضرار».

٥. و كما أنّ التقية جائزة لصون النفس فكذلك هي جائزة لصون المال. قال ﷺ: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه» و لقوله: «من قتل دون ماله فهو شهيد» و لأنّ الحاجة إلى المال شديدة.

حيث إنّّه من المعروف أنّ الماء إذا بيع بالغبن سقط فرض الوضوء و جاز الاقتصار على التيمم دفعاً لذلك القدر من نقصان المال فكيف لا يجوز ههنا.

٦. أنّ التقية يؤخذ بها في أيّ وقت إلى يوم القيامة فهي رخصة تطبق عند وجود السبب و الضرورة و لا تقتصر على حال و وقت معيّن.

٧. أنّ التقية واجبة كضرب من اللطف والاستصلاح فمن خاف الكفار فله أن يتيقهم بظاهره لا بباطنه فقد روى البخاري عن أبي الدرداء أنّه قال: إنّنا لنكسر في وجوه قوم و قلوبنا تلعنهم. و قال ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنّما التقية باللسان. و كذا قال أبو العالية و أبو الشقاء والضحّاك والربيع بن أنس و يؤيد ما قالوه قول الله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلّا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان﴾.

و كلّنا يعرف قصة آل ياسر و تعذيب قريش لهم فقد نطق ياسر بكلمة الكفر بلسانه من شدّة العذاب و لكن بقي قلبه مطمئناً بالإيمان.

روى الحسن أنّ مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ

فقال لاحدهما أتشهد أنّ محمداً رسول الله ؟ قال: نعم، قال: أفتشهد أنّي رسول الله ؟ قال: نعم فقال للآخر: أفتشهد أنّي رسول الله ؟ فقال: أنّي أحرم قالها ثلاثاً كلّ ذلك يجيبه مثل الأول فضرب عنقه فبلغ ذلك رسول الله فقال: أمّا ذلك المقتول فمضى على صدقه و يقينه و أخذ بفضلله فهنيئاً له . وأمّا الآخر فقبل رخصة الله فلا يتبعه عليه فعلى هذا تكون التقية رخصة والافضاح بالحق عزيمة .

وإذا أنّ البعض قد أساء فهم مدلول التقية فإنّ الخطأ لم يكمن في القاعدة أو الحكم إنّما الخطأ يكمن في العمل والتطبيق .

و أخيراً نقول أنّ الله يحبّ أن تؤتى رخصة كما يحبّ أن تؤتى عزائمه .

و آخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«حضرة الأستاذ حسن القل»

رئيس تحرير صحيفة اللواء الأردنية، الموقر

أتقدم لكم بالتحية الخالصة متمنياً دوام التوفيق.

أما بعد: فقد قرأنا في العدد ١٢١١ و المؤرخ في ٢٤/٧/٩٦ مقالاً قيماً حول التقيّة بعنوان: التقيّة رخصة شرعية بقلم الأستاذ الفاضل أسامة عبد الكريم الكساسبة من قسم الدراسات الإسلامية بجامعة مؤتة.

ونحن إذ نقدّر منكم و من الأستاذ الكاتب لذلك المقال، هذه الخطوة الهادفة إلى التقريب بين المذاهب نسأل الله سبحانه أن ينصر المسلمين و يعيد إليهم عزّتهم و كرامتهم على أيدي المخلصين من أبناء امتنا الإسلامية.

إنّ المقال المذكور تضمّن - و لله الحمد - أدلّة مشرقة أثبتت أنّ للتقيّة أصولاً و جذوراً في القرآن الكريم و السنّة المطهّرة و التاريخ الإسلامي، فهو بحق مقال علمي كشف القناع عن وجه التقيّة و بيّن الفرق بينها و بين النفاق بوجه واضح.

بيد أنّه جاء في آخر المقالة عبارة مجملّة هي: «و إذا كان البعض قد أساء فهم مدلول التقيّة فإنّ الخطأ لم يكمن في القاعدة أو الحكم إنّما الخطأ يكمن في الخطأ في العمل و التطبيق».

فإذا كان مقصود الكاتب من هذه العبارة - كما فهمنا أو احتملنا - هو

اختصاص أدلة مشروعية التقيّة باتقاء المسلم من الكافر، فلا يشمل اتّقاء المسلم من المسلم فهو غير صحيح، لأنّ مورد آيات التقيّة وإن كان اتّقاء المسلم من الكافر ولكن المورد ليس بمخصّص لأنّ الغرض من تشريع التقيّة عند الابتلاء بالكفّار ليس إلّا صيانة النفس و المال من الشرّ والضرر، فإذا ابتلي المسلم بمسلم ظالم صادر حرّيته، ومنعه من إظهار عقيدته من دون خوف بحيث لو أظهر عقيدته نكل به واستباح دمه و ماله، حكم العقل والنقل هنا بصيانة النفس و المال بواسطة التقيّة، و عدم إظهار المعتقد، و مماشاة من يهدّد حياته أو ماله، وحينئذٍ لا يكون اللوم متوجّهاً إلى المسلم المقهور بل إلى الآخر الذي صادَرَ حرّيته، و قهره و منعه من اظهار معتقده.

و قد صرح بهذا (أي مشروعيّة التقيّة حتّى عند المسلم) طائفة من اعلام المسلمين، نشير إلى عبارات بعضهم في هذا المجال:

١. يقول الإمام الرازي في تفسير قوله سبحانه: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا﴾ ظاهر الآية يدل على أنّ التقيّة إنّما تحلّ مع الكفّار الغالبين إلّا أنّ مذهب الشافعي أنّ الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين و الكافرين، حلّت التقيّة محاماةً عن النفس، و قال: التقيّة جائزة لصون النفس، و هل هي جائزة لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله ﷺ: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه» و قوله ﷺ: «من قُتل دون ماله فهو شهيد». (مفاتيح الغيب: ٨/ ١٣).

٢. نقل جمال الدين القاسمي عن الإمام المرتضى اليماني في كتابه «إيثار الحقّ على الحق» ما نصّه: «و زاد الحقّ غموضاً و خفاءً أمران: أحدهما: خوف العارفين مع قتلهم من علماء السوء و سلاطين الجور و شياطين الخلق مع جواز التقيّة عند ذلك بنصّ القرآن و إجماع أهل الإسلام، و مازال الخوف مانعاً من إظهار الحقّ، ولا برج المحقّ عدوّاً لأكثر الخلق و قد صحّ عن أبي هريرة أنّه قال في

ذلك العصر الأول: حفظت من رسول الله ﷺ وعائين أما أحدهما فبثته في الناس وأما الآخر فلو بثته لقطع هذا البلعوم. (محاسن التأويل: ٤/ ٨٢).

٣. قال المراغي في تفسير قوله سبحانه: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلّا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾: ويدخل في التقية مداراة الكفر والظلمة والفسقة، وإلانة الكلام لهم، والتبسم في وجوههم وبذل المال لهم لكفّ أذاهم وصيانة العرض منهم، ولا يُعدّ هذا من الموالاتة المنهي عنها، بل هو مشروع، فقد أخرج الطبراني قوله ﷺ: «ما وقى المؤمن به عرضه فهو صدقة». (تفسير المراغي: ٣/ ١٣٦).

وهكذا يذهب اعلام من المسلمين إلى مشروعية إتقاء المسلم من المسلم إذا خاف على نفسه وحتى ماله من الهلاك والضياع، ولا إثم على المسلم إذا اتقى أخاه المسلم وعامله بالتقية وأخفى عنه معتقده إذا لم يسمح له أخوه المسلم بأن يظهر عقيدته بدافع العصبية والطائفية.

فالذي ينبغي أن يسعى إليه المسلمون وبخاصة المهتمون بشؤونهم هو فتح آفاق الحوار البناء، والسماح للجميع بإظهار عقائدهم، بعيداً عن الإرهاب والإرهاب، والتكفير والتفسيق لتعود الأمة الإسلامية قوة متراصة الصفوف، متكاتفه حتى مع الاختلاف في الاجتهادات، والآراء.

و على كلّ حال نعود لنثمن جهدكم وجهد الكاتب الفاضل هذا. وفقكم الله وأخذ بأيديكم لما فيه صالح المسلمين.

جعفر السبحاني

قم - الجامعة الإسلامية

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة المؤلف
	الرسالة الأولى
	الشيعة الإمامية الاثنا عشرية
٨	الشيعة لغة واصطلاحاً وتاريخاً
٩	الشيعة في لسان النبي ﷺ
١٢	رواد التشيع من الصحابة
١٥	الفصل الأول: الشيعة والتوحيد
١٦	مراتب التوحيد وأقسامه
١٨	الصفات الخيرية وتفسيرها
١٩	تقسيم صفاته إلى ذاتي وفعلي
١٩	في تكلمه سبحانه وتفسيره
٢٢	تقسيم صفاته إلى ثبوتية وسلبية
٢٤	نتيجة البحث

الفصل الثاني: الشيعة و العدل

٢٦

١. لا جبر ولا تفويض

٢٧

٢. التكليف بما لا يطاق غير جائز

٢٨

٣. أفعاله سبحانه معللة بالاعراض

٢٨

٤. القضاء و القدر لا يسلبان الاختيار

٢٩

٥. تعذيب البريئ مخالف لعدله

٣١

٦. معرفة الله واجبة عقلاً

٣١

٧. لزوم تكليف العباد

٣١

٨. لزوم بعث الأنبياء

٣٢

٩. قاعدة اللطف

٣٢

١٠. لزوم النظر في برهان مدعي النبوة

٣٢

البداء عند الشيعة وفي لسان النبي ﷺ

٣٣

التقية في القرآن والسنة

٣٥

الفصل الثالث: الشيعة والنبوة العامة والخاصة

٣٧

١. التحدي بالاعجاز

٣٧

٢. تنصيب النبي السابق على نبوة النبي اللاحق

٣٨

٣. جمع القرائن والشواهد

٣٩

الوحي وحقيقته

٣٩

- ٤٠ سمات الأنبياء
٤١ النبوة الخاصة
٤٢ سمات دعوة النبي الأعظم ﷺ
٤٢ أولاً: عالمية رسالته
٤٢ ثانياً: خاتمية رسالته
٤٣ صيانة القرآن من التحريف

- ٤٥ الفصل الرابع: الشيعة والمعاد
٤٦ الآيات حول المعاد تربو على الألفين
٤٦ الشفاعة وطلبها
٤٧ التناسخ باطل والقائل به كافر
٤٧ حب النبي والأئمة له أصل في الكتاب والسنة
٤٧ تكريم الصحابة وتبجيلهم
٤٨ الصحبة لا تلازم العدالة

- ٥٠ الفصل الخامس: الشيعة والإمامة والخلافة
٥١ الإمامة استمرار لوظائف النبوة مع انقطاع الوحي
٥٢ المصلحة تكمن في تعيين الوصي
٥٣ السنة النبوية والتنصيب على إمامة علي عليه السلام

الصفحة	الموضوع
٥٤	أ. حديث بدء الدعوة
٥٥	ب. حديث المنزلة
٥٥	ج. حديث الغدير
٥٨	انشودة حسان يوم الغدير
٥٩	تواتر حديث الغدير عبر القرون
٦٠	دلالة الحديث على الولاية الكبرى
٦٣	الخلفاء الاثنا عشر في الصحاح
٦٤	الاعتقاد بالمهدي عقيدة إسلامية
٦٦	الكتب المؤلفة حول المهدي من أهل السنة
٦٨	الفصل السادس: الشيعة والمنهج الفقهي
٦٨	مصادر الفقه عند الشيعة لا تتجاوز الأربعة
٧٠	فتح باب الاجتهاد
٧٠	فقهاء الشيعة عبر القرون
٧١	أركان الفقه وأُسُسُه
٧٤	الملامح العامة للفقه الشيعي
٧٧	الفصل السابع: الشيعة والتراث الفكري
٧٧	١. الشيعة وعلم النحو
٧٨	٢. الشيعة وعلم الصرف
٧٨	٣. الشيعة وعلم اللغة

الصفحة	الموضوع
٧٨	٤. الشيعة وعلم العروض
٧٩	٥. الشيعة والشعر
٧٩	٦. الشيعة وعلم التفسير
٨١	٧. الشيعة والتفسير الموضوعي
٨١	٨. الشيعة والتفسير الترتيبي
٨٢	٩. الشيعة وعلم الحديث
٨٤	١٠. الشيعة وعلم أصول الفقه
٨٥	١١. الشيعة وعلم المغازي والسير
٨٦	١٢. الشيعة وعلم الرجال
٨٧	١٣. الشيعة والعلوم العقلية
٩٠	جامعات الشيعة
٩٠	١. المدينة المنورة
٩١	٢. الكوفة وجامعها الكبير
٩٢	٣. مدرسة قم والري
٩٢	٤. مدرسة بغداد
٩٣	٥. جامعة النجف الأشرف
٩٣	٦. مدرسة الحلة
٩٤	٧. الجامع الأزهر
٩٤	دول الشيعة
٩٦	خاتمة المطاف : قاربوا الخطى أيها المسلمون

الرسالة الثانية

الشيعة الإمامية في دائرة المعارف المصرية (السفير)

- ١٠٠ نصّ المقال في دائرة المعارف المصرية
- ١١٨ تحليل المقال ونقده
- ١١٨ الرفضة مصطلح سياسي
- ١١٩ الإمام المهدي حيّ يرزق
- ١٢٠ الشيعة ربع المسلمين أو ثلثهم
- ١٢١ صمود الإمام الصادق و الكاظم عليهما السلام في وجه الطواغيت
- ١٢٢ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية كالإمامة
- ١٢٣ الغلاة ليسوا من الشيعة
- ١٢٣ نواب الإمام المهدي الأربعة
- ١٢٤ قيام دول شيعيّة قبل الصفوية
- ١٢٥ الحروب بين الدولتين الصفوية والعثمانية، والبادئ هو المذنب
- ١٢٦ منع السلطان الصفوي الناس عن الحج ، فرية
- ١٢٧ أهل السنة في إيران محترمون كالشيعة
- ١٢٨ مصادر عقائد الشيعة الإمامية
- ١٢٩ دلالة حديث الغدير على الولاية الكبرى
- ١٣٢ القرائن الموجودة في حديث الغدير الدالة على الولاية

الصفحة	الموضوع
١٣٤	حديث الثقلين حديث متواتر
١٣٦	حديث «الخلفاء الاثنا عشر» في الصحاح
١٣٧	الإمامة أصل من أصول المذهب لا من أصول الدين
١٣٨	حديث الثقلين يدل على عصمة أهل البيت عليهم السلام
١٣٩	آية التطهير من أدلة العصمة
١٤٠	التحدث عن الغيب بتعليم من الله لا ينافي حصره فيه سبحانه
١٤١	وجود الاجتهاد بعد رحيل الرسول ﷺ عند الشيعة
١٤٢	النبي ﷺ هو الباذر لبذر الشيعة
١٤٥	الإمام علي عليه السلام لم يبايع أحداً وإنما تعاون مع الخلفاء
١٤٥	قصيدة شاعر النيل وفيها الخط من منزلة الصديقة الطاهرة عليها السلام
١٤٦	رواد التشيع من الصحابة
١٤٧	اجتهاد الصحابة في مقابل النص
١٤٨	الإمام علي عليه السلام نصّ على خليفته بعد رحيله
١٥٠	الإمام الحسن عليه السلام تنازل عن الخلافة بعد اتمام الحجة
١٥٠	قضية الإمام المهدي قضية إسلامية
١٥١	القرآن الكريم والرجعة
١٥٣	عمر بن الخطاب أول من قال بالرجعة من الصحابة
١٥٤	البابية والبهاية ليستا من الشيعة
١٥٤	الشيعة لا تسب الصحابة

الصفحة	الموضوع
١٥٦	الصحة لا تلازم العدالة
١٥٨	ارتداد الصحابة في الصحاح
١٥٩	مصحف فاطمة عليها السلام والمراد منه
١٦٠	التقية والنفاق والفرق بينهما
١٦١	من قال بالتقية من علماء السنة
١٦٣	البداء وما يراد منه
١٦٤	المتعة: تحديدها ودلائلها من الكتاب و السنة
١٦٧	نهضة الحسين عليه السلام أسوة للمصلحين
١٦٨	ارتداد يزيد وكفره
١٦٩	الخمس ودلائله من القرآن والسنة
١٧١	السجدة على التربة عمل بالسنة
١٧٤	ولاية الفقيه وما يراد منها
الرسالة الثالثة	
الدفاع عن الحقيقة	
١٧٨	نص السؤال الذي طُرح على شيخ سعودي و جوابه
١٧٩	ما هي الدوافع وراء طرح هذا السؤال؟
١٨١	وحدة المسلمين أمنية النبي ﷺ
١٨٣	ما هو ميزان التوحيد والشرك

الصفحة	الموضوع
١٨٤	دعاء الصالحين ليس عبادة لهم
١٨٤	ما هو ملاك العبادة ومعياريها
١٨٨	العلم بالغيب على صنفين
١٩٠	الشيعة وصيانة القرآن عن التحريف
١٩٢	نصوص علماء الشيعة على عدم التحريف
١٩٥	الصحابة من منظور القرآن والحديث
١٩٧	الصحابة في الذكر الحكيم
٢٠٦	الصحابة في السنة النبوية
٢٠٨	المطلوب عقد مؤتمر للحوار العلمي الديني
الرسالة الرابعة	
المسلمون وتكفير أهل القبلة	
٢٠٩	نص رسالة من اليابان تستفسر عن أمرين
٢١٢	الأمر الأول: الاحتفال بمولد النبي ﷺ
٢١٧	السنة النبوية وكرامة يوم مولده
٢٢٠	إجماع المسلمين على الاحتفال بيوم ميلاده ﷺ
٢٢١	الأمر الثاني: تكفير أهل القبلة
٢٢٢	كلام أئمة أهل السنة في تكفير أهل القبلة

الصفحة	الموضوع
٢٢٤	السنة النبوية وتكفير المسلم
٢٢٦	ما هو المقوم للإسلام؟
٢٢٨	نصوص متضاربة عن النبي ﷺ في تحديد معالم الإيمان
	الرسالة الخامسة
	موقف الشيعة الإمامية من حديث الإفك
٢٣١	حديث الإفك في الذكر الحكيم
٢٣٢	موقف الشيعة من حديث الإفك
٢٣٢	كلام أمين الإسلام الطبرسي في هذا المقام
	الرسالة السادسة
	مبدأ حيّ وتعاليم قيمة
٢٣٦	ما هو الغرض من وضع هذه الرسالة
٢٣٧	١ . الشيعة في الماضي والحاضر
٢٣٩	الجامعات العلمية للشيعة
٢٤١	نشوء مذهب الشيعة
٢٤٢	مكانة القرآن الكريم عند الشيعة
٢٤٢	الشيعة وسائر الفرق الإسلامية
٢٤٤	الأئمة الاثنا عشر

الصفحة	الموضوع
٢٤٦	٢. عقائد الشيعة
٢٤٦	الأصل الأول: التوحيد
٢٤٧	الأصل الثاني: النبوة وبعثة الرسل
٢٤٨	الأصل الثالث: المعاد
٢٤٨	ميزات الشيعة وسماهم
٢٤٩	المصادر الدينية للشيعة
٢٥١	أصول العبادات عند الشيعة
٢٥٢	٣. نماذج من الوظائف الأخلاقية والاجتماعية لدى الشيعة
	الرسالة السابعة
	الشيعة وعلم الكلام عبر القرون السبعة
٢٥٥	كلام « آدم ممتز » مؤلف كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع
٢٥٦	بخس الكاتب لحقوق الشيعة في علم الكلام
٢٥٦	ملاحظات حول كلام ذلك المستشرق في ضمن فصول ستة
٢٦٠	الفصل الأول: المنهج الصحيح في تفسير المعارف القرآنية
٢٦٤	المعارف القرآنية بين التعطيل والتشبيه
٢٦٧	القول الحاسم في المقام

الصفحة	الموضوع
٢٧١	شبهات عقيمة حول الخوض في المعارف القرآنية
٢٧٤	زلة لا تستقال
٢٧٦	الفصل الثاني: علم الكلام وعوامل نشأته
٢٧٦	القرآن هو المنطلق الأول لنشوء علم الكلام
٢٧٧	السنة هي المنطلق الثاني
٢٧٨	خطب الإمام علي عليه السلام هي المنطلق الثالث
٢٧٩	العرة الطاهرة ودورهم في نشوء هذا العلم
٢٧٩	مناظرة الإمام الصادق عليه السلام مع أحد القدرية
٢٨٠	احتجاج الإمام الرضا عليه السلام مع أبي قرة
٢٨٢	الاحتكاك الثقافي و اللقاء الحضاري
٢٨٦	الفصل الثالث: بدايات المسائل الكلامية في القرنين الأولين
٢٨٨	١. مسألة التحكيم
٢٨٨	٢. حكم مرتكب الكبيرة
٢٨٩	٣. تحديد مفهوم الإيمان
٢٩٠	٤. الارزاء والمرجئة
٢٩٠	٥. مسألة القضاء و القدر
٢٩١	استغلال الأمويين للقدر
٢٩٣	٦. مسألة التشبيه و التنزيه

الصفحة	الموضوع
٢٩٤	٧. النسخ في الشريعة
٢٩٤	٨. عصمة الأنبياء
٢٩٥	٩. حدوث القرآن وقدمه
٢٩٧	الفصل الرابع: متكلمو الشيعة عبر القرون
٢٩٨	كلام الإمام علي عليه السلام حول القضاء والقدر
٢٩٩	رسالة الحسن البصري إلى السبط الأكبر
٣٠٠	مكافحة السبطين للتشبيه
٣٠١	سؤال نافع بن الأزرق عن الإله الذي يُعبد
٣٠٢	دور الإمام السجاد عليه السلام في الدفاع عن العقيدة
٣٠٣	اعلام الشيعة و متكلموهم في القرن الأول
٣١١	متكلمو الشيعة في القرن الثاني
٣١٦	متكلمو الشيعة في القرن الثالث
٣٢٢	متكلمو الشيعة في القرن الرابع
٣٢٩	متكلمو الشيعة في القرن الخامس
٣٣٣	متكلمو الشيعة في القرن السادس
٣٣٦	متكلمو الشيعة في القرن السابع
٣٣٧	العلامة الحلي النجم الساطع في القرن السابع
٣٤٠	الثروة العلمية الكلامية التي خلفها العلامة
٣٥٠	نهاية المرام في علم الكلام البيت القصيد من كتبه الكلامية

٣٥٨

الفصل الخامس: المنازلة المستمرة بين الشيعة والمعتزلة

٣٥٨

الأصول المشتركة بين الفريقين

٣٦١

الفريقان أخذا الكلام عن مصدر واحد

٣٦٢

الجدل المستمر بين الشيعة والمعتزلة

٣٦٢

مناظرات الشيعة مع المعتزلة

٣٦٤

الردود و النقوض المتبادلة بين الشيعة والمعتزلة

٣٦٧

الفصل السادس: الفوارق الفكرية بين الشيعة والمعتزلة

٣٦٧

عقائد المعتزلة

٣٦٧

١. نيابة الذات عن الصفات

٣٦٩

٢. احباط الأعمال الصالحة بالطالحة

٣٧٠

٣. خلود مرتكب الكبيرة في النار

٣٧١

٤. لزوم العمل بالوعيد

٣٧٢

٥. الشفاعة: ترفيع الدرجة

٣٧٣

٦. مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر

٣٧٤

٧. النسخ جائز و البداء ممتنع

٣٧٦

٨. الواسطة بين الوجود والعدم

٣٧٦

٩. التفويض في الأفعال

٣٧٨

١٠. قبول التوبة واجب على الله أو تفضل منه

الصفحة	الموضوع
٣٧٩	١١. مسألة عصمة الأنبياء قبل البعثة وبعدها
٣٨٠	١٢. وجوب الأمر بالمعروف عقلاً
٣٨٠	١٣. دين آباء رسول الله ﷺ
٣٨٠	١٤. تفضيل الأنبياء على الملائكة
٣٨١	١٥. الرجعة وامتناعها
٣٨١	١٦. الجنة والنار غير مخلوقتين
٣٨٢	١٧. تأويل النصوص اعتماداً على القواعد العقلية
٣٨٢	١٨. الإمامة بالشورى
٣٨٢	١٩. لا يشترط في الإمام كونه معصوماً
٣٨٣	٢٠. حكم محارب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام
	الرسالة الثامنة
	دراسة في إيمان أبي طالب
	على ضوء الكتاب والسنة
٣٨٦	رسالة إلى فضيلة الأستاذ يوسف القرضاوي
٣٨٩	كلامه في إيمان أبي طالب والتشكيك فيه
٣٨٩	الأدلة الدامغة على إيمان أبي طالب

الرسالة التاسعة

جواب رسالة حول الشيعة

أصولها وعقائدها (١)

- ٣٩٥ رسالة أخت من الأردن تستفسر فيها عن الشيعة
- ٣٩٥ الشيعة هم المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين
- ٣٩٦ الأحاديث الدالة على إمامة علي عليه السلام
- ٣٩٨ حديث الغدير من الأحاديث المتواترة
- ٤٠٠ فرية تكفير الشيعة للسنّة
- ٤٠١ سب الصحابة فرية واضحة
- ٤٠٢ وجود رواية ليست دليلاً على العقيدة

الرسالة العاشرة

جواب رسالة حول الشيعة

وأصولها وعقائدها (٢)

- ٤٠٥ الشيعة تقيم صلاة الجمعة
- ٤٠٦ مسألة الإمام المهدي مسألة إسلامية
- ٤٠٧ الزواج بين المذاهب الإسلامية

الصفحة	الموضوع
٤٠٨	مسح الأرجل في الكتاب والسنة
٤١١	ارجاع السائلة إلى كتاب العقيدة الإسلامية
٤١٢	قول الخليفة عند طلب النبي ﷺ الدواة والقلم
	مقالات في التقريب
	المقالة الأولى
	التقريب ضرورة دينية
	وخطوة مباركة
٤٢١	ما هو المراد من التقريب
٤٢٣	التعرف الصحيح على المذاهب
٤٢٤	الرجوع إلى أحاديث أئمة أهل البيت ﷺ
٤٢٧	كلام الإمام الطاهر السجاد في صحابة النبي ﷺ
	المقالة الثانية
	الوحدة الإسلامية في الكتاب والسنة
٤٣٢	خطط اليهود لتمييق وحدة المسلمين

الصفحة	الموضوع
٤٣٣	كلام الإمام أمير المؤمنين في وحدة المسلمين
٤٣٤	كلام أعلام السنة في الحظر عن تكفير المسلمين
٤٣٧	السبل العملية للتقريب
٤٣٨	المسائل التي اثير حولها الخلاف
المقالة الثالثة عناصر الوحدة الإسلامية وموانعها	
٤٤٩	العناصر العقائدية المشتركة بين المسلمين
٤٤٩	١. التوحيد و مراتبه
٤٥٠	٢. النبوة العامة والخاصة
٤٥١	٣. الإيمان بالمعاد
٤٥٢	وحدة الشريعة
٤٥٣	وحدة القيادة
٤٥٣	وحدة الهدف
٤٥٥	موانع الوحدة
٤٥٦	١. المذاهب الكلامية والفقهية
٤٥٨	٢. الاختلافات القومية
٤٥٨	٣. الجهل بمعتقدات الطوائف
٤٦٠	٤. الجهل بالمصطلحات

الصفحة

الموضوع

المقالة الرابعة

الحج عمل عبادي وملتقى سياسي

- ٤٦٢ الأبعاد المختلفة للحج في الذكر الحكيم
- ٤٦٥ الحج ملتقى ثقافي للشعوب المختلفة
- ٤٦٧ خطبة الإمام الطاهر الحسين بن علي عليه السلام في أرض منى
- ٤٦٧ الحج والاصلاحات الجذرية عبر قرون

المقالة الخامسة

بين الحقائق والأوهام

- ٤٦٩ ناشر راية العدل في برهة من الزمان
- ٤٧٠ الإمام المهدي وسماته في السنة
- ٤٧١ نوابه الأربعة في الغيبة الصغرى

المقالة السادسة

دراسة علم الكلام حاجة ملحة

٤٧٣

التفكر هو العامل المميز للإنسان

الصفحة	الموضوع
٤٧٥	استخدام القرآن الحسّ والعقل
٤٧٧	القرآن هو المنطلق لتنمية الفكر الإنساني
٤٧٩	تدوين علم الكلام حاجة ملحة
٤٨١	دعاة التفكير في المعارف
٤٨٢	المعطلة خصوم العقل
٤٨٥	أعظم متكلمي الشيعة في القرن الخامس
٤٨٧	أكابر متكلمي الشيعة في القرن السادس
	المقالة السابعة
	التشريع الإسلامي معالمه و ملامحه
٤٩٠	١. الفطرة هي المقياس
٤٩١	٢. التشريع حسب المصالح
٤٩١	٣. النظر إلى المادة والروح على حدّ سواء
٤٩٢	٤. النظر إلى المعاني لا الظواهر
٤٩٣	٥. المرونة في التشريع
٤٩٤	٦. العدالة في التقنين
٤٩٥	ملامح التشريع في مقام الإثبات
٤٩٥	أ. شمولية التشريع
٤٩٧	ب. سعة آفاق دلالة القرآن والحديث
٥٠٢	ج. التدرج في التشريع

المقالة الثامنة

مكانة المرأة في القرآن الكريم

- ٥٠٩ ١. النظر إلى طبيعتها وتكوينها ونفسيتها
- ٥١٣ ٢. النظر إلى حقوقها في القرآن الكريم
- ٥١٥ ٣. الواجبات التي تقع على عاتقها
- ٥١٦ ٤. المساواة أو العدالة
- ٥١٨ شبهات وحلول
- ٥١٨ ١. الرجال قوامون على النساء
- ٥١٩ ٢. تعدد الزوجات
- ٥٢١ ٣. الضرب عند النشوز

المقالة التاسعة

زواج المتعة

- ٥٢٣ كلمة لرئيس تحرير صحيفة اللواء
- ٥٢٥ ما هو زواج المتعة
- ٥٢٦ ما هو الأصل في مشروعيتها
- ٥٢٦ القرائن الدالة على أنّ المراد من الآية زواج المتعة
- ٥٣٠ شبهات حول المتعة
- ٥٣٤ المنكرون للتحريم من الصحابة والتابعين

المقالة العاشرة

الاختلاف في الفروع لا في الأصول

- ٥٣٩ نقل كلام للشيخ المنيع من علماء الحجاز
٥٤١ نظرة الشيعة إلى الصحابة نابعة عن الكتاب والسنة
٥٤٣ ليس الأخذ من الصحيحين ملاكاً للإسلام

المقالة الحادية عشرة

آية التطهير وعصمة أهل البيت ﷺ

- ٥٤٤ رسالة المؤلف إلى الأستاذ حسن التلّ مدير صحيفة اللواء الاردنية
٥٤٥ نزول آية التطهير في شأن الخمسة الأطهار
٥٤٦ القرائن في الآية تؤكد نزول الآية في شأنهم
٥٤٧ ١. ما هو المراد من الارادة في الآية الكريمة؟
٥٤٩ ٢. ما هو المراد من الرجس في الآية؟
٥٥٠ ٣. ما هو المراد من البيت؟
٥٥٤ ٤. الضمائر المذكورة في الآية دليل على نزولها في شأنهم
٥٥٥ ٥. السنة النبوية تميّط اللثام عن وجه الحقيقة
٥٥٩ مشاكل في دلالة الآية
٥٥٩ ١. مشكلة السياق و حلّها

٥٦١

٢. نقد كون تذكير الضمائر لبيان علو المقام

٥٦٢

٣. حديث الرسول جاء بصيغة الطلب

٥٦٣

٤. الإرادة التكوينية تسلب الاختيار

٥٦٤

آية الولاية وزعامة الإمام علي عليه السلام

٥٦٩

عرض وتحليل

المقالة الثانية عشرة

الاخوة الإسلامية و دورها في بناء الحضارة

٥٧٧

الإسلام عقيدة وشرعية

٥٧٨

مساواة كافة أبناء البشر أمام الله تعالى

٥٨١

الدعوة القومية ومضاعفاتها

٥٨٢

الاستعمار وعناصر القومية

٥٨٣

موقف الإسلام حيال القومية

المقالة الثالثة عشرة

الطلاق المعلق لا كفارة فيه ولا فراق

رسالة المؤلف إلى الأستاذ قيس تيسير ظبيان المدير العام لمجلة

٥٨٥

الشرعية الأردنية

الصفحة	الموضوع
٥٨٦	الطلاق المعلق لا كفارة فيه
٥٨٩	الطلاق المعلق باطل
٥٩٠	صحّة الطلاق موقوفة على الاشهاد بعدلين بنصّ الآية
	المقالة الرابعة عشرة
	من كربلا إلى قانا
٥٩٤	تأثير رحلة المؤلف إلى الأردن
٥٩٥	مقال بقلم الأستاذ حسين الرواشدة حول نهضة الحسين عليه السلام
٥٩٧	عاشوراء كلها دروس وعبر
٦٠١	نقرأ عاشوراء مرة تلو مرة
	المقالة الخامسة عشرة
	التقية رخصة شرعية
٦٠٣	رحلة المؤلف إلى الأردن
٦٠٤	مقالة الكاتب الأردني أسامة عبد الكريم الكساسبة
٦٠٥	الأدلة على جواز الأخذ بمبدأ التقية
٦٠٦	أحكام التقية
٦٠٩	تعقيب على المقالة
٦١٣	فهرست محتويات الكتاب